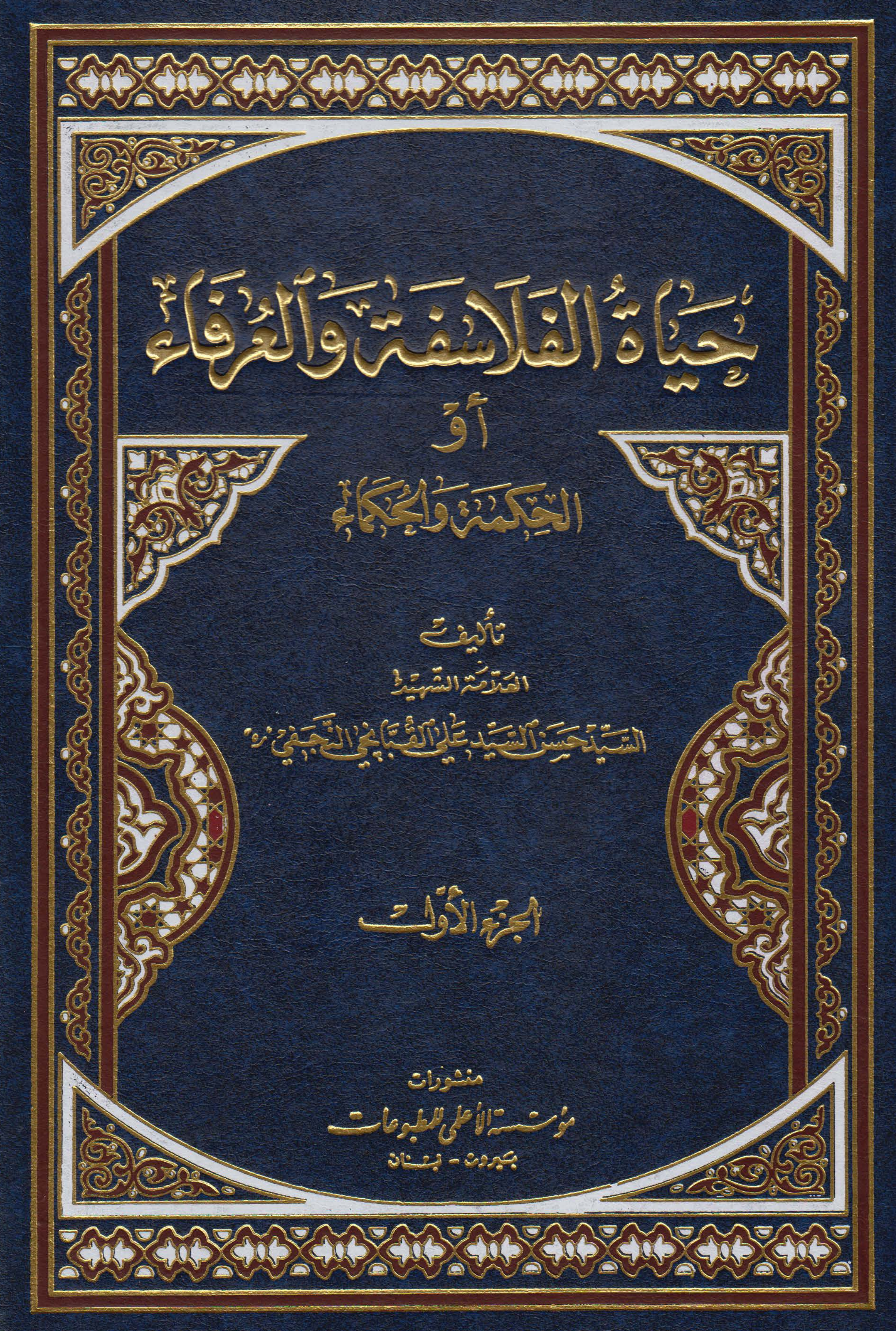

حياة الفلاسفة والعرفاء
أو
الحكمة والحكماء
تأليف
العلامة الشهيد
السيد حسن السيد علي القبانجي النجفي
الجزء الأول
منشورات
مؤسسة الأعلى للمطبوعات
بيروت - لبنان


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



حياة الفلاسفة والعرفاء

أو

الحكمة والحكماء

تأليف

العلامة الشهيد

السيد حسن السيد علي القبانچي النجفي "ره"

الجزء الأول

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م





Published by Aalami Est.
Beirut Airport Road
Tel:01/450426 Fax:01/450427

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور
هاتف:٠١/٤٥٠٤٢٦ - فاكس:٠١/٤٥٠٤٢٧

Email:alaalami@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

ليس غريباً أن يتصدّىٰ باحث محقّق مثل العلّامة الشهيد السيّد حسن القبانچي رحمه الله للكتابة عن الحكمة والحكماء علىٰ مستوىٰ العرض التاريخي وعلىٰ مستوىٰ العرض العلمي، فمعاصرته لعدد من الحكماء الفلاسفة في النجف الأشرف حاضنة العلوم الإسلاميّه، وعشقه المفرط للإمام علي عليه السلام سيّد الحكماء، وبحوثه عن متنوّعات من حِكَم الإمام علي عليه السلام كما في (علي والأُسس التربوية)، وطبيعة الصراع العلمي المحترم في النجف الأشرف بين مدرستين الأُولىٰ تؤمن بالفلسفة والثانية ترفضها، كانت هذه مجموعة عوامل دفعته للكتابة عن الحكمة والحكماء.

رغم أنَّه لم يكن ضالعاً ولا متخصِّصاً في هذا المجال _ أعني الحكمة والفلسفة _، إلَّا أنَّه كان يحاول متابعتهم والجلوس علىٰ مائدتهم، وربَّما سمع ذلك لبعض محبّيه وسامعيه أن يصفه بـ (الفيلسوف)، والحقيقة أنَّه لم يكن كذلك، وإنَّما كان يحفظ عن الفلاسفة ويقتفي آثارهم.

لا أعرف الفترة التي استغرقتها كتابة هذا الكتاب من قِبَل السيّد المؤلِّف رحمه الله، فإنَّه لم يشر إلىٰ ذلك في المقدّمة ولا في طيّات بحوثه، لكنّي أتصوَّر أنَّه لم يخصّص له فترة زمنية محدَّدة، رغم أنَّه بدأ به في وقت مبكّر قبل شروعه بكتاب (مسند الإمام علي عليه السلام) الذي استغرق من عمره عشرين عاماً، وربَّما قبل كتاب (شرح رسالة الحقوق)، و(الجواهر الروحية)، و(علي والأُسس التربوية)،

فلقد كنّا نسمع عنه حين انشغاله بهذه الكتب وهو يقول: لي كتاب عن (الحكمة والحكماء)، لكن هذا الكتاب لم يكتمل عنده، ولم يرَ النور، حتّىٰ أضاف إليه ترجمة عن الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ، وذلك بعد شهادته، إلَّا أنَّ هذه الترجمة هي الأُخرىٰ لم تجد طريقها للنشر حيث اضطرَّ المؤلِّف ﷺ إلىٰ إحراقها خشية مداهمة قوّات الأمن التابعة لسلطة البعث وعثورهم عليها، وسيكون الإعدام طبعاً هو نصيب من توجد عنده، لقد كانت تلك الترجمة بخطّ الشهيد المحقّق السيّد محمّد محمّد صادق الصدر ﷺ، الذي كتبه خصّيصاً للإلحاق بكتاب (الحكمة والحكماء)، إلَّا أنَّ ظروف الملاحقة الرهيبة في العراق فرضت علىٰ المؤلِّف أن يحرقها بعدما انتشر خبرها وذاع، كما يروي هذه القصَّة أخونا العزيز سماحة السيّد محمّد القبانچي (دام عزّه).

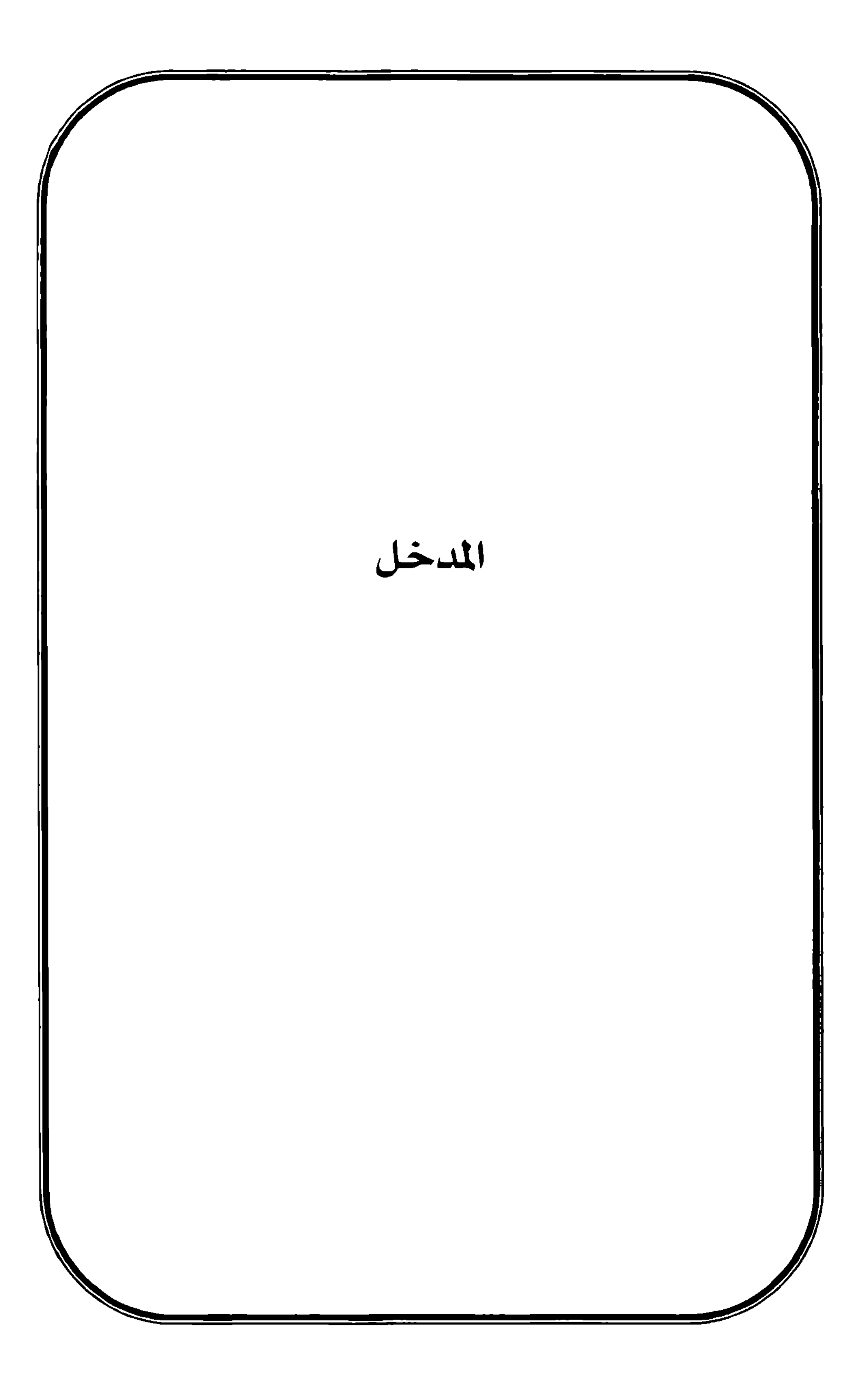
لا يفوتني هنا أن أتقدَّم بكلمة شكر وتقدير للجهود الكبيرة التي بذلها سماحة الأخ العزيز السيّد محمّد القبانچي في تحقيق هذا الكتاب ونشره، فذاك وفاء منه لحقّ والده الشهيد الذي كان يأمل أن يرىٰ في أولاده من يكمل المسيرة العلمية، وينشر علوم أهل البيت ﷺ، فكان أخونا السيّد محمّد هو ثمرة طيّبة من تلك الشجرة الطيّبة، جزاه الله خير الجزاء، وأسعده في دنياه وأُخراه.

وأخيراً أتقدَّم بالشكر إلىٰ الجامعة الإسلاميّة وعميدها الدكتور عمّار السلامي حفظه الله لتبنّيهم طباعة هذا السفر القيّم ونشره، اهتماماً منهم بالعلم والعلماء.

يوم المبعث النبوي الشريف

٢٧/ رجب/ ١٤٣٥هـ

السيّد صدر الدين القبانچي



المدخل

إنَّ شخصية الإنسان لا تكون متينة إلَّا إذا زانتها الحكمة والعلم والحزم، ووضع الأشياء مواضعها، وقدَّرها حقّ قدرها.

والرجل الحكيم هو السديد الرأي، البعيد النظر، الحسن التقدير، الذي يعرف الحقّ فيتمسَّك به، ويفعل ما يجب أن يفعل، ويترك ما ينبغي أن يترك، ويقول ما يجب أن يقال، يرىٰ الفرصة فينتهزها، ويشعر بالطريق المستقيم فيسلكه، يحسُّ بنتيجة الشيء حتَّىٰ قبل حدوثه، ويعامل غيره بما يحب أن يعامل به، ويحكم علىٰ غيره بما يودّ أن يحكم به عليه، يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، وإذا حكم علىٰ غيره كان حكمه بعيداً عن الأهواء والأغراض، تتمثَّل فيه النزاهة والعدالة، كلّ هذه الصفات نتيجة الحكمة وحسن التقدير.

والحكمة صفة أساسية في تكوين الشخصية السامية، أمَّا إذا انتفت الحكمة فإنَّ الإنسان يكون واهن الرأي، مضطرب البصيرة، سيّئ الحظّ، عاثر الجد، ضعيف الشخصية، ويعجز عن تقدير الأشياء، ويفعل ما يجب أن يترك، ويهمل أُموراً تجب العناية بها، ويهتمّ بأشياء لا قيمة لها، يحبّ ما ينبغي أن يكره، ويكره ما ينبغي أن يحبّ، فيصبح ضحية لوجداناته وأقواله وأفعاله، ويصير مكروهاً لدىٰ من يعرفونه.

ومن الحكمة أن تجتهد في إرضاء الناس، وإن كان إرضاؤهم جميعاً غاية لا تُدرَك، من غير أن نضحّي مبدءاً من مبادئنا أو مظهراً من مظاهر رجولتنا حتَّىٰ نمتلك قلوبهم، وهذا دليل علىٰ وجود الشخصية القويّة الجذّابة.

وكثيراً ما تفسد الحكمة وتشوَّه بالفخر أو التكبّر، أو الحقد أو الغيرة أو الغشّ، فينبغي أن يهذِّب الإنسان نفسه ويترك الفخر جانباً، ولا يتكبَّر أو يحقد علىٰ غيره، ولا يغشّ أحداً أو يضلّه، حتَّىٰ تكون علاقته بغيره حسنة، وتكون شخصيته محبوبة لدىٰ من يتَّصلون به أو يعرفونه.

تعريف الحكمة أو الفلسفة:

هي معرفة حقائق الأشياء علىٰ ما هي عليها في نفس الأمر، بحسب الطاقة البشرية.

وبتعبير آخر: هي كمال أوّلي لجسم آلي، وبتعبير آخر: إنَّ الفلسفة كما عرَّفها جماعة من كبار الفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا وصدر المتألّهين بما يعود خلاصته إلىٰ أنَّها البحث عن الموجود من حيث هو موجود بقدر الطاقة البشرية، وباطّلاع موضوعها تدخل فيها جميع العلوم من إلهية وطبيعية ومنطقية ورياضية وغيرها.

وهي قسمان: نظريّة، وعمليّة.

أمَّا النظريّة: هي الإحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها، والاطّلاع علىٰ الجزئيات غير المتناهية بإدراك كلّياتها، والترقّي إلىٰ معرفة المطلوب الحقيقي، وغاية الكلّ حتَّىٰ يصل صاحبها إلىٰ مقام التوحيد، ويتخلَّص عن وساوس الشيطان، ويطمئن قلبه بنور العرفان، وهذا الكمال هو الحكمة النظريّة.

أمَّا العمليّة: هي التخلّي عن الصفات الرديّة، والتحلّي بالأخلاق المرضية، ثمّ الترقّي منه إلىٰ تطهير السرّ وتخليته عمَّا سوىٰ الله سبحانه، وهذا هو الحكمة العمليّة التي يشتمل هذا الكتاب علىٰ بيانها.

وبصورة أوضح: إنَّ كمال الحكمة النظريّة بمنزلة الصورة، وكمال

الحكمة العمليّة بمنزلة المادّة فلا يتمّ أحدهما بدون الآخر، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير، وهو الإنسان التامّ الكامل الذي تلألأ قلبه بأنوار الشهود، وبه تتمّ دائرة الوجود.

قال الطريحي في مجمع البحرين: (والحكمة العمليّة ما لها تعلّق بالعمل، كالعلم بأحوال أُصول الوجودات الثمانية: الواجب، والعقل، والهيولىٰ، والصورة، والجسم، والعرض، والمادّة)[1].

وبالتالي إنَّ الفلسفة أو الحكمة هي ينبوع يتفرَّع منه جميع العلوم، ولهذا سمّوها بعلم العلوم، لأنَّ الفيلسوف أو الحكيم كان متضلِّعاً من جميع علوم زمانه، لأنَّ العلوم الأساسية جميعاً كانت داخلة في نطاق الفلسفة ومتفرّعة عنها.

وقال ابن مسكويه: (الفلسفة هي غاية الحياة الإنسانية وهي مزيج من العلم والعمل لسلوك سبيل الترقّي الدائم، فهي الغرض الأسمىٰ للوجود والوسيلة الوحيدة للاتّصال العقلي والروحاني بين الخالق والمخلوق والاستعداد لقبول الفيض الربّاني، وعلىٰ ذلك تكون هذه المرتبة هي مرتبة الأنبياء والحكماء والعلماء الذين هم عوالم تامّة وخلفاء للخالق).

وفي اللغة: الحكمة عبارة عن العدل وإتقان الشيء بوضع كلّ شيء موضعه، وفُسِّرت أيضاً بمعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم كما في نهاية ابن الأثير[2].

وعند رجال العلوم العقلية: هي عبارة عن استكمال النفس الإنسانية بالتخلّق بالأخلاق الإلهية علماً وعملاً.

---

(١) مجمع البحرين ٦: ٤٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث ١: ٤١٩.

وبما أنَّ هذه المرتبة الاستكمالية عزيزة المنال جدَّاً، عسرة الحصول، وليس ينالها إلَّا الفرد النادر القليل، أعدَّ الله صاحب هذه المرتبة ممَّن أُوتي الخير الكثير بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (البقرة: ٢٦٩)، لاستكمال وإخراج النفس من القوَّة إلىٰ الفعل، وإيقافها في النقطة الوسطيّة الخالية عن الإفراط والتفريط في كلتا جنبتي النظريّة والعمليّة، اللتين هما للإنسان بمنزلة الجناحين للطير، فكما أنَّ طيران الطير يتوقَّف علىٰ الجناح، فهو من حين خروجه من البيضة يأخذ في النموّ يوماً فيوماً، ويتدرَّج في الحركة ساعة بعد ساعة إلىٰ أن يكمل جناحاه، فإذا بلغ نصابه في النموّ والتدرّج يطير إلىٰ حيث شاء.

كذلك الإنسان إذا أقبل علىٰ نفسه وصار بصدد استكمالها بالتخلّق بالأخلاق الإلهية علماً وعملاً، وجب عليه أن يحصِّل لنفسه جناحي طيران من الحكمتين _ النظريّة والعمليّة _ حتَّىٰ يتمكَّن من الطيران في سماء الإنسانية.

فالإنسان في الطيران شدَّةً وضعفاً، سرعةً وبطأً تابع لجناحيه في القوَّة والضعف، كلَّما اعتدل جناحا عقله واستقاما قوي طيرانه، فإذا وقع فيهما نقصان بتقصير منه في تكميل الحكمة النظريّة أو الحكمة العمليّة أو فيهما معاً _ أعاذنا الله من ذلك _ يقع ضعف في طيرانه بل لا يقدر أن يطير إن أهملهما بالمرَّة، كما أنَّ الطير متىٰ استوىٰ جناحاه اعتدل في الطيران، فإن وقع نقصان في أحدهما بسقوط ريشة أو أزيد يخرج في الطيران عن الاعتدال ويخبط في طيرانه؛ بل قد لا يطير إذا سقط ريش جناحيه من أصله.

وإلىٰ هذا وقعت الإشارة في عدَّة مواضع من الكتاب العزيز، منها

قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر: ١ _ ٣).

قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلىٰ الحكمة النظريّة، أعني العلم بالمعارف الأُصولية الإلهية، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ إشارة إلىٰ الحكمة العمليّة، وقوله: ﴿وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلىٰ الحكمة النظريّة، ﴿وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إلىٰ الحكمة العمليّة، بالصبر علىٰ الطاعات وتحمّل مشاقّها.

ومنها قوله تعالىٰ خطاباً لموسىٰ عليه السلام: ﴿فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى ۝١٣ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (طه: ١٣ و١٤)، قوله: ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنَا﴾ إشارة إلىٰ كمال القوَّة النظريّة، وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ إشارة إلىٰ كمال القوَّة العمليّة.

ومنها قوله تعالىٰ حكاية عن عيسىٰ عليه السلام: ﴿قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ﴾، كلّ ذلك إشارة إلىٰ كمال القوَّة النظريّة، ثمّ قال: ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ (مريم: ٣٠ و٣١)، إشارة إلىٰ كمال القوَّة العمليّة.

ومنها قوله تعالىٰ خطاباً مع حبيبه نبيّ الإسلام محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾ إشارة إلىٰ كمال القوَّة النظريّة، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (محمّد: ١٩)، إشارة إلىٰ كمال القوَّة العمليّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ (البقرة: ٢٥)، إشارة إلىٰ كمال القوَّتين.

فقد اتَّضح ببيان الله تعالىٰ أنَّ كمال الإنسان منحصر في العلم والعمل، وبهما تحصل الإحاطة بالمعقولات والتجرّد عن الجسمانيّة.

وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار الحكيم الثاني الفارابي في قصيدته التي نظمها في النفس:

كمِّل حقيقتك التي لم تكمل ... والجسم دعه في الحضيض الأسفل

أتكمِّل الفاني وتترك باقياً ... همِلاً وأنت بأمره لم تحفل

فالجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تحصّلها به لم تحصل

يفنىٰ وتبقىٰ دائماً في غِبطةٍ ... أو شقوةً وندامةً لا تنجلي

أعطيتَ جسمك خادماً فخدمته ... أتملِّك المفضول رقَّ الأفضل

شَرَكٌ كثيف أنت في أحباله ... ما دام يمكنك الخلاص فعجِّل

من يستطيع بلوغ أعلىٰ منزل ... ما باله يرضىٰ بأدنىٰ منزل

ولوعورة سبيل تحصيل هذه المرتبة وكثرة العوائق المانعة الحيوانية قال رسول الله ﷺ: «شيَّبتني سورة هود»[1]، لمكان قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢).

جاء في كتاب (محبوب القلوب) لمؤلِّفه قطب الدين محمّد الديلمي اللَّاهجي: لا يخفىٰ أنَّ معرفة علل الأشياء ومعلولاتها، علم غامض صعب لا يكاد يطَّلع عليه ويصل إليه إلَّا الأنبياء وخلفاؤهم والقائمون مقامهم بالحقّ، ثمّ المرتاضون بالعلوم الإلهية والحكم الربّانيّة الآخذون أنوار الحكمة من مشكاة النبوَّة والولاية، وهم الفلاسفة الحقَّة الذين أفعالهم محكمة وصنايعهم متقنة، وأقاويلهم صادقة جميلة، وآراؤهم صحيحة وأعمالهم زكيّة وعلومهم حقيقة، وهي معرفة حقيقة الأشياء وكمّيّة أجناسها وأنواع تلك الأجناس وخواصّ تلك الأنوار، واحداً

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ٢: ٨٢/ ح ٤٩١٦.

واحـداً، والبحـث عـن عللهـا بهـل هـي، ومـا هـي، وكـم هـي، وأيّ هـي، وكيف هي، وأين هي، ومتىٰ هي، ولِـمَ هي، ومن هي.

فـالحكم المسـتحقّ اسـم الحكمـة والفلسـفة، بعـد أن يجيـب عـن هـذه المسائل التسعة إذا سُئِلَ عنهـا، ويقـيم عليهـا الأدلَّـة والبراهـين الشـاهدة علىٰ صـحَّتها، مـن بلغـت نفسـه النطقيـة إلىٰ كمالهـا العقـلي، واسـتغنىٰ عـن الحركـات والأفكـار فحينئـذٍ يصـير علمهـا عمـلاً، وعملهـا علـماً، كـما أنَّ العلم والقدرة في المفارقات بالنسبة إلىٰ ما تحتها واحد.

فالحكمة علىٰ مـا قيـل استكمال الـنفس الإنسـانية بتحصـيل مـا عليـه الوجود في نفسه، ومـا عليـه الواجـب ممَّـا ينبغـي أن يكتسـب تعلّمهـا ليصـير عالمـاً معقـولاً مضـاهياً للعـالم الموجـود، ويسـتعدّ للسـعادة القصـوىٰ الأُخرويّة بحسب الطاقة البشريّة.

والأسـماء تختلـف بحسـب اخـتلاف طـرق التعلـيم، فـإن أدركهـا بزمان يسير من غير تعلّم بشـري، وكـان مـأموراً مـن المـلأ الأعـلىٰ بإصـلاح النـوع الإنسـاني، سُـمّيت نبـوَّة مـأخوذة مـن النبـوة، وهـو مـا ارتفـع مـن الأرض، فمعنـىٰ النبـوَّة الرفعـة، ومعنـىٰ النبـيّ الرفيـع[1]، وإن كـان بـالتعلّم والدراية سُمّيت فلسفة في لسان اليونانيين.

والفيلسـوف محـبّ الحكمـة، وأصـله (فـيلا سـوفا)، و(فـيلا) هـو المحـبّ، و(سـوفا) الحكمـة، وهـي أُمّ الفضـائل ومعرفتهـا مبعّـدة عـن الرذائل وموصلة إلىٰ الأوائل ويلزمها صفات شريفة:

أحدها: تنـوّر الـنفس بـالنور الإلهـي فيشـرف علىٰ جميـع المجهـولات

---

(١) أُنظر: معاني الأخبار: ١١٤/ باب معنى النبوَّة/ ذيل الحديث ١.

العلميّة، فلا يخفىٰ عليه شيء من المجهولات كما يقال: (إنَّ آخر درجة الحكمة أوَّل درجة النبوَّة).

وثانيها: أنّها تزهّد في هذا العالم وتحقّره عند النفس؛ لأنَّ الزهد في الدنيا من ضرورة الحكمة ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة، فإنَّ المشتغل بأُمور الدنيا والمتكالب علىٰ ما يقول بحال جسده ومشتهياته غير مستحقّ لعلم الفلسفة، والتسمّي بالحكيم، ومثله كمثل من جلس بعد النبيّ في مجلسه للتسلّط والتسلطن، والتفوّق علىٰ الأُمَّة والتحكيم، فيصير مستعدّاً للعذاب الأليم.

ثالثها: أنَّها تُرغِّب في الرحلة عن هذا العالم الفاني إلىٰ ذلك العالم الباقي؛ لأنَّ الموت يطيب ويسهل علىٰ العارفين الذين قد استقاموا علىٰ طريق النجاة، وتحقَّقوا أنَّهم ملاقوا ربّهم فعند ذلك يتمنّون الموت واللحوق بدار السعادة ومفارقة دار البلاء والهوان، كما قال بعض أهل العرفان:

أُقتلوني أُقتلوني يا ثقات   إنَّ في قتلي حياة في حياة

آزمودم مرگ من در زندگيست   چون رهم از زندگى پاينده كيست

رابعها: أنَّها يعرف ما علَّة هذا العالم وما معلوله، وما المتوسّط بين العلَّة والمعلول، فعلَّة العلل هو الباري تعالىٰ، والعلل المتوسّطة هي العقول الثابتة المجرَّدة، والمعلول الجسم وما يتعلَّق من الجسمانيّات، والمتوسّط بينهما النفس، فمن أدرك المتوسّط أدرك الطرفين، لكون العقل مضيئاً بالنور الأوَّل تعالىٰ لا يشوبه ظلمة وكدر أصلاً، ومعرفته في أوَّل وهلة من غير متوسّط مشكل جدّاً، والجسمانيات وقواها لا علم لها ولا معرفة لكثرة القشور والأدناس، فبقيت النفس متوسّطة في أُفقها، ولكن

كلَّما كانت أشرف قلَّ قشورها وكثر ضياؤها، فتيسَّر لها بقوَّة نورها إدراك الطرفين ومعرفة الجانبين، ومن هذا لـمَّا سُئِلَ المعلِّم الأوَّل أرسطاطاليس: كيف تعمىٰ النفس عن معرفة نفسها وهي أُمّ الحكمة؟ فقال: إذا غابت الحكمة عن النفس عميت عن نفسها وغيرها، كما يعمىٰ البصر عن نفسه وغيره إذا غاب عنه المصباح.

ومن كلامه أيضاً: إنَّ العقل الذي هو السيّد يوجد في النفس كثيراً، والنفس متَّصلة به إلَّا أن يتعدَّىٰ حدودها ويرتدّ عن رقيّها، فإذا فارقته كان ذلك هو موتها وفسادها، فإذا اتَّصلت به يصير كأنَّهما شيء واحد حَيَت بحياة دائمة.

وما أحسن ما قال بعض الحكماء: إنَّ العلوم كلّها في النفس بالقوَّة، فإذا عرفت ذاتها صارت العلوم كلّها بالفعل.

فلقد صدق من قال:

دمى با حقّ نبودى چون زنى لاف شناسائى

تمام عمر با خود بودى و نشناختى خود را

فالنفس العاقلة في العالم الصغير الذي هو الإنسان بمنزلة النبيّ في الإنسان الكبير الذي هو العالم، إلَّا أنَّ العقل لا يتهدي إلىٰ الأحكام إلَّا بمعاونة ضوابط الشرائع، كما قال شيخ الأبرار في منظومته (مخزن الأسرار):

عقل بشرى تو ز درياى خون   كشتى جان برده بساحل برون

فإنَّ معرفة كثير من الجزئيات أو حلّها بحيث يجب الاحتراز عن الأُولىٰ دون الثانية، لا يعرفه العقل، ولا سبيل إلىٰ معرفته بدون الشرع، كما في كثير من الجزئيات المعلومة بالشرع: كالمنع من وطئ الحائض، وجوازه في المستحاضة، واختلاف العدد وأمثال ذلك ممَّا يطول تعدّده،

أنّىٰ للعقل أن يدركه، فإنَّه إنَّما يوصل إلىٰ كلّيّات الأُمور دون جزئيّاتها، والشرع يحكم علىٰ الكلّيّات والجزئيّات.

فعُلِمَ أنَّ بالشرع حصلت الاعتقادات واستقامت الأحوال بين صحيحها وسقيمها، فهو الدليل علىٰ المصالح الدنيويّة والأُخرويّة، فالضالّ عنه ضالّ عن قصد السبيل، قال الله تعالىٰ في التنزيل العزيز: ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، فالعقل بإمداد الشرع يسوق سفينة النفس عن آفات بحر الدنيا، ويوصل إلىٰ ساحل النجاة، كما أنشد بعض الثقات:

العقل نور الله إلَّا أنَّه ... للعالم المحسوس غير ممازج

فمتىٰ اكتفيت بفعل عقل داخل ... فسدت أُمورك كلّها من خارج

وبالحقيقة العقل شرع من داخل، والشرع عقل من خارج، فهما متعاونان متعاضدان، ولأجل أنَّ الشرع عقل سلب الله تعالىٰ اسم العقل عن الكفّار في مواضع من الكتاب الكريم مثل قوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١)، وكذلك الكلام في كون العقل شرعاً، فإنَّه تعالىٰ قال: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠)، فسمّىٰ العقل ديناً، وفي اتّحدهما قال: ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ﴾، عنىٰ بهما نور العقل ونور الشرع، فإنَّه يقول: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ (النور: ٣٥)، فجعلهما نوراً واحداً.

وقد يتوهّم أكثر الضعفاء أنَّ أقوال الحكماء وحججهم مخالفة للشرائع الإلهية، ولما صارت به الأنبياء عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، فإنَّ الحكمة الحقّة المتقنة غير مخالفة للشرائع الإلهية، وإنَّما يقول بمخالفتها

من لا معرفة له بتطبيق الخطابات الشرعية علىٰ البراهين الحكمية، ولا يعرف ذلك إلَّا من هو مؤيَّد من عند الله عزَّ مجده، كامل في العلوم الشرعية والحكمية، مطَّلع علىٰ الأسرار النبويّة.

فإنَّه قد يكون الإنسان كاملاً في الحكمة ولا حظَّ له من العلوم الشرعية، وبالعكس، ومن أحاط الجانبين وأحرز الطرفين وجد توافقهما وتطابقهما كما قال من قال:

چراغ مدرسه و شمع خانقاه يكيست

اگر چه ديده دو آمد ولى نگاه يكيست

وإليهما أشار أيضاً بقوله الكريم: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (النساء: ٨٣)، فإنه قد قيل: إنَّ الفضل هو العقل، والرحمة هو الشرع، وفي قوله العزيز: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إشارة إلىٰ أنَّ هناك طائفة هم الصفوة والخيار من البريّة، ليس من شأنهم اتّباع الشيطان باعتبار الاصطفاء والاختيار، ولولاهم لما كانت الأكوان ولا دارت الأدوار.

والمروي أنَّ مولانا موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال لهشام بن الحكم: «يا هشام، إنَّ لله علىٰ الناس حجَّتين: حجَّة ظاهرة، وحجَّة باطنة، فأمَّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وأمَّا الباطنة فالعقول»[1]، فبان أنَّ درجة الحكمة مفخمة، ولا مرتبة في المعاد عنده عزَّ مجده للجاهل بها، والقرآن العزيز، وأحاديث أصحاب العصمة عليهم السلام، وكلام أساطين أهل الولاية مشحونة بمدحها، ووصف جنابه المقدَّس بالحكمة، فالحكيم

---

(١) الكافي ١: ١٦/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٢.

المطلق هو الله تعالىٰ، وكلّ من أدرك من المعقولات نصيباً سُمّي علىٰ سبيل التجوّز حكيماً لدنوّه من الله تعالىٰ وتشبّهه به وقربه منه بالإدراك والعلم الذي هو صفته تعالىٰ شأنه بالقرب المعنوي والدنوّ الإدراكي، فإذا كانت السعادة الأبدية هو القرب منه ومشاهدة جلاله ومعاينة كبريائه، وذلك لا يحصل ولا يتيسّر إلَّا بالحكمة، فلا شيء أعظم ولا أتمّ فائدة منها.

وقد أمر أمير المؤمنين حكيم حكماء العرب والعجم عليه السلام بتعلّم الحكمة أنّىٰ وُجِدَت ولو من المنافقين، حيث نقل عنه عليه السلام جامع نهج البلاغة المكرَّمة أنَّه قال: «خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّىٰ كَانَتْ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ المنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِه حَتَّىٰ تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَىٰ صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ المؤْمِنِ»[١].

وقال أيضاً: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ المؤْمِنِ فَخُذِ الْحِكْمَةَ ولَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ»[٢].

كنّىٰ عليه السلام بتلجلجها عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدر المنافق وكونه ليس مطيّة لها، فهي غير مستقرَّة فيه إلىٰ أن تخرج إلىٰ مطيَّتها وهي صدر المؤمن، فيجب علىٰ المؤمن أخذها من مطيَّته وإخراجها من غير مطيّته فإنَّ الحكمة تفسد عند غير أهلها، كما تقلب السبخة طيب البذر إلىٰ العفن.

ولذا ورد في كلامه عليه السلام: «إِنَّ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً وإِذَا كَانَ خَطَأً كَانَ دَاءً»[٣]، وذلك لقوَّة اعتقاد الخلق فيهم وشدَّة

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨١/ ح ٧٩.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨١/ ح ٨٠.

(٣) نهج البلاغة: ٥٢١/ ح ٢٦٥.

قبولهم لما يقولونه، فإن كان حقّاً كان دواءً من الجهل وإن كان باطلاً وجب للخلق علاج داء الجهل.

وقد روىٰ الشيخ الصدوق رحمه الله عن مولانا أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «إنَّ عيسىٰ بن مريم عليه السلام قام في بني إسرائيل، فقال: يا بني إسرائيل، لا تُحدِّثوا بالحكمة الجُهّال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعينوا الظالم علىٰ ظلمه فيبطل فضلكم»[1].

وفي هذا أنشد بعض أهل الكمال:

فمن منح الجهّال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم[2]

وما زال الحكماء والعلماء والسلّاك يوصون تلاميذهم بكتمان الحكمة صيانةً لها وإخفاء هذه الحقائق عن غير المستوجبين لها، ويوجبون عليهم بذل ذلك إلىٰ المستعدّين وأهل الاستيهال.

قال بعض الأعاظم من علمائنا: إنَّ الحكمة سداها ولحمتها نفض غشاوة الوهم، ورفض كورة الطبيعة، والاستضاءة بأضواء عالم القدس، ومن ليست تلك شاكلته فهو في سبيل العلم كالأكمة في سباخة الأرض، أو كالزمن في أن يكون فيجاً.

فينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة علىٰ ما نصَّ عليه معلِّم الصناعة الشيخ الفارابي أن يكون شابّاً صحيح المزاج متأدّباً بآداب الأخيار، وقد تعلَّم القرآن وعلوم الشرع واللغة أوَّلاً، ويكون عفيفاً صدوقاً معرضاً عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة، ويكون فارغ البال عن مصالح معاشه، مقبلاً علىٰ أداء الوظائف الشرعية غير مخلّ بركن من أركانها ولا بأدب من

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٨٢/ ح (٤٨٦/ ١١).

(٢) البيت للشافعي. (أُنظر: معجم الأُدباء ١٧: ٣٠٧).

آدابها، معظّماً للعلم والعلماء، ولا يكون لشيء عنده قدراً إلَّا العلم وأهله، ولا يتَّخذ علمه لأجل الحرفة، ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زورٍ ولا يُعَدُّ من الحكماء.

ولـمَّا كانت السعادة هي المطلوبة لذاتها، وإنَّما يكدح الإنسان لنيلها والوصول إليها وهي لا تنال إلَّا بالحكمة الحقَّة، فالحكمة إمَّا ليعلم بها، وإمَّا ليعمل، فانقسمت الحكمة إلىٰ قسمين: علمي وعملي، والقسم العملي هو عمل الخير، والقسم العلمي هو علم الحقّ.

والقسمان ممَّا يوصل إليه بالعقل الكامل والرأي الراجح، وأكثر الأنبياء عليهم السلام أُيِّدوا بأمداد روحانية لتقرير القسم العملي وبطرف ما من القسم العلمي، فغاية الحكيم هو أن يتجلّىٰ لعقله أصل الكون وبتشبّهه بإله الحقّ بغاية الإمكان، وغاية النبيّ أن يتجلّىٰ له نظام الكون فيقدّر علىٰ ذلك مصالح العامّة حتَّىٰ يبقىٰ نظام الكون وتنتظم أُمور بني آدم.

قال الحكيم المهرجاني من حكماء إخوان الصفا: إنَّ الشريعة طبّ المرضاء، والفلسفة طبّ الأصحّاء، والأنبياء يطبّون للمرضىٰ حتَّىٰ لا يتزايد مرضه ويزول المرض بالعافية فقط.

أمَّا الفلاسفة فإنَّهم يحفظون الصحَّة علىٰ أصحابها حتَّىٰ لا يعتريهم مرض أصلاً.

تاريخ ابتداء الفلسفة:

إنَّ العلماء اختلفوا في ابتداء ظهور الفلسفة (الحكمة) فذكر بعضهم أنَّ أوَّل من ظهرت منه الفلسفة وعُرِفَ بالحكمة ثالس الملطي من حكام الملطية، وهو أوَّل من تفلسف بمصر وصار بعد ذلك إلىٰ ملطية وهو شيخ، وبه سُمّيت فرقة من اليونانيين فلاسفة.

وزعم جماعة من الأعلام أنَّ جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنَّما صدرت عن هرمس الأوَّل الساكن بصعيد مصر الأعلىٰ، وهو الذي يُسمّيه العبرانيّون أخنوخ بن لاوذ بن سهلايل بن أنوش بن شيث بن آدم، وهو إدريس النبيّ، وقالوا: إنَّه أوَّل من أنذر بالطوفان، ورأىٰ آفة سماوية تلحق الأرض من الماء فخاف ذهاب العلم ودرس الصنايع، فبنىٰ الأهرام في صعيد مصر الأعلىٰ، وضرب فيها جميع الصناعات والآلات، ورقَّم فيها صفات العلوم حرصاً منه علىٰ تخليدها لمن بعده وخيفة أن يذهب رسمها من العالم.

وفي الجزء الأوَّل من كتاب أُصول الفلسفة (ص ٢٠): إنَّ التاريخ يُحدِّثنا أنَّ أوَّل من أحدث مسلكاً فلسفياً ورسم نظاماً خاصَّاً هو الحكيم الشهير هرمس، ثمّ اقتفىٰ تلاميذه أثره وأشاعوا مذهبه واشتهروا بالهرامسة لأجل تهالكهم في تحكيم ما تلقّوه من أُستاذهم، وتلك الطائفة ما زالت مؤمنة بالعوالم غير الطبيعية.

وقيل: إنَّ للفلسفة مبدأ آخر هو من فيثاغورس، وهو أوَّل من سمّىٰ الفلسفة بهذا الاسم.

وذكر محمّد بن يوسف العامري: إنَّ أوَّل الحكماء لقمان تلميذ داود عليه السلام، وكان أنباذقلس تلميذه إلَّا أنَّه لـمَّا عاد إلىٰ بلاد يونان تكلَّم في خلقة العالم بأشياء ظاهرة قادحة في أمر المعاد فهجره بعضهم علىٰ ما هو دأب العوامّ مع الأعلام، ثمّ وصف بعده بالحكمة فيثاغورس، وقد اختلط بمصر إلىٰ أصحاب سليمان عليه السلام حين جَلا عن الشام، فتعلَّم العلوم الطبيعية والإلهية من أصحاب سليمان عليه السلام ونقل العلوم الثلاثة أعني الرياضي، والطبيعي، والإلهي إلىٰ بلاد اليونان، ثمّ استخرج بذكائه

علم الألحان وأوقعها تحت النسب العدديّة، وادَّعىٰ أنَّه استفاد ذلك من مشكاة النبوَّة.

ثمّ سقراط أخذ من فيثاغورس واقتصر من أصنافها علىٰ المعارف الإلهية، وأعرض عن ملاذ الدنيا، وأظهر الخلاف علىٰ اليونانيين في الدين، وقابل رؤساء ذوي الشرك بالحجاج والأدلَّة فثوَّر العامّة وألجأوا ملكهم إلىٰ قتله علىٰ ما سيأتي في شرح أحواله إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ أفلاطون ولم يقتصر علىٰ المعالم الدينية بل جمع إليها العلوم الطبيعيّة والإلهيّة والرياضيّة، وفي الأخير فوَّض التعليم إلىٰ البارعين من تلاميذه، وتخلّىٰ عن الناس لعبادة ربّه.

وأعظم الفلاسفة عند اليونانيين طبقةً وقدراً خمسة: أنباذقلس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطاطاليس، وإليه انتهت فلسفة اليونانيين، وهو خاتمة حكمائهم وسيّد علمائهم، وهو أوَّل من خلَّص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقيّة وصوَّرها بالأشكال الثلاثة، وجعلها آلة العلوم النظريّة، ولخَّص آراء الفلاسفة ونخل مذاهب الحكماء، فنفىٰ خبثها وأسقط غشّها، وانتقىٰ لبابها واصطفىٰ خيارها، فاعتقد منها ما توجبه العقول السليمة وتراه البصائر النافذة وتدين بن النفوس الطيّبة، فأصبح إمام الحكماء وجامع فضائل العلماء.

ليس علىٰ الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحدٍ[1]

ويروىٰ أنَّ عمرو بن العاص قدم من الإسكندرية علىٰ سيّدنا رسول الله ﷺ فسأله عمَّا رأىٰ، فقال: رأيت قوماً يتطلَّسون ويجتمعون

---

(١) البيت لأبي نؤاس. (أُنظر: تنزيل الآيات علىٰ الشواهد من الأبيات للأفندي: ٣٩٦).

حَلَقاً ويذكرون رجلاً يقال له: أرسطوطاليس لعنه الله، فقال ﷺ: «مَهْ يا عمرو، إنَّ أرسطاطاليس كان نبيَّاً فجهله قومه». (محبوب القلوب للديلمي: ١٤/ ط ١).

قال الفاضل الشهرزوري في تاريخ الحكماء: هكذا سمعناه.

ويؤيّد هذه الرواية ما نقل السيّد الطاهر ذو المناقب والمفاخر رضيّ الدين علي بن طاووس قدّس سرّه في كتابه (فرج المهموم في معرفة الحلال والحرام من علم النجوم) قولاً بأنَّ أبرخس وبطليموس كانا من الأنبياء، وإنَّ أكثر الحكماء كانوا كذلك، وإنَّما التبس علىٰ الناس أمرهم لأجل أسمائهم اليونانية[1]، أي لـمَّا كانت أسماؤهم موافقة لأسماء بعض حكماء اليونان الذين يُنسَب إليهم فساد الاعتقاد اشتبه علىٰ الناس حالهم وظنّوا أنَّ أصحاب تلك الأسامي بأجمعهم علىٰ نهج واحد من الاعتقاد.

وفي كلام الأوائل من الحكماء كأفلاطون، وسقراط، وفيثاغورس رموز وألغاز، وكانوا يفعلون ذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: لئلَّا يغوص علىٰ أسرار الحكمة من ليس لها بأهل، فيصير عدَّة له علىٰ اكتساب ضرب من الشرارة، ومن هذا قال بعض الأعلام:

إنَّ أرواح الحكماء أمرت بكتمان هذه الأسرار؛ لأنَّ الساكنين في الطبيعة إذا عرفوا أمثال هذه العلوم استعملوها فيما يغمسهم في الشهوات الرذلة المميتة لنفس الحيّة، وأيضاً فلأنَّ أرواح العالم الأعلىٰ يكرهون وقوف البشر علىٰ أسرارها، فإنَّ من عرفها طغىٰ واستكبر وخرج من حدِّ الناسوتيّة إلىٰ اللاهوتيّة، فيطغىٰ في الأرض، وما زال الحكماء والعلماء والسلَّاك يوصون تلاميذهم بكتمان العلم وصيانة

---

(١) أُنظر: فرج المهموم: ١٥١ و١٥٢.

الحكمة، وإخفاء الحقائق عن غير المستوجبين، ويوجبون عليهم بذل ذلك للمستوجبين وأهل الاستيهال، كما مرَّ ذكره.

ثانيها: أن لا يتوانىٰ الطالب لها في بذل العناية لاقتنائها، وإن لحقه الاستلذاذ بعد المشقَّة في تحصيلها، ويستصعبها الكسلان لغموضها، ولذا لـمَّا عذل أفلاطون أرسطاطاليس علىٰ إظهار الفلسفة أجاب بأنّي وإن كنت أظهرتها وكشفتها لكن أودعت فيها مهاوي وأُموراً غوامض لا يطَّلع عليها إلَّا الفريد من الحكماء، وهو إشارة إلىٰ ما رمز فيها.

ثالثها: تشحيذ الطباع باستكداد الفكر لئلَّا يحتج المتعلِّم إلىٰ طيب الدعة وروح النفس، ويصل بجهده علىٰ تفهّم ما تنفر عنه.

تعريف الحكمة عند البستاني:

جاء في تعريف الحكمة في دائرة المعارف للبستاني تحت عنوان: (الحكمة)، قال: هي علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية، وموضوعه الأشياء الموجودة في الأعيان والأذهان، وغايته التشرّف بالكمالات في العاجل، والفوز بالسعادة في الآجل.

وقال بعض المحقّقين: هي العلم بأحوال الأعيان الموجودة علىٰ ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشريّة، وتلك الأعيان إمَّا الأفعال والأعمال التي وجودها بقدرتنا واختيارنا أو لا.

فالعلم بأحوال الأوَّل من حيث يؤدّي إلىٰ إصلاح المعاش والمعاد يُسمّىٰ حكمة عمليّة، والعلم بأحوال الثاني يُسمّىٰ حكمة نظريّة.

وكلّ منهما ثلاثة أقسام: فأمَّا العمليّة فلأنَّها إمَّا علم بمصالح شخص بانفراده، ويتحلّىٰ بالفضائل ويتخلّىٰ عن الرذائل، فهذا يُعرَف

بتهذيب الأخلاق، وعلم الأخلاق والحكمة الخلقية، ويُطلَق عليه عند المتأخّرين علم الآداب والحكمة الأدبيّة، ويقال له بالإفرنجية: (مورال) أو فلسفة أدبيّة وغير ذلك، وهذا داخل عندهم في باب الفلسفة.

وإمَّا علم بمصالح جماعة متشاركة في المنزل، وإمَّا علم بمصالح جماعة متشاركة في المدينة، ويُسمّىٰ تدبير المدينة والسياسة المدنيّة، وكلاهما يُطلَق عليه بالإفرنجية اسم (ايكونومي)، وقد يقال له بالإجمال: الحكمة التدبيرية.

وقد توسَّع المتأخّرون في ذلك فجعلوه أقساماً متمايزة، وهي:

١ _ **علم تدبير المنزل**: وعرَّفه علماء العرب بأنَّه علم يعرف منه اعتدال الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجه وأولاده وخدّامه، وطريق علاج الأُمور الخارجة عن الاعتدال، وموضوعه أحوال الأشخاص المذكورة من حيث الانتظام، وحاصله انتظام أحوال الإنسان في منزله، ليتمكَّن بذلك من رعاية الحقوق الواجبة بينه وبينهم، ويتفرَّع علىٰ اعتدالها كسب السعادة العاجلة والآجلة، قالوا: وليس المراد بالمنزل البيت المتَّخذ من الأحجار والأشجار بل المراد التألّف المخصوص الذي يكون بين الزوج والزوجة، والوالد والولد، والخادم والمخدوم، والمتمول والمال سواء كانوا من أهل المدر أو أهل الوبر.

والعرب قد أخذوا ذلك عن اليونان؛ لأنَّ كلمة (ايكونوميا) معناها تدبير البيت أو قوانين البيت، وكانوا يريدون بذلك تدبير أحوال العائلة وتنظيمها، وما يتعلَّق بها كما كانت عندهم، أي مؤلَّفة من أهل البيت والخدم وسائر متعلّقاتها كما قال العرب.

وأحسن كتاب لليونان في هذا الباب كتاب زينوفون وأرسطو،

فإنَّ العائلة عندهم طالما ترتبط بالعلاقات المادّيّة والأدبيّة تصير من أُسس الهيأة الاجتماعية المبنيّة عليها النظامات العمومية السياسية، وكانت أُصولها عندهم _ أي أُصول هذه الحكمة التدبيريّة _ ثلاثة: سيادة السيّد، وسلطة الأب، وفضل الزوج، وكان فضل صاحب التدبير _ أي ربّ البيت _ تقوم بحسن تدبير المصالح واتّخاذ الخدم وتشغيلهم وسياستهم وما يتعلَّق بمصالحهم وحسن سياسة أولادهم وتعليمهم الطاعة، وحماية الوالدة والمحافظة عليها والقيام بما تقتضيه من الحقوق لإحكام سياسة منزلها الداخلية.

ثمّ تطرَّق هذا النظام إلىٰ الهيأة الاجتماعية والسلاطين وصار مرتّباً به عموم الأُمَّة، ولذلك وضعوا لهذا الفنّ المتَّسع لفظة (بوليتيك) أي سياسة المدينة أو تدبير المدينة.

وأمَّا المتأخّرون فقرنوا مع هذه اللفظة لفظة (ايكونومي) ليخصّوها بما يُراد منها، فصاروا يقولون: (ايكونومي بوليتيك) ومعناها الحقيقي التدبير المدني، وقد سمّىٰ المتأخّرون هذا العلم بالتوفير أو الاقتصاد السياسي.

٢ _ علم تدبير المدينة أو التدبير المدني أو السياسي أو السياسة المدنيّة...: وهذا الفنّ محدَث لم يكن اليونان يعرفونه علىٰ ما يعرفه الآن عموم الناس في اصطلاح السياسة، وقد نشأ هذا الفنّ في القرن السادس عشر للميلاد، وأصله أي جرثوميَّته في التدبير الملكي للعلَّامة شلّي.

وأمَّا ما كان يُعرَف عند اليونان بهذا الاسم فلم يكن مقيَّداً ومحصوراً كما في هذه الأيّام، بل كان يشمل كلّ ما يتعلَّق بأُمور المملكة والملك والشعب والعيال والغرباء والرعايا والحيل السياسية، وأحوال

التربية والتعليم وكلّ ما ينطوي تحت أحوال الأُمَّة وأحكام المملكة، ولم يكن فرق بين هذا الفنّ والسياسة بحصر المعنىٰ كما يوجد في هذه الأيّام، وإذ كان لهذا الفنّ ارتباط وامتزاج بالسياسة الحقيقية نترك الكلام عنه إلىٰ باب السياسة.

٣ _ **التدبير الزراعي**: وهو علم أحوال الزراعة علماً نظريّاً ويشتمل علىٰ معرفة أحوال الزراعة الحقيقية وتربية الحيوانات الأهلية وما يتعلَّق بالفلاحة من الآلات والبناء والتجارة في محاصيل الأرض، ومن هذا القبيل التدبير الحيواني، وهو العلم بالقوانين التي بها يقوم تدبير أحوال الحيوانات.

وأمَّا الحكمة النظريّة فلأنَّها إمَّا علم بأحوال ما لا يفتقر في الوجود الخارجي والتعقّل إلىٰ المادّة كالآلة، وهو العلم الإلهي، وإمَّا علم بأحوال ما يفتقر إليها في الوجود الخارجي دون التعقّل كالكرة، وهو العلم الأوسط ويُسمّىٰ بالرياضي والتعليمي، وإمَّا علم بأحوال ما يفتقر إليها في الوجود الخارجي والتعقّل كالإنسان، وهو العلم الأدنىٰ ويُسمّىٰ بالطبيعي.

وجعل بعضهم ما لا يفتقر إلىٰ المادّة أصلاً قسمين: ما يقاربها مطلقاً كالآلة والعقول، وما يقاربها علىٰ وجه الاقتصار كالوحدة والكثرة وسائر الأُمور العامّة، فسُمّي العلم بأحوال الأوَّل إلهياً، والعلم بأحوال الثاني علماً كلّياً وفلسفة أُولىٰ.

وأمَّا حكمة الإشراق فهي من العلوم الفلسفية بمنزلة التصوّف من العلوم الإسلاميّة، كما أنَّ الحكمة الطبيعية والإلهية منها بمنزلة الكلام.

هـذا ملخَّـص مـا ورد في كتـب العـرب مـن تقسـيم الحكمـة، وأمَّـا استيفاء تقاسيمها الأُخرىٰ والكـلام عـن مباحثهـا كـما أخـذوه عـن اليونـان، وأحـوال دخولهـا عنـد العـرب ومـا اختلـف المتـأخّرون فيـه مـن أقسـامها وأسمائها وسائر ما يتعلَّق بذلك فسيأتي الكلام عن الفلسفة.

وتُطلَق الحكمة أيضـاً عـلىٰ إتقـان الفعـل والقـول وأحكامهـا، ومعرفـة الحقّ لذاته والخير لأجـل العمـل بـه وهـو التكـاليف الشـرعية، وقيـل: هـي معرفة آفات النفس والشيطان والرياضات، وهذا يُعرَف بعلم السلوك.

وهي بهذا المعنـىٰ أخـصُّ مـن علـم الحكمـة لأنَّهـا مـن أنواعـه وتُطلَـق أيضـاً عـلىٰ هيـأة للقـوَّة العقليـة العمليّـة متوسّـطة بـين الغريـزة وهـي هيـأة تصدر بهـا الأفعـال بـالمكر والحيلـة مـن غـير انتصـاف، وبـين البلاهـة وهـي الحمـق، وهـي بهـذا المعنـىٰ أحـد أجـزاء العدالـة مـن بـاب علـم الأخـلاق وتُطلَق عـلىٰ الحجَّـة القطعيـة المفيـدة للاعتقـاد دون الظـنّ والإقنـاع الكامـل، ومـن هـذا القبيـل الحِكَـم أي العبـارات الأدبيـة التـي هـي بمنزلـة برهـان وحجَّـة لا تحتمـل الـردّ، وتُعـرَف بالإفرنجيـة باسـم: (سـنتنس ومكسـيم)، وقد يقال لها بالعربية: الكلام الجامع...

* * *

الآداب والحكم

المنقولة عن الحكماء

عن كتاب الأخلاق في حديث واحد (ج ١/ ص ٥٣/ ط الأُولىٰ في النجف): إنَّ العرفاء في تفسير معنىٰ الحكمة في هذا المقام مختلفون، فبعضهم فسَّرها بالفقه.

قال سليمان بن خالد: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله الله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال: «إنَّ الحكمة المعرفة والتفقّه في الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم، وما من أحد يموت من المؤمنين أحبُّ إلىٰ إبليس من فقيه»[1].

وقال عليه السلام لهشام: «إنَّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبّر الجبّار، لأنَّ الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبّر آلة الجهل، ألم تعلم أنَّ من شمخ إلىٰ السقف برأسه شجَّه، ومن خفض رأسه استظلَّ تحته وأكنَّه؟ فكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله، ومن تواضع لله رفعه»[2].

وفي كتاب مصباح الشريعة الملحق بجامع الأخبار: قال الصادق عليه السلام: «الحكمة ضياء المعرفة، وميزان التقوىٰ، وثمرة الصدق، ولو قلت: ما أنعم الله علىٰ عبد بنعمة أعظم وأنعم وأجزل وأرفع وأبهىٰ من الحكمة للقلب، قال الله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة:

---

(١) تفسير العيّاشي ١: ١٥١/ ح ٤٩٨.

(٢) تحف العقول: ٣٩٦ و٣٩٧.

٢٦٩]، أي لا يعلم ما أودعت وهيَّأت في الحكمة إلَّا ما استخلصته لنفسي وخصصته بها»[١].

والحكمة هي النجاة، وصفة الحكمة الثبات عند أوائل الأُمور والوقوف عند عواقبها، وهي الهادي خلق الله إلىٰ الله تعالىٰ.

قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «لأن يهدي الله علىٰ يديك عبداً من عباده خير لك ممَّا طلعت عليه الشمس من مشارقها إلىٰ مغاربها»[٢].

سأل أمير المؤمنين عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام فقال: «يا بني، ما العقل؟»، قال: «حفظ قلبك ما استودعه». قال: «فما الحزم؟»، قال: «أن تنتظر فرصتك، وتعاجل ما أمكنك»، قال: «فما المجد؟»، قال: «حمل المغارم، وابتناء المكارم»، قال: «فما السماحة؟»، قال: «إجابة السائل، وبذل النائل...»، ثمّ التفت عليه السلام إلىٰ الحارث الأعور فقال: «يا حارث علّموا هذه الحِكَم أولادكم فإنَّها زيادة في العقل والحزم والرأي»[٣].

وفي (حكمة القلوب): اختلف في تعريف الحكمة علىٰ أقوال، قيل: هي معرفة الأشياء الموجودة. وقيل: معرفة مجملات الأشياء، وأمَّا مفصلاتها فلا سبيل للبشر إلىٰ الإحاطة بها.

وقال بعض الحكماء: الحكمة نور يجعله الله في القلب، حتَّىٰ يدرك المشروعات والمحظورات والمعقولات والمستحيلات، كما ينوّر البصر فيرىٰ المحسوسات.

وقيل: الحكمة فهم المعاني مع اتّباع المباني.

---

(١) مصباح الشريعة: ١٩٨.

(٢) مصباح الشريعة: ١٩٩.

(٣) معاني الأخبار: ٤٠١/ ح ٦٢.

وقال مجاهد: هي العقل والفهم والإصابة في القول.

وقيل: الحكمة التفقّه في القرآن، أي معرفة ما فيه من الهدىٰ والأحكام بعللها وحكمها، لأنَّ هذا الفقّه هو أجلّ الحقائق المؤثّرة في النفس، الماحية لما يعرض لها من الوساوس حتَّىٰ لا تكون مانعة من العمل الصالح، غير أنَّ الفقه في القرآن لا يكون إلَّا بكمال العقل وحسن استعماله في الفهم والبحث عن فوائد الأحكام وعللها ودلائل المسائل وبراهينها.

وقيل: الحكمة نور الفطنة.

وقيل: الحكمة لكلّ فعل حسن، وعمل صالح.

وقيل: الحكمة وضع الأُمور في مواضعها، وأن يكون المرء سديد الرأي، بعيد النظر، مؤثراً للحقّ، عادلاً بعيداً عن الهوىٰ وميل النفس، يحبُّ لغيره ما يحبُّ لنفسه، يفعل ما يجب أن يفعل ويترك ما يجب أن يترك.

وفي (حكمة القلوب): قيل لبعض الحكماء: لِـمَ لا تتعلَّم الفقه؟ قال: تعلَّمت ثلاث مسائل من كتب الفقه، فهي تكفيني: فمن كتاب النكاح: إنَّ الجمع بين الأُختين بالنصّ لا يجوز، والدنيا والآخرة أُختان، ومن كتاب الطلاق: إنَّ مطلَّقة النبيّ لا يجوز لأحد نكاحها، والدنيا مطلَّقة النبيّ ﷺ، ومن كتاب البيع: إنَّ الزائد علىٰ المثلين ربا، والربا حرام، والفاضل علىٰ القوت من الرزق كذلك.

وقال أحدهم: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكان الخزف الباقي أولىٰ بالرغبة من الذهب الفاني، والأمر بالعكس، لأنَّ الدنيا هي الخزف الفاني، فكيف والآخرة هي الذهب الباقي، وإنَّ في

طلب الدنيا ذلّ النفوس، وفي طلب الآخرة عزّ النفوس، فوا عجباً لمن يختار الذلّ في طلب ما يفنىٰ، ويترك العزّ في طلب ما يبقىٰ.

وقيل: الحكمة تُفتَح من أربعة أشياء: بدن فارغ من اشتغال الدنيا، وبطن فارغة من طعام الحرام، ويد خالية من عروض الدنيا، والتفكر في عاقبة الدنيا.

وقيل: الحكمة تنزل من السماء فلا تدخل قلباً فيه أربعة أشياء: الركون إلىٰ الدنيا، وهمّ غدٍ، وحبّ الفضول، وحسد أخ.

وقيل: اجتمعت العرب والعجم علىٰ أربع كلمات، واختارتها من أربعة كتب: من التوراة: من قنع شبع، ومن الزبور: من سكت سلم، ومن الإنجيل: من اعتزل نجا، ومن القرآن: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١).

وقيل: إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود عليه السلام: «إنَّ العاقل الحكيم لا يخلو من أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يمشي بها إلىٰ الإخوان في الدين ليخبروه بعيوبه، وساعة يتخلّىٰ بينه وبين لذّاتها الحلال»[1].

في سنة (١٤٠٣هـ) قرأت في كشكول الشيخ البهائي رحمه الله: قال بعض الحكماء: الحسن مقناطيس روحاني لا يتعلّل جذبه للقلوب بعلّة سوىٰ الخاصّيّة.

وقال بعضهم: العشق إلهام شوقي أفاضه الله سبحانه علىٰ كلّ ذي زوج، ليتحصَّل له به ما لا يمكن حصوله له بغيره.

---

(١) أُنظر: المصنَّف للصنعاني ١١: ٢١ و٢٢/ ح ١٩٧٩٠ بتفاوت.

كان بعض الحكماء يقول: لا تطلب من الكريم يسيراً فتكون عنده حقيراً.

قيل لحكيم: أيّما أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: إنّما أُحِبُّ الأخ إذا كان صديقاً.

قال بعض الحكماء: إذا شئت أن تعرف ربّك، فاجعل بينك وبين المعاصي حائطاً من حديد.

ومن كلام بعض الحكماء: لا تبع هيبة السكوت بالرخيص من الكلام، الخازن الأمين الذي يعطي ما أُمر به طيّبة به نفسه.

ومن كلامهم: إذا أُوتيت علماً فلا تطفئ نور العلم بظلمة الذنوب، فتبقىٰ في الظلمة يوم يسعىٰ أهل العلم بنور علمهم.

كتب بعض الحكماء علىٰ باب داره: لا يدخل داري شرّ، فقال له بعض الحكماء: فمن أين تدخل امرأتك؟

قال رجل: أصعب الأشياء أن ينال المرء ما لا يشتهيه، فسمع كلامه بعض الحكماء فقال: أصعب من ذلك أن يشتهي ما لا يناله.

قال بعض الحكماء: إذا أردت أن تعرف من أين حصَّل الرجل المال، فانظر في أيّ شيء ينفقه.

ما كان يدعو به بعض الحكماء: اللّهمّ أهّلنا بالإنابة إليك، والثناء عليك، والثقة بما لديك، ونيل الزلفىٰ عندك، وهوِّن علينا الرحيل عن هذه الدار الضيّقة والفضاء الحرج والمقام الدَّحض، والعرضة المحشوَّة بالغصَّة، والساحة الخالية من الراحة، بالسلامة والربح والغنيمة إلىٰ جوارك حيث قلت: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥)، وحيث يجد ساكنه من الروح والراحة ما يقول معه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ (فاطر: ٣٤)، واحسم مطامعنا من خلقك، وانزع قلوبنا عن الميل إلىٰ غيرك، واصرف أعيننا عن زهرة عالَمك الأدنىٰ برحمتك وفضلك وجودك يا كريم.

كتب بعض الحكماء إلىٰ صديق له: أمَّا بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخِفْهُ بقدر قدرته عليك، والسلام.

قال حكيم: ما رأيت واحداً إلَّا ظننته خيراً منّي، لأنّي من نفسي علىٰ يقين ومنه علىٰ شكّ.

قال بعض الحكماء: الدنيا إنَّما تُراد لثلاثة: العزّ، والغنىٰ، والراحة، من زهد فيها عزَّ، ومن قنع استغنىٰ، ومن ترك السعي استراح.

قال بعضهم: ليس من احتجب بالخلق عن الله، كمن احتجب بالله عنهم.

قال لبعض الحكماء: قد شبت وأنت شاب فلِمَ لا تخضب؟ فقال: إنَّ الثكلىٰ لا تحتاج إلىٰ الماشطة.

قال بعض الحكماء: إنَّ الرجل ينقطع إلىٰ بعض ملوك الدنيا فيرىٰ عليه أثره، فكيف من انقطع إلىٰ الله سبحانه.

وقال بعضهم: نحن نسأل أهل زماننا إلحافاً وهم يعطونا كرهاً، فلا هم يثابون، ولا نحن يُبارَك لنا، سرور الدنيا أن تقنع بما رُزِقت، وغمّها أن تغتمّ لما لم تُرزَق.

قال بعض الحكماء: الدليل علىٰ أنَّ ما بيدك لغيرك، أنَّ ما بيد غيرك صار بيدك.

ومن كلامه: عيشة الفقر مع الأمن خير من عيشة الغنىٰ مع الخوف.

سأل رجل حكيماً: كيف حال أخيك؟ فقال: مات، فقال: وما سبب موته؟ قال: حياته.

قال بعض الحكماء: إنَّ غضب الله أشدُّ من النار، ورضاه أكبر من الجنَّة.

من كلام بعض الحكماء: أقرب ما يكون العبد من الله إذا سأله، وأقرب ما يكون من الخلق إذا لم يسألهم.

قال بعض الحكماء: لستَ منتفعاً بما تعلم إذا لم تعمل بما تعلم، فإن زدت في علمك فأنت مثل رجل حزم حزمة من حطب وأراد حملها فلم يطق فوضعها وزاد عليها.

قال بعضهم: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي.

وقال: حقٌّ علىٰ الرجل العاقل الفاضل أن يجتنب مجلسه ثلاثة أشياء: الدعابة، وذكر النساء، والكلام في المطاعم.

ومن كلام الحكماء: لا تقعد حتّىٰ تُقعَد، وإذا أُقعدت كنت أعزَّ مقاماً، ولا تنطق حتّىٰ تُستَنطَق، فإذا استُنطِقتَ كنت أعلىٰ كلاماً.

نقل الراغب الأصبهاني في (المحاضرات) أنَّ بعض الحكماء كان يقول لبعض تلامذته: جالس العقلاء أعداء كانوا أو أصدقاء، فإنَّ العقل يقع علىٰ العقل.

سأل بعضهم بعض الحكماء: ما الشرّ المحبوب؟ فقال: الغنىٰ.

كان بعض الحكماء يقول: تعجّب الجاهل من العاقل أكثر من تعجّب العاقل من الجاهل.

تحسَّر بعض الحكماء عند الموت، فقيل: ما بك؟ فقال: ما ظنّكم بمن يقطع سفراً طويلاً بلا زاد، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس، ويقدم علىٰ حكم عدل بلا حجَّة.

كان بعض الحكماء يقول: لا شيء أنفس من الحياة، ولا غبن أعظم من إنفادها لغير حياة الأبد.

قال بعض الحكماء لبنيه: لا تعادوا أحداً، وإن ظننتم أنَّه لا يضرّكم، ولا تزهدوا في صداقة أحد وإن ظننتم أنَّه لا ينفعكم، فإنَّكم لا تدرون متىٰ تخافون عداوة العدوّ، ولا متىٰ ترجون صادقة الصديق.

من كلام بعض الحكماء: الموت سهم مرسل عليك، وعمرك بقدر مسيره إليك.

أوصىٰ بعض الحكماء ابنه، فقال: ليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرتك.

لقي صاحب سلطان حكيماً في الصحراء يبتلع العَلَف ويأكله، فقال له: لو خدمت الملوك لم تحتج إلىٰ أكل العلق، فقال له الحكيم: لو أكلت العَلَف لم تحتج إلىٰ خدمة الملوك.

قال بعض الحكماء: أحقّ من كان للكبر مجانباً، وللإعجاب مبايناً، من جلَّ في الدنيا قدره، وعظم فيها خطره؛ لأنَّه يستقلّ بعالي همَّته كلّ كثير، ويستصغر معها كلّ كبير.

وقال بعضهم: اسمان متضادّان بمعنىٰ واحد: التواضع والشرف، ازجر المسيء بثواب المحسنين، إنَّ للقلوب شهوةً وإقبالاً وإدباراً، فأتوها من قِبَل شهوتها، فإنَّ القلب إذا أكره عمىٰ، علىٰ كلّ داخل في باطل إثمان: إثم العمل به وإثم الرضا به، ومن كتم سرّه كان الخير بيده، لم يذهب من مالك ما وعظك.

قال بعض الحكماء: الظلم من طبع النفس وإنَّما يصدّها عن ذلك إحدىٰ علَّتين: إمَّا علَّة دينية كخوف معاد، وإمَّا سياسية كخوف السيف.

قال بعض الحكماء لابنه: يا بني خذ العلم من أفواه الرجال فإنَّهم يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويقولون أحسن ما يحفظون.

وقال بعضهم: ينبغي للعاقل أن يعلم أنَّ الناس لا خير فيهم، وأن يعلم أنَّه لا بدَّ منهم، فإذا عرف ذلك عاملهم علىٰ قدر ما تقتضيه هذه المعرفة.

شتم رجل بعض الحكماء، فتغافل عن جوابه، فقال: إيّاك أعني، فقال الحكيم: وعنك أُغضي.

قيل لبعض الحكماء: لِـمَ تركت الدنيا؟ قال: لأنّي أُمنع من صافيها، وأمتنع من كدرها.

قال بعضهم: أنكأ لعدوّك أن لا تراه أنَّك تتَّخذه عدوَّاً.

ومن كلام بعض الحكماء: إذا طلبت العزّ فاطلبه بالطاعة، وإذا أردت الغنىٰ فاطلبه بالقناعة، فمن أطاع الله عزَّ نصره، ومن لزم القناعة زال فقره.

قال بعض الفلاسفة: الدنيا دار فجائع، من عجَّل فيها فجع بنفسه، ومن أجَّل فيها فجع بأخيه.

قال بعض الحكماء: مثل أصحاب السلطان كقوم رقوا جبلاً ثمّ وقعوا منه، فكان أبعدهم في الرقىٰ أقربهم من التلف.

قال بعض الحكماء: إنَّما خصَّ بالمشاورة، لأنَّ رأي المشير صرف، ورأي المستشير مشوب بالهوىٰ.

ومن كلامهم: إن سلمت من الأسد فلا تطمع في صيده، لا تمرر بمن يبغضك وإن مررت فسلِّم.

قال بعض الحكماء: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل فانظر إلىٰ حنينه إلىٰ إخوانه، وشوقه إلىٰ أوطانه، وبكائه علىٰ ما مضىٰ من زمانه.

ومن كلامهم: كما أنَّ الذباب يتَّبع موضع الجروح فينكأها، ويجتنب المواضع الصحيحة، كذلك شرار الناس يتَّبعون معائب الناس فيذكرونها ويدفنون المحاسن.

قال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنَّة كما رغب في الدنيا لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

قال بعضهم: صحائف أعمالك فجلّدها بأجمل أفعالك.

وقال آخر: اعملوا لآخرتكم في هذه الأيّام التي تسير كأنَّها تطير.

وقال آخر لبعض الوزراء: تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك.

وقال بعضهم: من قنع كان غنيَّاً وإن كان فقيراً، ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان غنيَّاً.

وقال آخر: إذا طلبت العزَّة فاطلبها في الطاعة، وإن طلبت الغنىٰ فاطلبه في القناعة.

ومن كلام بعض الحكماء: من جلس في صغره حيث يحبّ، جلس في كبره حيث يكره.

ومن كلام بعضهم: لأن أترك المال بعد موتي لأعدائي خير من أن أحتاج في حياتي لأصدقائي.

سُئِلَ بعض الحكماء عن الزهد، فقال: هو أن لا تطلب المفقود حتَّىٰ تفقد الموجود.

وقال بعض الحكماء: دولة الجاهل عِبرة العاقل.

قال بعض الحكماء: الأدب أحد المنصبين.

وقال آخر: الأدب يستر قبح النسب، وهو وسيلة إلىٰ كلّ فضيلة، وذريعة إلىٰ كلّ شريعة.

وقال بعضهم: لا سرف في الخير، كما لا خير في السرف.

قال بعض الحكماء: العدوّ عدوّان: عدوّ ظلمته فجنيت عليه بظلمك إيّاه عداوته، وآخر ظلمك فجنىٰ بظلامته إيّاك عداوتك، فإن نابتك نائبة تضطرّك إلىٰ أحدهما، فكن بمن ظلمك أوثق منك بمن ظلمته.

ومن كلامهم: حلمك عمَّن دونك ساتر عليك عيب الذلّ لمن هو فوقك.

احتَضَرَ بعض الحكماء فجعل أخوه يبكي بإفراط، فقال المحتضِر: دون هذا يا أخي، فعن قليل تُرىٰ ضاحكاً في مجلس أُذكَر فيه.

قال بعض الحكماء: لولا ثلاث ما وضع ابن آدم رأسه بشيء: الفقر، والمرض، والموت، وإنَّه معهنَّ لوثّاب.

قيل لحكيم: من أبعد الناس سفراً؟ قال: من كان سفره في ابتغاء الأخ الصالح.

قيل لبعض الحكماء: رأيت شيئاً أفضل من الذهب؟ قال: نعم، القناعة، وإلىٰ هذا ينظر قول بعض الحكماء: استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به.

لـمَّا مات الإسكندر وضعوه في تابوت من ذهب، وحملوه إلىٰ الإسكندريّة، وندبه جماعة من الحكماء يوم موته:

فقال بطليموس: هذا يوم عظيم العبرة أقبل من شرّه ما كان مدبراً، وأدبر من خيره ما كان مقبلاً.

وقال ميلاطوس: خرجنا إلىٰ الدنيا جاهلين، وأقمنا فيها غافلين، وفارقناها كارهين.

وقال أفلاطون الثاني: أيّها الساعي المغتصِب جمعت ما خذلك وتولَّيت ما تولَّىٰ عنك، فلزمك أوزاره، وعاد إلىٰ غيرك مهنّاه وثماره.

وقال مسطور: قد كنّا بالأمس نقدر علىٰ الاستماع ولا نقدر علىٰ الكلام، واليوم نقدر علىٰ الكلام فهل نقدر علىٰ الاستماع؟

وقال ثاؤن: أُنظروا إلىٰ حُلُم النائم كيف انقضىٰ، وإلىٰ ظلّ الغمام كيف انجلىٰ.

وقال آخر: ما سافر الإسكندر سفراً بلا أعوان ولا عدَّة غير سفره هذا.

وقال آخر: لم يؤدّبنا بكلامه كما أدَّبنا بسكوته.

وقال آخر: قد كان بالأمس طلعه علينا حياة، واليوم النظر إليه سقم.

وقال زيتون الأصغر: يا عظيم الشأن ما مكَّنت إلَّا سحاباً اضمحل لـمَّا أُضِلَّ، فلا تخشىٰ له أثراً ولا تعرف له خبراً.

وقال قوطس: ألَا تعجبوا ممَّن يعظنا اختياراً، فوعظنا اضطراراً؟

وقال أميرس: كم أمات لئلَّا يموت فمات، ولم يدفع الموت بالموت.

وقال حكيم آخر: طوىٰ الأرض العريضة فلم ينقع حتَّىٰ طوي في ذراعين منها.

وقال آخر: الآن تضطرب الأقاليم، لأنَّ مسكّنها قد سكن.

وقال بعضهم غير ذلك.

قال بعض الحكماء: من شرف الفقر أنَّك لا تجد أحداً يعصي الله ليفتقر، وأكثر ما يعصي المرء ليستغني.

قال بعض الحكماء: من ضاق قلبه اتَّسع لسانه.

ومن كلامهم: ينبغي للعاقل أن يجمع إلىٰ عقله عقل العقلاء، وإلىٰ رأيه رأي الحكماء، فإنَّ الرأي الفذّ ربَّما زلَّ، وإنَّ العقل الفرد ربَّما ضلَّ.

قال بعض الحكماء: إنَّ الله لم يجمع منافع الدارين في أرض بل فرَّقها.

قال بعض الحكماء: إذا قال السلطان لعمّاله: هاتوا، فقد قال لهم: خذوا.

وقال بعضهم: إنَّما سُمّي المال مالاً لأنَّه مال بالناس عن طاعة الله ﷻ.

ومن كلام بعضهم: من تتبَّع خفيّات العيوب حرم مودّات القلوب.

ومن كلامهم: من نكد الدنيا أنَّها لا تبقىٰ علىٰ حالة، ولا تخلو من استحالة، تصلح جانباً بإفساد جانب، وتسرّ صاحباً بمسائة صاحب.

ومن كلامهم: إيّاك وفضول الكلام فإنَّها تظهر من عيوبك ما بطن، وتحرّك من عدوّك ما سكن.

ومن كلامهم: من أفرط في الكلام زلَّ، ومن استخفَّ بالرجال ذلَّ.

ومن كلامهم: يستدلُّ علىٰ عقل الرجل بقلَّة مقاله، وعلىٰ فضله بكثرة احتماله.

قال بعض الحكماء: إذا قيل: نعم الرجل أنت، وكان أحبُّ إليك من أن يقال: بئس الرجل أنت، فأنت بئس الرجل.

ومن كلام بعضهم: الراضي بالدون هو من رضي بالدنيا.

من أعرض عن خصومه لم يسألف علىٰ تركه.

لا تتَّكل علىٰ طول الصحبة، وجدِّد المودَّة في كلّ حين، فطول الصحبة إذا لم يتعهَّد درست المودَّة.

العاقل لا يشير علىٰ المعجب برأيه.

العزُّ في المجالسة بقلَّة الكلام وسرعة القيام.

ليس لماء الوجه ثمن.

من كلام بعض الحكماء: أيسر شيء الدخول في العداوة، وأصعب شيء الخروج منها.

إذا ذكر جليسك عندك أحداً بسوء فاعلم أنَّك ثانيه.

من رفعك فوق قدرك فاتَّقه.

أغلب الناس سلطان جائر، وامرأة سليطة.

إذا اتَّهمت وكيلك فاخزن لسانك، واستوثق بما في يديه.

أكرمُ المجالسة مجالسة من لا يدَّعي الرياسة وهو في محلّها.

سمع بعض الحكماء رجلاً يقول: قلَّب الله الدنيا، فقال: إذن تستوي لأنَّها مقلوبة.

ومن كلامهم: الابتلاء بمجنون كامل، أهون من الابتلاء بنصف مجنون.

ومن كلامهم: عداوة العاقل أقلُّ ضرراً من صداقة الأحمق.

قيل لبعض الحكماء: من أسوء الناس حالاً؟ قال: من بعدت همَّته، واتَّسعت أمنيَّته، وقصرت مقدرته.

قال بعض الحكماء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد.

وسُئِلَ حكيم: أيُّ شيء أصعب علىٰ الإنسان؟ فقال: معرفة عيب نفسه، والإمساك عن الكلام بما لا يعنيه.

قال بعض الحكماء: لا تساغ مرارة الحياة إلَّا بحلاوة الإخوان الثقات.

وقال بعضهم: من لقي الصديق الذي يفضي إليه بسرّه، فقد لقي السرور بأسره، وخرج من عقال بعسره وأسره.

رأىٰ زيتون الحكيم رجلاً علىٰ شاطئ البحر مهموماً محزوناً، ويتلهَّف علىٰ الدنيا، فقال له: يا فتىٰ ما تلهّفك علىٰ الدنيا، لو كنت في

غاية الغنىٰ وأنت راكب لجَّة البحر وقد انكسرت بك السفينة وأشرفت علىٰ الغرق أمَا كانت غاية مطلوبك النجاة وأن يفوت كلّ ما بيدك؟ قال: نعم، قال: ولو كنت ملكاً علىٰ الدنيا وأحاط بك من يريد قتلك، أمَا كان مرادك النجاة من يده ولو ذهب جميع ما تلمك؟ قال: نعم، قال: فأنت ذلك الغني الآن، وأنت ذلك، فتسلّىٰ الرجل بكلامه.

قال بعض الحكماء: لا تكن ممَّن يرىٰ القذاة في عين أخيه، ولا يرىٰ الجذع المعترض في حلق نفسه.

ومن كلامهم: إذا رأيت من يغتاب الناس فاجهد أن لا يعرفك، فإنَّ أشقىٰ الناس به معارفوه.

وقال بعضهم: اصنع المعروف إلىٰ من يشكره، واطلبه ممَّن ينساه.

ومن كلام بعض الحكماء: ثلاثة لا يستخفُّ بهم: السلطان، والعالم، والصديق، فمن استخفَّ بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخفَّ بالعالم ذهب دينه، ومن استخفَّ بالصديق ذهبت مروَّته.

قال بعضهم: الصبر صبران: صبر علىٰ ما تكره، وصبر علىٰ ما تحبّ، والصبر الثاني أشدّهما علىٰ النفوس.

قال حكيم لرجل كان مولعاً بحبّ جارية له، مشتغلاً بها عمَّا يهمّه من أُمور معاده: يا هذا، هل تشكّ في أنَّك لا بدَّ أن تفارقها؟ قال: نعم، قال: فاجعل تلك المرارة المتجرّعة في ذلك اليوم في يومك هذا، واربح ما بينهما من الخوف المنتظر وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام واشتداد الألفة.

بنىٰ أردشير بناية عجيبة، فقال لبعض الحكماء: هل تجد فيه عيباً؟ فقال: ما رأيت مثله ولكن فيه عيب واحد، قال: وما هو؟ قال: إنَّ لك

منه خرجة لا تعود بعدها إليه، أو دخلة إليه لا تخرج بعدها منه، فبكىٰ أردشير.

قيل لأنوشيروان: ما بال الرجل يحمل الحمل الثقيل فيحتمله، ولا يحتمل مجالسة الثقيل؟ فقال: لأنَّ الحمل يشترك فيه جميع الأعضاء، والثقيل يتفرَّد به الروح.

ومن كلام حكماء الهند: إذا احتاج إليك عدوّك أحبَّ بقاءك، وإذا استغنىٰ عنك وليّك هان عليه موتك.

ومن كلامهم: كلّ مودَّة عقدها الطمع، حلَّها اليأس.

ومن كلام بعض الحكماء: من لم يستوحش من ذلِّ السؤال لم يأنف من لؤم الردِّ.

قال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يُرىٰ إلَّا في إحدىٰ خصال ثلاث: تزوّد لمعاد، أو مرمَّة لمعاش، أو لذَّة في غير محرَّم.

ومن كلام بعضهم: إذا أردت أن تعذِّب عالماً فاقرن معه جاهلاً.

ومن كلامهم: الصديق نسيب الروح، والقريب نسيب الجسم.

قال رجل لفيلسوف: إنَّ فلاناً عابك أمس بكذا وكذا، فقال الفيلسوف: لقد واجهتني أنت بما استحىٰ الرجل من استقبالي به.

نظر حكيم إلىٰ رجل حسن الصورة سيّئ الخُلُق، فقال: أمَّا البيت فحسن، وأمَّا ساكنه فرديّ.

قيل لبعضهم: ما لك لا تأكل الشيء الفلاني فإنَّه لذيذ؟ فقال: تركت ما أحبّ لأستغني عن العلاج بما أكره.

قال بعض الحكماء: إذا ولّيت ولاية فإيّاك أن تستعين في ولايتك بأقاربك، فتبتلي بما ابتلي به عثمان بن عفّان، واقض حقوقهم بالمال لا بالولاية.

قال بعضهم: إنَّ خير نصفي الرجل آخره؛ لأنَّه يذهب جهله، ويكثر حلمه، ويجتمع رأيه، وشرّ نصفي المرأة آخرها، يسوء خلقها، ويحدّ لسانها، ويعقم رحمها.

قال بعض الحكماء: إذا أراد الله أن يزيل عن عبد نعمة، فأوَّل ما يزيل عنه عقله.

قال بعض الحكماء: لا تصحب من هو أغنىٰ منك، فإنَّك إن ساويته في الإنفاق أضرَّ بك، وإن زاد عليك استذلّك.

قال بعض الحكماء: حدُّ المروّة أن لا تفعل سرَّاً ما تستحي منه علانيةً.

وقال: المروَّة ترك اللذَّة، كما أنَّ اللذَّة ترك المروَّة.

كان بعض الحكماء يقول لإخوانه: تعلَّموا العلم فلأن يذمّ الزمان لكم خير من أن يذمّ بكم.

كان بعض الحكماء كثيراً ما يقول: لا تجعلوا قلوبكم التي هي منابر الملائكة قبوراً للحيوانات الهالكة.

روي أنَّه رؤي صورة حكيمين من الحكماء المتألّهين في بعض معابدهم، وفي يد أحدهما رقعة فيها: إن أحسنت كلّ شيء فلا تظنَّنَّ أنَّك أحسنك شيئاً حتَّىٰ تعرف الله وتعلم أنَّه مسبِّب الأسباب وموجد الأشياء، وفي يد الآخر: كنت قبل أن عرفت الله أشرق وأظمأ، حتَّىٰ إذا عرفته رويت بلا شرب.

كان راليس حكيماً يُنسَب إلىٰ الجنون، ومن كلامه: محبَّة المال وَتَدُ الشرّ، ومحبَّة الشرّ وَتَدُ العيوب. وسُئِلَ منه بعدما هرم، ما حالك؟ فقال: هو ذا أموت قليلاً قليلاً.

وقيل له: أيُّ الملكين أفضل ملك اليونان أم ملك الفرس؟ فقال: من ملك غضبه وشهوته.

ومـن كلامـه: إذا أدركـت الـدنيا الهـارب جرحتـه، وإذا أدركـت الطالب لها قتلته.

وقيل له: الملك يحبّك، فقال: هل يحبّ الملك من هو أغنىٰ منه؟

ومن كلامه: اعط حقّ نفسك، فإنَّ الحقّ يخصمك إن لم تعطها حقّها.

قـال بعـض الحكـماء: مثـل السـلطان مثـل الجبـل الصـعب الـذي فيـه كلّ ثمرة طيّبة، وكلّ سبع حطوم فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشدّ.

لـمَّا دخـل أبـو مسـلم إلىٰ مـرو قـال لأهلهـا: هـل في بلـدكم حكـيم؟ قالوا: نعم، فلان المجوسي. فقال: عـليَّ بـه، فلـمَّا حضـر قـال لـه أبـو مسـلم: لِـمَ لَقَّبت نفسـك حكـيماً؟ فقـال: لأنَّ لي إلهـاً، ولا أبـح يومـاً إلَّا وضـعته تحـت قـدمي، فقـال أبـو مسـلم: عـليَّ بالسـيف، فقـال المجـوسي: مهـلاً أيّهـا الأمير ألستم تقرأون في كتابكم: ﴿أَرَأَيْـتَ مَـنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَـواهُ﴾ (الفرقـان: ٤٣)؟ قال: نعـم، قـال: فأنـا أدوس الهـوىٰ تحـت قـدمي لـئلَّا يغلبنـي، فقـال له: ما قلت إلَّا حقَّاً.

ضرب الحكـماء للإنسـان مـع عقلـه وهـواه وحرصـه مثـالاً، كراكـب فرس معه كلب، فإن تـأمَّر الكلـب وكـان هـو المتقـدّم والمتبـوع، رمـىٰ بهـم في جيفـة وأخـذوا عـن الـدرب يمينـاً وشـمالاً، أقـربهم مـع ذلـك مـن الضـلال والهـلاك، فيسـوء حـال الفـارس والفـرس والكلـب، وأشرف الثلاثـة عـلىٰ العطـب وسـاء حـالهم. وإن كـان المتبـوع هـو الفـارس سـلك بهـم جـادّة الطريـق وأوردهـم أعـذب المـاء وأطيـب المـوارد وآمـن الأمـاكن، فيحسـن حال الفرس والكلب والفارس.

قال الحكماء: عبادة الله ثلاثة أنواع:

الأوَّل: ما يجـب عـلىٰ الأبـدان كالصـلاة والصـيام والسـعي في المواقـف الشريفة لمناجاته جلَّ ذكره.

الثـاني: مـا يجـب عـلىٰ النفـوس كالاعتقـادات الصـحيحة مـن العلـم بتوحيـد الله، ومـا يسـتحقّه مـن الثنـاء والتمجيـد، والفكـر فـيما أفاضـه الله سبحانه علىٰ العالم من جوده وحكمته، ثمّ الاتّساع في هذه المعارف.

الثالـث: مـا يجـب عنـد مشـاركات النـاس في المـدن، وهـي المعـاملات والمزارعات، والمناكح وتأديـة الأمانـات، ونصـح الـبعض للـبعض، وجهـاد الأعداء، والذبّ عن الحريم، وحماية الجوزة.

مـن كـلام بعـض الحكـماء: كـما أنَّ المـزاج لا يتحصَّـل إلَّا بتكـافؤ العناصر الأربعة واجتماعها علىٰ تـأليف وانتظـام، كـذلك نظـام الحيـاة الـدنيا التـي هـي وسـيلة إلىٰ الـدار الآخـرة، لا يتحصَّـل إلَّا بانتظـام أحـوال أربعـة أصناف من الخلق يجرون مجرىٰ العناصر الأربعة:

الأوَّل: أربـاب العلـم والمعـارف الـذين هـم سـبب قـوام الـدين والدنيا، وهم كالماء في العناصر.

والثـاني: أصـحاب السـيف وأهـل البـأس والشـجاعة، وهـم بمنزلـة النار في الطبايع.

والثالـث: أهـل المعاملـة كالتجّـار والصـنّاع الـذين هـم سـبب معيشـة النوع، وهم بمثابة الهواء فيها.

والرابـع: أربـاب الزراعـة والفلاحـة الـذين بهـم تترتَّـب الأقـوات، وهـم كـالأرض فيهـا، وكـما أنَّ زيـادة بعـض العنـاصر وخروجهـا عـن حـدٍّ المقـرَّر يـؤدّي إلىٰ فسـاد المـزاج، كـذلك الحـال في هـؤلاء الأصـناف الأربعـة إذا خرجت عن حدِّها.

قـال بعـض الحكـماء: احفـظ عشـراً مـن عشـر: أناتـك مـن التـواني، وإسراعـك مـن العجلـة، وسـخاؤك مـن التبـذير، واقتصـادك مـن التغيـير،

وإقدامك من الهجر، وتحرّزك من الجبن، ونزاهتك من الكبر، وتواضعك من الدناءة، وأُنسك من الاعتذار، وكتمانك من النسيان.

قال بعضهم: ممَّا يزيد في طيب الطعام مواكلة من تحبّ.

كان بعض الحكماء يقول: إنّي لا أُحِبُّ كثرة التكلّف في الطعام، وشدَّة الاحتفال بشأنه، وما بالرجل يضع طعاماً بحيث يعلم الحاضرون أنَّه مبلغ جهده ومنتهىٰ مقدرته.

وقال بعضهم: نشاط القائل علىٰ قدر فهم السامع، سعة الأخلاق كنوز الأرزاق، حذق المرء محسوب من رزقه.

وقال بعضهم: من عشق الرياسة لم يفلح.

وقال بعضهم: مسكين ابن آدم، جسم معيب، وقلب معيب، وهو يريد أن يخرج منهما صحيحاً، اعتبر بما ترىٰ، واتَّعظ بما تسمع قبل أن تصير عبرة الرائي وعظة السامع.

قال بعضهم: ثلاث من كنَّ فيه استكمل العقل: أن يكون مالكاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً علىٰ شأنه.

ومن قولهم: برد اليأس خير من حرّ الطمع.

ومن كلامهم: دع الكذب حيث ترىٰ أنَّه ينفعك فإنَّه يضرّك، وعليك بالصدق حيث ترىٰ أنَّه يضرّك فإنَّه ينفعك.

الكذّاب شرّ من اللص لأنَّ اللص يسرق مالك، وهذا يسرق عقلك.

في كتاب كشكول البهائي رحمه الله (ص ٥٣٣/ ط الأولىٰ في إيران): كان ابن الهيثم ورعاً زاهداً معظّماً للشريعة علىٰ خلاف ما كان عليه بعض الحكماء، وتصانيفه في الرياضيات أعظم من أن توصف، وكان معظّماً لشأن العلم.

قصده بعض أُمراء سمنان يقال له: سرخاب ليستفيد منه، فقال: إن أعطيتني كلّ شهر مائة دينار علَّمتك الحكمة، فبذل له ذلك، وكان يوصل إليه ذلك شهراً فشهراً ولـمّا عزم علىٰ الانصراف ردَّ إليه ابن الهيثم ما اجتمع ذلك من المال بأسره ولم يأخذ منه شيئاً، وقال: لا حاجة لي في شيء من ذلك، وإنّي أردت أن أختبر رغبتك في اقتناء العلوم، ولـمّا عرفت أنَّه لا قيمة للمال عندك في جنب العلم رغبت في تعليمك، فامتنع الأمير من قبولها وقال: هي لك هدية، فقال: إنَّه لا هدية ولا رشوة ولا أُجرة في تعليم الخير، ولم يأخذها من الأمير.

ومن كلام بعض الحكماء: صاحب القناعة عزيز في عاجله، مثاب في آجله.

ومن كلامهم: اليأس يعزُّ الأسير ويذلُّ الأمير.

وقيل لبعضهم: ما الشيء الذي لا يجوز أن يقال وإن كان حقّاً؟ فقال: ذكر الرجل مآثره.

ومن كلامهم: الدعابة تذهب المهابة.

وقال بعضهم: أسرع الناس رضاءً أسرعهم غضباً، كالحطب أسرعه وقوداً أسرعه خموداً.

ومن كلام بعض الحكماء: خير الأُمور ثلاثة: الحياة، وضعف الحياة، وما هو خير من الحياة، فأمَّا الحياة فالراحة وحسن العيش، وأمَّا ضعف الحياة فالمحمدة وحسن الثناء، وأمَّا ما هو خير من الحياة فرضوان الله تعالىٰ.

وشرُّ الأُمور ثلاثة: الموت، وضعف الموت، وما هو شرٌّ من الموت، فأمَّا الموت فالفاقة والفقر، وأمَّا ضعف الموت فالمذمَّة وسوء الثناء، وأمَّا ما هو شرٌّ من الموت فسخط الله نعوذ بالله منه.

قيل لحكيم: خذ حظّك من الدنيا فإنَّها فانية زائلة عن قريب، فقال الحكيم: فالآن وجب أن لا آخذ حظّي منها.

أوصىٰ بعض الحكماء ابنه وقد أراد سفراً، فقال: يا بني عليك بحسن الشمائل فإنَّها دليل الحرمة، ونقاء الأطراف فإنَّها تشهد بالملوكية، ونظافة البِزَّة[1] فإنَّها تنبئ عن النشؤ في النعمة، وطيب الرائحة فإنَّها تظهر المودَّة، والأدب الجميل فإنَّه يكسب المحبَّة، وليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرك.

قال بعض الحكماء اليونان: ثلاثة لا عار فيهنَّ: المرض، والفقر، والموت.

وقال بعضهم: ثلاث فيها قرَّة عين الرجل: أن يأكل ثمرة شجرة غرسها بيده، وأن يرىٰ ثناء الناس علىٰ ولده، وأن يسمع شعره يغنّىٰ به.

وقال بعض الحكماء: ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: حليم من أحمق، ومؤمن من فاجر، وشريف من وضيع.

وقال بعضهم: المودّات ثلاثة: مودَّة في الله عزَّ وجلَّ لغير رغبة ولا رهبة فهي التي لا يشبها غدر ولا خيانة، ومودَّة مَقِة ومعاشرة، ومودَّة رغبة أو رهبة وهي شرّ المودّات وأسرعها انتقاضاً.

وقال بعضهم: ثلاثة ليس فيهنَّ حيلة: فقر يخالطه كسل، وعداوة يداخلها حسد، ومرض يمازجه هرم.

وقال بعضهم: لا ينبغي للأصاغر أن يتقدَّموا الأكابر إلَّا في ثلاث مواطن: إذا ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً.

---

(١) البزَّة: الشارة الحسنة من الثياب. (العين ٧: ٣٥٣).

وقال بعض الحكماء: ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل في أربعة أشياء: السنّ، والطول، والمال، والحسب.

وعظ بعض الحكماء بعض الملوك بأربع كلمات وقال له: أُحفظها منّي ففيها صلاح ملكك، واستقامة رعيَّتك: لا تعدنَّ عدة لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرَّنَّك المرتقىٰ وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً، واعلم أنَّ للأعمال جزاءً فاتَّق العواقب، واعلم أنَّ للأُمور نفثات فكن علىٰ ضدّه.

قال بعض حكماء اليونانيين: لا يتمُّ جمع المال إلَّا بخمس خصال: التعب في كسبه، والشغل عن الإمرة بإصلاحه، والخوف من سلبه، واحتمال اسم البخل دون مفارقته، ومقاطعة الإخوان بسببه.

قال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يسكن بقعة ليس فيها واحد من خمسة: سلطان حازم، وطبيب عالم، وقاض عادل، ونهر جار، وسوق قائم.

قال بعضهم: لا يحصل العلم إلَّا بخمسة: غريزة موافقة، وجدّ كامل، وكفاية مغنية، وصبر تامّ، ومعلِّم ناصح.

وقال بعضهم: ينبغي للعاقل أن يكون من خمسة علىٰ حذر: الكريم إذا أهانه، واللئيم إذا أكرمه، والعاقل إذا أحرمه، والأحمق إذا مازحه، والفاجر إذا عاشره.

وقال بعض الحكماء: عمارة الدنيا منوطة بستَّة أشياء:

أوَّلها: التوفّر علىٰ المناكح، وقوَّة الداعي إليها لو انقطعت لانقطع التناسل.

ثانيها: الحنوّ علىٰ الأولاد إذ لولاه لزالت البواعث علىٰ التربية، وكان في ذلك هلاك الولد.

ثالثهـا: طـول الآمـال وانبسـاطها، إذ لولاهـا لتُرِكَت الأعمال والعمارات.

رابعها: عدم العلم بمبلغ الأجل ومدَّة العمر، إذ لولا ذلك لم ينبسط الأمل.

وخامسها: اختلاف حال الناس في الغنىٰ والفقر، واحتياج بعضهم إلىٰ بعض بسبب ذلك، إذ لو تساووا في حالة واحدة لم ينتظم معاشهم ألبتة.

وسادسها: وجود السلطان إذ لولاه لأهلك الناس بعضهم بعضاً.

وقال بعضهم: ستّ خصال لا يطيقها إلَّا من كانت نفسه شريفة: الثبات عند حدوث النعمة الجسيمة، والصبر عند حدوث المصيبة، وجذب النفس إلىٰ العقل عند دواعي الشهوة، وكتمان السرّ عن الأصدقاء والأعداء، والصبر علىٰ الجوع، واحتمال الجار السوء.

قال بعض الحكماء: معائب السفر سبعة: مفارقة الإنسان من يألفه، ومقارنة من لا يشاكله، والمخاطرة بما يملكه، والمخالفة لعادته في مأكله ومنامه، ومجاهدة الحرّ والبرد، واحتمال دلَّال الملَّاح والمكاري، والسعي كلّ يوم في تحصيل منزل جديد.

ومن كلام بعضهم: الأماني أحلام المستيقضين، اليأس حرّ والأمل عبد، الأُمنية تضحك من الأُمنية، السلام سُلَّم السلامة، الرشاء رشاء الحاجة.

وقال بعضهم: الزم الصمت إلىٰ أن يلزمك الكلام، ليست العزَّة في حسن البزَّة، ليس حسن الجوار الكفّ عن الأذىٰ ولكنَّه الصبر علىٰ الأذىٰ، من أعزَّ فلسه أذلَّ نفسه، من تأنّىٰ أصاب المنىٰ.

قال بعض الحكماء: شاور من جرَّب الأُمور فإنَّه يعطيك من رأيه ما وقع عليه غالياً وأنت تأخذه مجّاناً.

قال بعضهم: المشاور بين حسنين: صواب يفوز بثمرته، أو خطأ تشاور في مكروهه.

قيل لحكيم: فيمن النعمة؟ فقال: في ثمان: الغنىٰ، والأمن، والصحَّة، والشباب، وحسن الخُلُق، والعزّ، والإخوان، والزوجة الصالحة.

وقيل لحكيم: ما الذي لا يُمَلُّ وإن تكرَّر؟ فقال: ثمانية: خبز البَر، ولحم الضأن، والماء البارد، والثوب الليّن، والفارش الوطي، والرائحة الطيّبة، والنظر إلىٰ من تحبّ، ومحادثة إخوان الصدق.

قال بعض الحكماء: اثنان في العذاب سواء: غني حصلت له الدنيا فهو بها مشغول مهموم موزّع الخاطر، وفقير زُوِيت عنه نفسه تنقطع عليها حسرات، ولا تجد إليها سبيلاً في ذريعة الأمام.

وقال بعضهم: التفرّد عن الخلق لا يحمد إلَّا في ثلاث: سلطان لإنشاء تدبير المملكة، وحكيم لاستنباط الحكمة، ومتنسّك لمناجاة ربّ العزَّة.

من كلام بعض الحكماء: حرام علىٰ النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا حتَّىٰ تسيء إلىٰ من أحسن إليها، إنَّ بقاءك إلىٰ فناء، وإنَّ فناءك إلىٰ بقاء، فخذ من فناءك الذي لا يبقىٰ لبقاءك الذي لا يفنىٰ، اعمل عمل المرتحل فإنَّ حادي الموت يحدوك ليس يعودك.

وقال بعضهم: بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأُمور.

وقال بعضهم: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرح.

وقال بعضهم: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحياؤك من ربّك.

وقال بعضهم: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعاً من السطوة، ولا معقلاً من البطشة.

وقال بعضهم: أحقُّ الناس بالهوان المحدِّث لمن لا يصغي إلىٰ حديثه.

ومن كلامهم: إنَّ الله تعالىٰ خلق الملائكة من عقل بلا شهوة، وخلق البهائم من شهوة بلا عقل، وخلق الإنسان من عقل وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم.

وقال بعضهم: من لم يحتمل ذلّ العلم في بعض عمره عاش في ذلّ الجهل طول عمره.

وكان بعض الحكماء يقول: إنَّ الناس يقولون: افتح عينيك لتبصرنا، وأقول: غمِّض عينيك لتبصر.

قيل لبعض الحكماء: أيّ إخوانك أحبُّ إليك؟ قال: من سدَّ خللي، وقبل عللي، وغفر زللي.

ومن كلام بعض الحكماء: لا تستصغروا شيئاً من المعروف إن قدرتم علىٰ اصطناعه انتظاراً لما هو أكثر منه، فإنَّ اليسير في حال الحاجة أنفع لأهله من ترك الكثير في حال الغنىٰ عنه.

ومن كلام أنوشيروان: حصِّن البلد بالعدل فهو سور لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار ولا يهدمه منجنيق.

وقال بعض الحكماء: من كان عبداً للحقّ فهو حرٌّ حقَّاً.

وقال حكيم آخر: اجعل كتابك عالماً يختلف إليه.

وقال آخر: غضب الأحمق في قوله، وغضب العاقل في فعله.

وقال آخر: من لم يصبر علىٰ كلمة يسمع كلمات.

وقال آخر: احتمال السفيه أيسر من التحلّي بصورته، والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته.

سُئِلَ أنوشيروان: ما أعظم المصائب؟ فقال: أن تقدر علىٰ المعروف فلا تصطنعه حتّىٰ يفوت.

قال الحكماء: إنَّ النساء من خمسة إلىٰ عشر سنين هنَّ من لعبة الملاعيب، ومن عشر إلىٰ خمسة عشر حور العين، ومن خمسة عشر إلىٰ عشرين شحم ولحم ولبن، ومن عشرين إلىٰ ثلاثين أُمَّهات البنات والبنين، ومن ثلاثين إلىٰ أربعين فاقعدوا مع القاعدين، ومن الأربعين إلىٰ الخمسين عجائز في الغابرين، ومن الخمسين إلىٰ الستّين فاقتلوهم بالسيف والسكّين، ومن الستّين إلىٰ السبعين مقامهنَّ في أسفل السافلين، ومن السبعين إلىٰ الثمانين أخوات الشياطين، ومن الثمانين إلىٰ التسعين عذاب الله إلىٰ أهل الأرضين، ومن التسعين إلىٰ المائة عليهنَّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

قال بعض الحكماء لغيره: أُعلِّمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم، قال: ما هما؟ قال:

اخفض الصوت إن نطقت بليل ... والتفت بالنهار قبل المقال
ليس للقول رجعة حين يبدو ... بقبيح يكون أو بجمال[1]

في كتابنا (صوت الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة)[2]: عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «تبع حكيم حكيماً سبع مائة فرسخ

(١) أُنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ١٠: ٤٧ و٤٨.
(٢) صوت الإمام علي في نهج البلاغة ١: ٢٨١.

في سبع كلمات، فلمَّا لحق به قال له: يا هذا، ما أرفع من السماء، وأوسع من الأرض، وأغنىٰ من البحر، وأقسىٰ من الحجر، وأشدُّ حرارةً من النار، وأشدُّ برداً من الزمهرير، وأثقل من الجبال الراسيات؟

فقال له: يا هذا، الحقّ أرفع من السماء، والعدل أوسع من الأرض، وغنىٰ النفس أغنىٰ من البحر، وقلب الكافر أقسىٰ من الحجر، والحريص الجشع أشدُّ حرارةً من النار، واليأس من روح الله ﷻ أشدُّ برداً من الزمهرير، والبهتان علىٰ البريء أثقل من الجبال الراسيات»[1].

وفي كتابنا (نزهة الخاطر)[2]: كان ملك من الملوك من ذوي البصيرة والرأي، والتقىٰ والصلاح، قد اتَّخذ له جملة من الحكماء الروحانيين يستروح بهم ويسكن إلىٰ حكمتهم، وكان أربعة من عظمائهم أقربهم منزلةً منه وأخصّهم عنده: فارسي ويُسمّىٰ المنجِّح، وهندي ويُسمّىٰ المصحِّح، ورومي ويُسمّىٰ المفصِح، وعربي ويُسمّىٰ الموضِّح، فجمعهم يوماً عنده وقال: أيّها الحكماء أُريد أن أسألكم عن أشياء تختلج في ذهني فأجيبوني، قالوا: نعم أيّها الملك سل.

قال: أيّها الحكماء بما السعادة في الدنيا والآخرة، ونجاة النفوس الفاجرة؟ قال الحكيم الفارسي: بالتسليم لأمر الله، قال الحكيم الهندي: بالرضا بقضاء الله، قال الحكيم الرومي: بالتوكّل علىٰ الله، قال الحكيم العربي: بالخشية من أمر الله، والطاعة لله.

فقال: أيّها الحكماء بِمَ تزكو الأعمال ويفوز المرء بعد الانتقال؟ قال الحكيم الفارسي: بطاعة الربّ وعصيان الهوىٰ، قال الحكيم الهندي:

---

(١) أمالي الصدوق: ٣١٧/ ح (٣٦٩/ ١).

(٢) قد تمَّ طبع خلاصة الكتاب من قِبَل مؤسّستنا، تحت عنوان: (ذكريات وخواطر خطيب العلماء).

بكثرة الصيام وبرّ الأيتام، قال الحكيم الرومي: بأداء الشكر والانعطاف علىٰ من شمله الفقر، قال الحكيم العربي: بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فقال: أيّها الحكماء فبما الخلاص والكون مع الخواصّ؟ قال الحكيم الفارسي: بالاجتهاد في العبادة والاعتماد علىٰ الزهادة والاغتنام للإفادة، قال الحكيم الهندي: بتصحيح اليقين، وإيثار الدين، وتحقيق النبيّين، قال الحكيم الرومي: بطول الرحمة، واتّباع الحكمة، والشكر علىٰ النعمة، قال الحكيم العربي: بحسن الصمت، وإزالة المقت، والقيام بواجب الوقت.

فقال الملك: أيّها الحكماء فبِمَ السموّ والافتخار؟ فقال الحكيم الفارسي: بحكمة زاهرة، ونفس طاهرة، ودولة قاهرة، وعشرة فاخرة، قال الحكيم الهندي: بعلوم مضيئة، ونفس رضيّة، ومملكة هنيّة وعطيّة زكيّة، قال الحكيم الرومي: بهداية شاملة، ونفس فاضلة، ونعمة متوالية، ومواهب متواصلة، قال الحكيم العربي: ببصيرة رشيدة، ونفس سعيدة، وولاية حميدة، وسماحة مفيدة.

فقال: أيّها الحكماء فبِمَ دوام الملك وحراسته من الهلكة؟ فقال الحكيم الفارسي: ببسط العدل، وكثرة الفضل، واستشارة أهل العدل، قال الحكيم الهندي: بالقيام بالقسطاس، والإقناط من الناس، وقهر العدوّ بشدَّة البأس، قال الحكيم الرومي: بحسن السيرة في الرعيّة، والعدل في البريّة، والحكم بينهم بالسويّة، وكثرة البذل والعطيّة، قال الحكيم العربي: بجمع الأموال، وحسن الأعمال، وكثرة الإفضال، والرأفة والإجمال.

فقال: أيّها الحكماء فبِمَ زوال النعم والتعرّض لحلول النقم؟ قال الحكيم الفارسي: بالجرأة علىٰ المحارم، والهجوم علىٰ المآثم، وارتكاب

العظائم، واستثقال المكارم، قال الحكيم الهندي: بإهانة السادات، وترك الواجبات، واتّباع الشهوات، قال الحكيم الرومي: بالكسل الفاضح، واستعمال القبائح، وترك القبول من الناصح، والميل من الصالح إلىٰ الطالح، قال الحكيم العربي: باتّباع الفضول، ومشاورة الجهول، وشرب الخمور، والعزف بالطنبور.

فقال الملك: أيّها الحكماء فبِمَ بقاء الملك ودوامه وعلوّه وتمامه؟ فقال الحكيم الفارسي: بإغاثة اللهيف، وإعانة الضعيف، ومنّ المخيف، وإنصاف الدنيّ من الشريف، قال الحكيم الهندي: بتدبير الحكم، وإدرار النعم، وإمداد الكرم، وإنفاذ الهمم، قال الحكيم الرومي: بنفع الأولياء، وقمع الأعداء، وموانسة العقلاء، وإبعاد الجهلاء، قال الحكيم العربي: بكثرة البرّ، وترك الكبر، والصدق في السرّ.

فقال الملك: أيّها الحكماء بِمَ تكمل السعادة وتستوجب الإفادة؟ قال الحكيم الفارسي: بلين الجانب، وإرفاد الطالب، والصبر علىٰ المصائب، والقيام بحقّ الصاحب، قال الحكيم الهندي: ببذل العطايا، والعدل في القضايا، والصبر علىٰ الرزايا، والإحسان في البرايا، قال الحكيم الرومي: بطلب المعالي والنجاح، واصطفاء الثقاة من أهل الصلاح، وترك رقدات الصباح، قال الحكيم العربي: بلين الكلام، وإطعام الطعام، واجتناب الآثام، وإفشاء السلام.

* * *

حكم من نور

(ملتقطات من أئمّة العصمة وباب الرحمة وسادة الأُمَّة عليهم السلام)

نـزيّن كتابنـا ونحليـه هـذا أوّلاً بنبـذ قصـيرة مـن حِكَـم أهـل بيـت العصمة عليهم السلام الذين هم معدن الحكمة وينبوع البلاغة.

[من حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام]:

عن كتابنـا (صـوت الإمـام عـلي عليه السلام في نهـج البلاغـة)[1]: تكلَّـم عـلي أمـير المـؤمنين عليه السلام بتسـع كلـمات، ارتجلهـنّ ارتجـالاً، فقـأن عيـون الحكمـة، وأيتمن جواهر البلاغـة، وقطعـن جميـع الأنـام عـن اللحـاق بواحـدة مـنهنَّ، ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب.

فأمّا اللاتي في المناجـاة، فقـال عليه السلام: «إلهـي كفـىٰ بي عـزّاً أن أكـون لـك عبداً، وكفىٰ بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أُحِبُّ فاجعلني كما تُحِبُّ».

وأمّا اللاتي في الحكمـة، فقـال عليه السلام: «قيمـة كـلّ امـرءٍ مـا يحسـنه، ومـا هلك امرء عرف قدره، والمرء مخبو تحت لسانه».

وأمّا اللاتي في الأدب، فقال عليه السلام: «أُمـنن عـلىٰ مـن شـئت تكـن أمـيره، واحتج إلىٰ من شئت تكن أسيره، واستغن عمَّن شئت تكن نظيره»[2].

ذكـر السـيد الـرضي قدس سره في نهـج البلاغـة تحـت عنـوان: (بـاب المختـار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام)[3]:

---

(١) صوت الإمام علي في نهج البلاغة ١: ٢٨٧ و٢٨٨.

(٢) الخصال: ٤٢٠/ ح ١٤.

(٣) أُنظر: نهج البلاغة: ٤٦٩ - ٤٩٧.

قال عليه السلام: «أَزْرَىٰ بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّه، وَهَانَتْ عَلَيْه نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَه».

وقال عليه السلام: «الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِه، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِه».

وقال عليه السلام: «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ».

وقال عليه السلام: «الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ».

وقال عليه السلام: «هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ».

وقال عليه السلام: «الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَىٰ».

وقال عليه السلام: «الْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ، وَالْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ».

وقال عليه السلام: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالاِحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ».

وقال عليه السلام: «الْمَسْأَلَةُ خِبَاءُ الْعُيُوبِ، وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ».

وقال عليه السلام: «أَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجَالِهِمْ».

وقال عليه السلام «إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ».

وقال عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ».

وقال عليه السلام: «إِذَا قَدَرْتَ عَلَىٰ عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ».

وقـال عليه السلام: «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْه مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ».

وقال عليه السلام: «إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ».

وقال عليه السلام: «أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُ الله بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ».

وقال عليه السلام: «قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ».

وقال عليه السلام: «مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ».

وقال عليه السلام: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ».

وقال عليه السلام: «يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ».

وقال عليه السلام: «امْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَىٰ بِكَ».

وقال عليه السلام: «أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ».

وقال عليه السلام: «إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَىٰ».

وقال عليه السلام: «مَنْ أَسْرَعَ إِلَىٰ النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ».

وقال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً، لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إِنَّ أَغْنَىٰ الْغِنَىٰ الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ. يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ

وَمُصَادَقَةَ الأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّه يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ فَإِنَّه يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّه كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ».

وقال عليه السلام: «لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ».

وقال عليه السلام: «سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ الله مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ».

وقال عليه السلام: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَىٰ قَدْرِ هِمَّتِهِ، وصِدْقُهُ عَلَىٰ قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَىٰ قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَىٰ قَدْرِ غَيْرَتِهِ».

وقال عليه السلام: «الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الأَسْرَارِ».

وقال عليه السلام: «احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ».

وقال عليه السلام: «قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ».

وقال عليه السلام: «عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ».

وقال عليه السلام: «السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ».

وقال عليه السلام: «الْغِنَىٰ فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ».

وقال عليه السلام: «اللِّسَانُ سَبُعٌ إِنْ خُلِّيَ عَنْه عَقَرَ».

وقال عليه السلام: «الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ».

وقال عليه السلام: «أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ».

وحكم علي عليه السلام يقصر عن حصرها هذا الكتاب، فقد جمع ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة منها ألف كلمة، وجمع السيّد الرضي رحمه الله في النهج أكثر منه، وألَّف الآمدي كتاباً ضخماً في ذلك.

نبذ قصيرة من حكم الحسن بن علي عليه السلام:

في حليـة الأوليـاء لأبي نعـيم الحـافظ (ج ١/ ص ٣٥/ ط الأُولىٰ):

... عـن أبي إسـحاق الهمـداني، عـن الحـارث، قـال: سـأل عـلي ابنـه الحسـن عليهما السلام عن أشياء من أمر المروءة:

فقال: «يا بني ما السداد؟»، قال: «يا أبت، السداد دفع المنكر بالمعروف».

قال: «فما الشرف؟»، قال: «اصطناع العشيرة وحمل الجريرة».

قال: «فما المروءة؟»، قال: «العفاف وإصلاح الحال».

قال: «فما الرأفة؟»، قال: «النظر في اليسير ومنع الحقير».

قال: «فما اللؤم؟»، قال: «إحراز المرء نفسه وبذله عرسه».

قال: «فما السماح؟»، قال: «البذل في العسر واليسر».

قال: «فما الشح؟»، قال: «أن ترىٰ ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً».

قال: «فما الإخاء؟»، قال: «المواساة في الشدَّة والرخاء».

قال: «فما الجبن؟»، قال: «الجرأة علىٰ الصديق والنكول عن العدوّ».

قـال: «فـما الغنيمـة؟»، قـال: «الرغبـة في التقـوىٰ والزهـادة في الـدنيا هي الغنيمة الباردة».

قال: «فما الحلم؟»، قال: «كظم الغيض وملك النفس».

قـال: «فـما الغنـىٰ؟»، قـال: «رضىٰ الـنفس بـما قسـم الله تعـالىٰ لهـا وإن قلَّ، وإنَّما الغنىٰ غنىٰ النفس».

قال: «فما الفقر؟»، قال: «شره النفس في كلّ شيء».

قال: «فما المنعة؟»، قال: «شدَّة البأس ومنازعة أعزّاء الناس».

قال: «فما الذلّ؟»، قال: «الفزع عند المصدوقة».

قال: «فما العيّ؟»، قال: «العبث باللحية وكثرة البزق عند المخاطبة».

قال: «فما الجرأة؟»، قال: «موافقة الأقران».

قال: «فما الكلفة؟»، قال: «كلامك فيما لا يعنيك».

قال: «فما المجد؟»، قال: «أن تعطي في القرم وتعفو عن الجرم».

قال: «فما العقل؟»، قال: «حفظ القلب كلّما استوعيته».

قال: «فما الخرق؟»، قال: «معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك».

قال: «فما السفه؟»، قال: «اتّباع الدناة ومصاحبة الغواة».

قال: «فما السناء؟»، قال: «إتيان الجميل وترك القبيح».

قال: «فما الحزم؟»، قال: «طول الأناة والرفق بالولاة».

قال: «فما الغفلة؟»، قال: «تركك المجدّ وطاعتك المفسد».

قال: «فما الحرمان؟»، قال: «تركك حظّك وقد عرض عليك».

قال: «فما السيّد؟»، قال: «الأحمق في ماله، والمتهاون في عرضه، يُشتَم فلا يجيب، والمتحزّن بأمر عشيرته هو السيّد».

إنَّ النفس لتقف حائرة أمام هذا الاسترسال العجيب من الإمام الحسن عليه السلام وعدم تكلّفه في الجواب وإحاطته خبراً بمعاني هذه النقاط الحيويّة، فلن يسع النفس إلَّا الإكبار والإعجاب والاعتراف بالعظمة والخضوع لتلك المواهب العلمية.

وراجع كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل)[1] تجد الكثير من حكمه عليه السلام.

فقرات من حكم الحسين عليه السلام:

من كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل): قال عليه السلام: «الصِّدْقُ عِزٌّ، وَالْكِذْبُ عَجْزٌ، وَالسِّرُّ أَمانَةٌ، وَالْجِوارُ قَرابَةٌ، وَالْمَعُونَةُ صَداقَةٌ، وَالْعَمَلُ

---

(١) كتاب كبير يقع في أربعة مجلّدات لا زال مخطوطاً، وتسعىٰ المؤسّسة جاهدة في طبعه.

تَجْرِبَةٌ، وَالْخُلُقُ الْحَسَنُ عِبادَةٌ، وَالصَّمْتُ زَيْنٌ، وَالشُّحُّ فَقْرٌ، وَالسَّخاءُ غِنىً، وَالرِّفْقُ لُبٌّ»[١].

وقال عليه السلام: «الْحِلْمُ زينَةٌ، وَالْوَفاءُ مُرُوءَةٌ، وَالصِّلَةَ نِعْمَةٌ، وَالاسْتِكْثار صَلَفٌ، وَالْعَجَلَةَ سَفَهٌ، وَالسَّفَهَ ضَعْفٌ، وَالْغُلُوَّ وَرْطَةٌ، وَمُجالَسَةَ أَهْلِ الدِّناءَةِ شَرٌّ، وَمُجالَسَةَ أَهْلِ الْفُسُوقِ رِيْبَةٌ»[٢].

وقال عليه السلام: «مَنْ جادَ سادَ، وَمَنْ بَخِلَ رَذِلَ...، وَمَنْ تَعَجَّلَ لِأَخيه خَيْراً وَجَدَهُ إِذا قَدِمَ عَلَيْهِ غَداً»[٣].

وقال عليه السلام: «حَوائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ الله عزّ وجلّ عَلَيْكُمْ، فَلا تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَعُودَ نِقَماً»[٤].

وقال عليه السلام: «صاحِبُ الْحاجَةِ لَمْ يُكْرِمْ وَجْهَهُ عَنْ سُؤالِكَ، فَأَكْرِمْ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّه»[٥].

وقال عليه السلام: «لا تَتَكَلَّفْ ما لا تُطيقُ، وَلا تَتَعَرَّضْ لِما لا تُدْرِكُ، وَلا تَعِدْ بِما لا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلا تُنْفِقْ إِلَّا بِقَدَرِ ما تَسْتَفيدُ، وَلا تَطْلُبْ مِنَ الْجَزاءِ إِلَّا بِقَدَرِ ما صَنَعْتَ، وَلا تَفْرَحْ إِلَّا بِما نِلْتَ مِنْ طاعَةِ الله، وَلا تَتَناوَلْ إِلَّا ما رَأَيْتَ نَفْسَكَ أَهْلاً لَهُ»[٦].

وقال عليه السلام لابن عبّاس: «لا تَتَكَلَّمَنَّ فيما لا يَعْنيكَ، فَإِنَّني أَخافُ عَلَيْكَ فيهِ الْوِزْرَ، وَلا تَتَكَلَّمَنَّ فيما يَعْنيكَ حَتَّىٰ تَرىٰ لِلْكَلامِ مَوْضِعاً،

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٨٩٨/ ح (١١٠٠/ ٣٢)، عن تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٦.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٣٩٨/ ح (٣٥٠/ ١٣٣)، عن كشف الغمّة ٢: ٢٤٠.

(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٨٩٧/ ح (١٠٩٨/ ٣٠)، عن كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) كشف الغمّة ٢: ٢٤٢.

(٦) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٩١٧/ ح (١١٢٨/ ٦٠).

فَرُبَّ مُتَكَلِّم قَدْ تَكَلَّم بِحَقٍّ فَعيبَ. وَلا تُمارِيَنَّ حَليماً وَلا سَفيهاً، فَإِنَّ الْحَليمَ يُقْليكَ، وَالسَّفيهَ يُؤْذيكَ. وَلا تَقُولَنَّ في أخيكَ الْمُؤْمِنِ إذا تَوارىٰ عَنْكَ إِلَّا ما تُحِبُّ أَنْ يَقُولَ فيكَ إِذا تَوارَيْتَ عَنْهُ، وَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُل يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ بِالإِجْرامِ مَجْزِيٌ بِالاْحْسانِ»[١].

وقال عليه السلام: «دِراسَةُ الْعِلْمِ لِقاحُ المَعْرِفَةِ، وَطُولُ التَّجارُبِ زِيادَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَالشَّرَفُ وَالتَّقْوىٰ وَالْقُنُوعُ راحَةُ الْأَبْدانِ، وَمَنْ أَحَبَّكَ نَهاكَ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْراكَ»[٢].

إلىٰ كثير وكثير من هذه الدرر، راجع كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل) تقل علىٰ ساحل بحر خضم من حكمه عليه السلام.

فقرات من حكم الإمام زين العابدين عليه السلام:

قال عليه السلام: «ضلَّ من ليس له حكيم يرشده، وذلَّ من ليس له سفيه يعضده».

وقال عليه السلام: «أربع فيهنَّ ذلّ: البنت ولو مريم، والدين ولو درهم، والغربة ولو ليلة، والسؤال ولو كيف الطريق».

وقال عليه السلام: «عجبت لمن يحتمي من الطعام لمضرَّته، كيف لا يحتمي من الذنب لمعرّته».

وقال عليه السلام: «من ضحك ضحكةً مجَّ من عقله مجَّةَ علم».

وقال عليه السلام: «إنَّ الجسد إذا لم يمرض أشِرَ، ولا خير في جسد يَأشَر».

وقال عليه السلام: «فقد الأحبَّة غربة».

وقال عليه السلام: «من قنع بما قسم الله له فهو من أغنىٰ الناس».

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٨٩٩/ ح (١١٠٤/ ٣٦)، عن كنز الفوائد للكراجكي: ١٩٤.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين: ٨٨٧/ ح (١٠٧٥/ ٧).

وعن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام قال: «أوصاني أبي، وقال: يا بني لا تصحب خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق، فقلت: جُعلت فداك، من هؤلاء الخمسة؟ قال: لا تصحبنَّ فاسقاً فإنَّه يبيعك بأكلة فما دونها، فقلت: وما دونها؟ قال: يطمع فيها ثمّ لا ينالها.

قلت: ومن الثاني؟ قال: البخيل، فإنَّه يقطع بك أحوج ما تكون إليه.

قلت: ومن الثالث؟ قال: الكذّاب فإنَّه بمنزلة السراب يبعدنَّ منك القريب، ويقرِّب إليك البعيد.

قلت: ومن الرابع؟ قال: الأحمق، فإنَّه يريد أن ينفعك فيضرّك.

قلت: ومن الخامس؟ قال: قاطع الرحم، فإنّي رأيته ملعوناً في ثلاثة مواضع من كتاب الله تعالىٰ»[١].

وقال عليه السلام: «اتَّقوا الكذب الصغير منه والكبير في كلّ جدّ وهزل، فإنَّ الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ علىٰ الكبير».

وقال عليه السلام: «كفىٰ بنصر الله لك أن ترىٰ عدوّك يعمل بمعاصي الله فيك».

وقال عليه السلام: «الخير كلّه صيانة الإنسان نفسه».

وقال عليه السلام: «طلب الحوائج إلىٰ الناس مذلَّة للحياة، ومذهبة للحياء، واستخفاف بالوقار، وهو الفقر الحاضر، وقلَّة طلب الحوائج من الناس هو الغنىٰ الحاضر».

وقال عليه السلام: «إنَّ المعرفة وكمال دين المسلم تركه الكلام فيما لا يعنيه، وقلَّة مرائه وحلمه وصبره وحسن خلقه»[٢].

إلىٰ كثير وكثير، راجع كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

---

(١) أُنظر: الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: ٨٥٩ و٨٦٠ - ٨٦٥.

(٢) أُنظر: تحف العقول: ٢٧٨ و٢٧٩.

نبذ من روائع حكم أبي جعفر محمّد الباقر عليه السلام:

قال عليه السلام: «صانع المنافق بلسانك، وأخلص مودَّتك للمؤمن، وإن جالسك يهودي فأحسن مجالسته».

وقال عليه السلام: «قم بالحقّ، واعتزل ما لا يعنيك، وتجنَّب عدوَّك، واحذر صديقك من الأقوام إلَّا الأمين من خشي الله، ولا تصحب الفاجر ولا تطلعه علىٰ سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله».

وقال عليه السلام: «صحبة عشرين سنة قرابة».

وقال عليه السلام: «من لم يجعل الله له من نفسه واعظاً فإنَّ مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً».

وقال عليه السلام: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خفَّ ميزانه».

وقال عليه السلام: «إنَّما مثل الحاجة إلىٰ من أصاب مالاً حديثاً، كمثل الدرهم في فم الأفعىٰ أنت إليه محوج، وأنت منها علىٰ خطر».

وقال عليه السلام: «أربع من كنوز البرّ: كتمان الحاجة، وكتمان الصدقة، وكتمان الوجع، وكتمان المصيبة».

وقال عليه السلام: «من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيَّته زيد في رزقه، ومن حسن برّه في أهله زيد في عمره».

وقال عليه السلام: «كفىٰ بالمرء غشَّاً لنفسه أن يبصر من الناس ما يعمىٰ عليه من أمر نفسه، أو يعيب غيره بما لا يستطيع تركه، أو يؤذي جليسه بما لا يعنيه».

وقال عليه السلام: «إنَّ لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب».

وقال عليه السلام: «الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»(١).

إلىٰ كثير من هذه الروائع، راجع كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

روائع من حكم الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام:

قال عليه السلام: «إِنَّ الثَّوَابَ عَلَىٰ قَدْرِ الْعَقْلِ»(٢).

وقال عليه السلام: «أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلاً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»(٣).

وقال عليه السلام: «كَمالُ العَقْلِ في ثَلاثَةٍ: التَّواضُعِ لله، وَحُسْنِ اليَقِينِ، وَالصَّمْتِ إلَّا مِن خَير»(٤).

وقال عليه السلام: «مَنْ فَرَّطَ تَوَرَّطَ، وَمَنْ خَافَ الْعَاقِبَةَ تَثَبَّتَ عَنِ التَّوَغُّلِ فِيمَا لَا يَعْلَمُ»(٥).

وقال عليه السلام: «الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ، وَالأَتْقِيَاءُ حُصُونٌ، وَالأَوْصِيَاءُ سَادَةٌ»(٦).

وقال عليه السلام: «لَا يَقْبَلُ اللهُ عَمَلاً إِلَّا بِمَعْرِفَةٍ، وَلَا مَعْرِفَةَ إِلَّا بِعَمَلٍ، فَمَنْ عَرَفَ دَلَّتْه المَعْرِفَةُ عَلَىٰ الْعَمَلِ، ومَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلَا مَعْرِفَةَ لَه، أَلَا إِنَّ الإِيمَانَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ»(٧).

---

(١) أُنظر: تحف العقول: ٢٩٢ - ٢٩٧.

(٢) الكافي ١: ١١ و١٢/ كتاب العقل والجهل/ ح ٨.

(٣) الكافي ١: ٢٣/ كتاب العقل والجهل/ ح ١٧.

(٤) الاختصاص: ٢٤٤.

(٥) الكافي ١: ٢٧/ كتاب العقل والجهل/ ح ٢٩.

(٦) الكافي ١: ٣٣/ باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء/ ح ٥.

(٧) الكافي ١: ٤٤/ باب من عمل بغير علم/ ح ٢.

وقال عليه السلام: «إِنَّمَا المُؤْمِنُ الَّذِي إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْه غَضَبُه مِنْ حَقٍّ، وَإِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاه فِي بَاطِلٍ»[1].

وقال عليه السلام: «إِنَّ اللهَ بِعَدْلِهِ وقِسْطِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالرَّاحَةَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»[2].

وقال عليه السلام: «لَا تُشْعِرُوا قُلُوبَكُمُ الِاشْتِغَالَ بِمَا قَدْ فَاتَ فَتَشْغَلُوا أَذْهَانَكُمْ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ لِمَا لَمْ يَأْتِ»[3].

وقال عليه السلام: «مَنْ أَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ رُضِيَ بِهِ حَكَماً لِغَيْرِهِ»[4].

وقال عليه السلام: «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[5].

وقال عليه السلام: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَتِيهُ إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ»[6].

وقال عليه السلام: «أولىٰ الناس بالعفو أقدرهم علىٰ العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه، ولم يصفح عمَّن اعتذر إليه»[7].

وقال عليه السلام: «احذر من الناس ثلاثة: الخائن، والظلوم، والنمّام، لأنَّ من خان لك خانك، ومن ظلم لك سيظلمك، ومن نَمَّ إليك سينمُّ عليك»[8].

إلىٰ كثير من روائع حكمه عليه السلام، ارجع إلىٰ كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

---

(١) الكافي ٢: ٢٣٣/ باب المؤمن وعلاماته وصفاته/ ح ١١.

(٢) الكافي ٢: ٥٧/ باب فضل اليقين/ ح ٢.

(٣) الكافي ٢: ٣١٦/ باب حبّ الدنيا والحرص عليها/ ح ٧.

(٤) الكافي ٢: ١٤٦/ باب الانصاف والعدل/ ح ١٢.

(٥) الكافي ٢: ٣٠٦/ باب الحسد/ ح ٢.

(٦) الكافي ٢: ٣١٢/ باب الكبر/ ح ١٧.

(٧) بحار الأنوار ٧٥: ٢٢٨/ ح ١٠٥.

(٨) تحف العقول: ٣١٦.

ملتقطات من حكم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

قال عليه السلام: «من اقتصد وقنع بقيت عليه النعمة، ومن بذّر وأسرف زالت عنه النعمة»(١).

وقال عليه السلام: «يَنْبَغِي لِمَنْ عَقَلَ عَنِ الله أَنْ لَا يَسْتَبْطِئَهُ فِي رِزْقِهِ، وَلَا يَتَّهِمَهُ فِي قَضَائِهِ»(٢).

وقال عليه السلام: «التحدّث بنعم الله شكر، وترك ذلك كفر، فاربطوا نعم ربّكم تعالىٰ بالشكر، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا البلاء بالدعاء، فإنَّ الدعاء جُنَّة منجية تردُّ البلاء وقد أُبرم إبراماً»(٣).

وقال عليه السلام: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنْ عَمِلَ حَسَناً اسْتَزَادَ الله، وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئاً اسْتَغْفَرَ الله مِنْه وَتَابَ إِلَيْه»(٤).

وقال عليه السلام: «من استشار لا يُعدَم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً»(٥).

وقال عليه السلام: «اتَّقِ الْمُرْتَقَىٰ السَّهْلَ إِذَا كَانَ مُنْحَدَرُه وَعْراً»(٦).

وقال عليه السلام: «كَانَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: لَا تَدَعِ النَّفْسَ وَهَوَاهَا، فَإِنَّ هَوَاهَا فِي رَدَاهَا، وَتَرْكُ النَّفْسِ وَمَا تَهْوَىٰ أَذَاهَا، وَكَفُّ النَّفْسِ عَمَّا تَهْوَىٰ دَوَاهَا»(٧).

---

(١) تحف العقول: ٤٠٣.

(٢) الكافي ٢: ٦١/ باب الرضا بالقضاء/ ح ٥.

(٣) بحار الأنوار ٤٨: ١٥٠/ ح ٢٥، عن مهج الدعوات: ٢١٨.

(٤) الكافي ٢: ٤٥٣/ باب محاسبة العمل/ ح ٢.

(٥) بحار الأنوار ٧٢: ١٠٤/ ح ٣٧.

(٦) الكافي ٢: ٣٣٦/ باب اتّباع الهوىٰ/ ح ٤.

(٧) المصدر السابق.

وقال عليه السلام: «لَا تَسْتَكْثِرُوا كَثِيرَ الْخَيْرِ، وَلَا تَسْتَقِلُّوا قَلِيلَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ قَلِيلَ الذُّنُوبِ يَجْتَمِعُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَثِيراً، وَخَافُوا اللهَ فِي السِّرِّ حَتَّىٰ تُعْطُوا مِنْ أَنْفُسِكُمُ النَّصَفَ»[1].

وقال عليه السلام لبعض ولده: «إِيَّاكَ وَالْمِزَاحَ فَإِنَّه يَذْهَبُ بِنُورِ إِيمَانِكَ وَيَسْتَخِفُّ بِمُرُوءَتِكَ»[2].

وقال عليه السلام: «اجعلوا لأنفسكم حظّاً من الدنيا بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروءة، وما لا سرف فيه، واستعينوا بذلك علىٰ أُمور الدين فإنَّه روي: ليس منّا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه»[3].

إلىٰ كثير من هذه الروائع، ارجع إلىٰ كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

بعض روائع من حكم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

قال عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتَّىٰ يكون فيه ثلاث خصال: سُنَّة من ربّه، وسُنَّة من نبيّه صلى الله عليه وآله، وسُنَّة من وليّه عليه السلام، فأمَّا السُّنَّة من ربّه فكتمان السرّ، وأمَّا السُّنَّة من نبيّه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس، وأمَّا السُّنَّة من وليّه فالصبر في البأساء والضرّاء».

وقال عليه السلام: «ليس العبادة كثرة الصيام والصلاة، وإنَّما العبادة كثرة التفكّر في أمر الله».

---

(١) الكافي ٢: ٢٨٨/ باب استصغار الذنب/ ح ٢.

(٢) الكافي ٢: ٦٦٥/ باب الدعابة والضحك/ ح ١٩.

(٣) تحف العقول: ٤١٠.

وقال عليه السلام: «لم يخنك الأمين، ولكن ائتمنت الخائن».

وقال عليه السلام: «الصمت باب من أبواب الحكمة».

وقال عليه السلام: «إنَّ الصمت يكسب المحبَّة، وإنَّه دليل علىٰ كلّ خير».

وقال عليه السلام: «صديق كلّ امرء عقله، وعدوّه جهله».

وقال عليه السلام: «التودّد إلىٰ الناس نصف العقل».

وقال عليه السلام: «إنَّ الله يبغض القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

وقال عليه السلام: «لا يتمّ عقل امرء مسلم حتَّىٰ تكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشرّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه، لا يسأم من طلب الحوائج إليه، ولا يملّ من طلب العلم طول دهره، الفقر في الله أحبُّ إليه من الغنىٰ، والذلُّ في الله أحبُّ إليه من العزّ في عدوّه، والخمول أشهىٰ إليه من الشهرة».

ثمّ قال عليه السلام: «العاشرة وما العاشرة»، قيل له: ما هي؟ قال عليه السلام: «لا يرىٰ أحداً إلَّا قال: هو خير منّي وأتقىٰ، إنَّما الناس رجلان: رجل خير منه وأتقىٰ، ورجل شرّ منه وأدنىٰ، فإذا لقىٰ الذي هو شرّ منه وأدنىٰ قال: لعلَّ خير هذا باطن وهو خير له، وخيري ظاهر وهو شرّ لي، وإذا رأىٰ الذي هو خير منه وأتقىٰ تواضع له ليلحق به، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده وطاب خيره، وحسن ذكره، وساد أهل زمانه»[1].

إلىٰ كثير وكثير راجع كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

---

(١) أُنظر: تحف العقول: ٤٤٢ و٤٤٣.

نبذ من حكم الإمام محمّد الجواد عليه السلام:

قال عليه السلام: «من حسن خلق الرجل كفّ أذاه، ومن كرمه برّه لمن يهواه، ومن صبره قلّة شكاه، ومن نصحه نهيه عمّا لا يرضاه، ومن رفق الرجل بأخيه ترك توبيخه بحضرة من يكره، ومن صدق صحبته إسقاطه المؤنة، ومن علامة محبّته كثرة الموافقة وقلّة المخالفة».

وقال عليه السلام: «حسب المرء من كمال المروّة تركه ممّا لا يجمل فيه، ومن حيائه أن لا يلقىٰ أحداً بما يكره...، ومن عقله إنصافه من نفسه، ومن إنصافه قبول الحقّ إذا بان له».

وقال عليه السلام: «إنَّ لله عباداً يخصّهم بدوام النعم، فلا تزال فيهم ما بذلوا لها، فإذا منعوها نزعها عنهم، وحوَّلها إلىٰ غيرهم».

وقال عليه السلام: «ما عظمت نعم الله علىٰ أحد إلَّا عظمت إليه حوائج الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرَض تلك النعمة للزوال».

وقال عليه السلام: «ثلاث خصال تجلب بهنَّ المودَّة: الانصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدَة، والانطواء علىٰ قلب سليم».

وقال عليه السلام: «ثلاث من كنَّ فيه لم يندم: ترك العجلة، والمشورة، والتوكّل علىٰ الله تعالىٰ عند العزم».

وقال عليه السلام: «من نصح أخاه سرّاً فقد زانه، ومن نصحه علانية فقد شانه».

وقال عليه السلام: «عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه، وعنوان صحيفة السعيد حسن الثناء عليه».

وقال عليه السلام: «الحفظ زينة الرواية، وخفض الجناح زينة العلم، وحسن الأدب زينة العقل».

وقال عليه السلام: «الجمال في اللسان، والكمال في العقل»[١].

إلىٰ كثير من ذلك تجده في كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

نبذ من حكم الإمام علي الهادي عليه السلام:

قال عليه السلام: «إنَّ الظالم الحالم يكاد أن يعفي علىٰ ظلمه بحلمه، وإنَّ المحق السفيه يكاد أن يطفئ نور حقّه بسفهه».

وقال عليه السلام: «من جمع لك ودّة ورأيه فاجمع له طاعتك».

وقال عليه السلام: «من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه».

وقال عليه السلام: «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»[٢].

وقال عليه السلام: «من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه».

وقال عليه السلام: «الغنىٰ قلَّة تمنّيك، والرضا بما يكفيك».

وقال عليه السلام: «الناس في الدنيا بالأموال، وفي الآخرة بالأعمال».

وقال عليه السلام: «الحسد ماحق الحسنات، والزهو جالب المقت، والعجب صارف عن طلب العلم داع إلىٰ التخبّط في الجهل، والبخل أذمّ الأخلاق، والطمع سجيّة سيّئة».

وقال عليه السلام: «الهزء فكاهة السفهاء وصناعة الجهّال».

وقال عليه السلام: «العقوق يعقب القلَّة ويؤدّي إلىٰ الذلَّة».

وقال عليه السلام: «المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحلُّ العقدة الوثيقة، وأقلُّ ما فيه أن يكون فيه المغالبة، والمغالبة أُسّ أسباب القطيعة».

وقال عليه السلام: «الحكمة لا تنجع في الطباع الفاسدة».

---

(١) أُنظر: الفصول المهمّة لابن الصبّاغ: ١٠٥٢ - ١٠٥٧..

(٢) أُنظر: تحف العقول: ٤٨٣.

وقال عليه السلام: «خير من الخير فاعله، وأجمل من الجميل قائله، وأرجح من العلم حامله، وشرّ من الشرّ جالبه، وأهول من الهول راكبه».

وقال عليه السلام: «لا تطلب الصفاء ممَّن كدَّرت عليه، ولا الوفاء ممَّن غدرت به، ولا النصح ممَّن صرفت سوء ظنّك إليه، فإنَّما قلب غيرك كقلبك له»[1].

أُطلب الكثير من كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل).

فقرات من حكم الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

قال عليه السلام: «لا تمار فيذهب بهاؤك، ولا تمازح فيُتجرَّأ عليك».

وقال عليه السلام: «من رضي بدون الشرف من المجالس لم يزل الله وملائكته يصلّون عليه حتَّىٰ يقوم».

وقال عليه السلام: «حبُّ الأبرار للأبرار ثواب للأبرار، وحبُّ الفجّار للأبرار فضيلة للأبرار، وبغض الفجّار للأبرار زين للأبرار، وبغض الأبرار للفجّار خزي علىٰ الفجّار».

وقال عليه السلام: «من التواضع السلام علىٰ كلّ من تمرّ به، والجلوس دون شرف المجلس».

وقال عليه السلام: «من الجهل الضحك من غير عجب».

وقال عليه السلام: «من الفواتر التي تقصم الظهر جار إن رأىٰ حسنة أطفاها، وإن رأىٰ سيّئة أفشاها».

وقال عليه السلام: «بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أُعطي حسده، وإن ابتلي خذله».

---

(١) أُنظر: نزهة الناظر للحلواني: ١٣٨ - ١٤٣.

وقال عليه السلام: «الغضب مفتاح كلّ شرّ».

وقال عليه السلام: «أقلُّ الناس راحة الحقود».

وقال عليه السلام: «أورع الناس من وقف عند الشبهة».

وقال عليه السلام: «أعبد الناس من أقام علىٰ الفرائض».

وقال عليه السلام: «أزهد الناس من ترك الحرام».

وقال عليه السلام: «أشدُّ الناس اجتهاداً من ترك الذنوب».

وقال عليه السلام: «من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شرَّاً يحصد ندامة، ولكلّ زارع ما زرع».

وقال عليه السلام: «المؤمن بركة علىٰ المؤمن، وحجَّة علىٰ الكافر».

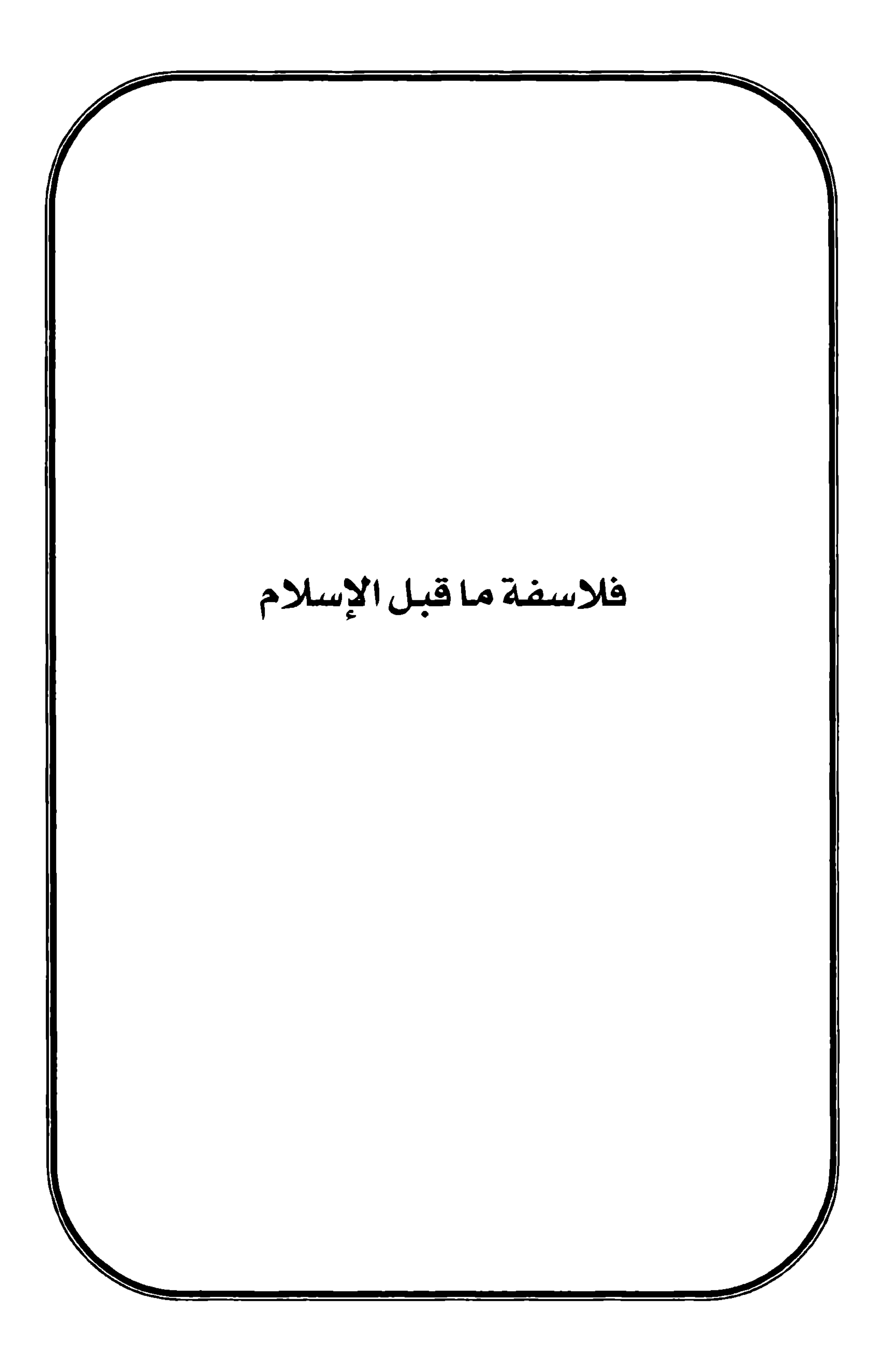
وقال عليه السلام: «قلب الأحمق في فمه، وفم الحكيم في قلبه»[1].

راجع كتابنا (ماذا للأئمّة من الفضائل) تجد الشيء الوافر.

* * *

---

(١) أُنظر: تحف العقول: ٤٨٦ - ٤٨٩.



فلاسفة ما قبل الإسلام

(١)

هِرمِس[1]

هِرمِس واضع الحكمة وصاحب أُسسها، وهو إدريس نبيّ الله بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، وهو المثلّث بالنعمة أي النبوَّة، والحكمة، والملك.

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): كان أوَّل بني آدم أُعطي النبوَّة بعد آدم وشيث عليهما السلام، ولد بمصر قبل الطوفان، وكانوا يسمّونه هرمس الهرامسة، وخرج من مصر وجاب الأرض كلّها، ثمّ عاد إليها ورفعه الله إليه بها، وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره.

ولـمَّا كبر آتاه الله النبوَّة، فنهىٰ الناس من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلّهم وخالفه جلّهم، وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله عزّ وجلّ وتكلَّم الناس في أيّامه باثنين وسبعين لساناً، وعلَّمه الله عزّ وجلّ منطقهم ليعلِّم كلّ فرقة منهم بلسانهم، ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكلّ مدينة، فعرَّفهم السياسة المدنية، وقرَّر لهم قواعدها.

---

(١) البداية والنهاية ١: ١١١؛ إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢؛ بحار الأنوار ١١: ٢٧٠؛ مختار الحكم ومحاسن الكلم: ٧؛ قصص الأنبياء: ٧١؛ منن الرحمن ٢: ٨٤؛ عيون الأنباء ١: ٢٩؛ كشكول البهائي ٢: ١٣.

وهو أوَّل من استخرج الحكمة وعلم النجوم بإلهام مـن الله فـإنَّ الله ﷻ أفهمه أسرار الفلك وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عـدد السـنين والحساب، ولو لا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلىٰ ذلك.

وأقـام للأُمـم سـنناً في كـلّ إقليـم سُنَّة تليـق بأهلـه، وقسَّـم الأرض أربعـة أربـاع، وجعـل علـىٰ كـلّ ربـع ملكـاً يسـوس أمـر المعمـور مـن ذلـك الربع، وتقدَّم إلىٰ كلّ ملك بأن يلزم أهل كلّ ربع بشريعة.

ذكر بعض ما سَنَّه لقومه المطيعين له:

دعـا إلىٰ ديـن الله والقـول بالتوحيـد، وعبـادة الخـالق، وتخلـيص النفـوس مـن العـذاب في الآخـرة بالعمـل الصـالح في الـدنيا، وحـضَّ عـلىٰ الزهـد في الـدنيا والعمـل بالعـدل، وأمـرهم بصـلوات ذكرهـا لهـم عـلىٰ صـفات بيَّنهـا، وأمـرهم بصـيام أيّـام معروفـة مـن كـلّ شـهر، وحثَّهم عـلىٰ الجهاد لأعداء دينهم، وأمـرهم بزكـاة الأمـوال للضـعفاء بهـا، وغلـظ علـيهم في الطهـارة مـن الجنابـة، وحـرَّم علـيهم أكـل لحـم الحـمار والكلـب، وحـرَّم المسكر من كلّ شيء من المشروبات وشدَّد فيه أعظم تشديد.

ووعد أهل ملَّته بأنبيـاء يـأتون مـن بعـده عـدَّة، وعـرَّفهم صـفة النبـيّ، فقـال: يكـون بريئـاً مـن المـذمّات والآفـات كلّهـا، كـاملاً في الفضـائل الممـدوحات، لا يقصـر عـن مسـألة يُسـئل عنهـا ممَّـا في الأرض والسـماء، وممَّا فيـه دواء وشـفاء مـن كـلّ ألم، وأن يكـون مسـتجاب الـدعوة في كـلّ مـا يطلبه، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.

وذكـر القِفطـي في (أخبـار الحكـماء): إنَّ إدريـس عليه السلام هـو أوَّل مـن تحكَّـم في الأشـياء العلويـة، مـن الحركـات النجوميـة، وهـو أوَّل مـن بنـىٰ الهياكـل ومجَّـد الله فيهـا، وهـو أوَّل مـن نظـر في الطـب وتكلَّـم فيـه، وألَّـف

لأهل زمانه قصائد موزونة وأشعاراً معلومة في الأشياء الأرضية والعلوية، وهو أوَّل من أنذر بالطوفان، وذلك أنَّه رأىٰ أنَّ آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار.

وكان مسكنه صعيد مصر تخيَّر ذلك، فبنىٰ هياكل الأهرام ومدائن البرابي، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنىٰ البراني وصوَّر فيها جميع الصناعات وصانعيها نقشاً، وصوَّر جميع آلات الصناع، وأشار إلىٰ صفات العلوم برسوم لمن بعده خشية أن يذهب رسم تلك العلوم.

وثبت في الأثر المروي عن السلف أنَّ إدريس أوَّل من دسَّ الكتب ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أوَّل من خاط الثياب ولبسها، ورفعه الله إليه مكاناً علياً.

ويحكىٰ عن هِرمِس المثلَّث بالحكمة، وهو إدريس النبيّ عليه السلام أنَّه صعد إلىٰ فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة حتَّىٰ شاهد جميع أحوال الفلك، ثمّ نزل إلىٰ الأرض فخبَّر الناس بعلم النجوم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧).

وذكر ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء): أمَّا هِرمِس هذا فهو هِرمِس الأوَّل، ولفظه أرمس، وهو اسم عطارد، ويُسمّىٰ عند اليونانيين أطرسمين وعند العرب إدريس، وعند العبرانيين اخنوخ، وهو ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم عليهما السلام. ومولده بمصر في مدينة منف منها.

قال: وكانت مدَّته علىٰ الأرض اثنتين وثمانين سنة، وقال غيره: ثلاثمائة وخمساً وستّين سنة، قال المبشّر بن فاتك: وكان عليه السلام رجلاً آدم اللون تامّ القامة، أجلح، حسن الوجه، كثّ اللحية، مليح التخاطيط،

تـامّ البـاع، عـريض المنكبـين، ضـخم العظـام، قليـل اللحـم، بـرّاق العـين، أكحل، متأنّياً في كلامـه، كثـير الصـمت، سـاكن، سـاكن الأعضـاء، إذا مشـىٰ أكثـر نظـره إلىٰ الأرض، كثـير الفكـرة، بـه حـدَّة وعبسـة، يحـرّك إذا تكلّـم سبّابته.

وترجمه الشيخ جعفر نقدي في كتابه منن الرحمن كما هـو مـذكور (ج ٢/ ص ٨٤)، وفي دائرة المعارف للبستاني (ج ٢/ ص ٦٧١/ ط الأُولىٰ/ بيروت/ ١٨٧٧م).

وأمَّا ترجمة إدريس علىٰ قول العرب فهي:

إنَّه كان نبيَّاً وملكاً عظيماً، وحكـيماً فريـداً، ولـد بمصـر، وإنَّـه أُرسـل مـن الله نبيَّـاً ومنـذراً لنسـل قابيـل اوقـايين، ليرجعـوا عـن غـيّهم وكفـرهم ويتوبـوا إلىٰ الله ويسـيروا في طريـق الحـقّ والفضـيلة فلـم يصـدّقه أكثـرهم، فشهر عليهم الحـرب وأخـذ يجاهـد في سـبيل الله، وهـو أوَّل مـن فعـل ذلـك، فغلبهم واستعبدهم وسبىٰ نساءهم وأولادهم فكانوا له أرقّاء أيضاً.

وقالوا: إنَّه أوَّل من رسم بعمارة المدن وجمع طلَّاب العلم وقرَّر لهم قواعد السياسة بالمدينة، وإنَّه كان من العلم والحكمة في أرفع المنازل، وإنَّ الله أنزل إليه ثلاثين صحيفة، فعرف أسرار العالم والكون ولم يخف عليه شيء، وإنَّـه أوَّل مـن خطَّ بالقلم واخترع الخياطة ولبس ثياباً ولم تكن قبله.

وإنَّـه اخـترع علـم الهيـأة والنجـوم والحسـاب والرياضـة والمنطـق والطبيعيـات واللاهـوت وأسرار الفلـك، وأنَّـه صـبَّ الرصـاص ذهبـاً بصاصاً، فكان ذلك دليل خبرته بفنّ الكيمياء.

وإنَّـه ألَّـف كتبـاً كثـيرة فيهـا أسرار الربوبيـة، لكـنَّ الله جعلهـا تسـقط مـن يـده في البحـر ويختفـي أثرهـا لحكمـة منـه في كـتم مـا فيهـا مـن الأسرار

التي لا يجوز للناس أن يعرفوها، وإنَّه قبل رفعه إلىٰ السماء بقي ستَّة عشرة سنة لا ينام ولا يأكل ولا يشرب حتَّىٰ بقي عقلاً مجرداً فخالط أرواح الملائكة وحصل له المعراج منسلخاً عن البشرية، وقيل: بل رُفِعَ بجسده، وكان عمره (٣٦٥) سنة...

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

وكانت له عليه السلام مواعظ وآداب وحكم استخرجتها كلّ فرقة بلسانها، تجري مجرىٰ الأمثال والرموز، وأذكر بعضها:

جاء في (أخبار الحكماء): فمن ذلك قوله: لن يستطيع أحد أن يشكر الله علىٰ نعمه بمثل الإنعام علىٰ خلقه.

وقال: من أراد بلوغ العلم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيّئ العمل، كما ترىٰ الصانع الذي يعرف الصنائع كلّها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة، فحبّ الدنيا وحبّ الآخرة لا يجتمعان في قلب أبداً.

وقال: خير الدنيا حسرة، وشرّها ندم.

وقال: إذا دعوتم الله سبحانه وتعالىٰ فأخلصوا النيَّة، وكذا الصيام والصلاة فافعلوا.

وقال: لا تحلفوا كاذبين ولا تهجموا علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ باليمين، ولا تحلّفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم.

وقال: تجنَّبوا المكاسب الدنيئة.

وقال: أطيعوا ملوككم واخضعوا لأكابركم، واملؤا أفواهكم بحمد الله.

وقال: حياة النفس في الحكمة.

وقال: اجتنبوا مصاحبة الأشرار.

وقال: لا تحسدوا الناس علىٰ مؤاتاة الحظّ فإنَّ استمتاعهم به قليل.

وقال: من تجاوز الكفاف لم يغنه شيء.

وفي كتاب (محبوب القلوب): ومن مختار حكم هِرمِس الهرامسة يعني إدريس عليه السلام ومواعظه وآدابه:

قال: أوَّل ما يجب علىٰ المرء الفاضل بطباعه المحمود ونسجه المرضيّ في عبادته، المرجو في عاقبة تعظيم الله سبحانه وتعالىٰ، وشكره علىٰ معرفته، ثمّ بعد ذلك فللناموس حقّ الطاعة والاعتراف له بمنزلته، للسلطان حقّ المناصحة والانقياد، ولنفسه حقّ الاجتهاد والتأدّب في فتح باب السعادة، ولخلصائه عليه حقّ التحلّي لهم بالودّ والتسارع إليهم بالبذل، فإذا أحكم هذه الأُسس لم يبقَ عليه إلَّا كفّ الأذىٰ من العامّة، وحسن المعاشرة بسهولة الخلق.

وقال: لا ترفعوا دعاءكم بالجهالة ولا بالنيّات المدخولة، ولا تعصوه ولا تتعدّوا حدوده ونواميسه، ولا يجرينَّ أحدكم معاملة أخيه علىٰ ما يكره إن تعامل بمثله، وأنفقوا، وتحابّوا، وتآثروا علىٰ الصوم والصلاة جماعة ببصائر صافية نفيسة، ونيّات غير منقسمة ولا مشوبة، وتوآدّوا علىٰ طاعة الله والتقوىٰ له، واتَّبعوا الخير، واجتهدوا فيه، ولتكن تأدية فرائض الله عليكم بالتمام والكمال والخضوع من غير عجب واستكبار، وإيّاكم والتفاخر، وعليكم بالتواضع لكيما تستكثروا ثمار الخير من أعمالكم.

وقال: ابعدوا عن مخالطة الحوبة والفسقة ومتَّبعي الضلال ومفاتيح الأفعال، ولا تحلفوا بالله كاذبين، ولا تهجموا علىٰ الله باليمين،

واعلموا واستيقنوا أنَّ تقوىٰ الله سبحانه هي الحكمة الكبرىٰ، والنعمة العظمىٰ والسبب الداعي إلىٰ الخير، والفاتح لأبواب الفهم والعقل.

وإنَّ الله سبحانه لـمَّا أحبَّ عباده وهب لهم العقل واختصَّ من بينهم أنبيائه بروح القدس، وكشف لهم سرائر الديانة وحقائق الحكمة لإنهاء الضلال وتتبّع الرشاد.

وقال: استشعروا الحكمة واتَّبعوا الديانة، وعوّدوا أنفسكم الوقار والسكينة، وتحلّوا بالآداب الحسنة الجميلة، وتأنّوا في أُموركم ولا تستعجلوا ولا سيّما في مجازاة المسيء، واجعلوا الحياء ماء وجوهكم والخوف من الله سبحانه حشو جنوبكم، واحذروا عواقب الندامة، فبسلوك هذه السبيل تصير النفس معتقة من رقّ الجهالة وعبويّة الحداثة.

ولا تكن أيّها الإنسان كالصبيّ إذا جاع ضغىٰ، ولا كالعبد إذا شبع طغىٰ، ولا كالجاهل إذا ملك بغىٰ.

وقال: اهربوا من المآكل الخبيثة، واجتنبوا من المكاسب الدنيّة فإنَّها وإن ملأت أكياسكم من المال فإنَّها تفرغ قلوبكم من الإيمان.

وقال: عوّدوا أنفسكم إكرام الأخيار والأشرار، فأمَّا الأخيار فلأجل خيرهم، وأمَّا الأشرار فلاستكفاء شرّهم.

وقال: لا تعجّل الذنب بالعقوبة واجعل بينهما للاعتذار طريقاً.

وقال: زلَّة العالم ككسر السفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير.

وقال: غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله.

وقال: الأدب صورة العقل، فحسن عقلك في أدبك.

وقال: من جهل صورة الحكمة جهل صورة ذاته، ومن جهل صورة ذاته كان بغير ذاته أجهل.

وقال: ما ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره، وطاعة نفسه ممتنعة عليه.

وقال: لا تمدح بكمال العقل من لا تكمل عفَّته، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله.

وقال: النصح بين الملأ تقريع.

وقال: إعادة الاعتذار تذكير للذنب.

وقال: الجاهل صغير وإن كان شيخاً، والعالم كبير وإن كان حَدَثاً.

وقال: الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع للبدن، لأنَّ هذين خلاء النفس، وهذين خلاء البدن.

وسُئِلَ: ما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر ممَّا يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغناء، وجهل الأغنياء بفضل العلم.

وقال: العلم بالخير والشرّ هو تمام العلم، وبتمام العلم يكون تمام الحكمة، وبتمام الحكمة سلامة العاقبة.

وقال: الناس اثنان: طالب لا يجد، وواجد لا يكتفي.

وقال: العاقل لا يدع عيوبه بفرح ما ظهر من محاسنه.

وقال: الدليل علىٰ غريزة الجود السماحة عند العسرة، وعلىٰ غريزة الورع الصدق عند السخط، وعلىٰ غريزة الحلم العفو عند الغضب.

وقال: من أفضل الأعمال ثلاثة أشياء: أن تبدّل العدوّ صديقاً، والجاهل عالماً، والفاجر برّاً.

وقال: ما أقلُّ منفعة المعرفة مع غلبة الشهوة، وما أكثر منفعة قلَّة المعرفة مع ملك النفس.

وقال: اجتنب مصاحبة الكذّاب فإنَّه مثل السراب يلمع ولا ينفع.

وقال: من مدحك بما ليس فيك لا تأمنه أن يذمّك بما ليس فيك.

وقال: من تكلَّم بما لا يعنيه، فاته ما يعنيه.

وقال: خير الأصحاب من نسي ذنبك ولم يفزعك به.

وقال: اعطِ الحقّ من نفسك وإن لم تعطه منها كان الحاكم خصمك.

وقال: نعمة الجاهل كروضة في مزبلة.

وقال: رُبَّ كلام جوابه السكوت، ورُبَّ عمل الكفّ عنه أفضل، ورُبَّ خصومة الإعراض عنها أصوب.

وقال: أفضل خلق الله في هذا العالم الإنسان، وأفضل ما في الإنسان العقل، وأفضل أُمور العقل تدبير العقل صاحبه بالعدل، فكفَّ نفسه عن الذنوب.

وقال: إذا كان الملك لا يقدر علىٰ قهر حواسّه وغلبة شهواته، فكيف يقدر علىٰ ضبط خاصَّته، وإذا لم يقدر علىٰ ضبط خاصَّته كيف يقدر علىٰ ضبط أعوانه، وإذا لم يقدر علىٰ ضبط أعوانه كيف يقدر علىٰ ضبط رعيَّته ومملكته، فسبيل الملك يبتدئ بسلطانه علىٰ نفسه ليستقيم علىٰ غيره.

وقال: يكفيك من الحاسد أن يغتمّ وقت سرورك.

وقال لتلميذه: أفهمت ما قلت؟ قال: نعم، فقال: لا أرىٰ عليك أثر الفهم، قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أراك مسروراً، والدليل علىٰ الفهم السرور.

وقال: تزوّد من الخير وأنت مقبل خير من أن تزوّد وأنت مدبر.

وقال: لا يستطيع أحد أن يجد الخير والحكمة إلَّا أن يخلِّص نفسه في المعاد، ولا خلاص له منه إلَّا أن يكون له ثلاثة أشياء: وزير، ووليّ، وصديق، فوزيره عقله، ووليّه عفَّته، وصديقه عمل الصالح.

وفي كتاب (جلاء الكروب في شرح حكمة القلوب) لمؤلِّفه الشيخ عبد الصاحب مظفَّر: قال هِرمِس الهرامسة: لا تمل إلىٰ الدنيا والهوىٰ وحلاوتهما الصادّتين لك عن الشغل بمعادك فتكون كالغريق المشتغل عن التدبير بخلاص نفسه بحمل بضاعته، وهي سبب عطبه.

وقال: إذا كانت الحكماء خالصة، فهي معدن كلّ سعادة، ومظهر كلّ أدب، وماحية لكلّ شرّ.

وقال: أعظم الناس مصيبة في الدنيا والآخرة من لم يكن له عقل ولا حكمة، ولا له في الأدب رغبة، يضيّع وقته بلا تحصيل معاش أو حرمة معاد.

وقال: من جاوز الإكفاف لم يغنه الإكثار.

وقال: المزاح يفني الهيبة كما تفني النار الحطب.

وقال: الفرصة سريعة الفوت، بطيئة العود.

وقال: الحكمة إنَّما هي كالجواهر التي في الأصداف التي في قعور البحار، لا تُنال إلَّا بالغوّاصين الحذّاق.

وقال: الدنيا تهين من كانت تكرمه، والأرض تأكل من كانت تطعمه.

وقال: أمر الدنيا أحقر من أن تُطاع في الأحقار.

هذا ما توصَّلنا إليه من حكم إدريس عليه السلام وآدابه.

* * *

(٢)

اسقلينوس الحكيم[١]

جاء في كتاب (محبوب القلوب): هو أحد الملوك الأربعة الذين صحبوا هِرمِس الهرامسة، وأخذوا عنه الحكمة، وكان أكثرهم أخذاً لها وأشهرهم بذكرها وولَّاه هِرمِس ربع الأرض المعمورة يومئذٍ.

وذكر بقراط في كتاب العهد: إنَّ هذا الاسم في لسان اليونانيين مشتقّ من البهاء والنور.

وزعم ابن جلجل أنَّه تلميذ هرمس المصري، وكان مسكنه أرض الشام، وكان هرمس الهرامسة لـمَّا رفعه الله وبلغ اسقلينوس هذا من أمره حزن لذلك حزناً شديداً تأسّفاً علىٰ ما فات أهل الأرض من بركته وعلمه، وصوَّر صورته في هيكل عبادته، وكانت الصورة علىٰ غاية ما يمكن من إظهار هيأة الوقار والعظمة، ثمّ صوَّره مرتفعاً إلىٰ السماء، وكان إذا دخل الهيكل جلس بين يدي الصورة معظِّماً كحالته في الوجود، ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ أن مات. قيل: إنَّ هذا سبب عبادة الأصنام.

قال مؤلِّف (محبوب القلوب): غرض الحكيم من تصويره وتعظيمه كما في الحياة: أن يفهم الناس أنَّ أهل الحكمة والإيقان لا يموتون لانتقالهم من هذه الدار الفانية إلىٰ الدار الباقية بحيث يلزم

---

(١) إخبار العلماء: ٧؛ مختار الحكم: ٢٨؛ عيون الأنباء ١: ٢٧.

انمحاءهم عن الخواطر والأذهان؛ بل حالتهم في المماة كحالتهم في الحياة، وكأنَّهم ينظرون لهم، فينبغي تعظيمهم وتكريمهم، والاقتداء بأطوارهم الحسنة وأوضاعهم الجميلة وأخلاقهم المستحسنة من الدهور والأزمان.

والجهّال لا يفهمون مرامه ولا يبلغون مقصده، فتصوَّروا أنَّ غرض الحكيم بتصويره عبادة صورته، حتَّىٰ انجرَّ تصوّرهم الباطل بعبادة أصنامهم، ولذا ورد في الشريعة المطهَّرة حرمة تصوير المجسَّمة.

وذكر جالينوس أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ اسقلينوس: لأن أُسمّيك ملكاً أقرب منّي أن أُسمّيك إنساناً.

وحكىٰ أفلاطون عنه أنَّه تحاكم إليه رجل وامرأة في جنين كان في بطن المرأة، فقال اسقلينوس للمرأة: يا ظالمة كان زوجك في هيكل عبدة الشمس يدعو لك بالبقاء والسلامة، وأنت قد واقعت غلام من بني فلان، وستلدين غلاماً مشوَّهاً، فولدت جنيناً في صدره يدان، ثمّ عطف علىٰ الرجل فقال: يا هذا عقدت نكاح هذه المرأة علىٰ ما لا ينبغي، فحصدت منها أكثر ممَّا زرعت.

وحكىٰ عنه أيضاً أفلاطون: أنَّ رجلاً خبَّأ له مالاً، فقال: يا نور الألباب ضاع لي مال فأثره لي فنهض معه إلىٰ منزله فأثاره له، ثمّ قال للرجل: حقيق لمن يسخر بأنعم الله أن يسلبه إيّاها، وسيذهب عنك هذا المال ثمّ لا يعود، وكان كذلك.

وفي تاريخ الفاضل الشهرزوري: إنَّه مستنبط الطبّ، وكان معظَّماً عند اليونانيين يستشفعون بقبره، وكان يُسرَج علىٰ قبره كلّ ليلة ألف قنديل، وكان أكثر الملوك والحكماء من نسله، وكان نسله يتوارثون الطبّ إلىٰ زمن أبقراط.

ومن المشهور في أمره أنَّه رُفِعَ إلىٰ الملائكة في عمود من نور كما حكاه أبقراط، ويقال: إنَّ الله تبارك وتعالىٰ فعل باسقلينوس وسائر من أشبهه هذا الفعل كيما يفنىٰ الجزء الميّت الأرضي منه بالنار، ثمّ يجتذب بعد ذلك جزء الذي لا يقبل الموت ويرفع نفسه إلىٰ السماء.

قال مؤلِّف (محبوب القلوب): لعلَّ المراد من هذا أنَّ الإنسان إذا أباد شهواته الجسمانية بنار الصبر والإمساك عنها وهي التي يزيد بها جزؤه الميّت الأرضي، وزيَّن نفسه الناطقة بعد النفي من هذه الشهوات بالفضائل، وهي التي يُراد بها الارتفاع إلىٰ السماء كان متَّصفاً بصفات الله تعالىٰ.

وذلك أنَّ السالك إذا اتَّصف بصفات ربّه جلَّ شأنه بحيث لم يبقَ في نظر كشفه وشهوده إلَّا الموجود الحقيقي الذي هو مستقلّ في الوجود وصفاته الكماليّة، فصارت صفاته وجميع الصفات الكماليّة راجعة إلىٰ صفاته تعالىٰ التي هي عين ذاته، كما أنَّ جميع الذوات الإمكانية صارت مستهلكة عنده في الذات الأحدية الواجبة، فلم يبقَ له ذات وصفات إلَّا الواجب تعالىٰ وصفاته التي هي عين ذاته، بمعنىٰ الانمحاء والاضمحلال لا بمعنىٰ الاتّحاد والاتّصال كما فهمه ضعفاء العقول، تعالىٰ الله عن ذلك علوَّاً كبيراً.

فتكميل النفوس عندهم يكون بالعلم اليقيني بأن لا موصوف بالوجود ولا بالصفات الكماليّة إلَّا الحقّ تعالىٰ، وإنَّ الصفات التي لها شائبة النقص فهي ترجع إلىٰ الهيئآت الإمكانية ولوازم الماهيّات الجوازية التي لا حقيقة لها كموصوفاتها من حيث موصوف لها.

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ١١): قال جالينوس في صورة اسقلينوس التي يجدونها في هياكلهم: إنَّه صورة رجل ملتحي متزيّن

بجمَّة ذات ذوائب، قال: وإذا تأمَّلته وجدته قائماً مشمِّراً مجموع الثياب، فيدلُّ هذا الشكل علىٰ أنَّه ينبغي للأطبّاء أن يتفلسفوا في جميع الأوقات.

قال: وترىٰ الأعضاء منه التي يُستحىٰ من تكشّفها مستورة والأعضاء التي تحتاج إلىٰ استعمال الصناعة بها معرّاة مكشوفة.

قال: ويصوَّر آخذ بيده عصا معوَّجة ذات شعب من شجرة الخطمي، فيدلُّ بذلك علىٰ أنَّه يمكن في صناعة الطبّ أن يبلغ من استعملها من السنّ أن يحتاج إلىٰ عصا يتّكئ عليها، وبالعصا أيضاً ينبّه النيام، وأمَّا تصويرهم تلك العصا من شجرة الخطمي فلأنَّه يطرد بها وينفي كلّ مرض.

قال حنين ابن إسحاق: نبات الخطمي لـمَّا كان دواء يسخَّن إسخاناً معتدلاً تهيَّأ فيه أن يكون علاجاً كثير المنافع، إذا استعمل مفرداً وحده وإذا خلط بما هو أسخن منه أو أبرد، ولهذا تجد اسمه في اللسان اليوناني مشتقّاً من اسم العلاجات، وذلك بأنَّهم يدلّون بهذا الاسم علىٰ أنَّ الخطمي فيه منافع كثيرة.

قال جالينوس: أمَّا اعوجاجها وكثرة شعبها فيدلُّ علىٰ كثرة الأصناف والتفنّن الموجود في صناعة الطبّ، ولست تجدهم أيضاً تركوا هذه العصا بغير زينة ولا تهيئة لكنَّهم صوَّروا عليها صورة حيوان طويل العمر يلتفّ عليها وهو التنّين، ويقرب هذا الحيوان من اسقلينوس لأسباب كثيرة: أحدها أنَّه حيوان حادّ النظر كثير السهر لا ينام في وقت من الأوقات، وقد ينبغي لمن قصد تعلّم صناعة الطبّ أن لا يتشاغل عنها بالنوم، ويكون في غاية الذكاء ليمكنه أن يتقدَّم فينذر بما هو حاضر وبما من شأنه أن يحدث.

وقالوا: هذا الحيوان أعني التنّين طويل العمر جدّاً حتّىٰ أنَّ حياته يقال إنَّها الدهر كلّه، وقد يمكن في المستعملين لصناعة الطبّ أن تطول أعمارهم.

قال: وإذا صوِّر اسقلينوس جُعِلَ علىٰ رأسه إكليل يتَّخذ من شجرة الغار لأنَّ من شأن هذه الشجرة أن تذهب بالحزن، ولذلك ينبغي للأطبّاء أن يصرفوا عنهم الأحزان لأنَّ اسقلينوس كلَّل بإكليل يذهب بالحزن، ولأنَّ الشجرة هذه أيضاً فيها قوَّة تشفي الأمراض، من ذلك أنَّك تجدها إذا أُلقيت في موضع هربت من ذلك الموضع الهوام ذوات السموم.

ما أُثر عنه من الآداب والحكم:

جاء في كتاب الأخلاق في حديث واحد (ص ٦٥/ ط الأُولىٰ في النجف): قال اسقلينوس الحكيم: من عرف الأيّام لم يغفل الاستعداد.

كم من دهر ذممته فلمَّا صرت إلىٰ غيره حمدته، وكم من أمر يغضب عند أوَّله ويبكي عند آخره عليه.

المتعبّد بغير المعرفة كالحمار الطاحون يدور ويتعب ولا يدري ما هو فاعل.

تعليم الجاهل ازدياد في جهله.

مساءلة اللئيم إهانة للعرض.

المشفق عليكم سيّئ الظنّ بكم، والزاري عليكم كثير المقت لكم، وذو البغضاء عليكم قليل النصيحة لكم.

وفي كتاب محبوب القلوب (ص ٤٤): وقال: إنَّ أحدكم بين نعمة من باريه وبين ذنب عمله، وما يصلح هاتين الحالتين إلَّا الحمد للمنعم والاستغفار من الذنب.

وقال: فوت الحاجة خير من طلبها إلىٰ غير أهلها.

وقال: إعطاء الفاجر تقوية علىٰ فجوره، والصنيعة عند الكفور إضاعة للنعم.

وقال: إنّي لأعجب ممَّن يحتمي من المآكل الرديّة مخافة الضرر، ولا يدع الذنب مخافة الآخرة.

وقال: أكثروا من الصمت فإنَّه سلامة من المقت، واستعملوا الصدق فإنَّه زين النطق.

وقيل له: صف الدنيا، فقال: أمس أُجل، واليوم عمل، وغداً أمَل.

وقال: سبيل من له دين ومروَّة أن يبذل لصديقه نفسه وماله، ولمن يعرفه طلاقة وجهه وحسن محضره، ولعدوّه العدل، وأن يتصاون عن كلّ حال بغيبته.

* * *

(٣)

بقراط الطبيب الفيلسوف[1]

قال البستاني في (دائرة المعارف): بقرط طبيب يونان علىٰ الأصحّ، يُلقَّب بأبي الطبّ، ولد في جزيرة كوس سنة (٤٦٠) قبل الميلاد، ومات في مدينة لاريسا...

وهو الذي رقىٰ الطبّ من درجة خرافية كان الكهنة يقومون بها، وجعله صناعة علمية شريفة.

وجعل للأمراض مصدرين: وهما الهواء والغذاء، ووضع له أُصولاً ليجعله مناسباً لتغييرات الهواء وحالة المريض.

وقرَّر أنَّ الأمزجة أربعة: دمويّة، وبلغميّة، وصفراويّة، وسوداويّة، وأنَّ الأمراض تنشأ عن وقوع نقص أو زيادة في إحداها.

وكان التشريح ممنوعاً في زمانه، ومع ذلك عرف أُموراً كثيرة متعلّقة بتركيب المخ والأحشاء وغيرها، ولكنَّه لم يميِّز بين الشريانات والأوردة والأعصاب وغير ذلك...

وكان يفصد ويحجم ويكوي، ويشخِّص الأمراض بسمّاعة، ويسقىٰ المرض مسهّلات نباتية ومعدنية، ويستخدم الحقن، وبرع جدّاً في

(١) فهرست ابن النديم: ٣٤٦؛ عيون الأنباء ١: ٤١؛ إخبار العلماء: ٦٤؛ معجم أعلام المورد: ١٥؛ مختار الحكم: ٤٤؛ طبقات الأُمم: ٣٦؛ الملل والنحل ٢: ١٠٩؛ منن الرحمن ٢: ٨٣؛ دائرة معارف البستاني ١: ٣٢٣.

تشخيص الأمراض، وقد سبق الجميع إلىٰ قسمتها إلىٰ ثلاثة أدوار، وعيَّن للدور الأخير النهائي أيّاماً.

وكان يسكن مدينة حمص ويتردَّد إلىٰ مدينة دمشق، ويأوي إلىٰ بستان كان له فيها، ويقيم في غياضها للرياضة والتعلّم والتعليم، وكان رجلاً إلهياً يداوي المرضىٰ مجّاناً.

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ٦٤): بقراط بن ابراقلس، إمام فهم معروف مشهور، معني ببعض علوم الفلسفة، وهو سيّد الطبعيين في عصره، وله في الطبّ تآليف شريفة موجزة الألفاظ مشهورة في جميع العالم بين المتعنّين بعلم الطبّ، وكان فاضلاً متألّهاً ناسكاً، يعالج المرضىٰ احتساباً، طوّافاً في البلاد جوّالاً عليها.

قال يحيىٰ النحوي الإسكندري الأُسقف بها في أوَّل الإسلام:

بقراط وحيد دهره، الكامل الفاضل المبيّن، المعلِّم لسائر الأشياء، الذي يُضرَب به المثل، الطبيب الفيلسوف، بلغ به الأمر إلىٰ أن عبده الناس، وسيرته طويلة، وقوّىٰ صناعة القياس والتجربة قوَّة عجيبة لا يتهيَّأ لطاعن أن يتكلَّم فيها، وهو أوَّل من علَّم الغرباء الطبّ وجعلهم شبيهاً بأولاده الذين علَّمهم.

وجاء في كتاب محبوب القلوب (ص ٤٥): بقراط وحيد الدهر، كامل الصناعة، قويت التجربة بقوَّته العظيمة العجيبة، ولـمَّا رأىٰ بقراط صناعة الطبّ قد قربت إلىٰ الذهاب، ووجد كثيراً قد أحدثوا آراء كاذبة في كلّ زمان، خاف أن ينتمي الفساد فيضيع ما خلفه حبرهم اسقلينوس وسورس صناعة الطبّ، فرأىٰ إثباتها في الكتب بأقاويل غامضة وتعليمها علىٰ الغرباء المستحقّين، ذاهباً إلىٰ أنَّ الغريب مستحقّاً أولىٰ من

القريب الغير المستحقّ، وأمر أن يذيعها في سائر البلاد لئلَّا تبيد، وجعل المتعلِّمين للطبّ كالولادة بما عقد في رقابهم من الأيمان.

ولم يكن في الطبّ قبل زمانه كتب بل كان كلّ واحد من آل اسقلينوس يلقّنه إلىٰ من يعلِّمه إيّاه تلقيناً قريباً بالألغاز لئلَّا تخرج هذه الصناعة الشريفة عن أهلها إلىٰ سفالة الناس فتذهب محاسنها، ويكثر الغلط فيها.

وعاش تسعين سنة ومات بالفالج، وكان سكناه في مدينة فو، فلمَّا رأىٰ انقراض صناعة الطبّ لقلَّة الأبناء المتوارثين لها من آل اسقلينوس، قال: إنَّ الجود بالخير يجب أن يكون إلىٰ كلّ أحد يستحقّه قريباً كان أو بعيداً، واتَّخذ الغرباء وعلَّمهم هذه الصناعة الجليلة كما ذكرنا، وعهد إليهم العهد الذي كتبه، وأحلفهم بالأيمان المذكورة فيه، وأن لا يخالفوا ما شرطه عليهم، وأن لا يعلِّموا هذا العلم أحداً إلَّا بعد أخذ العهد عليه.

ووضع عهداً استحلف فيه المتعلِّم لها علىٰ أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة، ثمّ وضع ناموساً عرَّف فيه من الذي ينبغي أن يتعلَّم صناعة الطبّ، ووضع وصيّة عرَّف فيها جميع ما يحتاج إليه الطبيب في نفسه.

وله عناية بالغة في مداواة المرضىٰ، حيث إنَّه استنبط أجناس الأمراض وجهات مداواتها، وإنَّه أوَّل من جدَّد البيمارستان واخترعه وأوجده، وذلك أنَّه عمل بالقريب من داره موضعاً مفرداً للمرضىٰ، وجعل فيه خدماً يقومون بمداواتهم.

ولم يكن له رغبة في خدمة أحد من الملوك بطلب الغنىٰ ولا في زيادة مال يفضل عن احتياجه الضروري، وكان لا يأخذ الأُجرة إلَّا من

الأغنياء دون الفقراء وأواسط الناس، وكان أخذه طوقاً أو إكليلاً أو سواراً من ذهب، وأنَّه أوَّل من دوَّن صناعة الطبّ وأشهرها وأظهرها كما قلنا.

وجعل أُسلوبه في تأليف كتبه علىٰ ثلاث طرائق من طرق التعليم: أحدها علىٰ سبيل اللغز، والثانية علىٰ طريق الإيجاز والاختصار، والثالثة علىٰ طريق التساهل والتليين.

وحكىٰ جالينوس: أنَّ في زمان أردشير ملك الفرس جدّ دارا ابن دارا، عرض للفرس وباء، فوجَّه إلىٰ عامله أن يحمل إلىٰ أبقراط مائة قنطار، وأن يحمله إليه بكرامة وإجلال، وأن يكون هذا المال تقدمة له، ويضمن له أقطاعاً بمثلها، وكتب إلىٰ ملك اليونانيين يستعين به علىٰ إخراجه إليه، فلم يجب أبقراط إلىٰ الخروج عن بلده إلىٰ الفرس، فلمَّا ألَحَّ عليه ملك اليونانيين في الخروج قال له أبقراط: لست أُبدِّل الفضيلة بالمال.

ولبقراط في صدور كتبه وصايا جميلة من التحنّن والشفقة علىٰ النوع، وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والحسد، ولـمَّا كانت كتبه أقدم كتب الطبّ المنقولة إلينا، وهو أشهر الأطبّاء الذين انتهت إليهم صناعة الطبّ، رأيت أن أذكر عهده ووصيَّته لما فيهما من الحكم والمنافع.

نسخة العهد الذي وضعه بقراط:

قال: إنّي أقسم بالله ربّ الحياة والموت، وواهب الصحَّة وخالق الشفاء وكلّ علاج، وأقسم باسقلينوس وبأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً، وأُشهدكم جميعاً علىٰ أن أفي بهذا اليمين وهذا الشرط، وأرىٰ أنَّ المعلِّم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي وأُواسيه في معاشي وإذا احتاج إلىٰ

مال واسيته وواصلته من مالي، وأمَّا الجنس المتناسل منه فأرىٰ أنَّه مساوٍ لإخوتي ولأُعلِّمهم هذه الصناعة إن احتاجوا إلىٰ تعليمها بغير أُجرة ولا شرط، وأشرك أولادي وأولاد المعلِّم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط، وأحلفوا بالناس هو الطّبي (كذا) في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة، وأمَّا غيرها فلا أفعل به ذلك، وأقصد في جميع التدبير طاقتي منفعة المرضىٰ.

وأمَّا الأشياء التي تضرُّ بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي، ولا أُعطي إذا طلب منّي دواءً قتَّالاً، ولا أُشير أيضاً بمثل هذه المشورة، ولذلك أيضاً لا أرىٰ أن أُدني من النسوة فرزجة يسقط الجنين، وأحفظ في تدبيري وصناعتي علىٰ الذكاء والطهارة، ولا أشقّ أيضاً عمَّن في مثانته ولكن أترك ذلك إلىٰ من كانت حرفته هذا العمل، وكلّ المنازل التي أدخلها إنَّما أدخل إليها لمنفعة المرضىٰ، وأنا بحال خارجة عن كلّ جور وظلم وفساد رأي مقصود إليه في سائر الأشياء.

وأمَّا الأشياء التي أُعانيها في أوقات علاج المرضىٰ أو غير أوقات علاجهم في تصرّف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً فأمسك عنها، وأرىٰ أنَّ أمثالها لا ينطق بها من أكل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له أن يكمِّل تدبيره وصناعته علىٰ أفضل الأحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً، ومن تجاوز ذلك قلَّما يصل.

وهذه نسخة ناموس الطبّ لأبقراط:

قال: إنَّ الطبّ أشرف الصنايع كلّها إلَّا أن نقص فهم من ينتحلها، وصار سبباً لثلب الناس إيّاها؛ لأنَّه لم يوجد لها في جميع المدن عيب غير جهل من يدَّعيها

من ليس بأهل للتسمّي بها، إذا كانوا تشبَّهوا الأشباح التي يحضرها أصحاب الحكايات لتلهو الناس بها، فكما أنَّها صور لا حقيقة لها فكذلك هؤلاء الأطبّاء بالاسم كثير وبالفعل قليل جدَّاً.

وينبغي لمن أراد تعلّم صناعة الطبّ أن يكون ذا طبيعة جيّدة مؤاتية، وحرص شديد ورغبة تامّة، وأفضل ذلك كلّه الطبيعة لأنَّها إذا كانت مؤاتية فينبغي أن يقبل علىٰ التعليم لا لضجر لينطبع في فكره ويثمر ثماراً حسنة مثل ما يربّي في نبات الأرض.

أمَّا الطبيعة فمثل التربة، وأمَّا منفعة التعليم فمثل الزرع، وأمَّا تربية التعليم فمثل وقوع البزور في الأرض الجيّدة، فمتىٰ قدّمت العناية في صناعة الطبّ بما ذكرنا ثمّ صاروا إلىٰ المدن لم يكونوا أطبّاء بالاسم بل بالفعل، والعلم كنزٌ جيّد وذخيرة فاخرة لمن علمه، مملوّاً سروراً سرَّاً وجهراً، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء وذخيرة رديّة عديمة السرور، دائم الجزع والتهوّر، والجزع دليل علىٰ الضعف والتهوّر دليل علىٰ قلَّة الخبر بالصناعة.

وصيته المعروفة بترتيب الطبّ:

قال: ينبغي أن يكون المتعلِّم للطبّ في جنسه حرَّاً في طبعه جيّداً، حديث السنّ، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيّد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأي عند المشورة، عفيفاً شجاعاً، غير محبّ للفضَّة، مالكاً لنفسه عند الغضب، ولا يكون تاركاً له في العناية، ولا يكون بليداً، وينبغي أن يكون مشاركاً للعليل، مشفقاً عليه، حافظاً للأسرار، لأنَّ كثيراً من المرضىٰ توقَّفنا علىٰ أمراض بهم لا يحبّون أن يقف عليه غيرنا، وينبغي أن يكون محتملاً للشتيمة لأنَّ قوماً من المبرسمين

وأصحاب الوسواس السوداوي يقابلونا بذلك، وينبغي لنا أن نحتملهم عليه، ونعلم أنَّه ليس منهم وأنَّ السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة.

وينبغي حلق رأسه معتدلاً مستوياً، ولا يستقصي قصّ أظافير يديه ولا تركها تعلو علىٰ أطراف أصابعه، وينبغي أن تكون ثيابه بيضاء نقيّة ليّنة، ولا يكون في مشيه مستعجلاً لأنَّ ذلك دليل علىٰ الطيش، ولا متكاسلاً لأنَّه يدلُّ علىٰ فتور النفس، وإذا دُعي إلىٰ المريض فليقعد متربّعاً ويختبر منه حاله بسكون وتأنٍّ لا بقلق واضطراب، فإنَّ هذا الشكل والزيّ والترتيب عندي أفضل من غيره.

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

قال بقراط الحكيم لـمَّا حضرته الوفاة: خذوا مجامع العلم عنّي: من كثر نومه لانت طبيعته ونديت جلدته، وطال عمره.

وسُئِلَ: ما بال البدن أثور ما يكون عند تناول الدواء؟ فقال: إنَّما يثور الغبار عند كنس البيت.

وقال لرجل رآه يتكلَّم مع امرأة: تنحَّ يا هذا عن الفخّ لا تقع فيه.

وسُئِلَ: أيّ السباع شرّ؟ قال: النساء.

ومن كلامه: الأمن مع الفقر خير من الخوف مع الغنىٰ.

ودخل علىٰ عليل فقال: أنا والعلَّة وأنت ثلاثة، فإن أعنتني عليها بالقبول لما أقول صرنا اثنين وانفردت العلَّة وقوينا عليها، والاثنان إذا اجتمعا علىٰ واحد غلباه.

ومن كلامه: إنَّ النظر إلىٰ وجه العدو يضرّ بالباصرة.

ومن كلامه: إنَّ إصلاح المواد الفاسدة في البدن علىٰ خمسة أوجه:

فما في الرأس بالغرغرة، وما في المعدة بالقيء، وما في البدن بالإسهال، وما في الجلد بالعرق، وما في العروق بالفصد.

وقال: الأبدان إذا لم تكن نقيّة فكلّما غذوتها ازدادت رداءتها، وكذا النفس العليلة الرديّة بالقياس إلىٰ أغذيتها أعني الحكمة.

وقال: ليس بحكيم من عرف السبيل وجاز عنه، ولبس رداء الجهالة، وليس بحيّ من لم يَسع في نجاة نفسه، وموت البلىٰ للجاهل خير من الحياة، لأنَّ الرذائل الطبيعية إذا تعلَّقت بالنفوس وربطتها في حبالتها فهو يموت موتاً بعد موت، وتألّماً بعد تألّم، وربَّما بقيت مربوطة لا ينجو منها، والأسير إذا آثر ذلّ الأسر علىٰ عزّ النجاة والخلاص ورضي بالصغار فالموت له راحة.

وقال: العلم روح والعمل بدن، والعلم أصل والعمل فرع، والعلم والد والعمل مولود، وكان العمل لمكان العلم، ولم يكن العلم لمكان العمل.

وكان يقول: العمل خادم العلم، والعمل غايته، والعلم رائد والعمل مرسل.

وقال: إنَّ الناس اغتذوا في حال الصحَّة بأغذية السباع فأمرضتهم، فغذوناهم بأغذية الطير فصحوا.

وقال: إنَّما نأكل لنعيش، لا نعيش لنأكل.

وقال: مثل المنيّ في الظهر كمثل الماء في البئر، إن نزفته فار وإن تركته غار.

وقال: إذا كان الغدر طباعاً كان الثقة بكلّ أحد عجز، وإذا كان الرزق مقسوماً كان الحرص باطلاً.

وقال: العافية ملك خفيّ لا يعرف قدرها إلَّا من عدمها.

وقال: قلَّة العيال أحد اليسارين.

وقال: من أحبَّ لنفسه الحياة أماتها.

وقال: العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما يبلغك قليله إلىٰ كثيره.

وقال: إنَّ المحبَّة قد تقع بين العاقلين من باب تشاكلهما في العقل، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما في الحمق، لأنَّ العقل يجري علىٰ ترتيب موافق فيجوز أن يتَّفق فيه اثنان علىٰ طريق واحد، والحمق لا يجري علىٰ ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتّفاق بين اثنين.

وقال: ينبغي للمرء أن يكون في دنياه كالمدعوّ في الوليمة إذا أتته الكاس تناولها، وإن جاوزته لم يرصدها ولم يقصد لطلبها، كذلك يفعل في الأهل والمال والولد.

وقال: الصفراء بيتها المرارة، وسلطانها في الكبد، والبلغم بيته المعدة وسلطانه في الصدر، والسوداء بيتها الطحال وسلطانها في القلب، والدم بيته القلب وسلطانه في الرأس.

وقال: الإقلال من الضارّ خير من الإكثار.

وقال: منزلة لطافة القلب في الأبدان كمنزلة النواظر في الأجفان.

وقال: للقلب آفتان وهما الغمّ والهمّ، فالغمّ يعرض منه النوم، والهمّ يعرض منه السهر، وذلك لأنَّ الهمّ فيه فكر في الخوف بما سيكون فمنه يكون السهر، والغمّ لا فكر فيه لأنَّه إنَّما يكون بما قد مضىٰ وانقضىٰ.

وقال: القلب من دم جامد، والغمّ يهيّج الحرارة الغريزيّة، فتلك الحرارة تذيب جامد الدم، لأنَّ العوارض المروهة تهيّج الحرارة وتحمي المزاج فيحلّ جامد الدم فينقص التركيب.

* * *

(٤)

جالينوس فاضل الأطبّاء[1]

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ٨٥): جالينوس الحكيم الفيلسوف الطبيعي اليوناني، من أهل مدينة فرغاموس من أرض اليونانيين، إمام الأطبّاء في عصره، ورئيس الطبيعيين في وقته، ومؤلِّف الكتب الجليلة في صناعة الطبّ وغيرها من علم الطبيعة وعلم البرهان.

قال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: كان جالينوس بعد المسيح بنحو مائتي سنة، وبعد بقراط بنحو ستمائة سنة، وبعد الإسكندر بنحو خمسمائة سنة ونيّف، ولا أعلم بعد أرسطوطاليس أعلم بالطبيعي من هذين الفاضلين، أعني بقراط وجالينوس.

وطاف جالينوس البلاد وجالها وتنقَّل إلىٰ مدينة رومية مرَّتين وسكنها وغزا مع ملكها لتدبير الجرحىٰ، وبرع في الطبّ والفلسفة وجميع العلوم الرياضية وهو ابن سبع عشرة سنة، وأوفىٰ وهو ابن أربع وعشرين سنة، وجدَّد من علم بقراط وشرح كتبه ما كان قد دُرِسَ، وفاق أهل زمانه.

وكان وجيهاً عند الملوك، كثير الوفادة عليهم، كثير التنقّل في

---

(١) موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٣٧١؛ معجم أعلام المورد: ١٥٦؛ إخبار العلماء: ٨٥؛ فهرست ابن النديم: ٣٤٧؛ التنبيه والإشراف: ١١٣؛ عيون الأنباء ١: ١٠٨؛ مختار الحكم: ٢٨٨؛ منن الرحمن ٢: ٨٥.

البلدان، طالباً لمصالح الناس، وأكثر أسفاره كان إلىٰ رومية لأنَّ ملكها كان في أيّامه مجذوماً، وكان يستحضره كثيراً.

وتوفّي جالينوس في أيّام ملك الطوائف، وبين المسيح عليه السلام وبينه سبع وخمسون سنة، والمسيح عليه السلام أقدم منه.

وممَّا يشهد بأنَّ المسيح عليه السلام كان قبل جالينوس ما ذكره جالينوس في كتاب تفسيره لكتاب أفلاطون في السياسة المدنية، وهذا نصّ قوله:

قال جالينوس: قد نرىٰ القوم الذين يدعون نصارىٰ إنَّما أخذوا إيمانهم بالرموز والمعجز، وقد تظهر منهم أفعال المتفلسفين أيضاً، وذلك عفافهم عن الجماع، وإنَّ منهم قوماً لا رجال فقط لكن نساء أيضاً قد أقاموا أيّام حياتهم ممتنعين عن الجماع، ومنهم قوم قد بلغ من ضبطهم لأنفسهم في التدبير في المطعم والمشرب، وشدَّة حرصهم علىٰ العدل أن صاروا غير مقصّرين عن الذين يتفلسفون بالحقيقة)، فبهذا القول قد عُلِمَ أنَّ النصارىٰ لم يكونوا ظاهرين في زمن المسيح بهذه الصورة أعني الرهبنة التي نسقها جالينوس...

هذا ما ذكره القِفطي في أخبار الحكماء وأنَّه لم يكن في عصر المسيح بل متأخّر عنه. وقال آخرون: إنَّ جالينوس الحكيم عاصر المسيح عليه السلام وله مع مراسلات ومكاتبات.

ذكر محمّد الديلمي في كتابه محبوب القلوب (ص ٥١): إنَّ من جملة من ذكر أنَّ جالينوس كان معاصر المسيح البيهقي، فإنَّه قال في كتابه (مشارب التجّار) بأنَّه لو لم يكن من الحواريين إلَّا بولص ابن أُخت جالينوس لكان كافياً، وإنَّما بعثه جالينوس إلىٰ عيسىٰ عليه السلام وأظهر عجزه عن الهجرة إليه لضعفه وكبر سنّه وأنَّه آمن بعيسىٰ عليه السلام، وأمر ابن أُخته بولص بمتابعة عيسىٰ عليه السلام.

وتبعه الفاضل الشهرزوري في تاريخه، فإنَّه قال فيه: لـمَّا بعث الله المسيح كان جالينوس شيخاً هرماً، فبعث جالينوس ابن أُخته بولص إليه واعتذر، وقال: أنا محبوس بالهرم، وكتب إلىٰ المسيح كتاباً، وهذا مضمون الكتاب: يا طبيب النفوس نبيّ الله ربَّما عجز المريض عن خدمة الطبيب بسبب العوارض الجسمانية، وقد بعثت إليك ابن أُختي بولص ليعافي نفسه بالآداب النبويّة.

فلـمَّا وصل بولص إلىٰ المسيح عليه السلام أكرمه وصار من الحواريين، وكتب المسيح عليه السلام إليه: يا من أنصف من علمه الصحيح، المسافة لا تحجب النفوس، والسلام.

جاء في دائرة المعارف لمؤلِّفها العلَّامة الشيخ محمّد حسين الأعلمي (ج ١٤/ ص ٢٣٠): جالينوس معناه فاعل العجائب، وهو أشهر الأطبّاء القدماء اليونانيين الذين كانوا في الدولة القيصرية بعد أبقراط، ومولده ومنشأه بفرغامس بآسيا شرقي قسطنطينية في دولة (نيرون) سادس القياصرة.

نُقِلَ عنه أنَّه قال: ابتدأت بعلم الطبّ ورفضت اللذّات، وشغلت نفسي دهري كلّه بأعمال الطبّ والرؤية والفكر، وسهرت عامّة ليلي فيه.

ثمّ سافر إلىٰ بلاد رومية والإسكندرية ومصر والشام وغيرها من البلاد في طلب العلم، وتعلَّم أوَّلاً من أبيه ومن جماعة المهندسين، وكان أبوه يعتني به العناية البالغة وينفق عليه النفقة الواسعة، وكان مداخلاً للملوك والرؤساء من غير أن يتقيَّد في خدمة أحد من الملوك، بل إنَّهم كانوا يكرمونه، وإذا احتاجوا إليه في مداواة شيء من الأمراض الصعبة دفعوا له العطايا الكثيرة من الذهب وغيره في برئها، وإذا طلبه أحد من

الملوك أن يستمرّ في خدمته سافر من تلك المدينة إلىٰ غيرها لئلَّا يشتغل بخدمة الملك عمَّا هو بسبيله.

وشخص إلىٰ قبرص ليرىٰ القلقطار في معدنه، وكذلك شخص إلىٰ جزيرة كيوش ليرىٰ الطين المختوم، فباشر كلّ ذلك بنفسه وصحَّحه برويته، وسافر أيضاً إلىٰ مصر وأقام بها مدَّة ونظر عقاقيرها ولاسيّما الأفيون في بلد اسيوط من أعمال صعيد مصر، ثمّ خرج متوجّهاً نحو الشام راجعاً إلىٰ بلده فمرض في طريقه ومات بالفرماء، وهي مدينة علىٰ البحر الأخضر في أعمال مصر، وقبره بها، وعاش ثمان وثمانين سنة، وهو مفتاح الطبّ وباسطه وشارحه بعد المتقدّمين.

وذكره الشيخ جعفر نقدي في كتابه منن الرحمن (ج ٢/ ص ٨٥).

الحكم والآداب المنقولة عنه:

في دائرة المعارف لفريد وجدي (ج ٣/ ص ٩/ ط الثانية):

حكم جالينوس:

قال: الهمّ جلاء القلب، والغمّ مرض القلب، ثمّ بيَّن ذلك فقال: الغمّ بما كان والهمّ بما يكون، فإيّاك والغمّ فإنَّ الغمّ ذهاب الحياة، ألَا ترىٰ أنَّ الحيّ إذا غمَّ وجبة تلاشىٰ من الغمّ؟

وقال: إنَّ في القلب تجويفين: أيمن وأيسر، وفي التجويف الأيمن من الدم أكثر من الأيسر، وفيهما عرقان يأخذن إلىٰ الدماغ، فإذا عرض للقلب ما لا يوافق مزاجه انقبض فانقبض لانقباضه العرقان فتشنج لذلك الوجه، وألم له الجسد، وإذا عرض له ما يوافق مزاجه انبسط وانبسط العرقان لانبساطه.

قال: وفي القلب عريق صغير كأُنبوبة مطل علىٰ شغاف القلب وسويدائه، فإذا عرض للقلب غمّ ينقبض ذلك العريق فقطر منه دم علىٰ سويداء القلب وشغافه، فيعصر عند ذلك من العرقين دم يتغشّاه فيكون ذلك عصراً علىٰ القلب حتَّىٰ يحسّ ذلك في القلب والروح والنفس والجسم كما يتغشّىٰ بخار الشراب الدماغ فيكون منه السكر.

وقيل: إنَّ جالينوس أراد امتحان ذلك، فأخذ حيواناً ذا حسٍّ فغمَّه أيّاماً، ولـمَّا ذبحه وجد قلبه ذابلاً نحيفاً قد تلاشىٰ أكثره، فاستدلَّ بذلك علىٰ أنَّ القلب إذا توالت عليه الهموم وضاقت به السبل ذبل ونحل، فحذَّر حينئذٍ من عواقب الهمّ والغمّ.

وقال في كتابه (أخلاق النفس): كما أنَّه يعرض للبدن المرض والقيح، فالمرض مثل الصرع والشوصة، والقيح مثل الحدب وتسقط الرأس وقرعه، كذلك يعرض للنفس مرض وقيح، فمرضها كالغضب، وقيحها كالجهل.

وقال: العلل تجيء للإنسان من أربعة أشياء: من علَّة العلل، ومن سوء السياسة في الغذاء، ومن الخطايا، ومن العدوّ إبليس.

وقال: الموت من أربعة أشياء: موت طبيعي وهو موت الهِرم، وموت مرض وشهوة مثل من يقتل نفسه، أو يقاد منه، وموت الفجأة وهو بغتة.

وقال: القلم طبيب المنطق.

وقال: العشق استحسان ينضاف إليه الطمع.

وقال: العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاث قوىٰ: التخيّل وهو في مقدم الرأس، والفكر وهو في وسطه،

والذكر وهو في مؤخّره، وليس يكمل لأحد اسم عاشق حتَّىٰ يكون إذا فارق من يعشقه لم يخل من تخيّله وفكره وذكره وقلبه وكبده، فيمتنع عن الطعام والشراب باشتغال الكبد، وعن النوم باشتغال الدماغ بالتخيّل بالذكر له والفكر فيه، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت فمتىٰ لم تشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقاً، فإذا لقيه خلت هذه المساكن.

وقال: لا يمنعك من فعل الخير ميل النفس إلىٰ الشرّ.

وقال: رأيت كثيراً من الملوك يزيدون في ثمن الغلام المتأدّب بالعلوم والصناعات، وفي ثمن الدواب الفاضلة في أجناسها، ويغفلون أمر أنفسهم في التأدّب، حتَّىٰ لو عرض علىٰ أحدهم غلام مثله ما اشتراه ولا قبله، فكان من أقبح الأشياء عندي أن يكون المملوك يساوي الجملة من المال والمالك لا يجد من يقبله مجّاناً.

وقال: كان الأطبّاء يقيمون أنفسهم مقام الأُمراء، والمرضىٰ مقام المأمورين الذين لا يتعدّون ما حُدَّ لهم، فكان الطبّ في أيّامهم أنجع، فلمَّا حال الأمر زماننا فصار العليل بمنزلة الأمير، والطبيب بمنزلة المأمور، وخدم الأطبّاء رضاء الإعلاء، وتركوا خدمة أبدانهم، فقلَّ الانتفاع بهم.

وقال: كان الناس قديماً يجتمعون علىٰ الشراب والغناء، فيتفاضلون في ذكر ما تعمله الأشربة في الأمزجة والألحان في قوَّة الغضب، وما يرد كلّ واحد منها من أنواعه، وهم اليوم إذا اجتمعوا فإنَّما يتفاضلون بعظم الأقداح التي يشربونها.

وقال: من عوَّد من صباه القصد في التدبير كانت حركات شهواته معتدلة، فأمَّا من اعتاد أن لا يمنع شهوته منذ صباه، ولا يمنع نفسه شيئاً ممَّا تدعوه إليه، فذلك يبقىٰ شرهاً.

وقال: من كان من الصبيان شرهاً شديد الوقحة فلا ينبغي أن يطمع في صلاحه البتَّة، ومن كان منهم شرهاً ولم يكن وقحاً فلا ينبغي أن يؤيس من صلاحه، ويقدر إن تأدَّب أن يكون إنساناً عفيفاً.

وقال: الحياء خوف المستحي من نفس يقع به عند من هو أفضل منه.

وقال: يتهيَّأ للإنسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه، فإنَّ معرفة الإنسان نفسه هي الحكمة العظمىٰ، وذلك أنَّ الإنسان لإفراط محبَّته لنفسه بالطبع يظنّ بها من الجميل ما ليست عليه، حتَّىٰ أنَّ قوماً يظنّون بأنفسهم شجعاناً وكرماءً وليسوا كذلك، فأمَّا العقل فيكاد أن يكون الناس كلّهم يظنّون بأنفسهم التقدّم فيه، وأقرب الناس إليَّ أن يظنّ ذلك بنفسه أقلّهم عقلاً.

وقال: العجب ظنّ الإنسان بنفسه أنَّه علىٰ الحال التي تحبّ نفسه أن يكون عليها من غير أن يكون عليها.

وقال: كما أنَّ من ساءت حال بدنه من مرض وهو ابن خمسين سنة ليس بمستسلم ويترك بدنه حتَّىٰ يفسد ضياعاً بل يلتمس أن يصحِّح بدنه وإن لم يفده صحَّة تامّة، كذلك ينبغي لنا أن نتمتَّع من أن تزيد أنفسنا صحَّةً علىٰ صحَّتها وفضيلةً علىٰ فضيلتها وإن كنّا لا نقدر أن نلحقها بفضيلة نفس الحكيم.

ورأىٰ جالينوس رجلاً تعظّمه الملوك لشدَّة جسمه، فسأل عن أعظم ما فعله، فقالوا: إنَّه حمل ثوراً مذبوحاً من وسط الهيكل حتَّىٰ أخرجه إلىٰ خارج، فقال لهم: فقد كانت نفس الثور تحمله ولم تكن لها في حمله فضيلة.

وقال: إنَّ العليل يتروَّح بنسيم أرضه كما تتروَّح الأرض الجدبة بالقطر.

وسُئِلَ عن الشهوة، فقال: بليَّة تعبر لا بقاء لها.

وقيل له: لِـمَ تحضر مجالس الطرب والملاهي؟ قال: لأعرف القوي من الطبائع في كلّ حال من منظر ومسمع.

وقيل له: متىٰ ينبغي للإنسان أن يموت؟ قال: إذا جهل ما يضرّه وما ينفعه.

ومن كلامه أنَّه سُئِلَ عن الأخلاط، فقيل له: ما قولك في الدم؟ قال: عبد مملوك وربَّما قتل العبد مولاه، قيل له: فما قولك في الصفراء؟ فقال: كلب عقور في حديقة، قيل له: فما قولك في البلغم؟ قال: ذلك الملك الرئيس كلَّما أغلقت عليه باباً فتح لنفسه باباً، قيل له: فما قولك في السوداء؟ قال: هيهاتَ تلك الأرض إذا تحرَّكت تحرَّك ما عليها.

وقال أيضاً: أنا ممثّل لك مثالاً في الأخلاط الأربعة، فأقول: إنَّ مثل الصفراء وهي المرَّة الحمراء كمثل امرأة سليطة صالحة تقيّة، فهي تؤذي بطول لسانها وسرعة غضبها، إلَّا أنَّها ترجع سريعاً بلا غائلة، ومثل الدم كمثل الكلب، فإذا دخل داراً فعاجله إمَّا بإخراجه أو قتله، ومثل البلغم إذا تحرَّك في البدن مثل ملك دخل بيتك وأنت تخاف ظلمه وجوره، وليس يمكن أن تحدق به وتؤذيه، بل يجب أن ترفق به وتخرجه، ومثل السوداء كمثل الإنسان الحقود الذي لا يتوهَّم فيه بما في نفسه ثمّ يثب وثبة فلا يبقي مكروهاً إلَّا ويفعله، ولا يرجع إلَّا بعد الجهد الصعب.

ومن تمثيلاته الظريفة قوله: الطبيعة كالمدَّعي، والعلَّة كالخصم، والعلامات كالشهود، والقارورة والنبض كالبيّنة، ويوم البحران كيوم القضاء، والفصل والمريض كالمتوكّل، والطبيب كالقاضي.

وقال في تفسيره لكتاب (إيمان أبقراط وعهده): كما أنَّه لا يصحُّ اتّخاذ التمثال من كلّ حجر، ولا ينتفع بكلّ كلب في محاربة السباع، كذلك أيضاً لا تجد كلّ إنسان يصلح لقبول صناعة الطبّ، ولكنَّه ينبغي أن يكون البدن والنفس منه ملائمين لقبولها. (انتهىٰ ما ورد في دائرة المعارف).

وقال: إنَّ ابن الوضيع إذا كان أديباً كان نقص أبيه رائداً في منزلته، وإنَّ ابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائداً في سقوطه.

وقيل: لـمَّا مات جالينوس وُجِدَ في جيبه رقعة فيها مكتوب: أحمق الحمقاء من ملأ بطنه من كلّ ما يجد، وكثرة الطعام يؤدّي إلىٰ الأسقام، والحميّة رأس الطبّ، وما أكلته فلجسمك وما تصدَّقت به فلروحك، وما تركته فلغيرك، والمحسن حيّ وإن مات، والمسيء ميّت وإن بقي في الدنيا، ولم أرَ لابن آدم شيئاً أنفع من قطع علائق الناسوت والرغبة إلىٰ عالم القدس واللاهوت.

وكان منقوشاً علىٰ فصِّ خاتمه: من كتم داءه أعياه شفاؤه.

وقال: رؤساء الشياطين ثلاثة شوائب: الطبيعة، ووساوس العامّة، ونواميس العادة.

وقال: غرضي من الطعام أن آكل لأُحيىٰ، وغرض غيري أن يُحيىٰ ليأكل.

وقال: من رغب عن الحقائر نافس في العظائم.

وقال: العليل الذي يشتهي أرجىٰ من الصحيح الذي لا يشتهي.

وقال: لا ينفع علم من لا يعقله، ولا عقل من لا يستعمله.

وقال: إنَّ شرف الإنسان يُعرَف باجتنابه عن مزاولة الأيّام الخسيسة، وارتكاب الأُمور الدنيّة.

وقد عرض له في آخر عمره إسهال عجز عن علاجه، مع أنَّ همَّته كانت معروفة نحو الأُمور العظام، فعابوه علىٰ ذلك، واستحضر دواءً وطرح قليلاً منه في ماء كثير فجهد، وقال: ليس علىٰ الطبيب إلَّا معالجة المرض وليس عليه مدافعة الموت، ثمّ مات بالإسهال.

ولقد أجاد القائل:

أرسطو مات مدقوقاً ضئيلا ... وأفلاطون مفلوجاً ضعيفا

مضىٰ بقراط مسلولاً ذليلا ... وجالينوس مبطوناً نحيفا

والحكمة في ذلك ليُعلَم أنَّ الله هو القاهر فوق عباده.

وقيل له: أيُّ الأوقات أحمد للأكل؟ قال: أمَّا من قدر فإذا اشتهىٰ، وأمَّا من لم يقدر إذا وجد.

وسمع أنَّ صديقه باع أرضاً وأكل ثمنها، فقال: المعهود أن تأكل الأرض الناس، وهذا قد أكل الأرض.

وقيل له وقد مات ولده: ما كان مرضه؟ قال: مرضه الحياة، قيل له: مات ولدك، قال: يوم ولد.

وتكلَّم معه ثقيل بكلام طويل، فقال له: أمَّا أوَّل كلامك فقد نسيته، وأمَّا آخره فلم أفهمه لملالتي لإطنابك.

وقال له رجل: عندي مائة دينار أُريد أن أُعطيك، قال: إن أعطيتني فهو خير لك، وإن لم تعطني فهو خير لي.

وقيل له: أيُّ طعام ألذّ وأطيب؟ فقال: عند الجوع.

وقيل له: لِمَ لا تشرب الخمر؟ قال: لأنَّها تخمر عقلي.

* * *

(٥)

الحكيم لقمان المذكور في القرآن[1]

في كتاب (محبوب القلوب): هو ابن ياعور بن تاخور وهو آذر، هذا علىٰ قول محمّد بن إسحاق، وعلىٰ قول وهب: هو ابن أُخت أيّوب النبيّ عليه السلام، وقال مقاتل: هو ابن خالته.

وكان عبداً حبشياً أسود اللون غليظ الشفتين مصفَّح القدمين مصطل الركبتين، وكان عبداً لرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين ديناراً ذهباً، ومنشأه وتعليمه وتهذيبه ببلاد الشام، وأدرك داود النبيّ عليه السلام، وقيل: يقتبس منه الحكمة، فيقول له داود: (هنيئاً لك يا لقمان أُوتيت الحكمة ووقيت الفتنة)؛ لأنَّ الأمر الذي فيه داود فقد أُلقي إليه فأبىٰ أن يقبله.

وذلك أنَّه كان نائماً نصف النهار، فنودي: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفةً في الأرض لتحكم بين الناس بالحقّ؟ فأجاب الصوت وقال: إن خيَّرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليَّ فسمعاً وطاعةً، فإنّي أعلم أنَّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني، فقالت الملائكة بصوت لا يرهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها،

---

(١) مختار الحكم: ٢٦٠؛ منن الرحمن ٢: ٧٧؛ البداية والنهاية ٢: ١٤٦؛ قصص الأنبياء للجزائري: ٣٦٧؛ مجمع البحرين ٤: ١٣٣؛ تفسير القرطبي ١٤: ٥٩.

يغشاه الظلم من كلّ مكان، إن أصاب فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنَّة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً، ومن تخيَّر الدنيا علىٰ الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة، فتعجَّبت الملائكة من حسن منطقه. فنام نومة فأُعطي الحكمة، فانتبه وهو يتكلَّم بها.

وفي كتاب (ربيع الأبرار): إنَّ جبرئيل عليه السلام نزل علىٰ لقمان وخيَّره بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمة، فمسح جبرئيل جناحه علىٰ صدره فنطق بها، فلمَّا ودَّعه قال: أُوصيك بوصيّة فاحفظها: يا لقمان، إن تُدخِل يدك إلىٰ مرفقك في فم التنّين خير لك من أن تسأل فقيراً قد استغنىٰ.

وفي (البحار): عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بن محمّد، عن المنقري، عن حمّاد، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ، فقال عليه السلام: «أمَا والله ما أُوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنَّه كان رجلاً قويَّاً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكتاً سكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغنٍ بالعبر، لم ينم نهاراً قطّ، ولم يرَه أحد من الناس علىٰ بول وغائط ولا اغتسال لشدَّة تستّره وعموق نظره وتحفّظه في أمره، ولم يضحك من شيء قطّ مخافة الإثم، ولم يغضب قطّ، ولم يمازح إنساناً قطّ، ولم يفرح لشيء إن أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها علىٰ شيء قطّ، وقد نكح من النساء ووُلِدَ له الأولاد الكثيرة وقدَّم أكثرهم إفراطاً فما بكىٰ علىٰ موت أحد منهم، ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلَّا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتَّىٰ تحاجزا، ولم يسمع قولاً قطّ من أحد استحسنه إلَّا سأل عن تفسيره وعمَّن أخذه، وكان

يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشىٰ القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة ممَّا ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لغرَّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك، ويعتبر ويتعلَّم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان، وكان يداوي قلبه بالتفكّر، ويداري نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلَّا فيما يعنيه، فبذلك أُوتي الحكمة، ومُنِحَ العصمة.

وإنَّ الله تبارك وتعالىٰ أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفةً في الأرض، تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني ربّي بذلك فالسمع والطاعة، لأنَّه إن فعل بي ذلك أعانني عليه وعلَّمني وعصمني، وإن هو خيَّرني قبلت العافية، فقالت الملائكة: يا لقمان لِمَ؟ قال: لأنَّ الحكم بين الناس بأشدّ المنازل من الدين، وأكثر فتناً وبلاءً ما يخذل ولا يُعان، ويغشاه الظلم من كلّ مكان، وصاحبه منه بين أمرين: إن أصاب فيه الحقّ فبالحريّ أن يسلم، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنَّة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون فيه حكماً سريّاً شريفاً، ومن اختار الدنيا علىٰ الآخرة يخسرهما كلتيهما، تزول هذه ولا تُدرَك تلك».

قال: «فتعجَّبت الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمن منطقه، فلمَّا أمسىٰ وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشّاه بها من قرنه إلىٰ قدمه وهو نائم، وغطّاه بالحكمة غطاءً، فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه...»[1].

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٠٩ و٤١٠/ ح ٢، عن تفسير القمّي ٢: ١٦٢ و١٦٣.

وأوَّل ما ظهر من حكمته أنَّ مولاه قبل إعتاقه أمره ذات يوم أن يذبح شاة ويأتيه بأطيب شيء منها، فذبح الشاة فأتاه بالقلب واللسان، فأمره ثانياً بذبح شاة وقال: ائتني منها بأخبث شيء، فأتاه بالقلب واللسان، فسأله سيّده عن ذلك، فأجابه لقمان وقال: إنَّ القلب واللسان إذا طابا وكانا سالمين سلم البدن بسلامتهما من الآفات فهما أطيب شيء في البدن، وإن كانا غير سليمين فلم يسلم البدن، فكانا أخبث شيء فيه.

وفي (البحار): أوَّل ما ظهر من حكم لقمان، أنَّ تاجراً سكر وخاطر[1] نديمه أن يشرب ماء البحر كلّه وإلَّا سلَّم إليه ماله وأهله، فلمَّا أصبح وصحا ندم وجعل صاحبه يطالبه بذلك، فقال لقمان: أنا أُخلِّصك بشرط أن لا تعود إلىٰ مثله، قل: أأشرب الماء الذي كان فيه وقتئذٍ فائتني به، أو أشرب ماءه الآن فسدّ أفواهه لأشربه، أو أشرب الماء الذي يأتي به، فاصبر حتَّىٰ يأتي، فأمسك صاحبه عنه[2].

ومن كتاب الجواهر الروحية (ج ٢/ ص ٣٤٧) هناك ترجمة أحواله مفصَّلة فراجعه:

١ _ سأل الفلَّاح في البستان الفيلسوف سيّد لقمان، فقال له: لماذا أرىٰ القطعة التي لا أخدمها من هذا البستان تنبت أكثر وأكبر من القطعة التي أخدمها؟ فقال الفيلسوف سيّد لقمان: هذا فعل الطبيعة، فضحك لقمان، وأخذ سيّده علىٰ جانب وقال له: قل للفلَّاح إنَّ هذه مسألة صغيرة لا قيمة لها، وعبدي هو الذي يجيب عليها، ففعل سيّده، فذهب لقمان للفلَّاح وقال له: إنَّ الأرض تشبه امرأة ذات أولاد

(١) أي: راهن.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤٣٣/ ح ٢٦.

فتزوَّجت برجل آخر ذي أولاد من امرأة غيرها، فهي تلتفت إلىٰ أولادها ليكونوا أحسن من أولاد الزوج.

٢ _ إنَّ امرأة سيّده غضبت، فاشترىٰ سيّده أصنافاً من الحلوىٰ إرادة صلحها، وقال: اعطها لحبيبتي، فأعطاها لكلبة عند سيّده _ وكان يحبّها _، فلمَّا رجع سأل زوجته عن الحلوىٰ فقالت: لم يأتني شيء، فسأل لقمان؟ فقال: أنا أعطيتها لحبيبتك كما أمرت، لأنَّها تتحمَّل الذلّ والإهانة، وتُضرَب ثمّ ترجع لك، فأمَّا المرأة فإنَّها غير حبيبة لأنَّها تطلب الطلاق لغير سبب.

٣ _ إنَّ زوجة سيّده غضبت، وأبت الرجوع من بيت أهلها، فقال له: اشتر أشياءً لوليمة وادعُ لها من أحببت، وأشع أنَّك تريد الدخول بامرأة غيرها، فلا بدَّ أنَّها ترجع عناداً أو غيرةً.

٤ _ جاء لسيّده ضيوف أعزّاء، فقال له: اشتر أحسن كلّ شيء، فاشترىٰ ألسنة الدواب، كالثور، والكبش، والجاموس، وأمر الطبّاخ أن ينوِّع الطعام، فلمَّا أكل الضيوف سأموا لأنَّهم وجدوا أوَّل الطعام وآخره اللسان، فقال له سيّده: ألم أقل لك: اشتر أحسن كلّ شيء؟ قال: وأيُّ شيء أحسن من اللسان، هو رابطة العائلات، ومفتاح العلوم وآلة الحقّ، وبه تُبنىٰ المدن وتُضبَط، وبه يحصل التعليم وإلزام الحجَّة، والحكم في الأُمم، فقال: لك الحقّ.

وفي اليوم الثاني دعاه وقال: اشتر أقبح كلّ شيء في السوق، فأعدَّ الطعام كاليوم الأوَّل، فلمَّا سألوه قال: إنَّ اللسان أقبح كلّ شيء، هو أبو المتناقضات، ورأس المشاكل والدعاوي، ومنبع الشقاق والحروب، وإن قيل عنه: آلة الحقّ فهو آلة الغلط والنميمة، وبه تُخرَب المدن، وبه المسبَّة، وبه العار، فقال بعض الضيوف: إنَّ هذا في إمكانه أن يُقنِع كلّ فيلسوف.

وفي كتاب محبوب القلوب (ص ٥٦): وكان سيّده أمره أن يزرع له في أرضه السمسم، فزرع الشعير، فلمّا دنا الحصاد قال له سيّده: لِمَ زرعت الشعير وقد أمرتك بزرع السمسم؟ فقال لقمان: كنتُ رجوتُ من الله أن ينبت لك السمسم، فقال له سيّده: هل يكون ذلك ممكناً؟ فقال لقمان: أراك تعصي الله تعالىٰ وترجو منه الجنَّة، فقلت: لعلَّ ذلك يكون، فبكىٰ سيّده وتاب علىٰ يده فأعتقه.

وكان يوماً يعظ الناس فمرَّ عليه رجل من عظماء بني إسرائيل، فرأىٰ زحام الناس عليه، فأتىٰ الحلقة وغمز عنقه، وقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال: نعم، قال: بِمَ بلغت هذه المنزلة؟ قال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعني، فانصرف عنه متعجِّباً.

الأمثلة التي وضعها لولده وغيره:

لـمَّا قربت وفات لقمان أوصىٰ ابنه بوصايا كثيرة جامعة لخير الدنيا والآخرة:

فمنها: أنَّه أوصاه بثلاثة أشياء وقال: يا بني لا تفش سرَّك بين يدي امرأتك، ولا تستقرض من جديد الكيس، ولا تواخي من الشرطي أبداً.

فلمَّا توفي لقمان أراد ابنه يجرِّب وصيَّته، فذهب إلىٰ السوق واشترىٰ شاة مسلوخة وجعلها في جوالق، فأتىٰ إلىٰ امرأته وقال: إنّي قتلت نفساً، وأدفنها في بيتي فلا تقولي عند أحد، فدفنها عندها، فذهب إلىٰ أحد جديد الكيس فاقترض منه، وأوقع المحبَّة مع شرطي، فلمَّا مضت أيّام تشاجر مع امرأته فضربها، فصاحت وقالت: قتلت رجلاً وتريد أن تقتلني، فأخبرت الملك بذلك، فهرب إلىٰ بيت الشرطي، فلمَّا ذهب

الشرطي عند الملك ورأىٰ المرأة عنده، فقال الملك: أين أطلبه؟ فقال الشرطي: أنا أعرف مكانه لأنَّه صديقي، فذهب إليه ليأخذه فقال له: سبحان الله أنت صديقي وقد التجأت إليك. قال الشرطي: هذا دم وأمر الأمير أشدُّ من أن أكتمك عنه، فأخذ به يجرّه إلىٰ الأمير، إذ وصل إليه صاحب الدين فتعلَّق به وقال: لعلَّك تُقتَل أو تُصلَب فأين مالي؟ قال: اصبر حتَّىٰ أخلص من أيديهم، فقال: لا أُؤجّلك حتَّىٰ تقضي ديني أوَّلاً.

فلمَّا دخل علىٰ الملك قال له الملك: يا بن لقمان ما كنت جديراً بهذا، فلِمَ قتلت نفساً من غير حلِّها؟ قال: أعزَّ الله الأمير أرسل أحداً حتَّىٰ يحضر القتيل، ففتَّشوا وفتحوا رأس الجوالق فأخرجوا شاةً مسلوخة، فضحك الأمير فقال: كيف الحال؟ فقال: إنَّ أبي أوصاني بثلاثة أشياء فأردت أن أُجرّبها فجرَّبتها فكان كما قال.

وفي تاريخ ابن الجوزي: إنَّ لقمان أرسل ابنه إلىٰ غريم كان في قرية أُخرىٰ ليأخذ منه ديناً عليه، فقال: يا بني، إن استقبلك من هو أكبر منك سنّاً ويصاحبك فلا تخالف أمره، فإذا مررت بشجرة فلا تنزل تحتها، وإذا دخلت القرية فيعرضون عليك امرأة فلا تتزوَّجها، وإذا دخلت علىٰ المديون فلا تلبث عنده بالليل، ولكن لا تخالف أمر الشيخ.

فلمَّا خرج ابنه وبلغ رأس الطريقين، رأىٰ شيخاً فسلَّم عليه فقال الشيخ: إلىٰ أين يا فتىٰ؟ قال: إلىٰ القرية الفلانية، فقال: الصحبة، فصاحب الشيخ وقال: به أمرني أبي، فلمَّا قرب إلىٰ الشجرة مال عنها ولم ينزل تحتها، قال الشيخ: انزل، فقال: إنَّ أبي نهاني عنه، فقال الشيخ: فلا بأس، فنزلا فهبطت حيّة من الشجرة وأرادت أن تلدغه فقتلها الشيخ

وجعل رأسها في مخلاة، فلمَّا قدما القرية عرضوا عليه بنتاً فأبىٰ عن ذلك وقال: إنَّ أبي نهاني عنه، فقال الشيخ: تزوَّج بها ولا بأس ولكن لا تجامعها بغير إذني، فتزوَّجها وأخبره، فجاء الشيخ ودفع رأس الحيّة إليه وقال: خذه وضعه في ساعة الزفاف علىٰ مجمرة من النار تحت ذيل المرأة، فلـمَّا فعل ذلك خرجت منها حيّة فقتلها الشيخ، وكانت المرأة كلَّما تزوَّجها أحد كان يموت الرجل من ليلته فيقتسمون ماله علىٰ الورثة، فلـمَّا كان الصبح اجتمعت الورثة والجماعة فلـمَّا رأوا إنَّ الشاب لم يمت دفعوا البنت مع الأموال إليه.

ثمّ ذهب إلىٰ المديون فقال له: امكث معنا الليلة، قال: إنَّ أبي نهاني عن ذلك، فقال الشيخ: لا بأس، فلـمَّا كان الليل وضعوا له سريراً علىٰ شاطئ البحر حتَّىٰ يجيء الموج فيختلصه، ووضعوا سريراً آخر أبعد لابنهم، فلـمَّا جنَّ الليل جاء الشيخ ووضع سريره موضع سرير ابنهم وسرير ابنهم موضع سريره، فأغرض الموت ابنهم ونجىٰ هو من الغرق، فلمَّا أصبح أخذ الدراهم ورجع مع المرأة إلىٰ الشيخ وقال: وهبت نصف مالي لك فإنَّه كان ببركتك، قال الشيخ: بارك الله لك فيها، فأنا الخضر، وبلِّغ أباك منّي السلام.

في (البحار) نقلاً عن كتاب (فتح الأبواب) للسيّد بن طاووس، قال: روي أنَّ لقمان الحكيم قال لولده في وصيَّته: لا تعلِّق قلبك برضىٰ الناس ومدحهم وذمّهم فإنَّ ذلك لا يحصل ولو بالغ الإنسان في تحصيله بغاية قدرته، فقال ولده: ما معناه؟ أحبّ أن أرىٰ لذلك مثالاً أو فعالاً أو مقالاً، فقال له: أخرج أنا وأنت، فخرجا ومعهما بهيمة فركبها لقمان وترك ولده يمشي وراءه، فاجتازا علىٰ قوم فقالوا: هذا شيخ قاسي

القلب، قليل الرحمة، يركب هو الدابّة وهو أقوىٰ من هذا الصبي، ويترك هذا الصبي يمشي وراءه، وإنَّ هذا بئس التدبير! فقال لولده: سمعت قولهم وإنكارهم لركوبي ومشيك؟ فقال: نعم، فقال: اركب أنت يا ولدي حتَّىٰ أمشي أنا، فركب ولده ومشىٰ لقمان، فاجتازا علىٰ جماعة أُخرىٰ فقالوا: هذا بئس الوالد، وهذا بئس الولد، أمَّا أبوه فإنَّه ما أدَّب هذا الصبي حتَّىٰ يركب الدابّة ويترك والده يمشي وراءه، والوالد أحقُّ بالاحترام والركوب، وأمَّا الولد فإنَّه عقَّ والده بهذه الحال، فكلاهما أساءا في الفعال! فقال لقمان لولده: أسمعت؟ فقال: نعم، فقال: نركب معاً الدابّة، فركبا معاً، فاجتازا علىٰ جماعة فقالوا: ما في قلب هذين الراكبين رحمة، ولا عندهم من الله خير، يركبان معاً الدابّة يقطعان ظهرها ويحمّلانها ما لا تطيق، لو كان قد ركب واحد ومشىٰ واحد كان أصلح وأجود، فقال لقمان: أسمعت؟ فقال: نعم، فقال: هات حتَّىٰ نترك الدابّة تمشي خالية من ركوبنا، فساقا الدابّة بين أيديهما وهما يمشيان، فاجتازا علىٰ جماعة فقالوا: هذا عجيب من هذين الشخصين، يتركان دابّة فارغة تمشي بغير راكب ويمشيان! وذمّوهما علىٰ ذلك كما ذمّوهما علىٰ كلّ ما كان، فقال لولده: ترىٰ في تحصيل رضاهم حيلة لمحتال؟ فلا تلتفت إليهم، واشتغل برضىٰ الله جلَّ جلاله، ففيه شغل شاغل، وسعادة وإقبال في الدنيا ويوم الحساب والسؤال[1].

وقيل: إنَّ مولاه دخل المخرج فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان: إنَّ طول الجلوس علىٰ الحاجة يفجع منه الكبد، ويورث الباسور، ويصعد

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٣٣ و٤٣٤/ ح ٢٧، عن فتح الأبواب: ٣٠٧ و٣٠٨.

الحرارة إلىٰ الرأس، فاجلس هوناً، وقم هوناً. قال: فكتب حكمته علىٰ باب الحشّ.

قال عبد الله بن دينار: قدم لقمان من سفر فلقي غلامه في الطريق فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات، قال: ملكت أمري. قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جُدِّدَ فراشي. قال: ما فعلت أُختي؟ قال: ماتت، قال: سترت عورتي. قال: ما فعلي أخي؟ قال: مات، قال: انقطع ظهري.

وقيل له: ما أقبح وجهك؛ قال: تعيب علىٰ النقش أو علىٰ فاعل النقش؟

وقيل: إنَّه دخل علىٰ داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلمَّا أتمَّها لبسها، وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله، فقال له داود عليه السلام: بحقّ ما سُمّيت حكيماً.

الحكم والآداب والمواعظ التي رسمها لقمان:

في (البحار) عن الأوزاعي: إنَّ لقمان الحكيم لـمَّا خرج من بلاده نزل بقرية بالموصل يقال لها: كوماس، قال: فلمَّا ضاق بها ذرعه واشتدَّ بها غمّه، ولم يكن أحد يتَّبعه علىٰ أثره، أغلق الأبواب وأدخل ابنه يعظه. فقال: يا بني، إنَّ الدنيا بحر عميق هلك فيها ناس كثير، تزوَّد من عملها، واتَّخذ سفينة حشوها تقوىٰ الله، ثمّ اركب الفلك تنجو، وإنّي لخائف أن لا تنجو...[1].

وقال أبو عبد الله عليه السلام في قوله الله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]،

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٢٧/ ح ٢٢.

قال: «فوعظ لقمان ابنه بآثار حتَّىٰ تفطَّر وانشقَّ، وكان فيما وعظه به _ يا حمّاد _ أن قال: يا بنيّ، إنَّك منذ سقطت إلىٰ الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة، فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد.

يا بنيّ، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً، ولا ترفضها فتكون عيالاً علىٰ الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضرُّ بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة، فإنَّ الصلاة أحبُّ إلىٰ الله من الصيام.

يا بنيّ، إنَّ الدنيا بحر عميق، قد هلك فيها عالم كبير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكّل، واجعل زادك فيها تقوىٰ الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك.

يا بنيّ، إن تأدَّبت صغيراً انتفعت به كبيراً، ومن عنىٰ بالأدب اهتمَّ به، ومن اهتمَّ به تكلَّف علمه، ومن تكلَّف علمه اشتدَّ له طلبه، ومن اشتدَّ له طلبه أدرك منفعته، فاتَّخذه عادةً فإنَّك تخلف في سلفك، وتنفع به من خلفك، ويرتجيك فيه راغب، ويخشىٰ صولتك راهب، وإيّاك والكسل عنه بالطلب لغيره، فإن غُلِبْتَ علىٰ الدنيا فلا تغلبنَّ علىٰ الآخرة، فإذا فاتك طلب العلم في مظانّه فقد غُلِبْتَ علىٰ الآخرة، واجعل في أيّامك ولياليك وساعاتك لنفسك نصيباً في طلب العلم، فإنَّك لم تجد له تضييعاً أشدّ من تركه، ولا تمارينَّ فيه لجوجاً، ولا تجادلنَّ فقيهاً، ولا تعادينَّ سلطاناً، ولا تماشينَّ ظلوماً ولا تصادقنَّه، ولا تواخينَّ فاسقاً، ولا تصاحبنَّ متَّهماً، واخزن علمك كما تخزن ورقك.

يا بنيّ، خف الله خوفاً لو أتيت يوم القيامة ببرّ الثقلين خفت أن يُعذِّبك، وارج الله رجاءً لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك.

فقال له ابنه: يا أبة، وكيف أطيق هذا وإنَّما لي قلب واحد؟ فقال له لقمان:

يا بنيّ، لو استخرج قلب المؤمن فشُقَّ لوُجِدَ فيه نوران: نور للخوف، ونور للرجاء، ولو وزنا ما رجح أحدهما علىٰ الآخر بمثقال ذرَّة، فمن يؤمن بالله يصدِّق ما قال الله، ومن يصدِّق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدِّق ما قال الله، فإنَّ هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض، فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً، ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً، ومن يطع الله خافه، ومن خافه فقد أحبَّه، ومن أحبَّه اتَّبع أمره، ومن اتَّبع أمره استوجب جنَّته ومرضاته، ومن لم يتَّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه، نعوذ بالله من سخط الله.

يا بنيّ، لا تركن إلىٰ الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها، ألَا ترىٰ أنَّه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبةً للعاصين»[1].

«يا بنيّ، ليكن ممَّا تتسلَّح به علىٰ عدوّك فتصرعه المماسحة وإعلان الرضىٰ عنه، ولا تزاوله بالمجانبة فيبدو له ما في نفسك فيتأهَّب لك»[2].

«يا بنيّ، اتَّخذ ألف صديق، وألف قليل، ولا تتَّخذ عدوَّاً واحداً، والواحد كثير»[3].

«يا بنيّ، ليعتبر من قصر يقينه وضعفت نيَّته في طلب الرزق أنَّ الله تبارك وتعالىٰ خلقه في ثلاثة أحوال من أمره وأتاه رزقه ولم يكن له في واحدة منها كسب ولا حيلة أنَّ الله تبارك وتعالىٰ سيرزقه في الحال الرابعة: أمَّا أوَّل ذلك فإنَّه كان في رحم أُمّه يرزقه هناك في قرار مكين

____

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١١ و٤١٢/ ح ٢، عن تفسير القمّي ٢: ١٦٣ - ١٦٥.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤١٣/ ح ٣، عن أمالي الصدوق: ٧٦٦/ ح (١٠٣١/ ٥).

(٣) بحار الأنوار ١٣: ٤١٣ و٤١٤/ ح ٤، عن أمالي الصدوق: ٧٦٦/ ح (١٠٣٢/ ٦).

حيث لا يؤذيه حرّ ولا برد، ثمّ أخرجه من ذلك وأجرىٰ له رزقاً من لبن أُمّه يكفيه به ويربيه وينعشه من غير حول به ولا قوَّة، ثمّ فُطِمَ من ذلك فأجرىٰ له رزقاً من كسب أبويه برأفة ورحمة له من قلوبهما لا يملكان غير ذلك حتَّىٰ أنَّهما يؤثرانه علىٰ أنفسهما في أحوال كثيرة، حتَّىٰ إذا كبر وعقل واكتسب لنفسه ضاق به أمره وظنَّ الظنون بربّه وجحد الحقوق في ماله، وقتَّر علىٰ نفسه وعياله مخافة إقتار رزق، وسوء يقين بالخلف من الله تبارك وتعالىٰ في العاجل والآجل، فبئس العبد هذا يا بنيّ»[١].

«يا بنيّ، اجعل في أيّامك ولياليك وساعاتك نصيباً لك في العلم، فإنَّك لن تجد له تضييعاً مثل تركه»[٢].

«يا بنيّ، لكلّ شيء علامة يُعرَف بها ويشهد عليها، وإنَّ للدين ثلاث علامات: العلم، والإيمان، والعمل به. وللإيمان ثلاث علامات: الإيمان بالله، وكتبه، ورسله. وللعالم ثلاث علامات: العلم بالله، وبما يحبّ، وما يكره، وللعامل ثلاث علامات: الصلاة، والصيام، والزكاة.

وللمتكلِّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويقول ما لا يعلم، ويتعاطىٰ ما لا ينال. وللظالم ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويعين الظلمة. وللمنافق ثلاث علامات: يخالف لسانه قلبه، وقلبه فعله، وعلانيَّته سريرته.

وللآثم ثلاث علامات: يخون، ويكذب، ويخالف ما يقول. وللمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان الناس عنده، ويتعرَّض في كلّ أمر لمحمدة.

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١٤/ ح ٥، عن الخصال: ١٢٢ و١٢٣/ ح ١١٤.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤١٥/ ح ٧، عن أمالي الطوسي: ٦٨/ ح (٩٩/ ٨).

وللحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملَّق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة. وللمسرف ثلاث علامات: يشتري ما ليس له، ويلبس ما ليس له، ويأكل ما ليس له. وللكسلان ثلاث علامات: يتوانىٰ حتَّىٰ يفرِّط، ويفرِّط حتَّىٰ يضيِّع، ويضيِّع حتَّىٰ يأثم. وللغافل ثلاث علامات: السهو، واللهو، والنسيان»[(١)].

«يا بنيّ، صاحب مائةً ولا تعاد واحداً. يا بنيّ، إنَّما هو خلاقك وخلقك، فخلاقك دينك، وخلقك بينك وبين الناس، فلا تبغضنَّ إليهم، وتعلَّم محاسن الأخلاق. يا بنيّ، كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار. يا بنيّ، أدِّ الأمانة تسلم لك دنياك وآخرتك، وكن أميناً تكن غنياً[(٢)]»[(٣)].

«يا بنيّ، إنَّ الدنيا بحر وقد غرق فيها جيل كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوىٰ الله تعالىٰ، وليكن جسرك إيماناً بالله، وليكن شراعها التوكّل، لعلَّك يا بنيّ تنجو وما أظنّك ناجياً...

يا بنيّ، لا تتعلَّم العلم لتباهي به العلماء، أو تماري به السفهاء، أو ترائي به في المجالس، ولا تترك العلم زهادةً فيه ورغبةً في الجهالة.

يا بنيّ، اختر المجالس علىٰ عينيك، فإن رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس إليهم، فإنَّك إن تكن عالماً ينفعك علمك ويزيدوك علماً، وإن تكن جاهلاً يعلِّموك، ولعلَّ الله تعالىٰ أن يظلّهم برحمة فيعمّك معهم»[(٤)].

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١٥ و٤١٦/ ح ٨، عن الخصال: ١٢١ و١٢٢/ ح ١١٣.

(٢) في البحار: «وكن أميناً فإنَّ الله تعالىٰ جلَّ وعلا لا يحبُّ الخائنين».

(٣) بحار الأنوار ١٣: ٤١٦/ ح ٩، عن معاني الأخبار: ٢٥٣/ باب معنىٰ الخلاق والخلق/ ح ١.

(٤) بحار الأنوار ١٣: ٤١٦ و٤١٧/ ح ١٠، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٢ و١٩٣/ ح ٢٣٩.

«يا بنيّ، إن تكُ في شكٍّ من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك، وإن كنت في شكٍّ من البعث فادفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك، فإنَّك إذا فكَّرت في هذا علمت أنَّ نفسك بيد غيرك، وإنَّما النوم بمنزلة الموت، وإنَّما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

يا بنيّ، لا تقترب فيكون أبعد لك، ولا تبعد فتهان، كلّ دابّة تحبّ مثلها وابن آدم لا يحبّ مثله! لا تنشر بزّك إلَّا عند باغيه، وكما ليس بين الكبش والذئب خلَّة كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلَّة، من يقترب من الزفت تعلَّق كذلك، من يشارك الفاجر يتعلَّم من طرقه، ومن يحبّ المراء يشتم، ومن يدخل مدخل السوء يتَّهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم»[1].

«يا بنيّ لا تجالس الناس بغير طريقتهم، ولا تحملنّ عليهم فوق طاقتهم، فلا يزال جليسك عنك نافراً، المحمول عليه فوق طاقته مجانباً لك، فإذا أنت فرد لا صاحب لك يؤنسك، ولا أخ لك يعضدك، فإذا بقيت وحيداً كنت مخذولاً وصرت ذليلاً، ولا تعتذر إلىٰ من لا يحبّ أن يقبل لك عذراً، ولا يرىٰ لك حقاً، ولا تستعن في أمورك إلاّ بمن يحبّ أن يتخذ في قضاء حاجتك أجراً، فإنّه إذا كان كذلك طلب قضاء حاجتك لك كطلبه لنفسه، لأنه بعد نجاحها لك كان ربحاً في الدنيا الفانية، وخطاً وذخراً له في الدار الباقية، فيجتهد في قضائها لك، وليكن إخوانك وأصحابك الذين تستخلصهم وتستعين بهم علىٰ أمورك أهل

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١٧/ ح ١١، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٣ و١٩٤/ ح ٢٤٠.

المروّة والكفاف والثروة، والعقل والعفاف، الذين إن نفعتهم شكروك، وإن غبت عن جيرتهم ذكروك»[١].

«يا بنيّ، إيّاك والضجر وسوء الخُلُق وقلّة الصبر فلا يستقيم علىٰ هذه الخصال صاحب، والزم نفسك التؤدة في أُمورك، وصبّر علىٰ مؤونات الإخوان نفسك، وحسّن مع جميع الناس خلقك.

يا بنيّ، إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضّل به علىٰ إخوانك فلا يعدمنّك حسن الخلق وبسط البشر، فإنّه من أحسن خلقه أحبّه الأخيار وجانبه الفجّار، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك، فإن أردت أن تجمع عزّ الدنيا فاقطع طمعك ممّا في أيدي الناس، فإنّما بلغ الأنبياء والصدّيقون ما بلغوا بقطع طمعهم.

يا بنيّ، إن احتجت إلىٰ سلطان فلا تكثر الإلحاح عليه، ولا تطلب حاجتك منه إلّا في مواضع الطلب، وذلك حين الرضي وطيب النفس، ولا تضجرنّ بطلب حاجة فإنّ قضاءها بيد الله ولها أوقات، ولكن ارغب إلىٰ الله وسله وحرّك إليه أصابعك. يا بنيّ، إنّ الدنيا قليل وعمرك قصير.

يا بنيّ، احذر الحسد فلا يكوننّ من شأنك، واجتنب سوء الخلق فلا يكوننّ من طبعك، فإنّك لا تضرُّ بهما إلّا نفسك، وإذا كنت أنت الضارّ لنفسك كفيت عدوّك أمرك، لأنّ عداوتك لنفسك أضرُّ عليك من عداوة غيرك.

يا بنيّ، اجعل معروفك في أهله، وكن فيه طالباً لثواب الله، وكن مقتصداً، ولا تمسكه تقتيراً، ولا تعطه تبذيراً.

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١٨ و٤١٩/ ح ١٢، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٦ و١٩٧/ ح ٢٤٣.

يا بنيّ، سيّد أخلاق الحكمة دين الله تعالىٰ، ومثل الدين كمثل شجرة نابتة، فالإيمان بالله ماؤها، والصلاة عروقها، والزكاة جذعها، والتآخي في الله شعبها، والأخلاق الحسنة ورقها، والخروج عن معاصي الله ثمرها، ولا تكمل الشجرة إلَّا بثمرة طيّبة، كذلك الدين لا يكمل إلَّا بالخروج عن المحارم.

يا بنيّ، لكلّ شيء علامة يُعرَف بها، وإنَّ للدين ثلاث علامات: العفَّة، والعلم، والحلم»[١].

«يا بنيّ، إنَّ أشدَّ العدم عدم القلب، وإنَّ أعظم المصائب مصيبة الدين، وأسنىٰ المرزئة مرزئته، وأنفع الغنىٰ غنىٰ القلب، فتلبَّث في كلّ ذلك، والزم القناعة والرضىٰ بما قسم الله، وإنَّ السارق إذا سرق حبسه الله من رزقه، وكان عليه إثمه، ولو صبر لنال ذلك وجاءه من وجهه.

يا بنيّ، أخلص طاعة الله حتَّىٰ لا تخالطها بشيء من المعاصي، ثمّ زيِّن الطاعة باتّباع أهل الحقّ فإنَّ طاعتهم متَّصلة بطاعة الله تعالىٰ، وزيِّن ذلك بالعلم، وحصِّن علمك بحلم لا يخالطه حمق، واخزنه بلين لا يخالطه جهل، وشدّده بحزم لا يخالطه الضياع، وامزج حزمك برفق لا يخالطه العنف»[٢].

«[يا بنيّ]، حملت الجندل والحديد وكلّ حمل ثقيل فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء، وذقت المرارات كلّها فما ذقت شيئاً أمرّ من الفقر.

يا بنيّ، لا تتَّخذ الجاهل رسولاً، فإن لم تصب عاقلاً حكيماً يكون رسولك فكن أنت رسول نفسك»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١٩ و٤٢٠/ ح ١٤، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٨/ ح ٢٤٥ و٢٤٦.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤٢٠ و٤٢١/ ح ٣، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٩/ ح ٢٤٧.

(٣) بحار الأنوار ١٣: ٤٢١/ ح ١٦، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٩/ ح ٢٤٨.

وقال الصادق عليه السلام: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: قيل للعبد الصالح لقمان: أيُّ الناس أفضل؟ قال: المؤمن الغنيّ. قيل: الغنيّ من المال؟ فقال: لا، ولكن الغنيّ من العلم الذي إن احتيج إليه انتفع بعلمه، فإن استغني عنه اكتفىٰ. وقيل: فأيّ الناس أشرّ؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً»[1].

«وقال: يا بنيّ، كذب من قال: إنَّ الشرّ يطفئ بالشرّ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين، هل تطفئ إحداهما الأُخرىٰ؟ وإنَّما يطفئ الخير الشرّ، كما يطفئ الماء النار»[2].

«يا بنيّ، إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتك إيّاهم في أمرك وأُمورهم، وأكثر التبسّم في وجوههم، وكن كريماً علىٰ زادك، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واغلبهم بثلاث: بطول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابّة أو مال أو زاد، وإذا استشهدوك علىٰ الحقّ فاشهد لهم، وأجهد رأيك لهم إذا استشاروك، ثمّ لا تعزم حتَّىٰ تثبّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتَّىٰ تقوم فيها وتقعد وتنام وتصلّي وأنت مستعمل فكرك وحكمتك في مشورته، فإنَّ من لم يمحِّض النصيحة لمن استشاره سلبه الله تبارك وتعالىٰ رأيه ونزع عنه الأمانة.

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، وإذا تصدَّقوا وأعطوا قرضاً فأعطِ معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سنّاً، وإذا أمروك بأمر وسألوك فقل: نعم، ولا تقل: لا، وإنَّ

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٢١/ ح ١٦، عن قصص الأنبياء للراوندي: ١٩٩ و٢٠٠/ ح ٢٤٩.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤٢١ و٤٢٢/ ح ١٧، عن تنبيه الخواطر: ٤٦.

(لا) عيّ ولوم، وإذا تحيَّرتم في طريقكم فانزلوا، وإذا شككتم في القصد فقفوا وتؤامروا، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم ولا تسترشدوه، فإنَّ الشخص الواحد في الفلات مريب، لعلَّه أن يكون عيناً للصوص، أو يكون هو الشيطان الذي يحيّركم، واحذروا الشخصين أيضاً إلَّا أن تروا ما لا أرىٰ، فإنَّ العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحقّ منه، والشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب.

يا بنيّ، فإذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء، وصلّها واسترح منها فإنّها دين، وصلِّ في جماعة ولو علىٰ رأس زجّ، ولا تنامنَّ علىٰ دابَّتك فإنَّ ذلك سريع في دبرها وليس من فعل الحكماء، إلَّا أن تكون في محمل يمكنك التمدّد لاسترخاء المفاصل، وإذا قربت من المنزل فانزل عن دابَّتك، وابدأ بعلفها قبل نفسك، وإذا أردت النزول فعليك من بقاع الأرض بأحسنها لوناً، وألينها تربةً، وأكثرها عشباً، وإذا نزلت فصلِّ ركعتين قبل أن تجلس، وإذا أردت قضاء حاجة فابعد المذهب في الأرض، فإذا ارتحلت فصلِّ ركعتين وودِّع الأرض التي حللت بها، وسلم عليها وعلىٰ أهلها، فإنَّ لكلّ بقعة أهلاً من الملائكة، وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتَّىٰ تبدء فتتصدَّق منه فافعل، وعليك بقراءة كتاب الله ﷻ ما دمت راكباً، وعليك بالتسبيح ما دمت عاملاً، وعليك بالدعاء ما دمت خالياً، وإيّاك والسير من أوَّل الليل، وعليك بالتعريس والدلجة من لدن نصف الليل إلىٰ آخره، وإيّاك ورفع الصوت في مسيرك»[1].

(الكافي): عن علي بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسىٰ، عن يحيىٰ بن عقبة

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٢٢ و٤٢٣/ ح ١٨، عن الكافي ٨: ٣٤٨ و٣٤٩/ ح ٥٤٧.

الأزدي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان فيما وعظ به لقمان ابنه: يا بنيّ، إنَّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبقَ ما جمعوا ولم يبقَ من جمعوا له، وإنَّما أنت عبد مستأجر قد أُمرت بعمل ووعدت عليه أجراً، فأوفِ عملك واستوفِ أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتَّىٰ سمنت فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة علىٰ نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمرها فإنَّك لم تُؤمَر بعمارتها. واعلم أنَّك ستُسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزَّ وجلَّ عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك ممَّا اكتسبته وفيما أنفقته، فتأهَّب لذلك وأعدّ له جواباً، ولا تأسَ علىٰ ما فاتك من الدنيا، فإنَّ قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك، وجدّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرَّض لمعروف ربّك، وجدِّد التوبة في قلبك، واكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك ويقضىٰ قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد»[1].

وقيل له: ألست عبد آل فلان؟ قال: بلىٰ، قيل: فما بلغ بك ما نرىٰ؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتركي ما لا يعنيني، وغضّي بصري، وكفّي لساني، وعفَّتي في طعمتي، فمن نقص عن هذا فهو دوني، ومن زاد عليه فهو فوقي، ومن عمله فهو مثلي.

وقال: يا بنيّ لا تؤخِّر التوبة فإنَّ الموت يأتي بغتة، ولا تشمت بالموت، ولا تسخر بالمبتلىٰ، ولا تمنع المعروف. يا بنيّ، كن أميناً تعش غنياً. يا بنيّ، اتَّخذ تقوىٰ الله تجارةً تأتك الأرباح من غير بضاعة، وإذا أخطأت خطيئةً فابعث في أثرها صدقة تطفئها...

---

(١) الكافي ٢: ١٣٤ و١٣٥/ باب ذمّ الدنيا والزهد فيها/ ح ٢٠.

يا بنيّ، لا ترثِ لمن ظلمته، ولكن ارثِ لسوء ما جنيته علىٰ نفسك، وإذا دعتك القدرة إلىٰ ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك[١].

يا بنيّ أقل الكلام، واذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في كلّ مكان، فإنَّه قد أنذرك وحذَّرك وبصَّرك وعلَّمك.

يا بنيّ، اتَّعظ بالناس قبل أن يتَّعظ الناس بك. يا بنيّ، اتَّعظ بالصغير قبل أن ينزل بك الكبير. يا بنيّ، أملك نفسك عند الغضب حتَّىٰ لا تكون لجهنَّم حطباً[٢].

يا بنيّ، لا تأمن من الدنيا والذنوب والشيطان فيها. يا بنيّ، إنَّه قد افتتن الصالحون من الأوَّلين فكيف تنجو منه الآخرون؟

يا بنيّ، إنَّك لم تُكلَّف أن تشيل الجبال، ولم تُكلَّف ما لا تطيقه، فلا تحمل البلاء علىٰ كتفك، ولا تذبح نفسك بيدك...

يا بنيّ، الوحدة خير من صاحب السوء. يا بنيّ، الصاحب الصالح خير من الوحدة.

يا بنيّ، نقل الحجارة والحديد خير من قرين السوء. يا بنيّ، إنَّه من يصحب قرين السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يُتَّهم، ومن لا يكفّ لسانه يندم...

يا بنيّ، من ذا الذي عبد الله فخذله؟ ومن ذا الذي ابتغاه فلم يجده؟ ومن ذا الذي ذكره فلم يذكره؟ ومن ذا الذي توكَّل عليه فوكله إلىٰ غيره؟ ومن ذا الذي تضرَّع إليه جلَّ ذكره فلم يرحمه؟...

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٢٦/ ح ٢١، عن تنبيه الخواطر: ٥٤٩ و٥٥٠.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤٢٧/ ح ٢٢.

يا بنيّ، إيّاك ومصاحبة الفسّاق فإنّما هم كالكلاب، إن وجدوا عندك شيئاً أكلوه، وإلّا ذمّوك وفضحوك، وإنّما حبّهم بينهم ساعة.

يا بنيّ، معاداة المؤمن خير من مصادقة الفاسق. يا بنيّ، المؤمن تظلمه ولا يظلمك، وتطلب عليه ويرضىٰ عنك، والفاسق لا يراقب الله فكيف يراقبك؟ يا بنيّ، استكثر من الأصدقاء ولا تأمن من الأعداء فإنّ الغلّ في صدورهم كامن كمون النار تحت الرماد.

يا بنيّ، ابدء الناس بالسلام والمصافحة قبل الكلام. يا بنيّ، لا تكالب الناس فيمقتوك، ولا تكن مهيناً فيضلّوك، ولا تكن حلواً فيأكلوك، ولا تكن مرّاً فيلفظوك...

يا بنيّ، إيّاك والتجبّر والتكبّر والفخر فتجاور إبليس في داره. يا بنيّ، دع عنك التجبّر والكبر، ودع عنك الفخر، واعلم أنّك ساكن القبور. يا بنيّ، اعلم أنّه من جاور إبليس وقع في دار الهوان، لا يموت فيها ولا يحيىٰ.

يا بنيّ، ويل لمن تجبَّر وتكبَّر، كيف يتعظَّم من خُلِقَ من طين، وإلىٰ طين يعود، ثمّ لا يدري إلىٰ ما يصير إلىٰ الجنَّة فقد فاز، أو إلىٰ النار فقد خسر خسراناً مبيناً وخاب...

يا بنيّ، إنَّه قد مات أصفياء الله ﷻ وأحبّاؤه وأنبياؤه صلوات الله عليهم، فمن ذا بعدهم يخلد فيترك؟...

يا بنيّ، النساء أربع: ثنتان صالحتان، وثنتان ملعونتان، فأمَّا إحدىٰ الصالحتين: فهي الشريفة في قومها، الذليلة في نفسها، التي إن أُعطيت شكرت، وإن ابتليت صبرت، القليل في يديها كثير.

والثاني: الولود الودود، تعود بخير علىٰ زوجها، وهي كالأُمّ

الرحيم، تعطف علىٰ كبيرهم، وترحم صغيرهم، وتحبّ ولد زوجها وإن كانوا من غيرها، جامعة الشمل، مرضية البعل، مصلحة في النفس والأهل والمال والولد، فهي كالذهب الأحمر، طوبىٰ لمن رزقها، إن شهد زوجها أعانته، وإن غاب عنها حفظته.

وأمَّا إحدىٰ الملعونتين فهي العظيمة في نفسها، الذليلة في قومها، التي إن أُعطيت سخطت، وإن مُنعت عتبت وغضبت، فزوجها منها في بلاء، وجيرانها منها في عناء، فهي كالأسد إن جاورته أكلك، وإن هربت منه قتلك.

والملعونة الثانية فهي قلىٰ عن زوجها، وملّها جيرانها، إنَّما هي سريعة السخطة، سريعة الدمعة، إن شهد زوجها لم تنفعه، وإن غاب عنها فضحته، فهي بمنزلة الأرض النشّاشة إن أُسقيت أفاضته الماء وغرقت، وإن تركتها عطشت، وإن رزقت منها ولداً لم تنتفع به...

يا بنيّ لا تأكل مال اليتيم فتفتضح يوم القيامة، وتكلَّف أن تردّه إليه...

يا بنيّ تعلَّمت سبعة آلاف من الحكمة فاحفظ منها أربعاً ومر معي إلىٰ الجنَّة: احكم سفينتك فإنَّ بحرك عميق، وخفِّف حملك فإنَّ العقبة كؤود، واكثر الزاد فإنَّ السفر بعيد، وأخلص العمل فإنَّ الناقد بصير[1].

في سفينة البحار مادّة (حكم): يا بنيّ، تعلَّم الحكمة تشرف، فإنَّ الحكمة تدلُّ علىٰ الدين، وتشرّف العبد علىٰ الحرّ، وترفع المسكين علىٰ الغنيّ، وتقدّم الصغير علىٰ الكبير، وتجلس المسكين مجالس الملوك، وتزيد

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٢٧ - ٤٣٢/ ح ٢٣، عن الاختصاص: ٣٣٧ - ٣٤١.

الشـــريف شرفـاً، والسـيّد سـؤدداً، والغنـيّ مجـداً، وكيـف يظـنّ ابـن آدم أن يتهيَّـأ لـه أمـر دينـه ومعيشـته بغـير حكمـة؟ ولـن يهيّـئ الله ﷻ أمـر الـدنيا والآخرة إلَّا بالحكمة، ومثل الحكمـة بغـير طاعـة مثـل الجسـد بـلا نفـس، أو مثـل الصـعيد بـلا مـاء، ولا صـلاح للجسـد بغـير نفـس، ولا للصـعيد بغـير ماء، ولا للحكمة بغير طاعة[1].

يا بنيّ عليك بالصـبر واليقـين ومجاهـدة الـنفس، واعلـم أنَّ الصـبر فيـه أنـواع الشـــرف، فـإذا صـبرت عـلىٰ محـارم الله تعـالىٰ وزهـدت في الـدنيا وتهاونت بالمصائب لم يكن شيء أحبُّ إليك بالموت، وأنت تترهّبه.

يـا بنـيّ لـتكن ذنوبـك بـين عينيـك، وعملـك خلـف ظهـرك، وثلاثـة من كنَّ فيه قـد اسـتكمل الإيـمان: مـن إذا رَضِيَ لم يخرجـه رضـاه إلىٰ الباطـل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحقّ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

يا بنيّ، ما عند الله تعالىٰ أفضل مـن العقـل، ومـا تـمَّ عقـل امـرئ حتَّـىٰ تكون فيه عشـرة خصـال: الكـبر منـه مـأمون، والرشـد منـه مـأمول، نصـيبه من الـدنيا القـوت، وفضـل مالـه مبـذول، التواضـع أحـبُّ إليـه مـن الكـبر، الذلّ أحبُّ إليه مـن العـزّ، لا يسـأم مـن طلـب العفـو (العلـم) طـول عمـره، ولا يقـدم في طلـب الحـوائج مـن قبلـه، يسـتكثر قليـل المعـروف مـن غـيره، ويسـتقلّ الكثـير مـن نفسـه، والخصـلة العـاشرة وهـي التـي سـاد بهـا مجـده وعـلا قـدره، يـرىٰ أنَّ جميـع النـاس خـيراً منـه وأفضـل، وإذا رأىٰ شرَّاً منـه وأدنىٰ قـال: لعـلَّ هـذا ينجـو وأهلـك أنـا، فهنالـك اسـتكمل العقـل وسـاد أهل زمانه.

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٣٢/ ح ٢٤، عن كنز الفوائد للكراجكي: ٢١٤.

ومن كلماته الحكمية: يا بنيّ، إنّي خدمت أربعمائة نبيّ، وأخذت من كلامهم أربع كلمات، وهي: إذا كنت في الصلاة فاحفظ قلبك، وإذا كنت في المائدة فاحفظ حَلقَك، وإذا كنت في بيت الغير فاحفظ عينيك، وإذا كنت بين الخلق فاحفظ لسانك.

وفي جلاء الكروب في شرح حكمة القلوب (ص ٢٦٤): وقيل: بينما لقمان في عريشة قد أخذ مضجعه، وابنه جالس بين يديه، وقد نزل به الموت فبكىٰ، فقال له ابنه: ما يبكيك يا أبتي أجزعاً من الموت أم حرصاً علىٰ الدنيا؟ فقال: لا ولا واحدة منهما، ولكن أبكي من شقَّة بعيدة، ومفازة سحيقة، وعقبة كؤد، وزاد قليل، وحمل ثقيل، فلا أدري أينحط ذلك الحمل حتَّىٰ أبلغ الغاية، أم يبقىٰ عليَّ فأُساق معه إلىٰ نار جهنَّم، ثمّ مات رحمه الله.

* * *

(٦)

أنباذقلس الحكيم اليوناني[1]

جاء في دائرة المعارف لفريد وجدي (ج ١/ ص ٦٣٦/ ط الثانية):

أنبذقلس:

قال العلّامة الشهرستاني: هو من الكبار عند الجماعة، دقيق النظر في العلوم، دقيق الحال في الأعمال، وكان في زمن داود النبيّ عليه السلام، مضىٰ إليه وتلقّىٰ منه، واختلف إلىٰ لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة، ثمّ عاد إلىٰ يونان وأفاد.

قال: إنَّ الباري تعالىٰ لم يزل هويَّته فقط، وهو العلم المحض، وهو الإرادة المحضة، وهو الجود والعزّ والقدرة، والعدل والخير والحقّ، لا أنَّ هناك قوىٰ مسمّاة بهذه الأسماء؛ بل هي هو، وهو هذه كلّها.

مبدع فقط لا أنَّه أبدع من شيء، ولا أنَّ شيئاً كان معه، فأبدع الشيء البسيط الذي هو أوَّل البسيط المعقول وهو العنصر الأوَّل، ثمّ الأشياء المبسوطة من ذلك النوع البسيط الواحد الأوَّل، ثمّ كوَّن المركّبات من المبسوطات، وهو مبدع الشيء واللاشيء، العقلي والفكري والوهمي، أي مبدع المتضادّات والمتقابلات المعقولة والخياليّة والحسّيّة.

---

(١) الملل والنحل ٢: ٦٨؛ إخبار العلماء: ١٢؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ١٣٣؛ فلاسفة اليونان: ٧٧؛ معجم أعلام المورد: ٦٥؛ أعلام الفلسفة: ٧٣.

وقـال: إنَّ البـاري تعـالىٰ أبـدع الصـور لا بنـوع إرادة مسـتأنفة، بـل بنوع أنَّه علَّة فقط، وهو العلـم والإرادة، فـإذا المبـدع إنَّـما أبـدع الصـور بنـوع أنَّه علَّة لها فالعلَّـة فـلا معلـول، وإلَّا فـالمعلول مـع العلَّـة معيّـة بالـذات، فـإن جاز أن يقـال: إنَّ معلـولاً مـع العلَّـة فـالمعلول حينئـذٍ لـيس هـو غـير العلَّـة، وأن يكـون المعلـول لـيس أولىٰ بكونـه معلـولاً مـن العلَّـة، ولا العلَّـة بكونهـا معلـولاً أولىٰ مـن المعلـول، فـالمعلول إذن تحـت العلَّـة وبعـدها والعلَّـة علَّـة العلـل كلّهـا أي علَّـة كـلّ معلـول تحتهـا، فـلا محالـة أنَّ المعلـول لم يكـن مـع العلَّـة بجهـة مـن الجهـات البتَّـة، وإلَّا فقـد بطـل اسـم العلَّـة والمعلـول، فـالمعلول الأوَّل هـو العنصـر، والمعلـول الثـاني يتوسَّـطه العقـل، والثالـث يتوسَّطهما النفس، وهذه بسائط ومبسوطات وبعدها مركّبات.

وذكـر أنَّ المنطـق لا يعـبّر عـمَّا عنـد العقـل، لأنَّ العقـل أكـبر مـن المنطق، من أجل أنَّـه بسـيط والمنطـق مركَّـب، والمنطـق يتجـزَّأ والعقـل يتَّحـد ويحـدّ فيجمـع المتجزّيـات، فلـيس للمنطـق إذن أن يصـف البـاري تعـالىٰ إلَّا صفة واحدة، وذلـك أنَّـه هـو ولا شيء مـن هـذه العـوالم بسـيط ولا مركَّـب. فإذا قال: وهو لا شيء، فقد كان الشيء واللاشيء مبدعين.

وقد أطال فريد وجدي في ذلك، فراجعه.

قـال القِفطـي في أخبـار الحكـماء (ص ١٢): أبيـذقليس حكـيم كبـير من حكماء اليونـان، وهـو أوَّل الحكـماء الخمسـة المعـروفين بأسـاطين الحكمـة وأقـدمهم زمانـاً، والخمسـة هـم: أبيـذقليس هـذا، ثـمّ فيثـاغورس، ثـمّ سـقراط، ثـمّ أفلاطـون، ثـمّ أسرطوطـاليس بـن نيتومـاخس الفيثـاغوري الجهراشي، فهؤلاء الخمسة هـم المجمـع عـلىٰ اسـتحقاقهم اسـم الحكمـة عنـد اليونانيين...

وفلاسفة اليونانيين من أرفع الناس طبقةً، وأجلّ أهل العلم منزلةً، لما ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضيّة، والمنطقيّة، والمعارف الطبيعيّة والإلهيّة، والسياسات المنزليّة والمدنيّة.

فأمّا أبيذقليس هذا فكان في زمن داود النبيّ عليه السلام على ما ذكره العلماء بتواريخ الأُمم، وقيل: أخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام ثمّ انصرف إلىٰ بلاد اليونانيين...

وقال قطب الدين محمّد بن شيخعلي الديلمي اللاهجي في كتابه محبوب القلوب (ص ٦٠): الحكيم أنباذقلس المذكور في تاريخ الحكماء باسم بندقلس، حكيم عظيم الشأن جليل القدر، كثير الرياضة والتألّه، تاركاً للدنيا، مقبلاً علىٰ الأُخرىٰ، وهو أوّل الحكماء الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة المارّ ذكرهم، وكان أنباذقلس في زمن داود النبيّ عليه السلام وأخذ الحكمة عن لقمان بالشام ثمّ انصرف إلىٰ بلاد اليونانيين فتكلَّم في خلقة العالم بأشياء يقدح ظواهرها في أمر المعاد، فهجره لذلك بعضهم، وطائفة من الباطنية تنتمي إلىٰ حكمته، ويزعم أنَّ له رموزاً قلَّما يوقف عليها.

ويؤيّد قولهم ما قال محي مراسم الإشراق الشيخ السهروردي المقتول في كتاب المطارحات: وأمَّا الذي نسب أنباذقلس أنَّه قائل بالاتّفاق والبخت، وأنَّه ليس يعترف بالغايات، فأكثره مرموز، لأنَّ الرجل إنَّما أنكر العلَّة الغائية في فعل واجب الوجود لا غير، وهو معترف بأنَّ ما لا يجب لا يكون، بل قد يُسمّىٰ هو وغيره الأُمور اللاحقة بالماهيّات لا لذاتها بل لغيرها اتفاقيّة، وحينئذٍ يصحُّ أن يقال: وجود

العالم اتّفاقي لا بمعنىٰ أنَّه يعتبر موجداً نفسه كلّاً أو يفعله الباري جزافاً؛ بل إنَّ وجوده ليس لاحقاً به من ذاته بل هو من غيره.

فالاصطلاحات والطبائع اللغات مختلفة، وهذا الرجل تصفَّحنا كلامه القدر الذي وجدناه، فدلَّ علىٰ قوَّة سلوكه وذوقه ومشاهدات له قدسيّة رفيعة، وأكثر ما نُسِبَ إليه افتراء محض، بل للقدماء ألغاز ورموز وأغراض، ومن بعدهم يردّ علىٰ ظواهر رموزهم، إمَّا لغفلتهم أو تعمّداً لما يطلب من الرياسة.

وأنباذقلس أوَّل من ذهب إلىٰ الجمع بين معاني صفات الله تعالىٰ وأنَّها كلّها تؤدّي إلىٰ شيء واحد، وأنَّه وإن وُصِفَ بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذو معانٍ متميّزة تختصُّ بهذه الأسماء المختلفة، بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكثَّر بوجه ما أصلاً، بخلاف سائر الموجودات فإنَّ الوحدانيات الغائية معرضة للتكثير إمَّا بأجزائها أو بمعانيها أو بنظائرها، وذات الباري تعالىٰ متعالية عن هذا كلّه.

وإلىٰ هذا المذهب في الصفات ذهب أبو الحسن البصري وجماعة من المعتزلة وجمهور الحكماء.

من لطائف كلماته الحكمية:

قوله: إنَّ في طلب الفلسفة شرفاً، وإنَّ مرتبتها عالية عظيمة، فينبغي لمن طلبها أن يكون ذهنه صافياً، وعقله لطيفاً، وهمومه في هذا العالم قليلة، وإنَّ الحكمة لترغّب الرحلة عن هذا العالم، ونزهة العقل والنفس في هذا العالم، فلا مرتبة أفضل من هذه المراتب الثلاثة.

وقال: ليس يقدر أن يعرف النفس إلَّا من كانت نفسه طاهرة زكيّة مستولية علىٰ بدنه، فيعرف حينئذٍ ما النفس ويراها رؤياً حسناً روحانية

غير متجسّمة، ويعرف أنّها جوهر لا أشرف منه ولا أكرم، دائم باقٍ لا يموت ولا يفنىٰ، فأمّا جلّ الناس فإنّ نفوسهم ناقصة كأنّها بدن مقطوع الأعضاء، فينكرون شرفها وحسنها وبساطتها، وعدم موتها، وهو خطأ لأنّه ينبغي لأحد أن لا يقول في شيء قبل أن يتفحّص عنه ويعرف علّته وباطنه وظاهره ثمّ يقضي عنه، وإذا أراد أن يتفحّص عن شيء فلا يلقي بصره خارجاً علىٰ القشر الظاهر؛ بل يحرص أن يلقيه علىٰ روحانية الشيء الباطن، فإنّ الشيء الباطن هو الجوهر الخالص الذي هو بعينه، وإلّا لم ينل معرفة حقيقة ذلك الشيء، فافهم ذلك فإنّه في غاية الحسن.

وقال: إنّ النفس النباتية قشر للنفس البهيميّة الحيوانية، والنفس الحيوانية قشر للنفس المنطقيّة، والمنطقيّة قشر للعقليّة، وكلّما هو أسفل فهو قشر لما هو الأعلىٰ، والأعلىٰ لبّه، وربّما يعبّر عن القشر واللبّ بالجسد والروح فيجعل النفس النباتيّة جسداً للنفس الحيوانية، وهذه روحاً له وعلىٰ ذلك حتّىٰ ينتهي إلىٰ العقل.

وقال: لـمّا صوّر العنصر الأوّل في العقل ما عنده من الصور المعقولة الروحانيّة، وصوّر العقل في النفس ما استفاد من العنصر، وصوّرت النفس الكلّيّة في الطبيعة الكلّيّة ما استفادت من العقل، حصلت قشوراً في الطبيعة لا يشبهها ولا يشبهه بالعقل الروحاني اللطيف، فلـمّا نظر العقل إليها وأبصر الأرواح واللبوب في الأجساد والقشور ساح عليها من الصور الحسّيّة الشريفة البهيّة، وهي صور النفوس المشاكلة للصور العقليّة اللطفيّة الروحانيّة حتّىٰ يدبّرها ويتصوّر فيها بالتميّز بين القشور واللّبوب، فيصعد باللّبوب إلىٰ عالمها، وكانت النفوس الجزئي أجزاء النفس الكلّيّة كأجزاء النفس المشرقة علىٰ منافذ

البيت، والطبيعة الكلّيّة معقولة للنفس، وفرق بين الجزء وبين المعلول فالجزء غير والمعلول غير.

وممَّا قال الحكيم أنباذقلس في أمر المعاد: أن يبقىٰ هذا العالم من النفس التي تشبَّثت بالطبائع، والأرواح التي تعلَّقت بالشبائك حتَّىٰ تستغيث في آخر الأمر إلىٰ النفس الكلّيّة التي هي كلّها، فتتضرَّع النفس إلىٰ العقل، ويتضرَّع العقل إلىٰ الباري تعالىٰ، فيسيح الباري تعالىٰ علىٰ العقل، ويسيح العقل علىٰ النفس، وتسيح النفس علىٰ هذا العالم بكلّ نورها، فتستضيء الأنفس الجزويّة وتشرق الأرض والعالم بنور ربّها حتَّىٰ تعاين الجزويّات كلّياتها، فتخلص من الشبكة فتصل بكلّيّاتها فتستقرّ في عالمها مسبورة محبورة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

* * *

(٧)
فيثاغورس الحكيم اليوناني[1]

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ١٧٠): فيثاغورس، الفيلسوف المشهور المذكور من فلاسفة اليونان وحكمائهم، كان بعد أبيذقلس الحكيم بزمان، وأخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود النبيّ عليه السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام، وقد كان أخذ الهندسة قبلهم عن المصريين، ثمّ رجع إلىٰ بلاد اليونان فأدخل إليهم علم الهندسة ولم يكونوا يعلمونها قبل ذلك، وأدخل إليهم علم الطبيعة أيضاً، وعلم الدين، واستخرج بذكائه علم الألحان وتأليف النغم وأوقعها تحت النسب العددية، وادَّعىٰ أنَّه استفاد ذلك من مشكاة النبوَّة، وله في نضد العالم وترتيبه علىٰ خواصّ العدد ومراتبه رموز عجيبة وأغراض بعيدة.

وله في شأن المعاد مذاهب قارب فيها أبيذقلس، من أنَّ عالماً فوق عالم الطبيعة روحانياً نورانياً لا يدرك العقل حسنه وبهائه، وإنَّ الأنفس الزكيّة تحتاج إليه، وأنَّ كلّ إنسان أحسن تقويمه بالتبرّء من العجب والتجبّر والرياء والحسد وغيرها من الشهوات الجسدانية، فقد صار

---

(١) إخبار العلماء: ١٧٠؛ مختار الحكم: ٥٢؛ فلاسفة اليونان: ٣٧؛ الملل والنحل ٢: ٧٤؛ طبقات الأُمم: ٢٩؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ١٩٤؛ معجم أعلام المورد: ٣٣٥؛ تاريخ الفلاسفة: ٥٢؛ أعلام الفلاسفة: ٧٧؛ عيون الأنباء ١: ٦٠.

أهلاً أن يلحق بالعالم الروحاني، ويطَّلع علىٰ ما شاء من جواهره من الحكمة الإلهيّة، وأنَّ الأشياء الملذَّة للنفس تأتيه حشداً إرسالاً كالألحان الموسيقية إلىٰ حاسّة السمع فلا يحتاج إلىٰ أن يتكلَّف لها طلباً، وله تآليف شريفة في الإرتماطيقي والموسيقي وغير ذلك، انتهىٰ.

وقال اللاهجي في محبوب القلوب (ص ٦٢): الحكيم فيثاغورس: حكيم متألّه ذو الرأي المتين والعقل الرصين، فيلسوف مشهور من فلاسفة اليونان ابن منيسارخوس من أهل صور كان في زمن سليمان بن داود عليهما السلام بعد أنباذقلس بزمان، وقد أخذ الحكمة من معدن النبوَّة بمصر حين دخل إليها من بلاد الشام، وقد كان أخذ الهندسة قبله عن المصريين ثمّ رجع إلىٰ بلاد اليونان وأظهر عندهم علم الهندسة ولم يكونوا يعلمونها قبل ذلك، وأدخل إليهم أيضاً علم الطبيعة وعلم الدين، ويدَّعي أنَّه شاهد العوالم بحسّه وحدسه، وبلغ في الرياضة إلىٰ أن سمع حفيف الفلك، ووصل إلىٰ مقام الملك، وقال: ما سمعت شيئاً قطّ ألذّ من حركاتها، ولا رأيت شيئاً أبهىٰ من صورها وهيئاتها.

واستخرج بذكائه علم الموسيقىٰ وأوقعها تحت النسب العدديّة، وادَّعىٰ أنَّه استفاد ذلك من مشكاة النبوَّة، وهو أوَّل من تكلَّم في طبيعة العدد، وله في نضد العالم وتربيته (ترتيبه) علىٰ خواصّ العدد ومراتبه رموز عجيبة وأغراض بعيدة.

فمن ذلك قال: إنَّ الموجودات واقعة بحسب طبيعة العدد وأنواعه وخواصّه أمكنه أن يعرف كمّيّة أنواع الموجودات وأجناسها، وما الحكمة في كمّيّتها علىٰ ما هي عليها الآن، ولم يكن أكثر من ذلك وأقلّ منه، وذلك أنَّ الباري عزّ وجلّ لـمَّا كان هو علَّة الموجودات وخالق

المخلوقات، وهو واحد بالحقيقة، لم يكن من الحكمة أن تكون الأشياء واحدة من جميع الجهات بل وجب أن تكون واحداً بالهيولىٰ كثيراً بالصورة، ولم يكن من الحكمة أن تكون الأشياء كلّها ثنائية ولا ثلاثية ولا رباعية ولا أكثر من ذلك ولا أقلّ؛ بل كان الأحكم والأتقن أن تكون علىٰ ما هي عليه الآن من الأعداد والمقادير، وكان ذلك في غاية الحكمة.

وذلك أنَّ من الأشياء ما هي ثنائية، ومنها ما هي ثلاثية ورباعيّة وخماسيّة ومسدَّسات ومسبَّعات ومثمَّنات ومتسَّعات وما زاد علىٰ ذلك بالغاً ما بلغ، فالأشياء الثنائية: الهيولىٰ والصورة والجوهر والعرض والعلَّة والمعلول والبسيط والمركَّب، واللطيف والكثيف والنيّر والظلم، والمتحرّك والساكن، والعالي والسافل، والثقيل والخفيف، والضارّ والنافع، والحقّ والباطل، وبالجملة من كلّ زوجين اثنين.

فأمَّا الأشياء الثلاثية: فمثل الأبعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق، ومثل المقادير الثلاثة التي هي الخطّ والسطح والجسم، ومثل الأزمان الثلاثة التي هي الماضي والمستقبل والحاضر، ومثل الحقائق الثلاثة التي هي الواجب والممكن والممتنع، ومثل العلوم الثلاثة التي هي رياضية وطبيعيّة وإلهيّة.

وأمَّا الأشياء الرباعية: فمثل الطبائع والأركان والأخلاط والأزمان المعبَّر عنها بالفصول والجهات والأوتاد الأربعة التي هي الآحاد والعشرات والمئات والألوف.

ثمّ قال: واعلم أنَّ أصل العدد الواحد ومن الواحد يتألَّف العدد، فالواحد هو علَّة العدد، كما أنَّ الباري جلَّ شأنه علَّة الموجودات

وموجدها، وكما أنَّ الواحد لا جزء لـه ولا مثـل لـه ولا شريـك لـه، فكـذلك الباري فإنَّه لا جزء لـه ولا مثـل لـه ولا شريـك لـه، وكـما أنَّ الواحـد يعطـي اسـمه لكـلّ عـدد ومقـدار كـذلك البـاري أعطـىٰ الموجـودات وجودهـا وسـمّىٰ كـلّ موجـود باسـم مناسـب لـه، وكـما أن يبقـىٰ ببقـاء الواحـد بقـاء العدد كـذلك ببقـاء البـاري يكـون بقـاء الموجـودات ودوامهـا، وكـما أنَّ مـن تكرار الواحد نشأ العـدد ويتزايـد، كـذلك مـن فـيض البـاري وجـوده العـامّ نشأ الموجودات، وكـما أنَّ الاثنـين أوَّل عـدد نشـأ مـن تكـرار الواحـد كـذلك العقـل الأوَّل فإنَّــه أوَّل موجـود فـائض مـن وجـود البـاري وصـار ثـاني الوجود.

وكـما أنَّ الثلاثـة تترتَّـب بعـد الاثنـين كـذلك الـنفس تترتَّـب بعـد العقـل، وكـما أنَّ الأربعـة تترتَّـب بعـد الثلاثـة كـذلك الطبيعـة تترتَّـب بعـد الـنفس، وكـما أنَّ الخمسـة تترتَّـب بعـد الأربعـة كـذلك الهيـولىٰ تترتَّـب بعـد الطبيعـة، وكـما أنَّ السـتّة تترتَّـب بعـد الخمسـة كـذلك الجسـم يترتَّـب بعـد الهيـولىٰ، وكـما أنَّ السـبعة تترتَّـب بعـد السـتّة كـذلك الفلـك الأعـلىٰ يترتَّـب بعـد الجسـم، وكـما أنَّ الثمانيـة تترتَّـب بعـد السبعة كـذلك الأركـان تترتَّـب بعـد الفلـك، وكـما أنَّ التسـعة تترتَّـب بعـد الثمانيـة كـذلك المولّـدات الثلاثـة تولَّـدت بعـد الأركـان، وكـما أنَّ التسـعة آخـر مراتـب الآحـاد كـذلك المولّـدات آخـر مرتبـة الموجـودات الكلّيّـات وهـي المعـادن والنبـات والحيـوان، فالمعـادن كالعشـرات، والنبـات كالمـاء، والحيـوان كـالألوان، والمزاج كالواحد.

وذكر أنَّه كان يـرىٰ السـياحة واجتنـاب مماسّـة القابـل والمقبـول، وأنَّـه أمـر بتقـديس الحـواسّ، وتعلّـم العمـل بالعـدل وجميـع الفضـائل، والكـفّ

عن الخطايا والبحث عن العطيّة الأُنسيّة ليعرف طبيعة كلّ شيء، وأمر بالتجارب والتأدّب لشرح العلوم العلوية ومجانبة المعاصي وعصمة النفوس، وإقامة الجهاد، وإكثار الصيام، والقعود علىٰ الكراسي، والمواظبة علىٰ قراءة الكتب، وأن يعلِّم الرجال الرجال والنساء النساء، وأمر بجودة المنطق ومواعظة الملوك.

وكان يقول ببقاء النفوس وكونها فيما بعد في ثواب وعقاب علىٰ رأي الحكماء الإلهيين.

وذكر فرفوريوس في المقالة الأُولىٰ من أخباره في الفلاسفة وقصصهم وآرائهم حكايات عجيبة ظهرت عن فيثاغورس ما تكهنَّ به، ومن أخباره بمغيّبات سُمِعَت منه وشوهدت كما قاله، ويُحكىٰ أنَّه أوَّل من قال: إنَّ أموال الأخلَّاء مشاعة غير مقسومة، وكان يقدِّم إخوانه علىٰ نفسه، وكانت نفسه لطيفة جدَّاً، ولم يكن يفرح بإفراط ولا يحزن بإفراط، ولا رآه أحد قطّ ضاحكاً ولا باكياً.

وحكي أنَّه أراد أن يُونس أصحابه بنفسه قبل فراقهم، فاجتمعوا في بيت رجل يقال له: ميلون، فبينا هم في البيت مجتمعون إذ هجم عليهم رجل من أهل فروطونيا اسمه فولون، وكان له شرف وحسب ومال عظيم، وكان يستطيل بذلك علىٰ الناس ويتمرَّد عليهم، ويعتزّ بالجور، وكان قد دخل علىٰ فيثاغورس وجعل يمدح نفسه، فزجره بين يدي جلسائه وأشار عليه باكتساب خلاص نفسه، فاشتدَّ غيظ فولون وجمع أخلائه وقذف فيثاغورس عندهم ونسبه إلىٰ الكفر ووافقهم علىٰ قتله وأصحابه، ولـمَّا هجم عليهم قتل منهم أربعين إنساناً وهرب باقيهم، فمنهم من أُدرك وقُتِلَ ومنهم من أفلت واختفىٰ، ودامت

السعاية بهم والطلب وخافوا علىٰ فيثاغورس القتل، واحتال قوم منهم حتَّىٰ أخرجوه من تلك المدينة وخرج معه بعضهم حتَّىٰ أوصلوه إلىٰ فاولمونيا، ومن هناك إلىٰ لوقاروس، فانتهت الشناعة فيه إلىٰ أهل هذه المدينة فوجَّهوا إليه مشايخ منهم فقالوا: أمَّا أنت يا فيثاغورس فحكيم فيما ترىٰ، وأمَّا الشناعة قبحة جدّاً، لكنّا ما نجد في نواميسنا ما يلزمك القتل ونحن متمسّكون بشرايعنا فخذ منّا ضيافتك ونفقة لطريقة وارحل عن بلدنا بسلام.

فرحل عنها إلىٰ سطايرطقيون وتكاثرت الهيوج عليه في البلاد بسببه حتَّىٰ صار بذلك أهل تلك البلاد سنيناً، ثمّ انحاز إلىٰ هيكل الأسان المسمّىٰ هيكل الموسين، فتحصَّن فيه وأصحابه ولبث فيه أربعين يوماً لم يتغذّوا، فضربوا الهيكل الذي كان فيه بالنار، فلمَّا أحسَّ أصحابه بذلك عمدوا إليه فجعلوه في وسطهم وأحدقوا به ليوقوه النار بأجسامهم فحين ما امتدَّت النار في الهيكل واشتدَّ لهبها غشي عليه من ألم حرّها فسقط ميّتاً، ثمّ إنَّ تلك الآفة عمَّتهم أجمعين فاحترقوا كلّهم وكان ذلك سبب موته.

ما أُثر عنه من الحكم و الآداب:

ومن كلام فيثاغورس: إذا أردت أن يطيب عيشك فارض من الناس أن يقولوا: إنَّك عديم العقل بدل قولهم: إنَّك عاقل.

وقيل له: من الذي يسلم من معادات الناس؟ قال: من لم يظهر منه خير ولا شرّ، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّه إن ظهر منه خير عاداه الأشرار، وإن ظهر منه شرّ عاداه الأخيار.

وكان من دعائه: يا واهب الحياة أنقذني من دون الطبيعة إلىٰ جوارك علىٰ خطّ مستقيم، فإنَّ المعوجّ لا نهاية له.

قال الشهرزوري في (تاريخ الحكماء): قيل لفيثاغورس: ما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر ممَّا يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ فقال: لمعرفة العلماء بفضل الغنىٰ، وجهل الأغنياء بفضل العلم.

وفي كتاب الأخلاق في حديث واحد (ج١/ ص ٦١): وقال: ما أنفع للإنسان أن يتكلَّم بالأشياء الجليلة النفيسة، وإن لم يتمكَّن فليستمع إلىٰ قائليها، ما أقبح للرجل أن يكون حرّاً ويصير عبداً للشهوات، لا ترج خيراً ممَّن لا يتمكَّن من ضبط نفسه، من منع المال لمن يحمده ورَّثه لمن لا يحمده، الدنيا دولة مرَّة لك ومرَّة عليك، فإذا تولَّيت فأحسن، وإذا تولّوك فكن، إنَّ أكثر الآفات إنَّما تعرض للحيوانات لعدم الكلام، وتعرض للإنسان من قِبَل الكلام، لا تعجب من البلاء الشديد إذا نزل بالإنسان كيف يتألَّم له ولكن اعجب من الذي صبر من الصبر كيف تحمَّله.

وكان إذا جلس علىٰ كرسيّه أوصىٰ السبع الوصايا: قوّموا موازينكم واعرفوا أوزانها، عدّلوا الخطايا تصحبكم السلامة، ولا تشعلوا النار حيث ترون السكّين يقطع، عدّلوا شهواتكم تستديموا الصحَّة، استعملوا العدل تحيط بكم المحبَّة، عاملوا الزمان كالولاة الذين يستعملون عليكم ويعزلون عنكم.

وذُكِرَ المال عنده ومُدِحَ، فقال: وما حاجتي إلىٰ ما يعطيه الحظّ، ويحفظه اللؤم، ويهلكه السخاء؟

وقيل له: ما أصعب الأشياء علىٰ الإنسان؟ فقال: أن يعرف نفسه، ويكتم سرَّه.

وحضرت الوفاة امرأته في أرض غربة، فجعل أصحابه يحزنون علىٰ موتها، فقال: يا معشر الإخوان، ليس بين الموت والغربة والموت في الوطن فرق، وذلك أنَّ الطريق واحد من جميع النواحي.

وكان نقش خاتمه: شرٌّ لا يدوم خير من خير لا يدوم، أي شرّ ينتظر زواله خير من خير ينتظر زواله.

وقال: لا تحرّك النار بالسكّين لأنَّها حميت منها مرَّة أُخرىٰ.

ومن كتاب محبوب القلوب (ص ٦٨): ومن آداب فيثاغورس ومواعظه: قال: كما أنَّ بدوّ وجودنا وخلقتنا من الله سبحانه، هكذا ينبغي أن تكون نفوسنا منصرفة إلىٰ الله تعالىٰ.

وقال: من أحبَّ الله سبحانه عمل بمحابه، ومن عمل بمحابه قرب منه، ومن قرب منه نجا وفاز.

وقال: احذر أن ترتكب قبيحاً من الأمر لا في خلوة ولا مع غيرك، وليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من كلّ أحد.

وقال: ليكن قصدك في المال اكتسابه من حلال وإنفاقه في مثله.

وقال: إذا سمعت كذباً فهوِّن علىٰ نفسك الصبر عليه.

وقال: كن متيقّظاً في أوائل أيّام حياتك فإنَّ ثبات الرأي شارك الموت في الحبس.

وقال: ما لا ينبغي أن تفعله، احذر أن تخطره ببالك.

وقال: عسير علىٰ الإنسان أن يكون حرَّاً، وهو مطاع للأفعال القبيحة الجارية مجرىٰ العادة.

وقال: اعتقد أنَّ أبين مخافة الله سبحانه وتعالىٰ الرحمة.

وقال: الإنسان الذي اختبرته بالتجربة فوجدته لا يصلح أن يكون صديقاً وخلاً احذر أن تجعله لك عدوَّاً.

وقال: ما أحسن بالإنسان أن لا يخطأ، وإن أخطأ فما أكثر انتفاعه بأن يكون عالماً أنّه أخطأ، ويحرص في أن لا يعاود.

وقال: الأولىٰ أن يفعل الإنسان ما ينبغي لا ما يشتهي.

وقال: ينبغي أن يعرف الوقت الذي يحسن فيه الكلام، والوقت الذي يحسن فيه السكوت.

وقال: ليس الحكيم من حمل عليه بقدر ما يطيق فصبر واحتمل، ولكن الحكيم من حمل عليه أكثر ممَّا يحتمل الطبيعة فصبر.

وقال: من لم يقهر نفسه جسده فإنَّما جسده قبر لنفسه.

وكان يقول: من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو حقيق أن لا ينزل به المكروه كما ينزل بغيره: العجلة، واللجاجة، والعجب، والتواني، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضاء، وثمرة التواني الزلَّة.

ونظر إلىٰ رجل عليه ثياب فاخرة يتكلَّم فيلحن في كلامه، فقال: إمَّا تتكلَّم بكلام يشبه لباسك، أو تلبس لباساً يشبه كلامك.

وقال لتلاميذه: لا تطلبوا من الأشياء ما يكون بحسب محبَّتكم، ولكن حبّوا من الأشياء ما هي محبوبة في أنفسها.

وقال: استعمل الفكر قبل العمل.

وقال: كثرة العدوّ ثقل الهدوّ.

وقال: اجعل اختبارك للناس من أفعالهم لا من أقوالهم، فإنَّ كثيراً من الناس تدبّراتهم رديّة وأقاويلهم سديدة وأفعالهم خبيثة وأقاويلهم جميلة.

وقال: ليس المتقدّم عند الله سبحانه لسان الحكيم بالتكرمة، بل أفعاله.

وقال: إن أحببت أن تعرف الله سبحانه فلا تصرف عنايتك إلىٰ معرفة الخلق فإنّه قد يمكنك أن تعرف الله باليسير من الكلام.

وقال: إذا ثبت واحد لزم لا واحد بإزائه فحصل تنزّهه.

وقال: الأقوال الكثيرة في الله سبحانه وتعالىٰ علامة تقصير الإنسان عن معرفته، فإذا خطر ببالك في كلّ وقت شغل فيه أخذ أفعال الجسم أو النفوس، فرأيت الله سبحانه المشاهد لجميع الأفعال والأعمال والأفكار، فإنّك بسرعة تستحي ممَّن لا يفوته رويّة شيء، وهذا يكون إذا كان علىٰ الله تعالىٰ اعتمادك.

وقال: الإنسان الحكيم المراقب لله سبحانه من عند الله معروف، فلهذا لا يندم متىٰ لم يكن معروفاً عند جميع الناس.

وقال: إنَّ العوامّ تظنّ أنَّ الباري تعالىٰ في الهياكل فقط فيحسر سيرتها فيها، كذلك يجب علىٰ من علم الله بأنّه في كلّ مكان أن تكون سيرته في كلّ مكان كسيرة العامّة في الهياكل.

وقال: اختر أن تكون متحرّكاً في نفسك لا في جسدك، فتكون أرباحك نفسانية لا جسمانية.

وقال: لا يُعَدُّ حرّاً من لا يتمكَّن من ضبط نفسه.

وقال له رجل: من أشقىٰ الناس؟ فقال: من يجمع لغيره.

وقيل له: من صديقك؟ فقال: من لا يغضب من الحقّ إذا سمعه منّي.

وقيل له: أيُّ الناس أولىٰ بالسعادة؟ فقال: أنقصهم ذنوباً. فقيل له: وأيُّهم ذلك؟ فقال: أكملهم عقلاً وأوفرهم عملاً بالواجب.

وقال: حِفظُ ما في يدك أولىٰ من التماس ما ليس عندك.

وقال: احرص أن لا تجعل للعداوة طريقاً إلىٰ النموّ.

وقال: جرِّد العقل من الهوىٰ تظهر صدق المعاملة.

وقيل له: فلان سيّئ القول فيك، فقال: لعلَّه جاهل بالقول الحسن.

وقال: الطبيب ليس من عالج غيره وهو سقيم.

ومن كلامه في الإلهيّات:

إنَّ الباري تعالىٰ واحد لا كالآحاد، ولا يدخل في العدد، ولا يُدرَك من جهة العقل، ولا من جهة النفس، فلا الفكر العقلي يدركه، ولا المنطق النفسي يصفه، فهو فوق الصفات الروحانيّة، غير مدرك من نحو ذاته وإنَّما يُدرَك بآثاره وصنائعه وأفعاله، فكلّ عالم من العوالم يدركه بقدر الآثار التي تظهر فيه فينعته ويصفه بذلك القدر الذي خصَّه من صنعه، فالموجودات في العالم الروحاني قد خصّت بآثار خاصّة روحانيّة، فينعته من حيث تلك الآثار، والموجودات في عالم الجسماني قد خصّت بآثار جسمانيّة فينعته من حيث تلك الآثار، ولا نشكُّ أنَّ هداية الحيوان مقدّرة علىٰ الآثار التي جبل الحيوان عليها، وهداية الإنسان مقدّرة علىٰ الآثار التي فطر الإنسان عليها، فكلّ يصفه من نحو ذاته ويقدّسه عن خصائص صفاته.

ثمّ قال: الوحدة تنقسم إلىٰ وحدة قائمة بالذّات غير مستفادة من الغير، لا تتألَّف منها كثرة، وهي وحدة الباري تعالىٰ، ووحدة الإحاطة بكلّ شيء، ووحدة الحكم علىٰ كلّ شيء، ووحدة يصدر عنها الآحاد في الموجودات والكثرة فيها، فهو سبحانه بوحدة ذاته بكلّ شيء محيط، وإلىٰ كلّ وحدة قائم بالغير مستفادة من الغير، وذلك وحدة المخلوقات، وهي المبدأ لائتلاف الكثرة، ويقابلها الكثرة ثمّ يتألَّف منها الأعداد.

وربَّما يقول: الوحدة علىٰ الإطلاق تنقسم إلىٰ وحدة قبل الدهر، ووحدة مع الدهر، ووحدة بعد الدهر وقبل الزمان، ووحدة مع الزمان، فالوحدة التي هي قبل الدهر وحدة الباري تعالىٰ، والوحدة التي هي مع الدهر وقبل الزمان وحدة العقل الأوَّل، والوحدة التي بعد الدهر وقبل الزمان وحدة النفس، والوحدة التي هي مع الزمان وحدة العناصر والمركَّبات.

وذكر أنَّ الإنسان بحكم الفطرة واقع في مقابلة العالم كلّه، فهو عالم صغير، والعالم إنسان كبير ولذلك حظّه من العقل والنفس أوفر، فمن أحسن تقويم نفسه وتهذيب أخلاقه وتزكية أحواله أمكنه أن يصل إلىٰ معرفة العالم وكيفية تأليفه، ومن ضيَّع نفسه ولم يقم بمصالحها من التهذيب والتقويم خرج عن عداد العدد والمعدود وانحلَّ عن رباط القدر والمقدور وصار ضايعها مهملاً.

وقال: النفس الإنسانية تأليفات عدديّة ولَحنيّة، ولهذا ناسبت النفس مناسبات الألحان والتذَّت بسماعها وطاشت باستماعها متواجدات وحاشت، ولقد كانت قبل اتّصالها بالأبدان قد أبدعت من تلك التأليفات العدديّة الأُولىٰ، ثمّ اتَّصلت بالأبدان فإن كانت التهذيبات الخلقيّة علىٰ تناسب الفطرة وتجرَّدت النفوس عن المناسبات الخارجة اتَّصلت بعالمها وانخرطت في سلكها علىٰ هيأة أكمل وأجمل من الأُولىٰ، فإنَّ التأليفات الأُوَل قد كانت ناقصة من وجه حيث كانت بالقوَّة وبالرياضة والمجاهدة في هذا العالم إلىٰ أن بلغت إلىٰ حدِّ الكمال خارجة من حدِّ القوَّة إلىٰ حدِّ الفعل.

وقال: والشرائع التي وردت بمقادير الصلوات والزكاة وسائر

العبادات إنَّما هي لإيقاع هذه المناسبات، وفي مقابلة تلك التأليفات الروحانيّة، وربَّما يبالغ في تقرير التأليف حتَّىٰ يكاد يقول ليس في العالم سوىٰ التأليف، فالأعراض والأجسام تأليفات، والنفوس والعقول تأليفات.

وقيل له: لِمَ قلت بإبطال العالم؟ قال: لأنَّه يبلغ العلَّة التي من أجلها كان، فإذا بلغت سكنت حركته، وأكثر اللذّات العلوية هي التأليفات اللَحنيّة وذلك كما يقع التسبيح والتقديس غذاء الروحانيين وغذاء كلّ موجود فهو ممَّا خُلِقَ منه ذلك الوجود.

وقال: إنّي عاينت هذه العوالم العلويّة بالحسّ بعد الرياضة البالغة، وارتفعت عن عالم الطبائع إلىٰ عالم النفس وعالم العقل، فنظرت ما فيها من الصور المجرَّدة وما لها من الحسن والبهاء والنور، وسمعت ما لها من اللحون الشريفة والأصوات الشجيّة الروحانيّة.

وقال: إنَّ ما في هذا العالم يشتمل علىٰ مقدار يسير من الحسن لكونه معلول الطبيعة، وما فوقه من العوالم أبهىٰ وأشرف وأحسن إلىٰ أن يصل الوصف إلىٰ عالم النفس والعقل فيقف فلا يمكن للمنطق وصف ما فيها من الشرف والكرم والحسن والبهاء، فليكن حرصكم واجتهادكم علىٰ الاتّصال بذلك العالم حتَّىٰ يكون بقاؤكم ودوامكم طويلاً مبعداً من الفساد والدثور، وتصيرون إلىٰ عالم هو حسن كلّه وسرور كلّه، وعزّ وحقّ كلّه، ويكون سروركم لديكم دائماً غير منقطع.

وقال: من كانت الوسائط بينه وبين مولاه أكثر فهو في رتبة العبوديّة أنقس، ولـمَّا كان البدن مفتقراً في مصالحه إلىٰ تدبير الطبيعة، وكانت الطبيعة مفتقرة في تأدية أفعالها إلىٰ تدبير النفس، وكانت النفس

مفتقرة في اختيار الأفضل إلىٰ إرشاد العقل، لم يكن فوق العقل فاتح إلَّا الهداية الإلهية، فالحري أن يكون المستعين بصريح العقل في كافّة المصارف مشهوداً له بفطنة الاكتفاء قريباً من مولاه ولا يكون مطيعاً لشهوة البدن المنقاد لدواعي الطبيعة المواتي لهواء النفس، بعيداً عن مولاه ناقصاً في رتبته.

* * *

(٨)

سقراط الحكيم اليوناني[١]

سقراط شيخ فلاسفة اليونان، وأعظم حكمائهم خطراً، وأكبرهم شأناً، لم يعرف التاريخ قبله في اغريقيا أحداً أغزر منه علماً، ولا أعمق بحثاً، ولا أدقُّ تفكيراً، ولا أسلم منطقاً، ولا أجلُّ نفساً، ولا أعظم حكمةً، ولا أكثر تواضعاً.

ذلك هو إمام المفكّرين، ونبراس الباحثين، أبو الفلسفة الأُولىٰ، ونصيرها الأجلّ سقراط، الذي حوَّل تيّار الفلسفة من البحث في النظريات الجدلية إلىٰ المعرفة الإنسانية، وتحديد الفضيلة الخلقية، ومدَّ أغصان دوحتها حتَّىٰ جعلها تتناول علم الأخلاق كجزء منها.

سقراط الذي ضحّىٰ بحياته في سبيل إيمانه بمبدئه، وآثر مغادرة الحياة علىٰ العدول عن عقيدته التي كانت تجري من نفسه مجرىٰ الدم من الإنسان.

يحيط الغموض بعض الإحاطة بتفاصيل نشأة سقراط...[٢].

هو زعيم الفلسفة اليونانية، وشيخ المفكّرين، والمثل الأعلىٰ للبطولة والنبوغ.

---

(١) عيون الأنباء ١: ٦٨؛ مختار الحكم: ٨٢؛ الملل والنحل ٢: ٨٣؛ طبقات الأُمم: ٣٠؛ إخبار العلماء: ١٣٥؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٥٥٩؛ معجم أعلام المورد: ٢٣٨؛ منن الرحمن ٢: ٨٦؛ أعلام الفلسفة: ٨٠؛ تاريخ الفلاسفة: ٧٥.

(٢) راجع: كتاب علي وسقراط: ٦٠١، تمام الترجمة.

وُلِـدَ في عصـــر كانــت (أثينــا) تمــوج فيــه رجــال الأدب وأســاطين العلم وأبطال السياسة ومصـاقع الخطبـاء. وتلقّـىٰ التربيـة الأثينيـة حـين كـان غلاماً، ولم يمنعـه نسـبه أن يصـل إلىٰ منصـب مـن أكـبر المناصـب في (أثينـا)، وقـف يومـاً أمـام القضـاة وقـد اتَّهمـه أعـداؤه بأنَّـه مخـالف لـدينهم مفسـد لشبّانهم.

فقال: لـو كنـتم قلـتم: يـا سـقراط، إنَّنـا لم نسـمع دعـوىٰ أنيـتس هـذه المـرَّة وسـندعك تغـدو وتـروح في ربـوع (أثينـا) ولكـن عـلىٰ شرط أن تـترك تعاليمك وأبحاثـك وفلسـفتك، فـإن وجـدناك بعـد اليـوم مشـتغلاً بمناقشـة الشبّان والبحث معهم في مسائل فلسفية ما كان لك من الموت منجىٰ.

لـو أنَّكـم قلـتم هـذا لقلـت لكـم: أيّهـا الأثينيـون، إنَّنـي أحـترمكم وأُحـبّكم وأعـرف لكـم منـزلتكم، ولكنّـي أُوثـر طاعـة عـلىٰ طـاعتكم ولـن أكـفّ عـن الفلسـفة والاسـتماتة في الحـقّ وإسـداء النصـح إلـيكم مـا دام فيَّ عرق ينبض ونفس يـتردَّد بـين أحشـائي حتَّـىٰ إذا لقـي الرجـل أخـاه قـال لـه في صراحـة: ألـيس مـن العـار أن تكـون (أثينـا) عظيمـة عـامرة يعنـي أهلهـا بالمال وحـبّ الشـهوة ويتركـون الحكمـة وسـبيل الحـقّ ولا يهتمّـون بتهـذيب أنفسهم.

وقـد حكـىٰ لنـا التـاريخ أنَّ واحـداً مـن أصـحاب سـقراط المخلصـين له وجَّه إلىٰ كاهنـة دلفـي السـؤال التـالي: هـل بـين الإنسـان أحـد أعقـل مـن سقراط؟ وكـان الجـواب: حقّـاً إنَّ سـقراط أكثـر النـاس علـماً وحكمـةً، فلـمَّا بلـغ سـقراط الجـواب دُهِـشَ لـه وكـان بـين أمـرين لا ثالـث لهـما، فإمَّـا أن يكذِّب قول الإله وهذا مـا لا يسـتطيع فعلـه، وإمَّـا أن يعتقـد في نفسـه العلـم والحكمة وهـو لا يـرضىٰ ذلـك لأنَّـه يجهـل كثـيراً مـن الحقـائق، ولهـذا أخـذ

يتنقَّل من مكان إلىٰ آخر ويقصد الذين اشتهروا بالعلم والحكمة، ويناقشهم في المسائل المختلفة حتَّىٰ يعرف مبلغ ما وصل من العلم.

وتبيَّن له في النهاية أنَّ الجهل المطبق غلب علىٰ قلوب الناس وأعماهم عن إدراك الحقائق وخدعتهم حتَّىٰ اعتقدوا في أنفسهم العلم وهم عنه بعيدون، وعندئذٍ أدرك سقراط أنَّ الناس مغرورون كاذبون في دعوىٰ العلم، أمَّا هو فجاهل معترف بجهله.

ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعله عند الله الحكيم المفرد، ولذلك لم يترك مسألة إلَّا حاور فيها، فقد تناول السياسة العامّة والآراء الشايعة في زمنه، والمبادئ الخلقية ونظام الحكومة وأساليب التربية والغرض منها، والموت وما بعده، والنفس وما أُعِدَّ لها من نعيم مقيم أو عذاب أليم، ولذَّ له الحوار فيها كلّها وتشعَّبت به الطرق حتَّىٰ أنَّ الإنسان ليجد صعوبة في تحديد موضوع فلسفته والنظر إلىٰ نوع محاوراته، فإليك ما دار بينه وبين أحد تلاميذه:

محاورة بين سقراط وتلميذه سمياس:

سقراط: وما رأيك يا سمياس فيما يأتي، وهل تعتقد أنَّ هناك شيئاً اسمه العدل المطلق، والجمال المطلق، والخير المطلق؟

سمياس: نعم إنَّ لهذه الأشياء وجوداً.

سقراط: هل رأيت واحداً منها بعينك؟

سمياس: كلَّا.

سقراط: هل نفهمها بإحدىٰ الحواسّ، وهل ندرك المعاني الذهنية ونتأمَّلها بجسومنا، أليس من الضروري أن نغضّ الطرف عن حاجات البدن وقت التفكير؟ ألست تعتقد أنَّ المعاني الذهنية وحقائق الأشياء إنَّما

تتجلّىٰ للإنسان إذا تجرَّد عن عالم الحسّ والمشاهدة واعتمد علىٰ العقل الخالص؟

سمياس: لقد وفّقت إلىٰ الصواب فيما تقول.

سقراط: إنَّ هذا يُحتِّم علىٰ الفلاسفة الذين ينشدون الحكمة أن يفكّروا في السبيل التي تصل بهم إلىٰ غايتهم مسترشدين بهدي العقل المحض، وليس في استطاعتنا أن نصل إلىٰ الغاية ما دامت الأجسام مقترنة بالنفوس، فإنَّ تحصيل حاجات الجسم يستغرق في الوقت كلّه، ويعوقنا عن التفكير ومتابعة البحث وراء الحقيقة، والآفات والعلل تعترينا بسببه، هذا إلىٰ أنواع من البلاء والمحن تدفعنا إليها الشهوات والمطالب المادّية، وإذا كان لنا أن نحصّل العلم وندرك الحقائق فإنَّ ذلك لا يكون إلَّا إذا تجرَّدت النفس عن جميع المشاغل الدنيوية وتحصيل حاجات البدن...

هذه شذرات من فلسفة سقراط، فإذا نظرنا إلىٰ صبره وأناته وأمره ونهيه، فليس في وسعنا أن نصل إلىٰ حدِّه ومنتهاه.

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ١٣٥): سقراط الحكيم المشهور، الفاضل الكامل، النزه المتخلّي عن تنزّهات هذا العالم الفاني، الناظر إلىٰ ما فيه بعين الحقيقة. كان من تلاميذ فيثاغورس، واقتصر من الفلسفة علىٰ العلوم الإلهية، وأعرض عن ملاذّ الدنيا ورفضها، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلَّة، فثوَّروا عليه العامّة واضطرّوا ملكهم إلىٰ قتله، فأودعه ملكهم الحبس توصّلاً إلىٰ قلوبهم وتسكيناً لثائرتهم، ثمّ أسقاه السمّ تفادياً من شرّهم.

وله وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهورة، ومذاهب في الصفات قريبة من مذاهب فيثاغورس وأبيذقلس.

وذكر بعض من له عناية بالتاريخ: أنَّ سقراط شامي، وكان الغالب عليه الفلسفة والنسك والتألّه، لم يكن له تأليف في الكتب، ومات مقتولاً قتله ملك زمانه إذ زجره عن القبائح والفحشاء، ولم يبن داراً ولا اتَّخذ سكناً، وكان يأوي إلىٰ دِنٍّ، وكان يشتمل بكساء، ولم يتَّخذ لنفسه غيره، ومرَّ به ملك ناحيته فقال له الملك: أنت عبد لي. قال سقراط: وأنت عبد لعبدي. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّي رجل أملك شهوتي المردية، وأنت لا تملك شهوتك فأنت عبد عبدي.

قال له الملك: فما حملك علىٰ اتّخاذ الدِنِّ؟ قال له سقراط: قطعت عن نفسي مؤونة كلّ دائر ودارس. قال: فإن انكسر الدِنُّ، قال سقراط: ثمّ المكان، فانصرف الملك عنه.

ثمّ تكلَّم في أمره سرّاً مع خاصَّته، وكانوا علىٰ المجوسية وعلىٰ عبادة النجوم، فأشاروا عليه بقتله، فبلغ سقراط ذلك فلم يزل عن مكانه، وقال: الموت ليس بشرّ ولكنَّه خير، وحالة الإنسان بعد الموت أتمّ وآخذ، وأُتي به الملك وشهد عليه سبعون شيخاً أنَّه أفسد القول في آلهتهم فأمر به إلىٰ القتل...

قال فريد وجدي في دائرة المعارف (ج ٥/ ص ١٨٠/ ط الثانية): سقراط كان من كبار فلاسفة اليونان، نبغ في القرن الخامس قبل الميلاد، في عصر كثرت فيه ضوضاء السوفسطائية، وهم طائفة من الفلاسفة زعموا أنَّ الموجودات خيالات لا حقيقة لها، واستخدموا أسلحة الجدل في التغرير والتضليل حتَّىٰ خلصوا بعض الناس عن عقائدهم، فكان

سقراط ألدّ أعدائهم، أصلاهم من فلسفته العالية حرباً ذاقوا آلامها سنين كثيرة حتَّىٰ توصَّلوا إلىٰ الوقيعة به لدىٰ الحكومة اليونانية، مدَّعين أنَّه أهان الآلهة وجحدها، فزجَّته الحكومة في السجن، ثمّ حكمت عليه بالقتل.

كان سقراط من تلاميذ فيثاغورس، اقتصر من الفلسفة علىٰ العلوم الإلهيّة، وكفَّ عن ملاذ الدنيا، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤساءهم بالحجاج والأدلَّة، فأثاروا العامّة عليه ثمّ قتلوه.

قال عنه القاضي صاعد في (طبقات الأُمم): لسقراط وصايا شريفة وآداب فاضلة، وحكم مشهورة، ومذاهب في الصفات قريبة من مذاهب فيثاغورس وبندقليس إلَّا أنَّ له في شأن المعاد آراء ضعيفة بعيدة عن محض الفلسفة خارجة عن المذاهب المحقّقة.

وقال المبشّر بن فاتك في كتاب (مختار الحكم): معنىٰ سقراط باليونانية المعتصم بالعدل، وهو ابن سفرونسفس، ومنشأه ومنبته بأثينية، وخلَّف من الولد ثلاثة ذكور، ولـمَّا ألزم التزويج علىٰ عادتهم الجارية في إلزام الأفاضل بالتزويج ليبقىٰ نسلهم بينهم، طلب تزويج المرأة السفيهة التي لم يكن في بلده أسلط منها ليعتاد جهلها والصبر علىٰ سوء خلقها، ليقدر أن يحمل جهل العامّة والخاصّة.

وبلغ من تعظيمه الحكمة مبلغاً أضرَّ بمن بعده من محبّي الحكمة؛ لأنَّ من رأيه أن لا يستودع الحكمة الصحف والقراطيس تنزيهاً لها عن ذلك، ويقال: إنَّ الحكمة طاهرة مقدَّسة غير فاسدة ولا دنسة فلا ينبغي لنا أن نستودعها إلَّا الأنفس الحيّة وننزّهها عن الجلود الميّتة ونصونها عن

القلوب المتمرّدة، ولم يصنِّف كتاباً ولا أملىٰ علىٰ أحد من تلاميذه ما أثبته في قرطاس، وإنَّما كان يلقنهم علمه تلقيناً لا غير، وكان زاهداً في الدنيا، قليل المبالاة بها، وكان يأوي إلىٰ زير مكسور يسكن فيه من البرد، وإذا طلعت الشمس خرج منه فجلس يستدفئ بالشمس، ولأجل ذلك سُمّي سقراط الحبّ.

فمرَّ به الملك يوماً وهو علىٰ ذلك الزير فوقف عليه وقال: ما لنا لا نراك يا سقراط، وما يمنعك من المصير إلينا؟ فقال: الشغل أيّها الملك.

فقال: بماذا؟ قال: بما يقيم الحياة، قال: فصر إلينا فإنَّ لك هذا عندنا معدَّاً أبداً، قال: لو علمت أيّها الملك أنّي أجد ذلك عندك لم أدعه.

قال: بلغني أنَّك تقول: إنَّ عبادة الأصنام ضارّة، قال: لم أقل هكذا. قال: فكيف قلت؟ قال: إنَّما قلت: إنَّ عبادة الأصنام نافعة للملك ضارّة لسقراط، لأنَّ الملك يصلح بها رعيَّته ويستخرج بها خراجه، وسقراط يعلم أنَّها لا تضرّه ولا تنفعه، إذا كان مقرّاً بأنَّ له خالقاً يرزقه ويجزيه بما قدَّم من سيّئ أو حسن.

قال: فهل لك من حاجة؟ قال: نعم، تصرف عنان دابتك عنّي فقد سترتني جيوشك من ضوء الشمس، فدعا الملك بكسوة فاخرة من ديباج وغيره بجواهر ودنانير كثيرة ليجيزه بذلك.

فقال سقراط: أيّها الملك وعدت بما يقيم الحياة وبذلت ما يقيم الموت، ليس لسقراط حاجة إلىٰ حجارة الأرض وهشيم النبت، ولعاب الدود، والذي يحتاج إليه سقراط هو معه حيث توجَّه.

وكان سقراط يرمز في كلامه مثل ما كان يفعل فيثاغورس، فمن كلامه المرموز قوله:

عندما فتَّشت عن علَّة الحياة ألفيت الموت، وعندما وجدت الموت عرفت حينئذٍ كيف ينبغي لي أن أعيش. أي إنَّ الذي يريد أن يحيا حياة إلهيّة ينبغي أن يميت نفسه من جميع الأفعال الحسّيّة علىٰ قدر القوَّة التي منحها، فإنَّه حينئذٍ يتهيَّأ له أن يعيش حياة الحقّ.

وقال: تكلَّم بالليل حيث لا يكون اعشاش الخفافيش. أي ينبغي أن يكون كلامك عند خلوتك لنفسك، وأن تجمع فكرك، وامنع نفسك أن تطلع في شيء من أُمور الهيولانيات.

وقال: أسدد الخمس الكوىٰ ليضيء مسكن العلَّة. أي أغمض حواسّك الخمس عن الجولان فيما لا يجدي لتضيء نفسك.

وقال: املأ الوعاء طيباً. أي أوع عقلك بياناً وفهماً وحكمةً.

وقال: أفرغ الحوض المثلَّث من القلال الفارغة. أي أفض من قلبك جميع الآلام العارضة في الثلاثة الأجناس من قوىٰ النفس التي هي أُصول جميع الشرّ.

وقال: لا تأكل الذئب. أي احذر الخطيئة.

وقال: لا تتجاوز الميزان. أي لا تتجاوز الحقّ.

وقال: وعند الممات لا تكن نملة. أي في وقت إماتتك لنفسك لا تقني ذخائر الحسّ.

وقال: ينبغي أن تعلم أنَّه في زمان من الأزمنة يفقد فيه زمان الربيع. أي لا مانع لك في كلّ زمان من اكتساب الفضائل.

وقال: افحص عن ثلاثة سبل فإذا لم تجدها فارض أن تنام نومة المستغرق. أي افحص عن علم الأجسام، وعلم ما لا جسم له فهو موجود مع الأجسام، وما اعتاص منها عليك فارض بالإمساك عنه.

وقال: ليست التسعة بأكمل من واحد. أي إنَّ العشرة هي عقد من العدد، وهي أكثر من تسعة وإنَّما تكمل التسعة لتكون عشرة بالواحد، وكذلك الفضائل التسع تتمّ وتكمل بخوف الله ﷻ ومحبَّته ومراقبته.

وقال: اقتنىٰ بالاثني عشر. يعني بالاثني عشر عضواً التي بها يكتسب البرّ والإثم، وهي: العينان، والأُذنان، والمنخران، واللسان، واليدان، والرجلان، والفرج.

وقال: ازرع بالأسود واحصد بالأبيض. أي ازرع بالبكاء واحصد بالسرور.

وقال: لا تشين الإكليل وتهتكه. أي الزم السنن الجميلة لا ترفضها لأنَّها تحوط جميع الأُمم كحياطة الإكليل للرأس.

قال البستاني في (دائرة المعارف): كان سقراط يحوِّل أفكار تلاميذه أوَّلاً نحو التقوىٰ، وعبادة الآلهة، ثمّ يحثّهم علىٰ الاحتشام والتأدّب والتحذّر من أنفسهم، والابتعاد عن اللذّات، وعلىٰ محبَّة والديهم وتوقيرهم، والمحافظة علىٰ الشرائع، ويثقّف عقولهم.

وكان يدَّعي أنَّ صوتاً داخليّاً رافقه علىٰ الدوام منذ صباه، وكثيراً ما منعه عن القيام بأُمور يكون قد همَّ بالإقدام عليها إلَّا أنَّه لم يكن يأمره بالإقدام علىٰ أمر من الأُمور، وكان يتكلَّم عن هذا الصوت بحرّيّة تامّة ويصغي له، ويطيعه طاعة عمياء، فإذا استشير في مسألة سيّئة العاقبة كان الصوت يمنعه عن القيام بها، وأمَّا إذا كانت حميدة المآل فكان يبقىٰ الصوت ساكتاً.

وكان ذا مبدأ ثابت لا يتزعزع، ففي كلّ تعاليمه كان يجتهد بإقناع

الناس بالتمسّك بعروة الفضيلة والصدق، ويعتقد أنَّ الفضيلة أمر مفعول كالرذيلة.

قال زينوفون: إنَّه كان يتجنَّب صرف قواه العقليّة في مباحث غريبة عن أُمور مجهولة لا يمكن التوصّل إلىٰ معرفة حقائقها، وكان ينسب من يفعل ذلك إلىٰ الجنون استناداً إلىٰ أنَّ أُموراً كهذه لا تؤثّر شيئاً في سعادة البشر، والبحث فيها يجعل الإنسان يهمل معرفة فروض وقواعد ينبغي أن تكون أساساً للتصرّف في هذه الدنيا، فلذلك لم يهتمّ إلَّا بهذا النوع المهمّ من الفلسفة، وانقطع إلىٰ درس الحقائق العمليّة وترك التعاليم المجرَّدة التي كان يهتمّ بها فلاسفة زمانه...

وقال اللاهجي في كتاب محبوب القلوب (ص ٧٨): الحكيم سقراط الزاهد المتألّه المتخلّي عن ترّهات هذا العالم الفاني، كان من تلاميذ فيثاغورس وطيماناوس، وقد اقتبس الحكمة منهما، واقتصر من الفلسفة علىٰ العلوم الإلهيّة والأخلاق، وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها، واعتزل إلىٰ الجبل وسكن فيه أكثر الأوقات خصوصاً في الليالي إلىٰ الخبّ (أو الحبّ) وهو الدِنّ ولهذا يُعرَف بسقراط الخبّ، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤسائهم بالحجج والأدلَّة، فثوَّروا العامّة عليه واضطرّوا ملكهم علىٰ قتله فأودعه الملك الحبس توصّلاً إلىٰ قلوبهم وتسكّناً لثوراتهم، ثمّ سقاه السمّ تعاذياً من شرّهم بعد مناظرات جرت له مع الملك.

وكان أهل دهره لـمَّا سألوه عن عبادة الأصنام صدَّهم عنها وأبطلها، ونهىٰ الناس عن عبادتها وأمرهم بعبادة الإله الواحد الصمد البارئ الخالق العالم الحكيم القدير، لا الحجر المنحوت الذي لا ينطق

ولا يسمع ولا يحسّ بشيء من الآلات، وحثَّ الناس علىٰ البرّ وفعل الخيرات، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن الفواحش والمنكرات في تقيّة من أهل زمانه.

فلمّا علم الرؤساء في وقته من الكهنة ما رامه من دعوته، وأنَّ رأيه نفي الأصنام، وردّ الناس عن عبادتها شهدوا عليه بوجوب القتل، فمات بالسمّ وله مائة سنة، وقيل: كان عمره ثمانين سنة.

ما أُثر عنه من الحكمة والأدب والموعظة:

آداب أبو الفلاسفة سقراط الحكيم الذي كلامه في القلوب كنسيم الرياح في الهبوب، وكالراحة للمكروب.

ذكر فريد وجدي في دائرة المعارف (ج ٥/ ص ١٨٧/ ط ٢) تحت عنوان: (حكم سقراط): من كلامه: عجباً لمن عرف فناء الدنيا كيف تلهيه عمَّا ليس له فناء.

وقال: النفوس أشكال، فما تشاكل منها اتَّفق، وما تضادّ منها اختلف.

وقال: اتّفاق النفوس باتّفاق هممها واختلافها باختلاف مرادها.

وقال: النفس جامعة لكلّ شيء فمن عرف نفسه عرف كلّ شيء، ومن جهل نفسه جهل كلّ شيء.

وقال: من بخل علىٰ نفسه فهو علىٰ غيره أبخل، ومن جاد علىٰ نفسه فذلك المرجوّ جوده.

وقال: ما ضاع من عرف نفسه، وما أضيع من جهل نفسه.

وقال: النفس الخيّرة مجتزئة بالقليل من الأدب، والنفس الشريرة لا ينفع فيها كثير من الأدب لسوء مغرسها.

وقال: لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف.

وقال: ستّة لا تفارقهم الكآبة: الحقود، والحسود، وحديث عهد بغنىٰ، وغنيّ يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم.

وقال: من ملك سرَّه خفي علىٰ الناس أمره.

وقال: خير من الخير من عمل به، وشرّ من الشرّ من عمله به.

وقال: العقول مواهب، والعلوم مكاسب.

وقال: لا تكون كاملاً حتَّىٰ يأمنك عدوّك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك؟

وقال: اتَّقوا من تبغضه قلوبكم.

وقال: الدنيا كنار سجن لمن زهد فيها، وجنَّة لمن أحبَّها.

وقال: لكلّ شيء ثمرة وثمرة قلَّة القنية تعجيل الراحة وطيب النفس الزكيّة.

وقال: الدنيا مضطرمة علىٰ محجَّة، فمن اقتبس منها ما يستضيء به في طريقه سلم من شرّها، ومن جلس ليحتكر منها أحرقته بحرّها.

وقال: من اهتمَّ بالدنيا ضيَّع نفسه، ومن اهتمَّ بنفسه زهد في الدنيا.

وقال: طالب الدنيا إن نال ما أمَّل تركه لغيره، وإن لم ينل ما أمَّله مات بغصَّته.

وقال: لا تردَّنَّ علىٰ ذي خطأ خطأه فإنَّه يستفيد منك علماً ويتَّخذك عدوّاً.

وقيل له: ما رأيناك قطّ مغموماً؟ فقال: لأنَّه ليس لي شيء متىٰ ضاع منّي وعدمته اغتممت عليه.

وقال: من أحبَّ أن لا تفوته شهوته فليشته ما يمكنه.

وقال: أثر علىٰ ذي المودَّة خيراً عند من لقيت، فإنَّ رأس المودَّة حسن الثناء، كما أنَّ رأس العداوة سوء الثناء.

وقال: إذا وُلّيت أمراً فأبعد عنك الأشرار، فإنَّ جميع عيوبهم منسوبة إليك.

وقال له رجل شريف الجنس وضيع الخلائق: أمَا تأنف يا سقراط من خساسة جنسك؟ فأجاب: جنسك عندك انتهىٰ، وجنسي منّي ابتدأ.

وقال: خير الأُمور أوسطها.

وقال: إنَّ أهل الدنيا كصور في صحيفة كلَّما نشر بعضها طوي بعضها.

وقال: الصبر يعين علىٰ كلّ عمل.

وقال: من أسرع يوشك أن يكثر عثاره.

وقال: إذا لم يكن عقل الرجل أغلب الأشياء عليه كان هلاكه في أغلب الأشياء عليه.

وقال: لا يكون الحكيم حكيماً حتَّىٰ يغلب شهوات الجسم.

وقال: كن مع والديك كما تحبّ أن يكون بنوك معك.

وقال: ينبغي للعاقل أن يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب للمريض.

وقال: طالب الدنيا قصير العمر، كثير الفكر.

وكان يقول: القنية مخدومة، ومن خدم غير ذاته فليس بحر.

وقيل له: ما أقرب شيء؟ فقال: الأجل، فقيل له: فما أبعد شيء؟ فقال: الأمل، وقيل له: فما آنس شيء؟ فقال: الصاحب المواتي، فقيل له: فما أوحش شيء؟ فقال: الموت.

وقال: من كان شرّيراً فالموت سبب راحة العالم من شرّه.

وقال: إنَّما جُعِلَ للإنسان لسان وأُذنان ليكون ما يسمعه أكثر ممَّا يتكلَّم به.

وقال: الملك الأعظم هو الغالب لشهواته.

وقيل له: أيُّ الأشياء ألذّ؟ فقال: استفادة الأدب واستماع أخبار ما لم تكن سمعت.

وقال: أنفس ما لزمه الأحداث الأدب، وأوَّل نفعه لهم إنَّه يقطعهم عن الأفعال الرديئة.

وقال: أنفع ما اقتناه الإنسان الصديق المخلص.

وقال: الصامت يُنسَب إلىٰ العيّ ويسلم، والمتكلِّم يُنسَب إلىٰ الفضل ويندم.

وقال: استهينوا بالموت فإنَّ مرارته في خوفه.

وقال: المشكور من كتم سرَّاً لمن لم يستكتمه، وأمَّا من استكتم سرَّاً فذلك واجب عليه.

وقال: اكتم سرّ غيرك كما تحبّ أن يكتم غيرك سرّك.

وقال: إذا ضاق صدرك بسرّك، فصدر غيرك به أضيق.

وقيل له: لِمَ صار العاقل يستشير؟ فقال: العلَّة في ذلك تجريد الرأي من الهوىٰ، وإنَّما استشار تخوّفاً من شوائب الهوىٰ.

وقال: من حسن خلقه طابت معيشته، ودامت سلامته، وتأكَّدت في النفوس محبَّته، ومن ساء خلقه تنكَّدت عيشته، ودامت بغضته، ونفرت النفوس منه.

وقال: حسن الخلق يغطّي غيره من القبائح، وسوء الخلق يقبّح غيره من المحاسن.

وقال: رأس الحكمة حسن الخلق.

وقال: النوم موتة خفيفة، والموت نوم طويل.

وقال لتلميذ له: لا تركننَّ إلىٰ الزمان فإنَّه سريع الخيانة لمن ركن إليه.

وقال: من سرَّه الزمان في حال ساءه في أُخرىٰ.

وقال: من ألهم نفسه حبّ الدنيا امتلأ قلبه من ثلاث خلال: فقر لا يدرك غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وشغل لا يدرك فناه.

وقال: من احتجت أن تستكتمه سرّك فلا تسرّه إليه.

وسُئِلَ: لِمَ صار ماء البحر ملحاً؟ فقال للذي يسأله: إن أعلمتني المنفعة التي تنالك من علم ذلك أعلمتك السبب فيه.

وقال: لا ضرّ أضرّ من الجهل، ولا شرّ أشرّ من النساء.

ونظر إلىٰ صبيّة تُعَلَّمَ الكتابة، فقال: لا تزيدوا الشرّ شرَّاً.

وقال: من أراد النجاة من مكائد الشيطان، فلا يطيعنَّ امرأة، فإنَّ النساء سلَّم منصوب ليس للشيطان حيلة إلَّا بالصعود عليه.

وقال لتلميذ له: يا بنيّ، إن كان لا بدَّ لك من النساء فاجعل لقاءك لهنَّ كأكل الميتة لا تأكل منها إلَّا عند الضرورة، فتأخذ منها بقدر ما يقيم الرمق، فإن أخذ آخذ منها فوق الحاجة أسقمته وقتلته.

وقيل له: ما تقول في النساء؟ فقال: هنَّ كشجر الدفلي له رونق وبهاء فإذا أكله الغرّ قتله.

وقيل له: كيف يجوز لك أن تذمّ النساء، ولولاهنَّ لم تكن أنت ولا أمثالك من الحكماء؟ فقال: إنَّما المرأة مثل النخلة ذات السلاء إن دخل في بدن الإنسان عقره، وحملها الرطب الجني.

وقال له أرشيجانس: إنَّ الكلام الذي كلَّمت به أهل المدينة لا

يُقبَل، فقال: ليس يكربني أن يكون لا يُقبَل، وإنَّما يكربني أن لا يكون صواباً.

وقال: من لا يستحي فلا تخطره ببالك.

وقال: لا يصدّك عن الإحسان جحود جاحد للنعمة.

وقال: الجاهل من عثر بحجر مرَّتين.

وقال: كفىٰ بالتجارب أدباً، وبتقلّب الأيّام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة.

وقال: اعلم أنَّك في أثر من مضىٰ سائر، وفي محلّ من فات مقيم، وإلىٰ العنصر الذي بدأت منه تعود.

وقال: لأهل الاعتبار في صروف الدهر كفاية، وكلّ يوم يأتي عليه منه علم جديد.

وقال: بعوارض الآفات تكدّر النعم علىٰ المتنعّمين.

وقال: من قلَّ همّه علىٰ ما فاته استراحت نفسه وصفا ذهنه.

وقال: من لم يشكر علىٰ ما أُنعِم به عليه أُوشك أن لا تزيد نعمته.

وقال: رُبَّ متحرّز من الشيء وتكون منه آفته.

وقال: داووا الغضب بالصمت.

وقال: الذكر الصالح خير من المال، فإنَّ المال ينفد والذكر يبقىٰ، والحكمة غنىٰ لا يعدم ولا يضمحل.

وقال: استحبَّ الفقر مع الحلال عن الغنىٰ مع الحرام.

وقال: أفضل السيرة طلب المكسب وتقدير الإنفاق.

وقال: من يجرِّب يزداد علماً، ومن يؤمن يزدد يقيناً، ومن يستيقن يعمل جاهداً، ومن يحرص علىٰ العمل يزدد قوَّة، ومن يكسب يزدد فترةً، ومن يتردَّد يزدد شكَّاً.

وقال: ما كان في نفسك فلا تبده لكلّ أحد، فما أقبح أن يخفي الناس أمتعتهم في البيوت ويظهرون ما في قلوبهم.

وقال: لولا أنَّ في قولي: إنَّني لا أعلم إخباراً بأنّي أعلم لقلت: إنّي لا أعلم.

وقال: القنية ينبوع الأحزان فلا تقتنوا الأحزان.

ولد سقراط سنة (٤٦٩) قبل الميلاد، وتوفي سنة (٣٩٦).

في كشكول الشيخ البهائي رحمه الله (ط الأُولىٰ في إيران): إنَّما الدنيا كطريق فيه شوك مغطّىٰ بالتراب يدوسه من لا يعرف مسلكه فيشكّه ويؤلمه، ويقف عنه من استراب به فيسلم منه.

وقال: ما أغفل من تيقَّن بالرحيل من الدنيا وهو دأبه مجتهد في عاداتها.

ومن كلامه: لا تعرف المنزل الجيّد حتَّىٰ تنزل المنزل الردي.

إنَّ مساعدة الأُمور للمرء تكاد أن تسلبه عقله.

القلب الفارغ يبحث عن الأهواء، واليد الفارغة تسارع إلىٰ الآثام.

وقال: شخص بغير علم كجسد بلا روح.

وقال: إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات.

وقال: نفوس الأخيار نافرة عن أفعال الفجّار، ونفوس الأشرار مبرمة بها عمل الأبرار.

وقال: النفس عوض عن كلّ شيء، ولا شيء عوض عن النفس.

وقال: من ظنَّ أنَّه شيء ولا يحسن شيئاً فليس بشيء، فلا يتأهَّل بشيء سوىٰ التوبيخ.

ومن كلامه: لا تظهر لصديقك المحبَّة دفعة واحدة، فإنَّه متىٰ رأىٰ منك تَغَيُّراً عاداك.

وقيل له: أيُّ السباع أحسن؟ فقال: المرأة.

وكان قليل الأكل خشن اللباس، فكتب إليه بعض فلاسفة عصره: أنت تزعم أنَّ الرحمة لكلّ ذي روح واجبة، وأنت ذو روح فلِمَ لا ترحمها بترك قلَّة الأكل وخشن اللباس؟

فكتب في جوابه: عاتبتني علىٰ لبس الخشن، وقد يعشق الإنسان القبيحة ويترك الحسناء، وعاتبتني علىٰ قلَّة الأكل وإنَّما أُريد أن آكل لأعيش، وأنت تريد أن تعيش لتأكل، والسلام.

فكتب إليه الفيلسوف: قد عرفت السبب في قلَّة الأكل، فما السبب في قلَّة كلامك؟ وإذا كنت تبخل علىٰ نفسك بالمأكل فلِمَ تبخل علىٰ الناس بالكلام؟

فكتب في جوابه: ما احتجت إلىٰ مفارقته وتركته للناس فليس لك، والشغل بما ليس لك عيب، وقد خلق الحقّ سبحانه لك أُذنين ولساناً لتسمع ضعف ما تقول لا لتقول أكثر ممَّا تسمع، والسلام.

عيَّر سقراط الحكيم رجل بخمول نسبه، وتاه عليه بشرفه ورياسته، فقال له سقراط: إليك انتهىٰ شرف قومك، ومنّي ابتدأ شرف قومي، فأنا فخر قومي، وأنت عار قومك.

ومن كلامه: أخصُّ ما يوصف به الباري تعالىٰ هو كونه حيَّاً قيّوماً؛ لأنَّ العلم والقدرة والجود والحكمة تندرج تحت كونه حيَّاً، والحياة صفة جامعة للكلّ، والبقاء والسرمد والدوام يندرج تحت كونه قيّوماً، والقيّوميّة صفة جامعة للكلّ.

وكان من مذهبه: أنَّ النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان، فاتَّصلت بالأبدان لاستكمالها، فإذا بطلت الأبدان رجعت النفوس إلىٰ كلّيّتها.

وقال لـمّا أراد الملك قتله: إنَّ سقراط في حبٍّ، والملك لا يقدر إلَّا علىٰ كسر الحبّ، فالحبّ يُكسَر ويرجع الماء إلىٰ البحر.

وكان سقراط فقيراً، فقال له بعض الملوك: ما أفقرك؟ فقال: أيّها الملك لو عرفت راحة الفقر لشغلك التوجّع لنفسك عن التوجّع لي.

وقيل له: متىٰ أثَّرت فيك الحكمة؟ فقال: مذ حقَّرت نفسي.

وكان سقراط مقيماً في جنب حفرة إلىٰ جنب نهر، وكان يخرج فيشرب منه بكفّيه، فأهدىٰ له بعض تلامذته كوزاً، فكان يشرب به، فانكسر الكوز فضاق صدره، وحضر تلامذته ليكتبوا عنه علىٰ عادتهم، فقال لهم: اكتبوا: القنية بيت الأحزان، ووتد الهموم.

وكان يقول: من أراد قلَّة الغمّ فليترك القنية.

ومن كلامه: من لم يصبر علىٰ تعب العلم صبر علىٰ شقاء الجهل.

قال اللاهجي في محبوب القلوب (ص ٨٣/ ط الأُولىٰ في إيران): ومن حكم سقراط قوله: أوَّل ما تجعل فيه همَّتك ومحافظتك أن تعرف حقّ الله ﷻ عليك في العبادة والتقوىٰ، وأن تجهد فيما يرضىٰ به، وذلك ليس بالقرابين وحدها، ولكن أن تحذر التعدّي في أن تقيم به باطلاً فإنَّ هذا النحو إن أحكمته كان علامة صادقة للأخيار وأثراً صالحاً من شيمة الأبرار، فأرضي الله سبحانه دهرك واجتهد في موافقة الجماعة فإنَّ العصمة بذلك مع العمل بالشريعة.

وقال: غرس النفس الفاضلة الإنصاف، وثمرة غرسها السلامة، وغرس النفس الرذيلة الشرّ، وثمرة غرسها الندامة.

وقال: النفس الفاضلة تُعرَف بحسن قولها للحقّ، والنفس الناقصة تُعرَف بمسارعتها إلىٰ الباطل.

وسأله بعضهم: متىٰ تكمل لي الحكمة؟ فقال: إذا لم تفرح بالمدح ولا تغمّ بالذمّ، فقال: ومتىٰ يتهيَّأ لي ذلك؟ فقال: إذا حصلت لك أربعة: اثنان يسمعان الحكمة، واثنان يُصمّان عن هذر الجهل.

وقال: العالم طبيب الدين، والمال داء الدين، فإذا رأيت الطبيب يجرُّ الداء إلىٰ نفسه فكيف يداوي غيره؟

وكتب إلىٰ ملك زمانه وقد مات ابنه: أمَّا بعد، فإنَّ الله جلَّ اسمه جعل الدنيا دار بلوىٰ، وجعل الآخرة دار عقبىٰ، وجعل هوىٰ الدنيا لعقاب الآخرة سبباً وثواب الآخرة من هوىٰ الدنيا عوضاً، فيأخذ ما يأخذهما ليعطي، ويبلي إذا بلىٰ ليجزي، والسلام.

وكتب إليه أفلاطون: إنّي أسألك عن ثلاثة أشياء فإن أجبت عنها تلمَّذت لك؟ فكتب سقراط إليه: سل وبالله التوفيق.

فكتب أفلاطون إليه: أيُّ الناس أولىٰ بالرحمة؟ ومتىٰ تُضيَّع أُمور الناس؟ وبماذا تتلقّىٰ (تنال) الرحمة والنعمة من الله تعالىٰ؟

فأجابه: أولىٰ الناس بالرحمة ثلاثة: الحكيم الذي في مملكة السلطان الفاجر، فهو في الدهر حزين لما يسمع ويرىٰ، والعاقل في تدبير الجاهل فهو في الدهر مُتعَب مغموم، والكريم المحتاج إلىٰ اللئيم، فهو في الدهر له خاضع ذليل. وتُضيَّع أُمور الناس إذا كان الرأي عند من لا يعقل، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه. وتتلقّىٰ نعمة الله بكثرة الشكر له، ولزوم طاعته، واجتناب معصيته. فأقبل أفلاطون إليه وتلمَّذ له حتَّىٰ مات.

وقال: من أمات نفسه موتاً طبيعياً كان جسمه قبراً، ومن أماتها موتاً إرادياً كان موته الطبيعي حياة لنفسه أبداً.

وقال: من خاف من شيء عمل ما يؤمنه، فمن خاف الموت فليعمل ما يرجو منه السلامة.

وقال: الحكمة طبّ النفوس، والحكيم معالجها.

وقال: الكلام مملوك ما لم ينطق به صاحبه، فإذا نطق به خرج عن ملكه.

وقال له رجل: ما أقبح وجهك، فقال له: لا أملك الخلقة فأُلام عليها، فأمَّا ما كان في ملكي فقد زيَّنته واستكملته، وأمَّا أنت فالذي كان في ملكك فقد هجَّنته وقبَّحته.

وقال: ومن التزيين والتكميل: عمارة الذهن بالحكمة، وجلاء العقل بالأدب، وقلع الغضب بالحلم، وردع الحرص بالقناعة، وإماتة الحسد بالزهد، وتبديل المزاج بالسكوت، ورياضة النفس بالعلم لتكون مضيئة.

ومن التقبيح والتهجين: تعطيل الذهن من الحكمة، وتوسيخ القريحة بالوقاحة، وإضرام الغضب بالانتقام، وإمداد الحرص بالطلب وتذليل بالشهوات البهيمية حتَّىٰ تصير لها تبعاً.

وقال: افعل ما تحبّ أن يفعل بك، واكفف عمَّا تحبّ أن يكفّ عنك.

وقال: بالتأنّي تسهل المطالب، وبلين الكلمة في المعاشرة تدوم المودَّة، وبخفض الجانب تأمن النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب العيش، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبالعدل تجلب الجلالة، وبالنصفة تكون

المواصلة، وبالإفضال تعظم الأقدار، وبالتواضع تتمّ النعمة، وبصالح الأخلاق تزكىٰ الأعمال، وباحتمال المذلَّة يجب التودّد، وبالحلم عن السفيه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتودّد يستحقّ اسم الكرم وينفىٰ العجب ويأمن من الحسد، وبترك ما لا يعنيك يتمُّ لك الفضل.

وقال: من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن صبر غنم، ومن لم يحلم ندم، ومن سكت سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم.

وقال: لا تعاشر من الناس إلَّا من عرف مقدار نفسه، فمعاشرته في طيب عيش، ومن لم يعرف نفسه فلا خير في عشرته.

وكان مكتوباً علىٰ باب صومعته: سلام علىٰ من لا أعرفه ولا يعرفني.

وقال: قلوب العارفين في المعرفة بالحقائق منابر الملائكة، وبطون المتلذّذين بالشهوات قبور للحيوانات الهالكة.

ومن كلامه: الفاضل في الطبقة العليا هو الذي يقتني الفضائل من تلقاء نفسه، والفاضل في الطبقة الثانية هو الذي يتحرَّك لها إذا سمعها من غيره، ومن أخطأ الأمرين فهو الساقط الدنيّ.

ورآه بعض أُمراء الملك يأكل الحشيش في الصحراء، فقال: لو خدمت الملك لما احتجت إلىٰ هذا، فقال سقراط: وأنت لو قدرت علىٰ أكل الحشيش لم تعبد من هو مثلك.

* * *

(٩)

أفلاطون أحد أساطين الحكمة[١]

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ١٣): أفلاطون بن أرسطون، أحد أساطين الحكمة الخمسة من يونان، كبير القدر فيهم، مقبول القول، بليغ في مقاصده، أخذ عن فيثاغورس اليوناني، وشارك سقراط في الأخذ عنه، ولم يشتهر ذكره بين علماء اليونان إلَّا بعد موت سقراط.

وكان أفلاطون شريف النسب في بيوت يونان، من بيت علم، واحتوىٰ علىٰ جميع فنون الطبيعة، وصنَّف كتباً كثيرة مشهورة في فنون الحكمة، وذهب فيها إلىٰ الرمز والإغلاق، واشتهر جماعة من تلاميذه المتخرّجين عليه، وسادوا بانتسابهم إليه، وكان يعلِّم الطالبين الفلسفة وهو ماشٍ، وسمّىٰ الناس فرقته المشّائين، وفوَّض في آخر عمره المفاوضة والتعليم والتدريس إلىٰ أرشد أصحابه، وانقطع إلىٰ العبادة والاعتزال، وعاش ثمانين سنة.

جاء في (دائرة المعارف) للبستاني: أفلاطون فيلسوف من أشهر فلاسفة اليونان، وُلِدَ في (أثينا)، كان ينمو ويتقدَّم بالأوصاف والأخلاق الجليلة حتَّىٰ كان له من المزايا أجلّها وأكرمها، فكان ثاقب الفكر، غزير

---

(١) عيون الأنباء ١: ٧٨؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٩٧؛ إخبار العلماء: ١٣؛ مختار الحكم: ١٢٦؛ الملل والنحل ٢: ٨٨؛ طبقات الأُمم: ٣٠؛ معجم أعلام المورد: ٦٠؛ تاريخ الفلاسفة: ٨٢؛ أعلام الفلاسفة: ٩٥؛ دائرة معارف البستاني ٤: ٦٣.

المادّة، سليم الذوق، واسع العقل ثابته، بصيراً، حادّ الذهن، مولعاً بعلم الهندسة.

وكان في أوَّل عمره يدرس الغراماتيق ويمرِّن جسده مع ذلك في الرياضات، ثمّ أتقن الفنون واشتغل بالتصوير والموسيقي، وكان في صباه قد قرأ علىٰ كراتيلس بعض دروس الفلسفة، ولـمَّا بلغ العشرين من عمره تلمَّذ لسقراط فبقي عنده مواظباً علىٰ الاجتهاد والتقدّم.

قال فريد وجدي في دائرة المعارف (ج ١/ ص ٤١٨/ ط ٢): أفلاطون هو أشهر فلاسفة اليونان، وُلِدَ في جزيرة (أجين) سنة (٣٣٠ق م)، وتوفّي سنة (٢٤٧ق م)، وهو من أُسرة عريقة في النسب.

عرف الفيلسوف سقراط فمال إلىٰ الفلسفة، ووقف حياته عليها، فاتَّخذه سقراط تلميذه الأوَّل.

وكانت فلسفة أفلاطون فلسفة أُستاذه سقراط بعينها، إلَّا أنَّه بما اكتسب من العلوم الكونية ألقاها علىٰ الناس في ثوب جديد، ثمّ أضاف إليها أفكاره الخاصّة المكتسبة، فجاءت أكمل فلسفة عرفها الناس لذلك الحين، فذاع صيته في البلاد، وعُرِفَ بسموّ العقل وبعد النظر في عوائد الأُمم وأخلاقها، لذلك كان كثير من الحكومات تطلب إليه أن يسنّ لها من القوانين ما يقيم أودها ويستصلح شؤونها، وقد لُقِّبَ بالإلهي، وكان عقلاء زمانه كلّهم علىٰ فلسفته وآرائه.

قال أفلاطون في كتاب (النواميس): إنَّ أشياء لا ينبغي للإنسان أن يجهلها منها: أنَّ له صانعاً، وأنَّ صانعه يعلم أفعاله، وذكر أنَّ الله تعالىٰ إنَّما يُعرَف بالسلب، أي لا شبيه له ولا مثال، وأنَّه أبدع العالم من لا نظام إلىٰ نظام، وأنَّ كلّ مركَّب فهو للانحلال، وأنَّه لم يسبق العالم زمان ولم يبدع عن شيء.

الفلسفة عند أفلاطون:

معرفة العموميات والإلمام بالضروريات، وكان يقسّمها إلىٰ جدليات وطبيعيات وأخلاقيات، ويقرِّر أنَّ للعقل ثلاث خصائص: وهي الإحساسات، والمدركات، والمُثُل، فالإحساسات تقابل الأشياء المتغيّرة والمتشخّصة، والمدركات تقابل الأشياء المتغيّرة أيضاً ولكن مع تجريد أشخاصها عن الحسّ بها، وأمَّا المُثُل فتقابل الأشياء الثابتة والحقائق العامّة، وعنده أنَّ المُثُل ليست مدركات بسيطة للعقل بل هي أُصول الأشياء وحقائقها.

وكان يقول: إنَّ المُثُل عالم قائم بنفسه مستقلّ متَّصل بنا من الله مباشرةً، وهي القوالب التي شيّأ الله عليها الأشياء وسمّاها النموذجات.

قال: وإنَّه يوجد أصل متغيّر ناقص قابل للفناء هو المادّة التي لا شكل لها ولا صورة، فبتأثير الله عليها ازدوجت النموذجات بالمادّة علىٰ درجات مناسبة، فنشأ عنها جوهر مشترك متوسّط هو روح العالم، وروح العالم هذه بانقسامها إلىٰ أرواح جزئية تشخَّصت عنها أرواح الناس والآلهة التي تعبدها العامّة.

الروح في نظر أفلاطون:

روح الإنسان في نظر أفلاطون هي حياة غير قابلة للفناء، محصورة في سجن فانٍ هو الجسد.

الفضيلة في نظر أفلاطون:

وكان يقول: الفضيلة هي مطابقة عمل الإنسان لأصل الخير المحض والدستور العامّ للأخلاق، وهو التخلّق بأخلاق الله تعالىٰ.

الحكومة في نظر أفلاطون:

أمَّا الحكومة في نظره فأحسن أشكالها هي المقودة برجل واحد علىٰ المبدأ الأرسطوقراطي، أي غلبة الأعيان، قال: لأنَّ الملك الصالح أصلح لحكومة بلاده من أيّ قانون كان، لأنَّه صالح بأن يسلِّم بكلّ التغيّرات الطارئة، ويقابله بما تتطلَّبه من رأي وعمل بخلاف القانون فإنَّه ثابت لا يتغيَّر.

الناس في نظر أفلاطون:

قسَّم أفلاطون الناس إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ _ المتشرّعون أي الفلاسفة.

٢ _ الجنود.

٣ _ الصنّاع وأهل المهن.

قال: أمَّا الأوَّلون: فهم المخلوقون للسيادة دون غيرهم، وسمّاهم الصنف الذهبي، أمَّا الجنود فهم حرّاس المملكة، وأطلق عليهم الصنف الفضّي، وأمَّا الصنّاع فهم المخلوقون للطاعة العمياء، ودعاهم الصنف الحديدي.

أمَّا العبيد فقال عنهم: إنَّهم ماشية لأُمَّة، مثلهم كمثل البهائم السائمة.

ولقد أحسن فريد وجدي بقوله تعليقة علىٰ هذه العبارة: إنَّ الإنسان ليعجب أنَّ مثل أفلاطون في فضله وعلمه وسموّ نظره يعتبر الأرقّاء كالبهائم السائمة، وهم إخوانه في الإنسانية، وربَّما كان فيهم من إذا نال حظّاً من التعليم كان نظيراً لأفلاطون في الفلسفة.

إن قلنـا: إنَّ رأي أفلاطـون كـان هـو الـرأي العـامّ سرىٰ إلىٰ أفلاطـون من طريق العـدوىٰ، قلنـا: فلِـمَ لا يسـري مثـل هـذا الـرأي إلىٰ محمّـد ﷺ، وقد كان العرب أشدُّ وطأةً علىٰ الأرقّاء مـن اليونـان؟ ألـيس يـدلُّ هـذا علىٰ البون البعيد بين رتبة النبوَّة ورتبة الفلسفة؟

الفيلسوف يأخـذ فـيما يأخـذ مـن المـدركات الغـثّ والسـمين، وهـو في كلّ حالاته عرضـة لـنقص طبيعتـه وأهـواء نفسـه، ولكـن النبـيّ يسـتقي مـن أعلىٰ الموارد وأخلصـها مـن الشـوائب مـورد العلـم الإلهـي الـذي يتنـزَّه عـن الحيف، ويجلّ عن الجنَف... نقلنا هذا عن فريد وجدي مختصراً.

قـال اللاهجـي في محبـوب القلـوب (ص ٨٩): الحكـيم أفلاطـون الإلهي ابن أرسـطن، أحـد أسـاطين الحكمـة، كبـير القـدر، حسـن الأخـلاق، كثير الإحسـان إلىٰ كـلّ ذي قرابـة منـه، وإلىٰ الغربـاء، حلـيماً صـبوراً، معروفـاً بالحكمة والتوحيد.

وكـان يحـبّ الجلـوس في الصـحاري والوحـدة، ويسـتدلُّ في أكثـر الأوقات علىٰ موضـعه بصـوت بكائـه، ويسـمع علىٰ نحـو ميلـين في الفيـافي والصحاري.

وُلِدَ في زمان أردشير بـن دارا في سـتّة عشـرة مـن ملكـه، وكـان أبـواه أشرف اليونـانيين مـن ولـد اسـقليبوس، وكانـت أُمّـه مـن نسـل أسـولون صاحب الشرائع.

وكـان في أوَّل أمـره تعلَّـم الشـعر واللغـة، فبلـغ في ذلـك مبلغـاً عظـيماً إلىٰ أن حضر يوماً سقراط وهـو يثلـب صـناعة الشـعر فأعجبـه مـا سـمع منـه وزهد فيما كان عنـده منـه، ولـزم سـقراط وسـمع منـه خمـس سـنين (أو ثـمان سنين) ثمّ مات سقراط.

فبلغه أنَّ بمصر قوماً من أصحاب فيثاغورس، فسار إليهم حتَّىٰ أخذ عنهم.

ويُحكىٰ أنَّ سقراط رأىٰ في المنام أنَّ فرخ كركي قاعد علىٰ حجره، وأنَّه رَعِبَ فطلع ريشه في الوقت فطار نحو السماء وهو يصوِّت بصوت حسن مطرب ألهىٰ جميع الناس، فلـمَّا جاءه أفلاطون للتعلّم تأوَّله ذلك الطائر.

قال اللاهجي في تفسير هذا: أقول: كأنَّه طلوع ريشه في الوقت اكتسابه الكمالات السقراطية في أقصر وقت، وطيرانه نحو السماء كناية عن علوّ قدره وسموّ منزلته في الفلسفة الإلهيّة، صوته الحسن المولّه المطرب انتشار الحكمة اللطيفة ومواعظه الشريفة في أقطار الأرض بحيث التذَّ باستماعها أسماع قلوب المستفيدين من الحكماء المتألّهين.

وكان يرمز حكمه ويسترها ويتكلَّم بها ملغوزة حتَّىٰ لا تظهر مقاصده إلَّا لذوي الحكمة العالية والذهن الصافي.

وكان يعلِّم الحكمة في أكثر الأوقات وهو ماشٍ لتعظيم الحكمة لارتياض البدن مع رياضة النفس، وتحليل الفضول بالسعي المعتدل، وجماعة من التلاميذ الذين تعلَّموا منه في المشي سمّوا المشّائين.

وبلغ من العمر إحدىٰ وثمانين سنة، وتوفّي في السنة التي وُلِدَ فيها الإسكندر.

ولـمَّا قبر كتب علىٰ قبره بالروميّة ما تفسيره بالعربيّة: هاهنا رجل قد تقدَّم الناس وعلاهم بالعفَّة وأخلاق العدل، فمن كان يمدح الحكمة أكثر من سائر الأشياء فإنَّه يمدح هذا لأنَّ فيه أكثر الحكمة، وليس في ذلك حسد. هذا من الجهة الواحدة علىٰ القبر، ومن الجهة الأُخرىٰ: أمَّا

الأرض فإنَّها تغطّي جسد أفلاطون هذا، وأمَّا نفسه فإنَّها في مرتبة من لا يموت.

أمَّا صفته: فهو رجل أسمر اللون، معتدل القامة، حسن الصورة، تامّ التخاطيط، خشن اللحية، قليل شعر العارضين، أشهل العينين برّاق بياضهما، في ذقنه الأسفل خال أسود، تامّ الباع، لطيف الكلمة، ساكناً حافظاً.

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

ذكر فريد وجدي في دائرة المعارف (ج ١/ ص ٤٢٦/ ط ٢): قال أفلاطون: للعادة علىٰ كلّ شيء سلطان.

وقال: إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب منه.

وقال: من لا يواسي الإخوان عند دولته خذلوه عند فاقته.

وقيل له: لِـمَ لا تجتمع الحكمة والمال؟ فقال: لعزّ الكمال، أي لأنَّ اجتماع الحكمة والمال كمال، والكمال عزيز المنال.

وسُئِلَ: من أحقُّ الناس أن يؤتمن علىٰ تدبير المدينة؟ فقال: من كان في تدبير نفسه حسن المذهب.

وقيل له: من يسلم من سائر العيوب وقبيح الأفعال؟ فقال: من جعل عقله أمينه، وحذره وزيره، والمواعظ أمامه، والصبر قائده، والاعتصام بالتوقّي ظهيره، وخوف الله جليسه، وذكر الموت أنيسه.

وقال: الملك كالنهر الأعظم تستمدّ منه الأنهار الصغار، فإن كان عذباً عذبت وإن كان ملحاً ملحت.

وقال: إذا أردت أن تدوم لك اللذَّة فلا تستوف الملتذّ أبداً، بل دع فيه فضلة تدم لك اللذَّة.

وقال: إيّاك في وقت الحرب أن تستعمل النجدة وتدع العقل، فإنَّ للعقل مواقف قد تتمّ بلا حاجة إلىٰ النجدة، ولا ترىٰ للنجدة غنىٰ عن العقل.

وقال: غاية الأدب أن يستحي المرء من نفسه.

وقال: ما ألمت نفسي إلَّا من ثلاث: من غني افتقر، وعزيز ذلَّ، وحكيم تلاعبت به الجهّال.

وقال: لا تصحبوا الأشرار فإنَّهم يمنّون عليكم بالسلامة منهم.

وقال: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده، فإنَّ الناس ليس يسألون في كم فرغ من هذا العمل وإنَّما يسألون عن جودة صنعته.

وقال: إحسانك إلىٰ الخيّر يحرّكه علىٰ المكافأة، وإحسانك علىٰ الخسيس يحرّكه إلىٰ معاودة المسألة.

وقال: ليس تكمل خيّرية الرجل حتَّىٰ يكون صديقاً للمتعاديين.

وقال: أُطلب في الحياة العلم والمال تحز الرئاسة علىٰ الناس، لأنَّهم بين خاصّ وعامّ، فالخاصّة تفضّلك بما تحسن، والعامّة تفضّلك بما تملك.

وقال: استعمل من فرط النصيحة ما تستعمله الخونة من حسن المداراة، ولا تدخل عليك العجب لفضلك علىٰ أكفّائك فيفسد عليك ثمرة ما فُضِّلت به.

وقال: لا تنظر إلىٰ أحد بالوضع الذي رتَّبه فيه زمانه، وانظر إليه بقيمته في الحقيقة فإنَّه مكانه الطبيعي.

وقال: إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرَّت، ونفقت (وراجت) الرذائل ونفعت، وكان خوف المؤسر أشدُّ من خوف المعسر.

نقول: إذا صحَّ صدور هذا الكلام الأخير عن أفلاطون فهو قد

أخطأ فيه، فإنَّ الفضائل لا تضرُّ أبداً، والرذائل لا تنفع البتَّة، نعم قد يكون رجلاً متحلّياً بفضيلة حفظ كرامة الذات فيتأخَّر في وظيفته لقلَّة تملّقه لرؤسائه المحبّين للتملّق، وقد تنفع المتملّقين المنافقين رذيلة التملّق والنفاق فترقىٰ بهم.

هذا أمر مشاهد حتَّىٰ في المعاملات اليومية، ولكن تأخّر الأوَّل يكون مصحوباً في نفس الفاضل براحة وسكينة لا يدريها غير فاضل مثله، وتقدّم الثاني يرافقه في نفس الرذيل فراغ وظلام ينغّص عيشه وهي في مظنَّة السعادة والسؤدد، ثمّ إنَّ العاقبة للفضيلة والفاضلين علىٰ أيّ حال، ولو بعد أجيال.

وقال وهو من عيون الحكم: لا يزال الجائر مهملاً حتَّىٰ يتخطّىٰ إلىٰ أركان العمران ومباني الشريعة، وإذا قصد لها تحرّك عليه قُيِّمَ العالم فأباده.

وقال: إذا طابق الكلام نيَّة المتكلّم حرَّك نيَّة السامع، وإن خالفها لم يحسن موقعه ممَّن أُريد به.

وقال رجل جاهل لأفلاطون: كيف قدرت علىٰ كثرة ما تعلَّمت؟ فقال: لأنّي أفنيت من الزيت بمقدار ما أفنيته أنت من الشراب.

وقال: إذا خاطبت من هو أعلم منك فجرِّد له المعاني ولا تكلّف بإطالة اللفظ ولا تحسينه، وإذا صاحبت من هو دونك في المعرفة فابسط كلامك ليلحق في أواخره ما أعجزه في أوائله.

وقال: الحلم لا يُنسَب إلَّا إلىٰ من قدر علىٰ السطوة، والزهد لا يُنسَب إلَّا إلىٰ من ترك بعد القدرة.

وقال: العزيز النفس هو الذي لا يذلُّ للفاقة.

وقال: الحسن الخلق من صبر علىٰ السيّئ الخلق.

وقال: ينبغي للمرء أن ينظر وجهه في المرآة، فإن كان حسناً استقبح أن يضيف إليه فعلاً قبيحاً، وإن كان قبيحاً استقبح أن يجمع بين قبيحين.

وقال: لا تصحب الشرّير فإنَّ طبعك يسرق من طبعه شرَّاً وأنت لا تدري.

وقال: من مدحك بما ليس فيك من الجميل هو راض عنك، ذمَّك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك.

وقال: رُبَّ مغبوط بنعمة هي بلاؤه، ورُبَّ محسود علىٰ حال هي دواؤه.

وقال: ما معي من فضيلة العلم إلَّا علمي بأنّي لست بعالم.

وقال: إذا صادقت رجلاً يجب عليك أن تكون صديق صديقه، ولا يجب عليك أن تكون عدوّ عدوّه.

وقيل له: لِمَ صار الرجل يقتني مالاً وهو شيخ؟ فقال: لأن يموت الإنسان فيخلف مالاً لأعدائه خير له من أن يحتاج في حياته لأصدقائه.

وسأله أرسطوطاليس: بماذا يُعرَف الحكيم أنَّه قد صار حكيماً؟ فقال: إذا لم يكن بما يصيب من الرأي معجباً، ولا لما يأتي من الأمر متكلِّفاً، ولم يستفزّه عند اللوم الغضب، ولا يدخله عند المدح النخوة.

وسُئِلَ: أيُّ شيء أنفع للإنسان؟ قال: أن يعني بتقويم نفسه أكثر من عنايته بتقويم غيره.

وسُئِلَ عند موته عن الدنيا، فقال: خرجت إليها مضطرَّاً، وعشت فيها متحيّراً، وها أنا أخرج منها كارهاً، ولم أعلم فيها إلَّا أنَّني لا أعلم.

ومن آدابه ومواعظه ما ذكره اللاهجي في محبوب القلوب (ص ٩٠/ ط الأولىٰ في إيران): قال: أشرف الناس من شُرِّفت به الفضائل لا من تشرَّف بالفضائل؛ وذلك أنَّ من كانت الفضائل فيه جوهرية فهي تشرِّفه، ومن كانت فيه عرضية تشرَّف بها ولم تشرِّفه.

وقال: الأشرار يتَّبعون مساوي الناس، ويتركون محاسنهم، كما يتَّبع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد، ويتركون الصحيح منه.

وقال: أحرص الأشياء الذباب، وأقنع الأشياء العنكبوت، فجعل الله تعالىٰ رزق أقنع الأشياء أحرص الأشياء، فسبحان اللطيف الخبير.

وقال: الناس يتوهَّمون بكلّ زمان أنَّه آخر الأزمنة ويثبتون تقصيره عمَّا تقدَّمه، وليس يوفون الزمان الماضي والمقيم حقّهما من التأمّل، وذلك أنَّهم يقيسون الأحداث في الزمان المقيم إلىٰ من تناهت سنّه وتجاربه في الزمان الماضي، وينظرون إلىٰ قصور المروّات في الزمان المقيم واتّساعها في الماضي من غير أن ينظر الأعراض في الزمانين وما يوجبه كلّ واحد منهما، وإذا تتبَّع هذا بعدل واستقصىٰ تصريف الزمانين كانا متقاربين، ولله درُّ من قال:

يقولون الزمان زمان سوء وهم فسدوا وما فسد الزمان

وقال: شهوات الناس تتحرَّك بحسب شهوات الملك وإرادته.

وقال: من جهل الشيء ولم يسأل عنه جمع علىٰ نفسه فضيحتين.

وقال: إنَّك لن تجد الناس إلَّا رجلين: إمَّا مؤخّراً في نفسه قدَّمه حظّه، وإمَّا مقدّماً أخَّره دهره، فارض بما أنت فيه اختياراً وإلَّا رضيت اضطراراً.

وقال في كتاب معاذلة النفس: يا نفس هذه رتب جماعة ثلاثة

فكوني علىٰ أشرفها وأجملها وأدناها رتبة عامل غير عالم كرجل ذي سلاح لا شجاعة له وما يصنع الجبان بالسلاح، والرتبة الثانية رجل عالم غير عامل وهو كرجل شجاع ولا سلاح معه، وكيف يلقىٰ عدوَّه ولا سلاح معه غير أنَّ الشجاع علىٰ السلاح أقدر من الجبان علىٰ الشجاعة، والرتبة الثالثة هي رجل عالم عامل فهو كرجل ذا شجاعة وسلاح وهذه ينبغي أن تكون الرتبة الشريفة.

وقال: يا نفس إنَّ القليل مع العمل به خير من كثير من العلم مع قلَّة العمل.

وقال: يا نفس إنَّ القمر يتبيَّن بما ورد إليه من الشمس فإذا عرض له ظلّ الأرض انخسف وأُظلم، فكذلك النفس نيّرة مضيئة فإذا عُدِمَت العقل أُظلمت، وإذا توسَّطت الشهوات عُدِمَت نورها، كما أنَّه ما دامت الأرض في وسط العالم لم يُعدَم القمر الخسوف، فكذلك النفس ما دامت ملازمة للطبيعة لن تُعدَم الظلمة.

وقال: لا تكن حكيماً بالقول فقط بل كن حكيماً بالعمل، فإنَّ الحكمة التي تكون بالعمل تنفعك في العالم الباقي.

وقال: إن تعبت في البرّ فإنَّ التعب يزول والبرّ يبقىٰ لك، وإن التذذت بالإثم فإنَّ اللذَّة تزول والإثم يبقىٰ عليك.

وممَّا أملاه لأرسطو تلميذه: اعرف الله وحقَّه، وأدم عنايتك بالعمل الصالح أكثر من عنايتك بغذائك يوماً بعد يوم، ولا تسأل الله ما لا يدوم لك نفعه أبداً، بل يجب أن تسأل النعمة الباقية معك، وكن متيقّظاً أبداً فإنَّ علل الشرور كثيرة، ولا تهوىٰ ما لا ينبغي لك أن تفعله ولا ينبغي لك أن تهوىٰ حياة صالحة فقط، بل وموتاً صالحاً.

وممَّا ذهب إليه أفلاطون: أنَّ النفوس الإنسانية التي هي متَّصلة بالأبدان اتّصال تدبير وتصرّف، كانت موجودة قبل وجود الأبدان، وكان لها نحواً من أنحاء الوجود العقلي، ويتمايز بعضها من بعض تمايز الصور المجرَّدة عن المواد، وهذا كما ذهب إليه أُستاذه سقراط أيضاً.

ومن رموزه قوله: إنَّ النفوس كانت في عالم الذكر مغتبطة مبتهجة بعالمها وما فيه من الروح والبهجة والسرور، فأُهبطت إلىٰ هذا العالم حتَّىٰ تدرك الجزويّات وتستفيد ما ليس لها بذواتها بواسطة القوىٰ الحسّيّة، فسقطت رياشها قبل الهبوط، وأُهبطت حتَّىٰ يستوي ريشها وتطير إلىٰ عالمها بأجنحة مستفادة من هذا العالم، ومن هذا قالوا: إنَّ علَّة هبوط النفس سقوط ريشها، فإذا ارتاشت ارتقت إلىٰ عالمها الأوَّل.

من وصيّة أفلاطون الإلهي لتلميذه أرسطو، وقد ذكرها الشيخ البهائي رحمه الله في الكشكول منتخبة ممَّا نقله المحقّق الطوسي رحمه الله في الأخلاق:

اعرف معبودك واحفظ حقّه وأدم علىٰ التعليم، لا تمتحن أهل العلم بكثرة علمهم بل اعتبر أحوالهم بتجنّبهم عن الشرّ والفساد، ولا تسأل الله شيئاً ينقطع نفعه، وتيقَّن أنَّ المواهب كلّها من عنده، والتمس من حضرته النعم الباقية والفوائد التي لا تفارقك.

ما عُلِمَ أنَّ انتقام الله تعالىٰ من العباد ليس بالسخط والعتاب بل إنَّما هو بالتقويم والتأديب، ولا تقتصر علىٰ التماس حياة صالحة ما لم تقارن موتاً مرضيّاً، ولا تقدم علىٰ الدعة والنوم إلَّا بعد أن تحاسب نفسك في ثلاثة أشياء:

الأوَّل: أن تتأمَّل هل صدر منك في ذلك اليوم خطأ أم لا؟

الثاني: أن تنظر هل اكتسبت فيه خيراً أم لا؟

الثالث: هل فات منك تقصير عمل أم لا؟

لا تؤذ أحداً فإنَّ أمر العالم في معرض التغيّر والزوال، ولا تجعل بضاعتك من أشياء خارجة عن ذاتك، لا يُعَدُّ من الحكماء من يفرح بنيل لذَّة من لذّات الدنيا، أو يغتمّ بمصيبة من مصائبها، وأدم علىٰ ذكر الموت، فكِّر مراراً ثمّ قل: أفعل فإنَّ الأحوال متغيّرة، كن صديقاً ناصحاً لكلّ أحد، عاون من ابتلىٰ ببلاء إلَّا من ابتلىٰ بعمل السوء.

لا تكن حكيماً بالقول وحده بل بالقول والفعل جميعاً فإنَّ الحكمة القولية تبقىٰ في هذا العالم، والحكمة العمليّة الفعليّة تصل إلىٰ ذلك العالم وتبقىٰ هناك، إن تعبتَ في العمل الصالح لا يبقىٰ تعبك ويبقىٰ عملك الصالح، وإن نلتَ لذَّة مع ارتكاب ذنب لا تبقىٰ اللذَّة ويبقىٰ العمل السيّئ، تيقَّن أنَّ مرجعك إلىٰ مقام يتساوىٰ فيه الخادم والمخدوم فلا تتكبَّر هاهنا.

استحضر الزاد أبداً فإنَّك لا تعلم متىٰ الرحيل، واعلم أن ليس في مواهب الله جلَّ وعلا عطيّة أعظم من الحكمة، والحكيم من يتشابه فكره وقوله وعمله، جاز بالخير وتجاوز عن الشرّ، لا تسأم من أمر من أُمور هذا العالم وإن كان عظيماً، ولا تتوان في وقت من الأوقات، ولا تجعل السيّئة وسيلة إلىٰ اكتساب الحسنة، ولا تعرض عن الأمر الأفضل لسرور زائل فإنَّ ذلك إعراض عن السرور الدائم، أبعد عن نفسك محبَّة الدنيا ولا تشرع في أمر قبل وقته، لا تعجب بغناك ولا تنكر من المصائب.

وكن في معاملتك من الصديق بحيث لا يحتاج معه إلىٰ حَكَم، لا

تخاطب أحداً بالسفه، تواضع مع كلّ أحد ولا تحقِّر المتواضع، لا تلم أخاك فيما تعذر نفسك فيه، لا تفرح بالبطالة ولا تعتمد علىٰ الجدّ، ولا تندم علىٰ فعل الخير، ولا تمارِ أحداً، وأدم علىٰ ملازمة سيرة العدل والاستقامة، وواظب علىٰ الخيرات.

قال رجل لأفلاطون: أشر عليَّ أتزوج أم لا؟ فقال له: أيّهما فعلته ندمت عليه.

وقيل له: بِمَ ينتقم الإنسان من حاسده وعدوّه؟ قال: بأن يزداد في نفسه فضلاً.

وقال: ثلاثة يُرحَمون لذلّهم: ضعيف في أسر قوي، وكريم يرغب إلىٰ لئيم، وعاقل يجري عليه حكم جاهل.

وقال: العشق قوَّة غريزيّة متولِّدة من وساوس الطمع، وأشباح التخيّل للهيكل الطبيعي يحدث للشجاع جبناً، وللجبان شجاعة، ويكسر كلّ إنسان عكس طباعه.

ومن كلامه: انبساطك عورة من عوراتك، فلا تبذله إلَّا لمأمون عليه.

ومن كلامه: لا يستخدمك السلطان إلاّ لأنَّه يقدِّر فيك الزيادة عليه، وإنَّما يقيمك مقام الكِلبَتين لأخذ الجمرة التي لا يقدر أن يأخذها بإصبعه، فاجهد أن تكون بقدر زيادتك عليه في الأمر الذي تخدمه فيه.

وكان تلامذة أفلاطون ثلاث فِرَق: وهم الإشراقيّون، والروّاقيّون، والمشّائيّون. فالإشراقيّون هم الذين جرَّدوا ألواح عقولهم عن النقوش الكونيّة فأشرقت عليهم لمعات أنوار الحكمة من لوح النفس الأفلاطونية من غير توسّط العبارات وتخلّل الإشارات،

والروّاقيّون هم الذين كانوا يجلسون في رواق بيته ويقتبسون الحكمة من عباراته وإشاراته، ويتلقّون منه فوائد الحكمة في تلك الحالة، والمشّائيون هم الذين كانوا يمشون في ركابه، وكان أرسطو من هؤلاء.

ومن التلويحات عن أفلاطون أنَّه قال: ربَّما خلوت بنفسي كثيراً عند الرياضيّات وتأمّل أحوال الموجودات المجرَّدة عن المادّيات، وخلعت بدني جانباً، وصرت كأنّي مجرَّد بلا بدن، عري عن الملابس الطبيعية فأكون داخلاً في ذاتي لا أتعقَّل غيرها، ولا أنظر فيما عداها، وخارجاً عن سائر الأشياء، فحينئذٍ أرىٰ في نفسي من الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن الغريبة العجيبة الأنيقة ما أبقىٰ معه متعجّباً حيران باهتاً، فأعلم أنّي جزء من أجزاء العالم الأعلىٰ الروحاني الكريم الشريف، وإنّي ذو حياة فعّالة.

ثمّ ترقَّيت بذهابي من ذلك العالم إلىٰ العوالم الإلهيّة والحضرة الربوبية، فصرت كأنّي موضوع فيها معلَّق بها، فأكون فوق العوالم العقليّة النوريّة، فأرىٰ كأنَي واقف في ذلك الموقف الشريف، وأرىٰ هناك من البهاء والنور ما لا تقدر الألسن علىٰ وصفه ولا الأسماع علىٰ قبول نعته، فإذا استغرقني ذلك الشأن وغلبني ذلك النور والبهاء ولم أقو علىٰ احتماله، هبطت من هناك إلىٰ عالم الفكر فحينئذٍ حجبت الفكرة عنّي ذلك النور فأبقىٰ متعجّباً إنّي كيف انحدرت من ذلك العالم، وعجبت كيف رأيت نفسي ممتلئة نوراً وهي مع البدن كهيئتها.

فعندها تذكَّرت قول مطريوس حيث أمرنا بالطلب والبحث عن جوهر النفس الشريف والارتقاء إلىٰ العالم العقلي.

وكان قنوته بهذه الكلمات: يا علَّة العلل، يا قديماً لم يزل، يا منشئ

مبادي الحركات الأُوَل، يا من إذا شاء فعل، احفظ عليَّ صحَّتي النفسانية ما دمت في عالم الطبيعة.

قال الشيخ البهائي رحمه الله في الكشكول: وجدت في بعض الكتب المعتمد عليها، أنَّ أفلاطون كان يقول في صلاته هذه الكلمات: يا روحانيَّتي المتَّصلة بالروح الأعلىٰ تضرَّعي إلىٰ العلَّة التي أنت معلولة من جهتها، ليتضرَّع إلىٰ العقل الفعّال ليحفظ عليَّ صحَّتي النفسانية، ما دمت في عالم التركيب في دار التكليف.

وفي كتاب الأخلاق في حديث واحد لمؤلِّفه العلَّامة الشيخ صاحب مظفَّر رحمه الله (ج ١/ ص ٥٦/ ط ١): قال أفلاطون الحكمي: تعلَّموا الحكمة وعلِّموها، فإنَّها الفضيلة الإنسانية، وهي الفائدة العظيمة، والبضاعة المربحة، والخير الكثير.

وقال: الحمق نوعان: الجنون وعدم العلم.

وقال: لا تسأل الشرّير حاجة، فإنَّه كما يحبّ في مذهبه كذلك شرارته في عطيَّته، وإذا نظرت لك فكرة في شيء تريده أو تشتهيه، فاجعل ذلك كالعارض، فإن تهيَّأ لك نلته بأسهل الأُمور، وإن فاتك لا تضطرّ النفس إليه.

وقال: من علم أنَّه يموت، فليس ينبغي أن يغتمَّ لأمر صعب يعرض له، لأنَّه لا يمكن أن يتوهَّم الحيّ أمراً هو أصعب عليه من الموت.

وقال: البهيميّون والجهّال يقتصرون علىٰ الحسن والقبيح بقدر ما تناله حواسّهم الظاهرة حسن الأعضاء، وأمَّا حسن الصورة فلا تراها إلَّا الحواسّ الباطنة.

وقال: محبَّتك الشيء ستر بينك وبين مساويه.

وقال: من تعلَّم العلم للفضيلة لا يوحشه كساده، ومن تعلَّمه لجدواه انصرف عنه انصراف الحظّ.

وقال: من طبخ قدراً لحماً، وظنَّ أنَّه نعمة واحدة فقد أخطأ؛ لأنَّ الماء نعمة، واللحم نعمة، والملح نعمة، واللذَّة عند أكله نعمة، فيجب الشكر علىٰ هذه النعم.

* * *

(١٠)

أرسطوطاليس خاتمة الحكماء اليونانيين(١)

قال البستاني في دائرة المعارف (ص ٧٥/ ط الأُولىٰ): أرسطاطاليس هو ابن نيقوماخس الطبيب المشهور، كان أعظم الحكماء الأقدمين، ورأس الحكماء المعروفين بالمشّائين، يُعرَف بالمعلِّم الأوَّل لأنَّه أوَّل من وضع التعاليم المنطقية وأخرجها من القوَّة إلىٰ الفعل.

وُلِدَ في ستاجيرا وهي مستعمر يونانية سنة (٣٨٤) قبل الميلاد، تعلَّم مدَّة وجيرة في أترينوس من آسيا الصغرىٰ، وفقد أباه وأُمّه وهو ولد، ولـمَّا بلغ السنة السابعة عشر من عمره ذهب إلىٰ أثينا وأخذ فيها الحكمة عن أفلاطون اليوناني، وكان أفلاطون يحبّه كثيراً.

قيل: إنَّ ذوفسطاليس الملك اتَّخذ لولده بيثاغوراس بيتاً للحكمة، وأمر أفلاطون بتعليمه، وكان غلاماً... قليل الفهم، وأرسطوطاليس غلاماً ذكيَّاً حادَّاً، وكان أفلاطون يعلِّم بيثاغوراس الآداب والحكمة وأرسطوطاليس يعي ذلك ويرسخ في صدره، حتَّىٰ إذا كان يوم العيد زيَّن بيت الذهب الذي هو بيت الحكمة وألبس بيثاغوراس التاج وحضر الملك وأهل المملكة علىٰ العادة، وصعد أفلاطون وولد الملك

(١) عيون الأنباء ١: ٨٤؛ مختار الحكم: ١٧٨؛ الملل والنحل ٢: ١١٩؛ طبقات الأُمم: ٣١؛ إخبار العلماء: ٢١؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٧٢؛ معجم أعلام المورد: ٥٣؛ منن الرحمن ٢: ٨٢؛ تاريخ الفلاسفة: ١٠١؛ أعلام الفلاسفة: ١٠٨.

إلىٰ مجلس الحكمة والشرف علىٰ رؤوس الأشهاد، فلم يورد الغلام شيئاً ولا نطق بحرف، فاعتذر أفلاطون بأنَّه لم يقصِّر في الإلقاء عليه.

ثمّ قال: يا معشر التلامذة من فيكم ينوب عن بيثاغورس؟ فثار أرسطوطاليس وصعد إلىٰ مجلس الشرف وأخذ يسرد جميع ما ألقاه أفلاطون إلىٰ ابن الملك لم يغادر منه حرفاً، فقال أفلاطون: أيّها الملك هذه الحكمة التي ألقيتها علىٰ ولدك قد حفظها هذا اليتيم، فما احتيالي في الرزق والحرمان؟

ثمّ انصرف الجميع وقد اغتبط أفلاطون بأرسطوطاليس واعتنىٰ به بعد ذلك، ومكث عنده نيفاً وعشرين سنة، وكان كثير التعظيم به بحيث أنَّه كان إذا جلس فاستعدىٰ أحد منه الكلام يقول: اصبر حتَّىٰ يحضر العقل، فإذا حضر أرسطوطاليس قال: تكلَّموا، وكان أرسطوطاليس دقيق الفهم، فكان يسرع فهمه إلىٰ المسائل الصعبة جدَّاً حتَّىٰ أنَّه بمدَّة وجيزة برع جدَّاً وفاق جميع تلامذة أفلاطون، وكانوا لا يبرمون حكماً في شيء إلَّا بعد مراجعته، وكان التلامذة يعتقدون أنَّ قريحته خارقة للعادة.

وقسَّم أرسطوطاليس الفلسفة إلىٰ قسمين: عمليّة ونظريّة.

فالعمليّة: هي التي تعلّمنا قواعد تستقيم بها الترتيبات العقلية كالمنطق، أو تفيدنا حكماً وأمثالاً لترتيب معاشنا وعاداتنا، وينطوي تحت ذلك الحكمة السياسية أيضاً.

وأمَّا النظريّة: فهي التي تظهر لنا الحقائق العقلية الخالصة كعلم الإلهيات والطبيعيات.

وكان يقول: إنَّ الأجرام الأرضية مركَّبة من أربعة عناصر: وهي

التراب والماء والهواء والنار، وإنَّ الماء والتراب ثقيلان لأنَّهما يحاولان دائماً السقوط بالمركز، خلافاً للهواء والنار فإنَّهما يبعدان عنه علىٰ قدر الإمكان لخفَّتهما، وزاد علىٰ هذه الأربعة عنصراً خامساً فقال: إنَّه يتركَّب منه الأجرام السماوية وإنَّ حركته مستديرة دائماً، وكان يظنّ أنَّه يوجد فوق الهواء في أعلىٰ الجزء المقعَّر في القمر كرة من النار تذهب إليها جميع الالتهابات النارية وتلك الالتهابات تصب في البحر مثل الخلجان والأنهر.

وكان يقول: سعادة المرء تصدر عن ثلاثة أشياء: الكمالات العقلية، كسداد الرأي، وحسن التدبير، والضبط. والكمالات البدنية، كالجمال والقوَّة، واعتدال المزاج. والكمالات الدنيويّة، كالغنىٰ، وطيب الأصل.

وقال: إنَّ الصلاح وحده لا يكفي لسعادة المرء بل لا بدَّ من كمالات الجسم والمعيشة، فإذا يشقىٰ الحكيم لسببين إمَّا الآلام، وإمَّا الاحتياج إلىٰ المال بخلاف النقيصة فإنَّها تكفي لشقاء المرء، فإذا كان المرء في غاية السعة واستكمل المنافع لا يمكن أن يسعد ما زال متَّصفاً بنقيصة، وإنَّ الحكيم في حكمته لا يمكن أن يخلو من بعض المكدَّرات، إلَّا إنَّ مكدَّراته هيّنة، وإنَّ الفضائل والرذائل ليست متباينة الأفراد وذلك أنَّه إذا وُجِدَ أحدها لا يُعدَم الآخر، فإنَّ في وسع الإنسان أن يتَّصف بالصدق والإنصاف وحزم الرأي، ومع ذلك تكون عنده شهوات نفسانية خصوصية.

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ٢١): أرسطوطاليس بن نيقوماخس الفيثاغورس الجهراشني، وتفسير أرسطوطاليس تامّ

الفضيلة، كان من تلاميذ أفلاطون المتصدّر بعده بعهده في الموضعين اللّذين تقدَّم بهما، ولازم أفلاطون مدَّة عشرين سنة ليتعلَّم منه، وكان أفلاطون يؤثره علىٰ سائر تلاميذه ويسمّيه العقل، وإلىٰ أرسطوطاليس انتهت فلسفة اليونانيين وهو خاتمة حكمائهم وسيّد علمائهم، وهو أوَّل من خلَّص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وصوَّرها بالأشكال الثلاثة، وجعلها آلة للعلوم النظرية حتَّىٰ لُقِّبَ بصناعة المنطق، وله في جميع العلوم الفلسفية كتب شريفة كلّية وجزئية، فالجزئية رسائله التي يُتعلَّم منها معنىٰ واحد فقط، والكلّية بعضها تذاكير يتذكَّر بقرائتها ما قد عُلِمَ من علمه وهي السبعون كتاباً التي وضعها لأوفارس، وبعضها تعاليم يُتعلَّم منها ثلاثة أشياء:

الأوَّل: علوم الفلسفة.

والثاني: أعمال الفلسفة.

والثالث: الآلة المستعملة في علم الفلسفة وغيره من العلوم.

فالكتب التي في علوم الفلسفة بعضها في علوم التعليمية، وبعضها في العلوم الطبيعية، وبعضها في العلوم الإلهية، وأمَّا الكتب التي في العلوم التعليمية، فكتابه في المناظر وكتابه في الخطوط، وكتابه في الحيل، وأمَّا الكتب التي في العلوم الطبيعية فمنها ما يُتعلَّم منه الأُمور التي تخصُّ كلّ من الطبايع، ومنها ما يُتعلَّم منه الأُمور التي تعمُّ جميع الطبائع، فالتي يُتعلَّم منها الأُمور التي تعمُّ جميع الطبايع هي كتابه المسمّىٰ بسمع الكيان، فهذا الكتاب يُعرِّف بعدد المبادئ لجميع الأشياء، والتي هي كالمبادئ، وبالأشياء التوالي للمبادئ، وبالأشياء المشاكلة للتوالي، وأمَّا المبادئ فالعنصر والصورة، وأمَّا التي هي كالمبادئ فليست

مبادئ بالحقيقة بل بالتقريب كالعدم، وأمَّا التوالي فالزمان والمكان، وأمَّا المشاكلة للتوالي فالخلاء وما لا نهاية له، وعلىٰ هذا الترتيب تترتَّب كتبه كلّها لمن ينعم النظر فيها.

وكان أرسطوطاليس معلِّم الإسكندر بن فيلبس ملك مقدونية، وبآدابه عمل في سياسة رعيَّته وسيرة ملكه، وانقمع به الشرك في بلاد اليونانيين، وظهر الخير وفاضل العدل.

ولأرسطوطاليس إليه رسائل كثيرة معروفة مدوَّنة، وبسبب أرسطوطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد الإسلاميّة.

حكىٰ محمّد بن إسحاق النديم في كتابه[1]: إنَّ المأمون رأىٰ في منامه كأنَّ رجلاً أبيض مشرباً بحمرة، واسع الجبين مقرون الحاجبين، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس علىٰ سريره، قال المأمون: وكأنّي بين يديه وقد مُلئت له هيبةً، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا أرسطوطاليس، فسررت به وقلت: أيّها الحكيم أسألك؟ قال: سل. قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل، قلت: ثمّ ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع، قلت: ثمّ ماذا؟ قال: ثمّ لا. قلت: زدني، فقال: من يصحبك في الذهب فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد.

فلمَّا استيقظ المأمون من منامه حدَّثته نفسه وحثَّته همَّته علىٰ تطلّب كتب أرسطوطاليس فلم يجد منها شيئاً ببلاد الإسلام.

قال غير ابن إسحاق: فراسل المأمون ملك الروم وكان قد استطال عليه وأذلَّ دين الكفر، وطلب منه كتب الحكمة من كلام

---

(١) فهرست ابن النديم: ٣٠٣ و٣٠٤.

أرسطوطاليس، فطلبها ملك الروم فلم يجد لها ببلاده أثراً، فاغتمَّ لذلك، وقال: يطلب منّي ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده أيّ عذر يكون لي أم أيّ قيمة تبقىٰ لهذه الفرقة الرومية عند المسلمين، وأخذ في السؤال والبحث، فحضر إليه أحد الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة النازحة عن القسطنطينية، وقال له: عندي علم ما تريد، فقال له: أدركني، فقال: إنَّ البيت الفلاني في موضع كذا الذي يقفل كلّ ملك عليه قفلاً إذا ملك ما فيه. قال: فيه كلّ ما يقال مال الملوك المتقدّمين، وكلّ ملك يجيء يقفل عليه حتَّىٰ لا يقال: قد احتاج إلىٰ ما فيه لسوء تدبيره ففتحه، فقال له الراهب: ليس الأمر كذلك وإنَّما في ذلك الموضع هيكل كانت يونان تتعبَّد فيه قبل استقرار ملَّة المسيح، فلمَّا تقررت ملّته بهذه الجهات في أيّام قسطنطين بن اللانة، جُمعت كتب الحكمة من أيدي الناس وجُعلت في ذلك البيت وأُغلق بابه وقفل الملوك عليه أقفالاً كما سمعت.

فجمع الملك مقدّمي دولته وعرَّفهم الأمر واستشارهم في فتح البيت، فأشاروا بذلك، فاستشار الراهب في تسييرها إذا وجدت إلىٰ بلد الإسلام وهل عليه في ذلك خطر في الدنيا أم إثم في الأُخرىٰ؟ فقال له الراهب: سيّرها فإنَّك تثاب عليه، فإنَّها ما دخلت في ملَّة إلَّا وزلزلت قواعدها، فسار إلىٰ البيت وفتحه ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب، ووجدوا فيه كتباً كثيرة، فأخذوا من جانبها بغير علم ولا فحص خمسة أحمال وسُيّرت إلىٰ المأمون، فأحضر لها المأمون المترجمين فاستخرجوها من الرومية إلىٰ العربية، ثمّ تنبَّه الناس بعد ذلك علىٰ تطلّبها بعد المأمون وتحيَّلوا إلىٰ أن حصَّلوا منها الجملة الكثيرة.

وذكر ابن النديم في (الفهرست) بعد نقل هذه القصَّة أيضاً عن محمّد بن إسحاق، قال: سمعت أبا إسحاق بن شهرام يحدِّث في مجلس عام أنَّ ببلد الروم هيكلاً قديم البناء عليه باب لم يُرَ قطّ أعظم منه، بمصراعين حديد، كان اليونانيون في القديم وعند عبادتهم الكواكب والأصنام يعظّمونه ويدعون ويذبحون فيه.

قال: فسألت ملك الروم أن يفتحه لي فامتنع من ذلك؛ لأنَّه أُغلق منذ وقت تنصَّرت الروم، فلم أزل أرفق به وأُراسله وأسأله شفاهاً عند حضوري مجلسه، قال: فتقدَّم بفتحه، فإذا ذلك البيت من المرمر والصخر العظام ألواناً، وعليه من الكتابات والنقوش ما لم أرَ ولم أسمع بمثله كثرةً وحسناً، وفي هذا الهيكل من الكتب القديمة ما يُحمَل علىٰ عدَّة أجمال، وكثر ذلك حتَّىٰ قال: ألف جمل، قال: ورأيت فيه من آلات القرابين من الذهب وغيره أشياء طريفة.

قال: وأغلق الباب بعد خروجي، وامتنَّ عليَّ بما فعل معي، قال: وذلك في أيّام سيف الدولة، وزعم أنَّ البيت علىٰ ثلاثة أيّام من القسطنطينية، والمجاورون لذلك الموضع قوم من الصابئة الكلدانيين، وقد أقرَّتهم الروم علىٰ مذاهبهم وتأخذ منهم الجزية.

وقال اللاهجي في كتاب محبوب القلوب (ص ٩٧): أرسطوطاليس المعلِّم الأوَّل بن نيقوماخس الفيثاغوري، فيلسوف ذلَّت له الرقاب، وخضع له أُولو الألباب، وأقرَّت له الألسن بالعجز عن لطيف ما أتىٰ ودقيق ما أرىٰ، وبديع ما ألَّف وغريب ما صنَّف، حتَّىٰ صار في الناس علماً وعليهم حكماً، وكفىٰ لجلالة قدره تسمية معلِّمه أفلاطون: إنساناً أو عقلاً.

كما نُقِلَ أنَّ أفلاطون يجلس فيستدعىٰ منه الكلام فيقول: حتَّىٰ يحضر الإنسان، فإذا جاء أرسطوطاليس قال: تكلَّموا فقد حضر الإنسان، وربَّما قال: حتَّىٰ يحضر العقل، فإذا حضر أرسطوطاليس قال: تكلَّموا فقد حضر العقل.

وهو أوَّل من خلَّص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقيّة وصوَّرها بالأشكال الثلاثة وجعلها آلة العلوم النظريّة حتَّىٰ لُقِّبَ بالمعلِّم الأوَّل وبصاحب المنطق.

وُلِدَ في أوَّل سنة من ملك أردشير بن دارا، وكان أصله من المدينة التي تُسمّىٰ أسطاغيرا، وتفسير أرسطوطاليس: تامّ الفضيلة.

ولـمَّا بلغ عمره ثمان سنين حمله أبوه إلىٰ الشعراء والبلغاء والنحويين في مدينة أثينية، وهي المعروفة ببلاد الحكماء، فأقام في لوقين منها متعلِّماً تسع سنين، وكان اسم هذا العلم عندهم المحيط، أعني علم اللسان لحاجة جميع الناس إليه؛ لأنَّه الأداة والمراقي إلىٰ كلّ حكمة وفضيلة، والبيان الذي يتحصَّل به كلّ علم، وإنَّ قوماً من الحكماء أزرؤوا بعلم البلغاء واللغويين والنحويين، وعنَّفوا المتشاغلين به، منهم أفيقورس ومونيقورس، وزعموا أنَّه لا يحتاج إلىٰ علمهم في شيء من الحكمة، لأنَّ النحويين معلّموا الصبيان، والشعراء أصحاب أباطيل وكذب، والبلغاء أصحاب تمحّل ومحاباة ومراء.

فلـمَّا بلغ أرسطوطاليس ذلك أدركته الحفيظته لهم، فتأصَّل عن النحويين والشعراء والبلغاء وأجنح عنهم، وقال: لا غنىٰ للحكمة عن علمهم؛ لأنَّ المنطق أداة إلىٰ العلم، وقال: فضل الإنسان علىٰ البهائم بالمنطق فأحقّهم بالألسنة أبلغهم في منطقه، وأوصلهم ذات نفسه،

وأوضعهم لمنطقه في موضعه، وأحسنهم اختياراً لأجره وأعذبه، ولأنَّ الحكمة أشرف الأشياء فينبغي أن تكون العبارة عنها بأحكم المنطق وأوضح اللهجة وأوجز اللفظ الأبعد من الدخل والزلل وسماجة المنطق وقبح اللكنة والعيّ، فإنَّ ذلك يذهب بنور الحكمة ويقطع عن الأداء ويقصِّر عن الحاجة، ويلتمس علىٰ السمع ويفسد المعاني فيورث الشبهة.

فلمَّا استكمل أرسطوطاليس علم الشعراء والبلغاء والنحويين واستوعبه، قصد إلىٰ العلوم الأخلاقية والسياسية والطبيعية والتعليمية والإلهية، وانقطع إلىٰ أفلاطون وصار تلميذاً له ومتعلِّماً منه، وله يومئذٍ سبع عشرة سنة، فإنَّه لبث في التعليم من أفلاطون عشرين سنة، ولـمَّا سافر أفلاطون إلىٰ سقليّة كان أرسطوطاليس خليفة علىٰ دار التعليم المسمّاة أقاديميا، وإنَّه لـمَّا قدم أفلاطون من سقليّة انتقل أرسطوطاليس إلىٰ لوقين واتَّخذ هناك دار التعليم المنوسبة إلىٰ الفلاسفة المشّائين، وكان كثير التلاميذ من الملوك وأبناء الملوك وغيرهم، منهم الإسكندر الملك وغيره من الأفاضل المشهورين المبرزين في الحكمة.

ولـمَّا مات فيلقس وملك الإسكندر بعده، وشخص عن بلاده لمحاربة الأُمم وجاز بلادها صار أرسطوطاليس إلىٰ التبتّل والتخلّي ممَّا كان فيه من الاتّصال بأُمور الملوك والملابسة لهم، وصار أثينية وأقبل علىٰ العناية بمصالح الناس ورفد الضعفاء وأهل الفاقة وتزويج الأيامىٰ، وعول اليتامىٰ والعناية بتربيتهم ورفد الملتمسين للعلم والتأدّب ومعونتهم علىٰ ذلك والصدقات علىٰ الفقراء وإقامة المصالح في المُدن، لم يزل في الغاية من لين الجانب والتواضع وحسن اللقاء للصغير والكبير والقويّ والضعيف، وقيامه بأُمور أصدقائه ما فوق الوصف، إلىٰ أن توفّي.

ولـمَّا توفّي نقل أهل أسطاغيرا رمَّته بعدما بليت، وجمعوا عظامه وصيَّروها في إناءٍ من نحاس ودفنوها في الموضع المعروف بأرسطوطاليس وصيَّروه مجمعاً لهم يجتمعون فيه للمشاورة في جلائل الأُمور، وإذا صعب عليهم شيء من فنن العلم والحكمة أتوا ذلك الموضع وجلسوا إليه ثمّ تناظروا فيما بينهم حتَّىٰ يستنبطوا ما أشكل عليهم ويصحّ لهم ما شجر بينهم، وكانوا يرون أنَّ مجيئهم إلىٰ الموضع الذي فيه عظام أرسطوطاليس يزكّي عقولهم ويصحّ فكرهم ويلطِّف أذهانهم، وأيضاً تعظيماً له بعد موته وأسفاً علىٰ فراقه وحزناً لأجل الفجيعة وما فقدوه من ينابيع حكمته.

قال اللاهجي: ولعلَّ سرّ ما رأوه أنَّ نفس الزائر ونفس المزور شبهتان بمرآتين صقيلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من أحديهما إلىٰ الأُخرىٰ، فكلَّما حصل في نفس الزائر الحيّ من المعارف والعلوم والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله تعالىٰ والرضاء بقضائه ينعكس منه نور إلىٰ روح ذلك الإنسان الميّت، وكلَّما حصل في نفس ذلك الإنسان الميّت من العلوم المشرقة والآثار القويّة الكاملة فإنَّه ينعكس منها نور إلىٰ روح هذا الزائر الحيّ.

ومن هذا ورد في الحديث: «إذا تحيَّرتم في الأُمور فاستعينوا من أهل القبور»[1]، بناءً علىٰ أنَّ تعلّق النفس بالبدن تعلّق يشبه العشق الشديد والحبّ التامّ، فإذا مات الإنسان وفارقت النفس هذا البدن فذلك الميل يبقىٰ وذلك العشق لا يزول إلَّا بعد حين، وتبقىٰ تلك

---

(١) شرح مسند أبي حنيفة: ٢٢٧.

النفس عظيمة الميل إلىٰ ذلك البدن قويّة الانجذاب إليه، ولهذا نُهي عن كسر عظم الميّت ووطئ قبره.

وإذا تقرَّر هذا فالإنسان إذا ذهب إلىٰ قبر إنسان قويّ النفس كامل الجوهر شديد التأثير ووقف هناك ساعة وتأثَّرت نفسه في تلك التربة حصل لنفس هذا الزائر تعلّق بتلك التربة.

وقد عرف لنفس ذلك الميّت أيضاً تعلّق بتلك التربة، فحينئذٍ يحصل بين النفسين ملاقاة روحانية، وبهذا الطريق تصير الزيارة سبباً لحصول المنفعة الكبرىٰ والبهجة العظمىٰ لروح الزائر ولروح المزور، فهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة، ولا يبعد أن يكون فيها أسرار أُخرىٰ أدقّ وأحقّ وأحرىٰ بالقبول.

وكان أفلاطون الحكيم في زمن ذوفسطانيس الملك، وكان اسم ابنه (ابن الملك) نطافورس غلاماً قليل الفهم بطيء الحفظ، وكان أرسطوطاليس غلاماً يتيماً قد سمت همَّته إلىٰ خدمة أفلاطون الحكيم، فاتَّخذ ذوفسطانيس بيتاً للحكمة وفرشه لابنه نطافورس وأمر أفلاطون بملازمته وتعليمه، وكان نطافورس غلاماً قليل الفهم بطيء الحفظ، وأرسطوطاليس ذكيَّاً فهماً حادّ الذهن، وكان أفلاطون يعلِّم نطافورس الحكمة والآداب، فكان ما يتعلَّمه اليوم ينساه غداً ولا يحفظ حرفاً واحداً.

وكان أرسطوطاليس يتلقَّف ما يُلقىٰ إلىٰ نطافورس فيحفظه ويرسخ في صدره ويعي علىٰ ذلك سرَّاً من أفلاطون ويحفظه، وأفلاطون لا يعلم ذلك، حتَّىٰ إذا كان يوم العيد زُيِّنَ بيت الذهب وأُلبس نطافورس الحليّ والحلل، وحضر الملك ذوفسطانيس وأهل المملكة،

وأفلاطون وتلاميذه، فلـمَّا انقضت الصلاة صعد أفلاطون الحكيم ونطافورس إلىٰ مرتبة الشرف ودراسة الحكمة علىٰ الأشهاد فلم يؤدّي نطافورس شيئاً من الحكمة ولا نطق بحرف من الآداب فأسقطه في يد أفلاطون واعتذر إلىٰ الناس بأنَّه لم يمتحن علمه ولا عرف مقدار فهمه، وأنَّه كان واثقاً بحكمته وفطنته.

ثمّ قال: يا معشر التلاميذ، من فيكم يصطلح بحفظ شيء من الحكمة ينوب عن نطافورس؟ فبدر أرسطوطاليس فقال: أنا يا أيّها الحكيم، فازدراه ولم يأذن له في الكلام، ثمّ أعاد القول علىٰ تلاميذه فبدر بينهم أرسطوطاليس فقال: أنا يا معلِّم الحكمة أصطلح بما لقيتَ من الحكمة إلىٰ نطافورس، فقال له: ارقَ، فرقىٰ أرسطوطاليس الدرج بغير زينة ولا استعداد في أثوابه الدنيّة المبليّة، فهدر كما يهدر الطير وأتىٰ بأنواع الحكمة والأدب الذي ألقاه أفلاطون إلىٰ نطافورس ولم يترك منها حرفاً واحداً.

فقال أفلاطون: أيّها الملك، هذه الحكمة التي لقَّنتها نطافورس قد وعاها أرسطوطاليس سرقةً وحفظها سرَّاً وما غادر منها حرفاً، فما حيلتي في الرزق والحرمان؟

قال حنين بن إسحاق: هذا بعض ما وجدته من حكمة أرسطوطاليس، قال: لبارئنا التقديس والإعظام والإجلال والإكرام، أيّها الأشهاد العلم موهبة الباري والحكمة عطيّة من يعطي ويمنع ويحط ويرفع، والتفاضل والتفاخر في الدنيا والآخرة بالحكمة التي هي روح الحياة ومادّة العقل الربّاني العلوي.

أنا أرسطوطاليس بن نيقوماخس اليتيم خادم نطافورس بن الملك العظيم، حفظت ووعيت التسبيح والتقديس لمعلِّم الصواب ومسبِّب الأسباب.

أيّها الأشهاد، بالعقول تفاضل الناس لا بالصول، وعيت عن أفلاطون الحكيم: الحكمة رأس العلوم، والآداب تلقيح الأفهام ونتائج الأذهان، وبالفكر الصائب الثاقب يُدرَك الرأي الغارب، وبالتأنّي تسهل الطالب، وبلين الكلام تدوم المودَّة في الصدور، وبخفض الجناح تتمُّ الأُمور، وبسعة الأخلاق يطيب العيش ويكمل السرور، وبحسن الصمت جلالة الهيبة، وبإصابة المنطق يعظم القدر ويرتقي الشرف، وبالإنصاف يجب التواصل، وبالتواضع تكثر المحبَّة، وبالعفاف تزكوا الأعمال، وبالعدل يقهر العدوّ، وبالحلم تكثر الأنصار، وبالرفق تستخدم القلوب، وبالإيثار يستوجب اسم الجود، وبالإنعام يستحقّ اسم الكرم، وبالوفاء يدوم الإخاء، وبالصدق يتمُّ الفضل، وبحسن الاعتبار تُضرَب الأمثال، ومن الأيّام يفيد الحكم، ومن الساعات تتولَّد الأوقات، وبالعافية يوجد طيب الطعام والشراب، وبحلول المكاره يتنغّص العيش وتتكدَّر النعم، وبالمنّ يدحض الإحسان، وبالجحد للأنعام يجب الحرمان.

السيّئ الخلق مخاطر صاحبه، البخيل ذليل وإن كان غنيَّاً، والجواد عزيز وإن كان مقلَّاً، الطمع الفقر الحاضر، اليأس الغنىٰ الظاهر، لا أدري نصف العلم، السرعة في جواب يوجب العثار، الأدب يغني عن الحسب، التقوىٰ شعار العالم، الرياء لبوس الجاهل، مقاسات الأحمق عذاب الروح، الاستهتار بالنساء فعل النوكىٰ، الاشتغال بالفائت تضيع الأوقات، المعرض للبلاء مخاطر بنفسه، التمنّي سبب الحسرة، الصبر تأييد العزم وثمرة الفرح، وتمحيق المحنَة.

صديق الجاهل مغرور، المخاطر خائب، من عرف نفسه لم يضع

بين الناس، من زاد علمه علىٰ عقله كان علمه وبالاً عليه، المجرِّب أحكم من الطبيب، إذا فاتك الأدب فالزم الصمت، من لم ينفعه العلم لم يأمن من ضرر الجاهل، من عجل تورَّط، من تفكَّر سلم، من روا غنم، من سأل علم، للعادة علىٰ كلّ أحد سلطان، وكلّ شيء يستطاع نقله إلَّا الطباع، وكلّ يتهيَّأ فيه حيلة إلَّا القضاء.

من عرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار، لا يؤتىٰ الناطق إلَّا من سوء فهم السامع، الجزع عند مصائب الإخوان أحمد من الصبر، وصبر المرء علىٰ مصيبته أحمد من جزعه، ليس شيء أقرب إلىٰ تغيير النعم من الإقامة علىٰ الظلم، من طلب خدمة السلطان بلا أدب خرج من السلامة إلىٰ الطلب، الارتقاء إلىٰ السؤدد صعب والانحطاط إلىٰ الدنائة سهل.

فلـمَّا رأىٰ أفلاطون الحكيم حفظ أرسطوطاليس لما كان يلقي إلىٰ نطافورس وتأديبه إيّاه كما ألقاه سرَّاً وحفظه وطبعه، أقبل عليه وعلَّمه علماً حتَّىٰ وعىٰ العلوم العشرة وصار فيلسوفاً حكيماً جامعاً.

ما أُثر عنه من الآداب والحكم:

وصيَّته للإسكندر، وجاء كثير منها في الخلق الكامل (ج ٣/ ص ٥٧): قال: اعلم أنَّه ليس شيء أصلح للناس من أُولي الأمر إذا صلحوا، ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم إذا فسدوا، فالوالي من الرعيّة بمنزلة الروح من الجسد الذي لا حياة له إلَّا بها.

وقال: احذر الحرص، فأمَّا ما هو مصلحك ومصلح بدنك فالزهد.

ولربَّما طلب الحريص زيادة ... فغدت مؤدّية إلىٰ النقصان

وقال: اعلم أنَّ الزهد باليقين، واليقين بالصبر، والصبر بالفكر،

فإذا فكَّرت في الدنيا لم تجدها أهلاً لأن تكرمها بهوان الآخرة؛ لأنَّ الدنيا دار بلاء ومنزل بلغة.

وقال: إذا أردت الغناء فاطلبه بالقناعة، فإنَّه من لم تكن له قناعة فليس المال مغنيه.

وقال: اعلم أنَّ من علامة ثقل الدنيا وكدر عيشها أنَّه لا يصلح منها جانب إلَّا بفساد جانب آخر، ولا سبيل لصاحبها إلىٰ عزّ إلَّا بإذلال، ولا باستغناء إلَّا بافتقار.

ثمّ قال: واعلم أنَّها ربَّما أصبت بغير حزم في الرأي، ولا فضل في الدين، وإن أصبت حاجتك منها وأنت مخطئ، أو أدبرت عنك وأنت مصيب فلا يستخفنَّك بذلك إلىٰ معاودة الخطأ ومجانبة الصواب.

وقال: لا تبطل لك عمراً في غير نفع، ولا تضع لك مالاً في غير حقّ، ولا تصرف لك قوَّة في غير غناء، ولا تعدل لك رأياً في غير رشد، فعليك بالحفظ لما أتيت من ذلك والجدّ فيه، خاصّة في العمر الذي كلّ شيء مستعار سواه، وإن كان لا بدَّ لك من اشتغال نفسك بلذَّة فليكن في محادثة العلماء ودرس كتب الحكمة.

وقال: اعلم أنَّه ليس من أحد يخلو من عيب ولا من حسنة، فلا يمنعك عيب رجل من الاستعانة به فيما لا نقص به فيه، ولا يحملنَّك ما في رجل من الحسنات علىٰ الاستعانة به فيما لا معونة به عنده عليه، واعلم أنَّ كثرة أعوان السوء أضرُّ عليك من فقدان إخوان الصدق.

وقال: العالم يعرف الجاهل لأنَّه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم لأنَّه لم يكن عالماً.

وقال: ليس طلبي للعلم طمعاً في بلوغ إفاضة، ولا للاستيلاء علىٰ غلبة، ولكن التماساً لما لا يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل خلافه.

وقال: أُطلب الغنىٰ الذي لا يفنىٰ، والحياة التي لا تتغيَّر، والملك الذي لا يزول، والبقاء الذي لا يضمحل.

وقال: أصلح نفسك لنفسك تكن الناس تبعاً لك.

وقال: افترص علىٰ عدوّك الفرصة، واعلم أنَّ الدهر دول.

وقال: لا تصادم من كان علىٰ الحقّ، ولا تحارب من كان متمسّكاً بالدين.

وقال: لا فخر فيما يزول، ولا غنىٰ فيما لا يثبت.

وقال: لا تبرع السلامة لنفسك حتَّىٰ تسلم الناس من جورك، ولا تعاقب غيرك علىٰ أمر ترخِّص فيه لنفسك.

وقال: الصدق قوّام أمر الخلائق.

وقال: من أفرط في اللّوم كرَّه للناس حياته.

وقال: من مات محموداً كان أحسن حالاً ممَّن عاش مذموماً.

وقال: من نازع السلطان مات قبل يومه.

وقال: من أسرف في حبِّ الدنيا مات فقيراً، ومن قنع مات غنيَّاً.

وقال: بذل ماء الوجه إلىٰ الناس هو الموت الأصغر.

وقال: كن رحيماً رؤوفاً ولا تكن رحمتك ورأفتك فساداً لمن يستحقّ العقوبة ويصلحه الأدب.

وقال: الجاهل عدوّ لنفسه فكيف يكون صديقاً لغيره؟

وممَّا كتبه إلىٰ الإسكندر الملك: ليكن غضبك أمراً بين المنزلتين: لا شديداً قاسياً، ولا فاتراً ضعيفاً، فإنَّ ذلك من أخلاق السباع، وهذا من أخلاق الصبيان.

وكتب إليه أيضاً: أمَّا بعد، فإنَّ الدنيا دول فما كان منها لك أتاك علىٰ ضعفك، وما كان عليك لم يُدفَع بقوَّتك، وإذا أعطاك الله ما تحبّ من الظفر، فافعل ما أحبَّ من العفو.

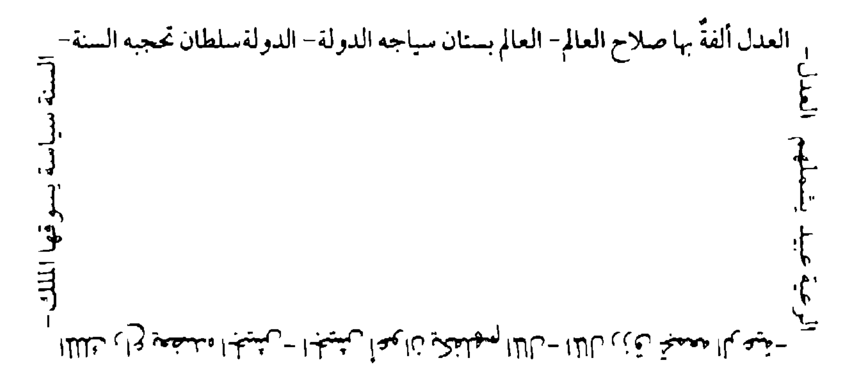
وفي وصاياه له: إنَّ الأرديـاء ينقـادون بـالخوف، والأخيـار ينقـادون بالحيـاء فميِّـز بـين الطبقتـين، واسـتعمل في أُولئـك الغلظـة والـبطش، وفي هؤلاء الإفضال والإحسان.

ومن مواعظـه لـه: إذا صـفت لـك السـلامة فجـدِّد ذكـر العطـب، وإذا اطمـأنَّ بـك الأمـن فاستشـعر الخـوف، وإذا بلغـت نهايـة الأمـل فـاذكر الموت، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها في الإساءة نصيباً.

ومـن آدابـه التـي كـان يعلِّمهـا الإسـكندر: السـعيد مـن النـاس مَـنْ العقـل أوفـر طباعـه، والعلـم أفضـل ذخـائره، ولا يغنيـه إلَّا القناعـة، ولا يوجب له الزيادة إلَّا الشكر، ولا يدفع عنه المكاره إلَّا الدعاء.

ومن كلامه: ليكن ما تكتب من خير ما تقرأ، وما تحفظ من خير ما تكتب.

وفي كشكول الشيخ البهائي: إنَّ أرسطوطاليس الحكيم اليوناني أرسل إلىٰ تلميذه الإسكندر المقدوني ثمان كلمات مثمّنة، وذلك لـمَّا فـتح الإسـكندر بـلاد فارس أهدىٰ إليه الناس الهدايا الماليّة والتحف الغاليـة، والـذخائر الثمينـة مـن الجواهر والأحجار الكريمة، فرأىٰ أرسطوطاليس أنَّ هديَّتـه إلىٰ تلميـذه الملـك يجب أن تكون أرقىٰ من كلّ شيء، وذلك هو العلم، فكتب له دائـرة فيهـا ثـمان كلمات يرجع آخرها إلىٰ أوَّلها، وأوَّلها إلىٰ آخرها، وهذه صورتها:



ومن كلامه: أنا أسأل الخالق أن يسلمني من الدنيا، وأن يسلم أهلها منّي.

وقال: من لم يقدر علىٰ فعل فضيلة فلتكن همَّته ترك رذيلة.

وقال: لا ينبغي أن تأخذ نفسك بالعلوم قبل أن تنقّي عنها العيوب، فإن لم تفعل هذا لم تنتفع بشيء من العلوم.

وقال: حركة الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة، لأنَّ المقبل كالصاعد من مرقاة، والمدبر كالمقذوف به من علوّ إلىٰ أسفل.

وقال: اعلموا أنَّ اللئام أصبر أجساماً، والكرام أصبر نفوساً، وليس الصبر الممدوح أن يكون جلد الرجل وقاحاً علىٰ الضرب، أو تكون رجله قويّة علىٰ المشي، أو يده قويّة علىٰ العمل، فإنَّ هذا من صفات الدواب، ولكن يكون للنفس غلوباً، وللأُمور محتملاً، وللحزم مؤثراً، وللهو تاركاً، وبالمشقَّة التي ترجو حسن العاقبة مستحقَّاً، وعلىٰ مجاهدة الأُمور والشهوات الحيوانية مواظباً.

وقال: عجبت لمن قال فيه أحد خيراً وليس فيه خير كيف يفرح، وعجبت لمن قال فيه أحد شرَّاً وليس فيه كيف يغضب، وأعجب من ذلك من أحبَّ نفسه علىٰ اليقين وأبغض غيره علىٰ الشكّ.

وقال: دفع الشرّ بالشرّ رذيلة، ودفعه بالخير فضيلة.

وقال: إذا غابت النفس عن الحكمية عميت عن نفسها وغيرها كما يعمىٰ البصر عن نفسه وعن غيره إذا غاب عنه المصباح.

وقيل له: ما الشيء الذي لا ينبغي أن يقال وإن كان حقَّاً؟ فقال: مدح الإنسان نفسه.

وأعاد علىٰ تلميذ له مسألة، فقال له: أفهمت؟ قال التلميذ: نعم،

قـال: لا أرىٰ آثـار الفهـم عليـك، قـال: وكيـف ذلـك؟ قـال: لا أراك مسروراً، والدليل علىٰ الفهم السرور.

وقال: خير الأشياء أجدّها إلَّا المودّات فإنَّ خيرها أقدمها.

وقال: كلام العجلة موكَّل به الزلل.

وحكي أنَّه لـمَّا فرغ مـن تعليـم الإسـكندر دعـا بـه فسـأله عـن مسـائل في سياسة العامّة والخاصّة فأحسـن الجـواب عنهـا، فنالـه بغايـة مـا يكـره مـن الضـرب والأذىٰ، فسُئِلَ عـن هـذا الفعـل فقـال أرسـطوطاليس: هـذا غـلام يرسخ للملك فأردت أن أُذيقه طعم الظلم ليكن رادعاً عن ظلم الناس.

وفي كشـكول الشـيخ البهـائي رحمه الله (ج ٣/ ص ٤٩): السـعادة ثلاثـة أشياء: أمَّا في الـنفس فالحكمـة والعفَّـة والشـجاعة، وأمَّـا في البـدن فالصـحَّة والجمال والقوَّة، وأمَّا خارج النفس والبدن وهي المال والجاه والنسب.

وقال: اعص الهـوىٰ وأطـع مـن شـئت، أُتـرك مـا تريـد لتسـتغني عـن العلاج بما تكره، الحزن مرض الروح كما أنَّ الألم مرض البدن.

وقال: كما أنَّ للطالب لذَّة الإدراك، فللطالب المحروم لذَّة اليأس.

وقيل لـه: أيُّ شيء ينبغـي للإنسـان أن يقتنـي؟ فقـال: بالشـيء الـذي إذا غرقت سفينته سبح معه في البحر.

وقال: الإنسانية أُفـق، والإنسـان متحـرِّك إلىٰ نفسـه، فمـن رفـع عصـاه عن نفسه وألقىٰ حبلـه عـلىٰ غاربـه، سـيَّب هـواه في مرعاتـه ولم يضـبط نفسـه عـمَّا يـدعوه إليـه طبعـه، وكـان لـيّن العريكـة لاتّبـاع الشـهوات الرديّـة فقـد خرج عن أُفقه.

وقـال: إنَّ النفـوس الإنسـانية إذا اسـتكملت قـوَّتي العلـم والعمـل بـه تشـبَّهت بالإلـه سـبحانه وتعـالىٰ، ووصـلت إلىٰ كمالهـا، وإنَّـما هـذا التشـبيه

بقدر الطاقة يكون إمَّا بحسب الاستعداد، وإمَّا بحسب الاجتهاد، وإذا فارق البدن اتَّصل بالروحانيين وانخرط في سلك الملائكة المقرَّبين، ويتمّ له الالتذاذ والابتهاج، وليس كلّ لذَّة هي جسمانية، فإنَّ تلك اللذّات نفسانية عقلية، وهذه اللذَّة الجسمانية تنتهي إلىٰ حدٍّ، وتعرض للمتلذّذ تسأماً وكلالاً وضعفاً، بخلاف اللذّات العقلية فإنَّها كلَّما ازدادت اللذّات ازداد الشوق والحرص والعشق إليها، ولم يحقّق المعاد ولم يثبت حشر ونشر ولا خلال إلَّا لهذا الرباط المحسوس من العالم، ولا إبطال لنظامه كما قال القدماء.

وكتب إلىٰ روح الله عيسىٰ بن مريم عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، يا طبيب النفوس المريضة بداء الجهالة المكنفة بأكناف الرذالة، المنغمسة في العلائق البدنية المكدَّرة بالكدورات الطبيعية، يا موعظ القوم من رقدة الغافلين، ومنبّه العباد من مضيق الجاهلية، ويا منجي الهلكىٰ، ويا غياث من استغاث، إنَّ ذاتاً هبطت واعترفت وتذكَّرت فمنعت فهل إلىٰ ذلك من سبيل؟

فأجابه عيسىٰ عليه السلام: (يا من شرَّفك الله بالاستعدادات والرموزات النقلية، كن طالباً لتنوير النفس بالأنوار الإلهية القدسية، الجاذبة من الدار الدنية إلىٰ الدار السنية الباقية التي هي محلّ الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية، واعلم أنَّ مجرَّد العقل غير كافٍ في الهداية إلىٰ صراط مستقيم).

ومن كلام المعلِّم الأوَّل أرسطوطاليس: لا يجوز أن تكون همَّة الإنسان إنسيّة وإن كان هو إنسيَّاً، ولا تَرضىٰ بُهَمَ الحيوانات الميّتة وإن كانت عاقبته للموت؛ بل ينبغي أن ينبعث بجميع قواه علىٰ نيل الحياة

الإلهية، فإنَّ الإنسان وإن كان حقير الجثَّة فهو عظيم بالحكمة شريف بالعقل، والعقل أعظم وأعلىٰ من سائر المخلوقات، وهو الجوهر الرئيس المستولي علىٰ الجميع بأمر الله تعالىٰ، والإنسان وإن كان محتاجاً في هذا العالم إلىٰ أحسن الحال الخارجي، لكن لا ينبغي له أن يصرف جميع همَّته في تحصيله، وأن لا يستكثر من الثروة واليسار، فإنَّ المال لا يغضي إلىٰ فضيلة، والسعداء هم الذين تصيبهم الخيرات الخارجية بقدر الاقتصاد.

ينبغي من يحفظ صحَّته النفسانية أنَّه إنَّما شريفة وذخائر عظيمة، ومواهب غير متناهية، وإنَّ من اختصَّ بهذه المواهب الجليلة والكرامة النفيسة من غير بذل الأموال وتحمّل المؤن الثقال وتجشّم المشقّات والأهوال، ثمّ أعرض عنها وأهمل أمرها حتَّىٰ انسلخ عنها وعري منها فهو ملوم في عقله مغبون في رأيه، غير رشيد ولا موفَّق، لاسيّما وهو طالبي النعم العرضية وخاطبي الفوائد الدنيّة المجازيّة، كيف يتحمَّلون مشاقّ الأسفار البعيدة ويتجشَّمون قطع المفاوز المخوفة، ويؤثرون ركوب البحار المضطربة، ويتعرَّضون لضروب المكاره وأنواع التلف.

وربَّما عرضت لهم الندامات المفرطة والحسرات العظيمة، فإن ظفروا بشيء من مطالبهم بعد مقاساة هذه المصائب الشديدة والمتاعب العديدة، فهو معرض للزوال والانتقال، غير موثوق ببقائه؛ لأنَّ مواده التأمَت من الأُمور الخارجية والأسباب العرضية، وما كان خارجاً عنها فهو غير ممتنع من مفارقته بطروق الحوادث التي لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ، وصاحبها مع هذه الحال شديد الوجل دائم الإشفاق متعوب الجسم والنفس، يحفظ ممَّا لا يجد إلىٰ حفظه سبيلاً، وإن كان طالب هذه الأشياء الخارجة عنّا سلطاناً أو صاحب سلطان، تضاعفت عليه هذه المكاره

أضعافاً مضاعفة بقدر ما يلابسه وبحسب ما يقاسيه من الأضداد والحسّاد علىٰ القرب والبعد.

وبكثرة ما يحتاج إليه من المؤن في استصلاح من يليه ويلي من يليه، ومدارت من يواليه ويعاديه، وهو في كلّ ذلك ملوم مستبطأ ومعيب مستقضىٰ، يزدريه جميع أهله والمتَّصلون به، ولا سبيل له إلىٰ ارضاء واحد منهم فضلاً عن جميعهم، ولا يزال يبلغه من أخصّ الناس به من أولاده وحرمه ومن يجري مجراهم من حاشيته وحوله ما يملأه غيظاً وحتفاً، فهو غير آمن علىٰ نفسه من جهتهم من التحاسد الذي بينهم من مكاتبة الأعداء ومواطاة الحسّاد، وكلَّما ازداد من الأعوان والأعضاد زاده في شغل القلب، وجلبوا له من المكاره ما لم يكن عنده، فهو غني عن الناس، وهو أشدّهم فقراً ومحسود، وهو أكثرهم حسداً، وكيف لا يكون فقيراً، وحدّ الفقر هو كثرة الحاجة، فأكثر الناس حاجة أشدّهم فقراً، كما أنَّ أغنىٰ الناس أقلّهم حاجة، ولذلك حكمنا حكماً صادقاً بأنَّ الله جلَّ وعلا أغنىٰ الأغنياء لأنَّه لا حاجة له إلىٰ شيء من الأشياء، وحكمنا أيضاً أنَّ أعظم ملوك الدنيا أشدُّ الناس فقراً لكثرة حاجته إلىٰ الأشياء.

ولقد صدق من قال: أشقىٰ الناس في الدنيا والآخرة الملوك؛ لأنَّ الملك إذا ملك زهَّده الله فيما في يده ورغَّبه فيما في يد غيره، ونقَّصه شطر عمره، وكثَّر أسباب انقطاع حياته، وأشرب قلبه الإشفاق، فهو جذل الظاهر حزين الباطن، يسأم من الرخاء وتنقطع عنه لذَّة البهاء، فهو كالدرهم المزوّف والسراب الخادع، فإذا انقضت دولته ومضت مدَّة عمره، فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه، إلَّا أنَّ الملوك هم المرحومون، هذا كلامه.

ذكر الميبدي في الكشكول (ص ٢٢٢): ومن وصاياه للإسكندر: لا ترغب في الجماع فإنَّه من فعل الخنازير، وأيّ فضيلة فيما يكون في البهائم أكثر ممَّا في الإنسان وهنَّ عليه أقدر، وفيه هلاك الأبدان وقلَّة العمر وفسادات العادات، وهو دأب النساء، وكفاك في ذمّه أنَّ فاعله يتشبَّه بالخنازير والنساء، بل هو أعجز وأحقر. ولا يخفىٰ أنَّ نظره إلىٰ القدر الذي يوجب ذلك فلا بأس بما يحتاج إليه الإنسان في بقاء النسل ودفع الشهوة، وحفظ الحواسّ وقوام المروَّة، وهو القدر الراجح شرعاً وعقلاً.

قال الفاضل الشهرزوري في تاريخه: رأيت في سياسات الملوك التي ترجمها ابن البطريق للمأمون أنَّ هذا الحكيم الفاضل كثيراً ما عدَّه علماء اليونانيين في عداد الأنبياء.

وذكر السيّد الطاهر رضي الدين علي بن طاووس في كتاب (فرج المهموم في معرفة الحلال والحرام من علم النجوم): ولقد أتىٰ في كثير من تاريخ اليونانيين أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ إليه: إنّي أُسمّيك ملكاً أقرب منك أن أُسمّيك إنساناً، وله حكايات غريبة عظيمة يطول ذكرها، حتَّىٰ قيل: إنَّه ارتفع إلىٰ السماء وهو أعلم بأحوال العباد وحقائق الأشياء.

* * *

(١١)

الحكيم إسكندر ذو القرنين[1]

في كتــاب محبــوب القلــوب (ص ١٠٧): الحكــيم الملــك الإســكندر الملقَّب بذي القرنين، هو ابـن فـيلقس الملـك بـن أفـيطس الملـك، وهـو الـذي حارب دارا ابـن دارا ملـك فـارس فقتلـه وتملَّـك فـارس، ولـذا سُـمّي بـذي القرنين.

واختلـف أهـل الأخبـار في أمـر ذي القـرنين المـذكور في القـرآن، هـل هو هذا الإسكندر الرومـي ابـن فـيلقس أم لا؟ ذكـر محمّـد بـن عبـد الكـريم الشهرسـتاني في كتـاب (الملـل والنحـل) أنَّـه لـيس هـو المـذكور في القـرآن، ولعلَّ هـذا القـول أقـرب بـالقبول وأليـق بـالتحقيق عنـد ذوي العقـول؛ لأنَّ تسـلميه أبـوه إلىٰ أرسـطوطاليس الحكـيم للتأديـب والتعلـيم غـير لائـق بمرتبـة النبـوَّة عنـد مـن ذهـب إلىٰ أنَّ الإسـكندر المـذكور في التنزيـل العزيـز هـو أكـبر الأنبيـاء المرسـلين معلِّـلاً بـأنَّ الخطـاب: ﴿يـا ذَا الْقَـرْنَيْنِ﴾ (الكهف: ٨٦)، عن ملك الوهّاب يختصُّ بالنفوس الكاملة القدسيّة.

ويعضـد قـول صـاحب (الملـل والنحـل) مـا في كتـاب (روضـة الصـفا)، أنَّ ذا القـرنين الأكـبر المـذكور في القـرآن بُعِـثَ بعـد صـالح النبـيّ

---

(١) الملـل والنحـل ٢: ١٣٧؛ مختـار الحكـم: ٢٢٢؛ دائـرة معـارف البسـتاني ٣: ٥٤٥؛ بحـار الأنوار ١٢: ١٧١؛ تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٩؛ البداية والنهاية ٢: ١٢١.

وقبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وقال: والأصحُّ أنَّ هذا غير الإسكندر الرومي، لأنَّ نسب إسكندر الأوَّل ينتهي بيافث بن نوح، والإسكندر الصغير الرومي من أعقاب عيص بن إسحاق من أولاد سام بن نوح، قال: وقد صرَّح بهذا عماد الدين في كتابه بداية النهاية.

وذكر الشيخ يوسف البحراني في كتابه الكشكول (ج ٣/ ص ٣٩٤/ ط النجف/ عام ١٣٥١هـ) ما نصّه: **فائدة:** قال الفاضل المتقدّم ذكره: الذي ظهر لي من تتبّع كتب التفاسير والتواريخ، أنَّ ذا القرنين الأكبر المسمّىٰ إسكندر المذكور في القرآن في سورة الكهف، هو ملك وعبد صالح حميري من أولاد سبأ بن يعرب بن قحطان الحميري، وأنَّ ملكه بلغ المشارق والمغارب من الأرض كلّها، وملك الأقاليم كلّها وقهر أهلها من الملوك وغيرهم، ودانت له البلاد.

وكان داعياً إلىٰ الله تعالىٰ، وما كان نبيَّاً بل عبداً صالحاً، سائراً في الخلق بالعدالة التامّة، وكان الخضر عليه السلام علىٰ مقدمة جيشه بمنزلة المستشار، وهو الذي افتخر به الملك العظيم تبع الحميري فقال:

قد كان ذو القرنين جدّي مسلماً ... ملكاً علا في الأرض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكمي مرشد

وهذا الإسكندر المشار إليه كان معاصراً لإبراهيم الخليل عليه السلام وقد أسلم علىٰ يديه وطاف معه ومع إسماعيل بالكعبة.

وروي أنَّه حجَّ ماشياً، فلمَّا سمع إبراهيم بقدومه تلقّاه فدعىٰ له وأوصاه بوصايا، وقيل: إنَّه أُتي بفرس ليركب، فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سخَّر الله له السحاب وطوىٰ له الأسباب، وبشَّره إبراهيم عليه السلام بذلك، فكانت السحابة تحمله وجميع عساكره.

وأمَّا ذو القرنين الإسكندر الثاني، فهو رومي كافر متأخِّر عن الأوَّل بأكثر من ألفي سنة، وكان وزيره أرسطوطاليس الفيلسوف، وهذا هو الصحيح، وبعض الناس يعتقد أنَّهما واحد، وبعضهم يعتقد أنَّ المذكور في القرآن هو الثاني لا الأوَّل، والصحيح ما حرَّرته من الكتب المعتمدة، انتهىٰ.

قال الشيخ يوسف: **أقول**: ويدلُّ علىٰ ما ذكره من كون الإسكندر الأوَّل في زمن الخليل عليه السلام ما رواه الشيخ رحمه الله في الأمالي بإسناده إلىٰ أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام قال: «أوَّل اثنين تصافحا علىٰ وجه الأرض ذو القرنين وإبراهيم الخليل عليه السلام، استقبله إبراهيم عليه السلام فصافحه»[1].

وما رواه الراوندي في كتاب (قصص الأنبياء): عن محمّد بن خالد عمَّن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «حجَّ ذو القرنين في ستمائة ألف فارس، فلمَّا دخل الحرم شيَّعه بعض أصحابه إلىٰ البيت، فلمَّا انصرف، قال: رأيت رجلاً ما رأيت أكثر نوراً ووجهاً منه، قالوا: ذاك إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه...، قال: نمشي إلىٰ خليل الرحمن، فمشىٰ ومشىٰ معه أصحابه النقباء. قال إبراهيم عليه السلام: بِمَ قطعت الدهر؟ قال: بإحدىٰ عشر كلمة: سبحان من هو باقٍ لا يفنىٰ، سبحان من هو عالم لا ينسىٰ، سبحان من هو حافظ لا يسقط، سبحان من هو بصير لا يرتاب، سبحان من هو قيّوم لا ينام، سبحان من هو ملك لا يرام، سبحان من هو عزيز لا يضام، سبحان من هو محتجب لا يُرىٰ،

---

(١) أمالي الطوسي: ٢١٥/ ح (٣٧٣/ ٢٣).

سبحان من هـو واسـع لا يتكلَّـف، سـبحان مـن هـو قـائم لا يلهـو، سـبحان من هو دائم لا يسهو»[١]، انتهىٰ.

وقال سنان بـن ثابـت في جامعـه: إنَّ محـلّ إقامـة ذو القـرنين الأكـبر في بلاد الإفرنج ولـه مملكـة عظيمـة وسـيعة، اشـتغل دائـماً بجهـاد الكفّـار حتَّـىٰ انتهىٰ إلىٰ ديار المغـرب، وفيهـا أصـناف مـن الكفـرة، فمكـث في تلـك الـديار سـنة لإهـدائهم إلىٰ توحيـد الله عـزَّ مجـده فلـم يهتـدوا بـه فحـاربهم وقـتلهم وانقطـع نسـلهم وأقـام في بلادهـم جمَّـاً مـن الموحِّـدين الـذين مـن جملـة عسكره، ورجع إلىٰ بيت المقدس.

ثـمّ سـافر ووصـل إلىٰ مدينـة عظيمـة قريبـة بـمارن يـأجوج ومـأجوج، وفيهـا أُمَّـة عظيمـة كثـيرة، ووالـيهم رجـل حسـن الخلـق لطيـف الصـورة والسيرة، فلـمَّا سـمع الـوالي بوصـول الإسـكندر إلىٰ ناحيتـه ومملكتـه، أهـدىٰ له هدايا نفيسة كثـيرة، ثـمّ اسـتقبله ولاقـاه وأدخلـه في مملكتـه وقبـل شريعتـه وأطاعه.

ولـمَّا كانت هـذه الأُمَّـة في ضـيق وشـدَّة مـن ذراري يـأجوج ومـأجوج ولا يمكنهم المقاومـة معهـم، فاشـتكوا ذلـك إلىٰ الإسـكندر والتمسـوه برفـع ظلامتهم، فتكفَّل لهـم ببنـاء السـدّ بيـنهما حتَّـىٰ لا يصـل أذىٰ ذراري يـأجوج ومأجوج إليهم، فبنـىٰ السـدّ كـما في القـرآن العزيـز، وصـفة السـدّ مـذكور في السير والتواريخ.

وروىٰ الصـدوق في (كـمال الـدين وتمـام النعمـة): عـن الأصـبغ بـن نباتة، قال: قام ابـن الكـواء إلىٰ أمـير المـؤمنين عـلي بـن أبي طالـب عليه السلام وهـو

---

(١) قصص الأنبياء: ١٢٥/ ح ١٢٤.

علىٰ المنبر، فقال له: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ذي القرنين أنبيّ كان أم مَلِك؟... فقال له عليه السلام: «لم يكن نبياً ولا ملكاً...، ولكنَّه كان عبداً أحبَّ الله فأحبَّه الله، ونصح لله فنصحه الله، وإنَّما سُمّي ذا القرنين لأنَّه دعا قومه فضربوه علىٰ قرنه فغاب عنهم حيناً، ثمّ عاد إليهم فضُرِبَ علىٰ قرنه الآخر، وفيكم مثله»[١].

وفي كتاب (إعلام الورىٰ) بحذف الإسناد: عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنَّ ذا القرنين كان عبداً صالحاً جعله الله حجَّةً علىٰ عباده، فدعا قومه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ وأمرهم بتقواه، فضربوه علىٰ قرنه، فغاب عنهم زماناً حتَّىٰ قيل: مات أو هلك بأيّ وادٍ سلك؟ ثمّ ظهر ورجع إلىٰ قومه فضربوه علىٰ قرنه الآخر، وفيكم من هو علىٰ سُنَّته، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ مكَّن لذي القرنين في الأرض، وجعل له من كلّ شيء سبباً، وبلغ المشرق والمغرب، وإنَّ الله سبحانه سيجري سُنَّته في القائم من ولدي ويبلغه شرق الأرض وغربها حتَّىٰ لا يبقىٰ منهل ولا موضع من سهل أو جبل وطئه ذو القرنين إلَّا وطئه، ويظهر الله له كنوز الأرض ومعادنها»[٢].

وفي (كمال الدين) بإسناده إلىٰ عبد الله بن سليمان وكان قارئاً للكتب: ... إنَّ الإسكندر رأىٰ في المنام كأنَّه دنىٰ من الشمس حتَّىٰ أخذ بقرنيها شرقها وغربها، فلمَّا قصَّ رؤياه علىٰ قومه سمّوه ذا القرنين، فلمَّا رأىٰ هذه الرؤيا بعدت همَّته وعلا صيته وعزَّ في قومه[٣].

---

(١) كمال الدين: ٣٩٣ و٣٩٤/ باب ٣٨/ ح ٣.

(٢) إعلام الورى ٢: ٢٤٩ و٢٥٠.

(٣) أُنظر: كمال الدين: ٣٩٥/ باب ٣٨/ ح ٥.

قال الأعلمي في دائرة المعارف (ج ٤/ ص ٢٦٤): فلمَّا فرغ الإسكندر من السدّ وأحكمه سرَّ بذلك سروراً عظيماً، وأمر بسرير فنُصِبَ له علىٰ السدّ فرقىٰ عليه وحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه، ثمّ قال: يا ربّ الأرباب ومسهِّل الصعاب أنت ألهمتني بسدٍّ هذا المكان صوناً للبلاد وراحةً للعباد، وقمعاً لهذا العدوّ المطبوع علىٰ الفساد، فأحسن لي المثوبة في اليوم المعاد، وردّ غربتي وأحسن أوبتي.

قال الجزائري في قصص الأنبياء (ص ١٦٣): فانطلق ذو القرنين يسير في البلاد حتَّىٰ مرَّ بشيخ يُقلِّب جماجم الموتىٰ، فوقف عليه بجنوده، فقال له: أخبرني أيّها الشيخ لأيّ شيء تُقلِّب هذه الجماجم؟ فقال: لأعرف الشريف من الوضيع والغني من الفقير فما عرفت، وإنّي أُقلِّبها منذ عشرين سنة، فقال له ذو القرنين: ما عنيت بهذا أحداً غيري ثمّ تركه وسار.

وفي كتاب (محبوب القلوب): ثمّ انطلق علىٰ وجهه، فبينا هو يسير وجنوده إذ مرَّ علىٰ شيخ يُصلّي فوقف عليه بجنوده حتَّىٰ انصرف من صلاته، فقال له ذو القرنين: كيف لم يرعك ما حضرك من الجنود؟ قال: كنت أُناجي من هو أكثر جنوداً منك، وأعزُّ سلطاناً وأشدُّ قوَّةً، ولو صرفت وجهي إليك لم أدرك حاجتي قبله.

قال ذو القرنين: هل لك في أن تنطلق معي وأُواسيك بنفسي وأستعين بك علىٰ بعض أمري؟ قال: نعم، إن ضمنت لي أربع خصال: نعيماً لا يزول، وصحَّةً لا سقم فيها، وشباباً لا هرم فيه، وحياة لا موت فيها، فقال له ذو القرنين: وأيُّ مخلوق يقدر علىٰ هذه الخصال؟ فقال الشيخ: فإنّي مع من يقدر عليها ويملكها وإيّاك.

ثـمّ مـرَّ برجـل عـالم فقـال لـذي القـرنين: أخـبرني عـن شـيئين منـذ خلقهـم الله تعـالىٰ قـائمين، وعـن شـيئين جـاريين، وعـن شـيئين مختلفـين، وعـن شـيئين متباغضـين. فقـال ذو القـرنين: أمَّـا الشـيئان القـائمان فالسماوات والأرض، وأمَّـا الشـيئان الجاريـان فالشـمس والقمـر، وأمَّـا الشـيئان المختلفـان فالليـل والنهـار، وأمَّـا الشـيئان المتباغضـان فـالموت والحياة، قال: فإنَّك عالم.

قـال الجزائـري في قصـص الأنبيـاء (ص ١٦٤): فبينـا هـو يسـير إذ وقع إلىٰ الأُمَّة العالمة من قوم موسىٰ الـذين يهـدون بـالحقّ وبـه يعـدلون، فلـمَّا رآهم قال لهم: أيّهـا القـوم أخـبروني بخـبركم، فـإنّي قـد درت الأرض شرقهـا وغربها وبرّهـا وبحرهـا فلـم ألـقَ مـثلكم، فـأخبروني مـا بـال قبـور موتـاكم علىٰ أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلَّا ننسىٰ الموت، ولا يخرج ذكره من قلوبنا.

قال: فما بال بيوتكم لـيس عليهـا أبـواب؟ قـالوا: لـيس بيننـا لـصّ ولا ظنين (أي متَّهم).

قال: فما بالكم ليس عليكم أُمراء؟ قالوا: لا نتظالم.

قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام (يعني القضاة)؟ قالوا: لا نختصم.

قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا: لا نتكاره.

قـال: فـما بـالكم لا تتفاضـلون ولا تتفـاوتون؟ قـالوا: مـن قِبَـل أنّـا متواسون متراحمون.

قـال: فـما بـالكم لا تتنـازعون ولا تختلفـون؟ قـالوا: مـن قِبَـل أُلفـة قلوبنا وصلاح ذات بيننا.

قـال: فـما بـالكم لا تسـابّون ولا تقتلـون؟ قـالوا: مـن قِبَـل أنّـا غلبنـا طبائعنا يعني بالعزم، ومَسَسنا أنفسنا بالحكم.

قال: فما بالكم كلمتكم واحدة وطريقتكم مستقيمة؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضاً.

قال: فأخبروني لِمَ ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسِّم بالسويّة.

قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظ؟ قالوا: من قِبَل الذلّ والتواضع.

قال: فلِمَ جعلكم الله أطول الناس أعماراً؟ قالوا: من قِبَل أنّا نتعاطىٰ الحقّ ونحكم بالعدل.

قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نغفل عن الاستغفار.

قال: فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا: من قِبَل أنّا وطّنا أنفسنا علىٰ البلاء فعزّينا أنفسنا.

قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتوكَّل علىٰ غير الله ﷻ، ولا نستمطر بالأنواء والنجوم.

قال: فحدِّثوني أيّها القوم هكذا وجدتم آبائكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم، ويواسون فقيرهم، ويعفون عمَّن ظلمهم، ويحسنون إلىٰ من أساء إليهم، ويستغفرون لمسيئهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدّون أمانتهم، ويصدقون ولا يكذبون، فأصلح الله لهم بذلك أمرهم.

والأقوال في الإسكندر كثيرة مختلفة متشعّبة، قال اللاهجي في محبوب القلوب (ص ١٠٩): وأمَّا هذا الإسكندر الرومي، فالأصحّ أنَّه كان بعد موسىٰ وقبل عيسىٰ عليه السلام...، وقد سلَّمه أبوه إلىٰ أرسطوطاليس

الحكيم ووصّاه بتعليمه وتأديبه، فأقام عنده خمس سنين يتعلَّم منه الحكمة والأدب حتَّىٰ بلغ أحسن المبالغ ونال من الفلسفة ما لم ينله سائر تلاميذه...

وكان شجاعاً جريَّاً علىٰ الحروب منذ صباه، وأبوه تملَّك الروم مع بلاد اليونان في مدَّة سبع سنين، وكان ملك فارس قد غلب عليهم وجعل علىٰ ملوك الروم خراجاً يؤدّوه إليه في كلّ سنة، فلمَّا مات أبو الإسكندر وجلس الإسكندر مكانه، أتته رسل ملك فارس، وهو دارا بن دارا لطلب الخراج، وذكر أنَّهم يؤدّون كلّ سنة ألف بيضة من ذهب.

فقال الإسكندر للرسل: قولوا للملك: إنَّ الدجاجة التي كانت تبيض بيض الذهب ماتت، فلسنا نجد شيئاً من ذلك حتَّىٰ نرسله إليك، فردَّ الرسل.

ولـمَّا مات فيلقس وقام ولده الإسكندر في الناس، قال: أيّها الناس، إنَّ ملككم قد مات وليس لي عليكم ولاية ولا إمرة، وإنَّما أنا رجل منكم أرضىٰ بما رضيتم وأدخل فيما دخلتم، ولا أُخالفكم في شيء من أُموركم فاسمعوا قولي ومشورتي والزلفة لي وأنا بمنزلة الناصح لكم الشفيق عليكم، المكلَّف بأُموركم، فقد عرفتم ذلك منّي في حياة والدي.

وإنّي آمركم بتقوىٰ الله والتمسّك بالطاعة ولزوم الجماعة، فيملك عليكم أطوعكم لربّه وأرفقكم بالعامّة وأغناكم بأُموركم وأرحمكم بمساكينكم، ولا تشغله الشهوات وتأمنون شرّه وترجون خيره، ويباشر قتال عدوّكم...، وهي خطبة طويلة.

فلـمَّا سمعوا قوله تعجَّبوا منه ومن رأيه ونظره فيما لم ينظر فيه الملوك مثله، فقالوا له: قد سمعنا قولك وقبلنا مشورتك ونصحك

لعامَّتنا، وقد قلَّدنا أمرنا لك، فعش الدهر علينا ملكاً مسلَّطاً لا نرىٰ أحداً من أهل الدنيا أحقُّ بالملك منك، ثمّ قاموا إليه فبايعوه ووضعوا التاج علىٰ رأسه ودعوا له بالبركة.

فقال الإسكندر: قد سمعت ثناءكم عليَّ وسروركم بتمليككم إيّاي عليكم، وأنا أسأل الله الذي وهبنا منكم المحبَّة وأثبت في قلوبكم طاعتي أن يلهمني العمل بطاعته ولا يشغلني بشيء من شهوات الدنيا وزينتها عن صلاحكم.

ثمّ كتب إلىٰ عُمّال مملكته وصاحب كلّ ناحية: من ذي القرنين إلىٰ فلان وفلان، الله ربّي وربّكم، وخالقي وخالقكم، وخالق السماوات والأرض والنجوم والجبال والبحار، وقذف في قلبي معرفته وأسكن فيه خشيته، وألهمني حكمته، ودلَّني علىٰ عبادته، فله الحمد علىٰ ما تقدَّم إليَّ من إحسانه وحسن صنيعه إليَّ، والرغبة في تمامه.

وقد علمتم ما كان عليه آباءنا وآباؤكم من عبدة الأوثان دون الله ﷻ، وأنَّها لا تنفع ولا تضرّ، وينبغي لمن عرف وعقل أن يستحي لنفسه من عبادة وثن أو صورة تُتَّخذ، فانتبهوا إلىٰ معرفة ربّكم واعبدوه ووحّدوه فإنَّه أولىٰ بذلك من الغير.

وجلس يوماً فلم يسأله أحد حاجة، فقال لأصحابه: والله ما أعدّ هذا اليوم من أيّام عمري في ملكي، قيل: ولِمَ أيّها الملك؟ قال: لأنَّ الملك لا يوجد التلذّذ إلَّا بالجود علىٰ السائل، وإغاثة الملهوف، ومكافاة المحسن، وإنالة الراغب، وإسعاف الطالب.

وقيل له: ما بلغ من حبّك لأرسطوطاليس؟ فقال: أقصاه، فلا ترجمة له ولا عبارة عندي له، ولكن أخبر عن أدناه، وليس هو شيء من

جنس محبَّة المال والرياسة والأهل؛ بل هو شيء لا أُحيط به عرفاً ولا أستطيعه عياناً إلَّا أنَّه لو أمرني أن أخرج عن هذا الصدر لفعلت بلا توانٍ ولا مشورة أحد.

ولـمَّا أراد المضيّ إلىٰ البلاد قال لأرسطوطاليس: أوصني، قال: عليك بالعلم فاستنبط منه ما يحلو بألسنة الناطقين، ويجذب قلوب السامعين، تَنقَد لك الرعيّة من غير حرب.

ما أُثر عنه من الآداب والحكم:

جاء في كتاب محبوب القلوب (ص ١١١): ومن كلماته الحكيمة وآدابه الحكمية: قال: سلطان العقل علىٰ باطن العاقل أشدُّ تحكّماً من سلطان السيف علىٰ ظاهر الأحمق.

وقال: الذي يريد أن ينظر إلىٰ أفعال الله ﷻ مجرَّدة، فليعفّ عن الشهوات.

وقال: إنَّ نظم جميع ما في الأرض شبيه بالنظم السماوي لأنَّها أمثال له.

وسُئِلَ عن أفضل ما سرَّه في مملكته، فقال: اقتداري علىٰ أن أدرّ الإحسان إلىٰ من سبق منه حسنة إليَّ.

وقال: ما نلت في ملكي شيئاً أحبُّ إليَّ من أنّي قدرت علىٰ المكافاة بالإساءة فعفوت ولم أفعل.

وقال: إن كنت تحبّ الحياة لأجله، فلا تستعظم الموت بسببه.

وقال: استقلل كثير ما تعطي، واستكثر قليل ما تأخذ، فإنَّ قرَّة عين الكريم فيما يعطي، ومسرَّة اللئيم فيما يأخذ.

وقال: لا تجعل الشحيح أميناً، ولا الكذّاب خزيناً، فإنَّه لا عفَّة مع شحّ ولا أمانة مع كذب.

وقـال: الظفـر بـالحزم، والحـزم بإجالـة الـرأي، وإجالـة الـرأي بتحصين الأسرار.

وقيل له: لو استكثرت من النساء ليكثر ولدك، ويدوم به ذكرك، فقال: دوام الذكر بتحسين السير والسنن، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء.

وقصد موضعاً فحاربته النساء، فكفَّ عنهنَّ، فقال: هذا جيش إن غلبناه ما لنا من فخر، وإن كنّا مغلوبين فذلك فضيحة الدهر.

وقيل له: إنَّك تعظِّم مؤدّبك أكثر من تعظيمك والدك؟ قال: إنَّ أبي كان سبب حياتي الفانية، ومؤدّبي هو سبب حياتي الباقية.

وقيل له: بما نلت هذه المملكة العظيمة علىٰ حداثة سنّك؟ فقال: باستمالة الأعداء، وتعاهد الأصدقاء، وبالإحسان إليهم.

وتشاور الحكماء في أن يسجدوا له إجلالاً وتعظيماً، قال: لا سجود لغير بارئ الكلّ؛ بل يحقّ له السجود علىٰ من كساه بهجة الفضائل.

ووجد في عضده صحيفة فيها: قلَّة الاسترسال إلىٰ الدنيا أسلم، والاتّكال علىٰ القدر أروح، وعند حسن الظنّ بالغير يقع الضرر، ولا ينفع لما هو واقع التوقّي.

ورأيت في بعض الكتب أنَّه وجد في ذخائر الإسكندر صحيفة مكتوبة باليونانية، فُسِّرت بالعربية: الفلك أدور، والزمان أدور، وإنَّ حركة الأفلاك أدقّ من أن تبقي علىٰ أحد نعمة أو تديم عليه نقمة، فإذا ولي العاقل النعمة فليكن همَّته انتهاز الفرص وتقليد المنن أعناق الرجال، وليصنع المعروف، وليغث الملهوف، فإنَّ النعمة تزول عن قريب إمَّا بثواب جزيل أو بخزي طويل، واعلموا أنَّ الأيّام صحائف الدهر فلا

تغـرَّنَّكم حـال المـرء وانقـلاب الزمـان عليـه، فـإنَّ الزمـان يجـبركما يكسـر ويكسر كما يجبر.

وقال: لك نسبان: نسب إلىٰ أبيك، ونسب إلىٰ أُمّك، أنت بأحدهما أشرف وبالآخر أوضع، فإن انتسبت في ظاهرك وباطنك إلىٰ من انتسابه أشرف وتبرأ في باطنك وظاهرك ممَّن أنت به أوضع شرفت، فإنَّ الولد الفصيل يحبّ أُمّه أكثر ممَّا يحبّ أباه وذلك دليل علىٰ دخل العرق وفساد المعتقد.

وقـال: قـد ارتفـع إليـك خصـمان منـك يتنازعـان بـك: أحـدهما محـقّ والآخـر مبطـل، فاحـذر أن تقضـي بيـنهما بغـير الحـقّ فتهلـك أنـت. ولعـلَّ الخمسان أحدهما العقل، والثاني الطبيعة.

وقـال: كـما أنَّ البـدن الخـالي مـن الـنفس يفـوح نـتن الجيـف، كـذلك النفس الخالية من الأدب يحسّ نقصها بالكلام والأفعال.

وقال: الغائب المطلوب في طيّ الشاهد الحاضر.

وفي كتـاب جـلاء الكـروب (ص ٢٥٠): قـال الإسـكندر الرومـي: السـعيد الـذي لا يعرفنـا ولا نعرفـه، لأنّـا إذا عرفنـاه عطَّلنـاه يومـه وأبطلنـا نومه، فأطال لومنا وشنَّع قومنا.

إشارة إلىٰ المنعزل عن الناس لأنَّه في راحة وسعادة، لأنّا إذا عرفناه عطَّلنا يومه، أي أشغلنا فكره بالأوامر والخدمات، وأبطلنا نومه بالقلق الذي يعتريه فلا راحة له ولا سعادة، فهو علىٰ الدوام متذمّر منّا، فأطال لومنا وقبَّح قومنا.

ولـمَّا مات الإسـكندر بروميـة المـدائن، وضـعوه في تـابوت مـن ذهـب وحملوه إلىٰ الإسكندرية، واجتمعت الحكماء وندبوا:

فقـال ميلاطـوس الحكـيم: خرجنـا إلىٰ الـدنيا كـارهين، وأقمنـا فيهـا غافلين، وفارقناها كارهين.

وقال بيلموس: هذا يوم أقبل من شرّه ما كان مدبراً، وأدبر من خيره ما كان مقبلاً.

وقال زينون الأصغر: يا عظيم الشأن ما كنت إلَّا سحاباً اضمحلّ لـمَّا أضلّ، فلا نخشىٰ له أثراً، ولا نعرف له خبراً.

وقال أفلاطون الثاني: جمعت ما تفرَّق، وتولَّيت ما تولّىٰ، فلزمتك أوزاره، وعادت علىٰ غيرك أثماره.

وقال قوطس: أَلَا تعجبون ممَّن لم يعظنا اختياراً فوعظنا اضطراراً؟

وقال مستطور: كنّا بالأمس نقدر علىٰ النظر دون القول، واليوم نقدر علىٰ القول دون النظر.

وقال ثاون: أُنظروا إلىٰ حلم الناس كيف انقضىٰ، وإلىٰ ظلّ الغمام كيف انجلىٰ.

وقال أميرس: كم أمات لئلَّا يموت، ولم يدفع الموت بالموت.

وقال حكيم آخر: طوىٰ الأرض العريضة فلم يقنع حتَّىٰ طوي في ذراعين منها.

وقال آخر: ما سافر الإسكندر سفراً بلا أعوان ولا عدَّة إلَّا هذا.

وقال حكيم آخر: ما أرغبنا فيما فارقت، وما أغفلنا فيما عاينت.

وقال آخر: لم يؤدّبنا بكلامه أدَّبنا بسكوته.

وقال آخر: من يَرَ هذا فليعلم أنَّ الديون هكذا قضاؤها.

وقال آخر: كان النظر بالأمس راحةً وموتاً، واليوم سقم وموت.

وقال آخر: الآن تضطرب الأقاليم؛ لأنَّ من سكَّنها قد سكن.

* * *

(١٢)

الحكيم أوميرس الشاعر اليوناني[١]

قال القِفطي في (أخبار الحكماء): كان هذا الرجل من رجال يونان الـذين عانوا الصناعة الشعرية من أنواع المنطق وأجادها، وجاءه أنـابو المـاجن فقـال: اهجني لأفتخر بهجائك إذ لم أكن أهلاً لمديحك، فقال له: لست فاعلاً ذلك أبداً، قال: فإنّي أمضـي إلىٰ رؤساء اليونانيين فأشعرهم بنكولك.

قـال أومـيرس مـرتجلاً: بلغنـا أنَّ كلبـاً حـاول قتـال أسـد بجزيـرة قبرص فامتنع عليه أنفة منه، فقـال لـه الكلـب: إنَّنـي أمضـي فأشـعر السـباع بضعفك، قال له الأسـد: لأن تعـيّرني السـباع بـالنكول عـن مبارزتـك أحـبُّ إليَّ من أن ألوِّث شاربي بدمك.

قال اللاهجي في (محبـوب القلـوب): الحكـيم أومـيرس الشـاعر، مـن القـدماء الكبـار الـذي يخـبر بـه أفلاطـون وأرسـطوطاليس في أعـلىٰ المراتـب، وكان يجري عندهم مجرىٰ امـرأ القـيس في شـعراء العـرب، وكـان أرسـطو لا يفارق مكانه ديوانه، ويستدلُّ هـو ومـن تقدَّمـه وتـأخَّر عنـه بشـعره، لمـا كـان يجمع فيه من إتقان المعرفـة ومتانـة الحكمـة، وجـودة الـرأي ووجـازة اللفـظ، وكان زمانه بعـد زمـان الكلـيم عليـه شرائـف التسـليمات بخمسـمائة وستّين سنة، وهو أوَّل من أبدأ الشعر في اليونان.

---

(١) إخبار العلماء: ٤٩؛ الملل والنحل ٢: ١٠٦؛ مختار الحكم: ٢٩.

وكان أوميرس معتدل القامة، حسن الصورة، أسمر اللون، عظيم الهامة، ضيّق ما بين المنكبين، سريع المشية، بوجهه آثار جدري.

ونقل الشهرزوري في تاريخه: إنَّه أُسر فاشتراه بعضهم فقال له: لأيّ شيء تصلح؟ فقال: للحرّيّة، فأعتقه، وعاش عمراً طويلاً، بلغ عمره مائة وثمانين سنة.

وقيل له: متىٰ تمسك عن مدح فلان؟ فقال: إذا أمسك هو عن إحسانه، وقيل له: تكذب في شعرك، فقال: يُراد بالشعر الكلام الحسن، وأمَّا الصدق فعند الأنبياء.

ومن مذهبه أنَّ بهرام واقع الزهرة، فولدت منهما طبيعة هذا العالم، ثمّ قال: الزهرة علَّة التوحّد والاجتماع، وبهرام علَّة التفرّق والاختلاف، والتوحيد ضدُّ التفرّق، ولذلك صارت الطبيعة ضدَّاً تركّب وتنقّص، وتوحّد وتفرّق.

قال اللاهجي: لعلَّ كلامه اللاحق تعليل لاختلاف طبايع النتائج الحاصلة من مواقعتهما الذاهبة إليها في كلامه الأوَّل؛ بأنَّ الاختلاف سبب الافتراق، ومراده بالمواقعة الممازجة، وكان رأيه أنَّ من ممازجة الزهرة والمرّيخ تولَّدت طبيعة هذا العالم؛ لأنَّ الأشياء تتبيَّن بالأضداد، ومدار هذا العالم بالجمع والتفريق، وهما ناشئان بمقتضىٰ رأيه من طبيعة الزهرة والمرّيخ فولدت من مواقعتهما طبيعة هذا العالم ولاختلاف الأبوين اختلفت طبايع المتولّدات وهذا سبب الافتراق.

قال الحكيم بطليموس في الكلمة التاسعة من ثمرته: ليس يصل إلىٰ الحكم علىٰ تمزيج الكواكب إلَّا عالم بالأخلاق، والامتزاج الطبيعي.

وحاصل كلامه: أنَّه كما كانت للعناصر كيفيّات متضادّة إذا

امتزجت وتفاعلت حدث من امتزاجها وتفاعلها كيفيّة متوسّطة هي المزاج، فكذا يحصل من امتزاجات الكواكب في أوضاعها أثر هو مقتضىٰ امتزاجاتها، وقد تبيَّن من كتب الأحكام النجوميّة أنَّ الأخلاق المختلفة للأشخاص تحصل من امتزاجات الكواكب وتأثيراتها، مثلاً إذا كانت الزهرة مع المشتري في طالع شخص فمن عرف تركيب الأخلاق يعرف بأنَّه تقتضي شهوته علىٰ وجه شرعي بسبب المشتري، فالحكم بامتزاج تأثيرات الكواكب علىٰ ما بيَّن المحقّق الطوسي رحمه الله في شرحه، مشروط بمعرفة تركيب الأخلاق وامتزاج العناصر، وتولّد المركَّبات من البسائط علىٰ الوجه الطبيعي.

وقال الحكيم أوميرس: من يعلم أنَّ الحياة مستبعدة والموت متيقَّن، آثر الموت علىٰ الحياة.

والمراد أنَّه اختار الموت الإرادي قبل حلول الموت الطبيعي، وتلك حياة حقَّة حقيقية.

قال اللاهجي: وهاهنا كلام ينبغي إيراده في هذا المقام: وهو أنَّه قد تكرَّر في الكتاب الكريم والسُّنَّة الشريفة، وفي أحاديث أهل بيت الوحي والعصمة عليهم السلام حثُّ المؤمن علىٰ استكراه الحياة الدنيا والإعراض عنها، والاشتياق إلىٰ الموت وتمنّيه، واستحقار دار النضرة البائدة، واستعظام دار البهجة الخالدة. وقد ورد أيضاً في أحاديثهم عليهم السلام النهي عن طلب قطع الحياة وإدراك المهات، وفي أدعيتهم المأثورة ميل طول العمر وتأخير الأجل، فما وجه التوفيق بين ذا وذا؟

وسبيل التحقيق أنَّ لهذه الحياة الدنيا اعتبارين: اعتبار بما هي وبما أنَّها تقلّب في أرض الطبيعة الفاسقة المظلم ليلها، وإقامة منها في قرية

الهيولىٰ السافلة الظالم أهلها، فهي بهذا الاعتبار هي المحثوث علىٰ مقتها وعلىٰ انصراف القلب عن الركون إليها وإلىٰ نضرتها الذاهبة ولذَّتها الكاذبة وتبعتها اللازبة والمحفوفة بتوقان النفس إلىٰ رفضها، وللاشتياق إلىٰ الموت الذي هو سبيل أرض يموت، أي عداوة جوهرك الذي لا يبطل بسبب أعمالك القوىٰ البهيمية، وإرخاء عنانها فيغلب علىٰ نفسك هواك فتفتضح في دار منقلبك ومثواك.

وقال: تزوَّج بالمرأة لا بجهازها.

أراد بالمرأة الدنيا، وبجهازها زخارفها الفانية، أي تزوَّج بمرأة الدنيا لاستيفاء لذّاتك الضرورية الحقيقية من اكتساب الكمالات وارتكاب المبرّات المنجيات، وسائر ما أُبيح الاستمتاع بها، لا بجهازها المفسد لإربك والشاغل لقصدك.

وقال: إنَّ الحكماء يتفكَّرون الأُمور بالليل.

لعلَّ مراده أنَّهم يتفكَّرون ويتهيَّأون للأُمور المهيجة المعدَّة للبهجة والسرور، لعالم النور في دار الظلمة والغرور.

وقال: إنَّ الله يسمع دعاء الحقّ.

وقال: من الناس من يبغض المحسن إليه.

وقال: لن يكسب الإنسان الجنَّة إلَّا بالتعب.

وقال: محبّي المال ليست لهم حرمة.

وقال: المخطئ في الشيء مرَّتين ليس بحكيم.

وقال: أعدّ أبداً ما تحتاج إليه لوقت كبرك.

وقال: إن أعطيت صاحب البخت قليلاً أخذت منه كثيراً، وإذا عدلت أعانك الله.

وفي كشكول الشيخ البهائي رحمه الله: قال أوميرس الحكيم: اتَّهم أخلاقك السيّئة فإنَّها إذا وصلت إلىٰ حاجاتها من الدنيا كانت كالحطب للنار والماء للسمك، وإذا عزلتها عن مأربها وحلت بينها وبين ما تهوىٰ انطفأت كانطفاء النار عند فقدان الحطب، وهلكت كهلاك السمك عند فقد الماء.

وقال: كما أنَّ الحاسّة الجلديّة إذا كانت مَؤُفَة برمدٍ ونحوه فهي محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس، كذلك البصيرة إذا كانت مَؤُفَة بالهوىٰ واتّباع الشهوات والأخلاط بأبناء الدنيا، فهي محرومة من إدراك الأنوار القدسيّة، محجوبة عن ذوق اللذّات الإنسية.

* * *

(١٣)
الحكيم سولون الشاعر[1]

قال اللاهجي في محبوب القلوب (ص ١٣٣): كان عند الفلاسفة من الأنبياء بعد هرمس وقبل سقراط، وأجمعوا علىٰ تقديمه والقول بفضائله، وأنَّه واضع الشرائع، وله كتب كثيرة ممليّة من المواعظ.

وكان من أهل أبيثينا من مدينة الحكماء، وسار إلىٰ مصر ولبث فيها حيناً، وسمع من الكهنة حكماً كثيرة، وتعلَّم منهم أشياء غامضة، وأنَّه كان لطيف الكلام ليّناً حتَّىٰ كُنّي بالمفرِّح.

وهو جدّ لأفلاطون الحكيم من جهة أُمّه، وكان أبيض اللون أشقر أزرق العينين، أقنىٰ الأنف مستطيل اللحية، ضعيف العارضين، خميص البطن، منحني الأكتاف، حلو المنطق، قويّ اللسان، علىٰ ذراعه الأيمن خال كبير، وكان نقش خاتمه: من دول بشيء زال بزواله.

ومات وله سبع وثمانون سنة.

ما أُثر عنه من الآداب والحكم:

قال: تزوَّد الخير وأنت مقبل، خير لك من أن تتزوَّد وأنت مدبر.

وقال: إنَّ فعل الجاهل في خطأه أن يذمَّ غيره، وفعل طالب الأدب أن يذمَّ نفسه، وفعل الأديب أن لا يذمَّ نفسه ولا غيره.

---

(١) الملل والنحل ٢: ١٠٤؛ مختار الحكم: ٣٤؛ تاريخ الفلاسفة: ٩.

وسُئِلَ: أيّما أحمد في الصبي الحياء أم الخوف؟ فقال: الحياء؛ لأنَّ الحياء يدلُّ علىٰ العقل، والخوف علىٰ المقت والشهوة.

وقال لابنه: دع المزاح فإنَّ المزاح لقاح الضغائن.

وقال: إذا أردت أمراً فلا تجمع به هواك، واستشر فإنَّ المشورة ترشدك.

وسُئِلَ: أيُّ شيء يصعب علىٰ الإنسان؟ قال: أن يعرف عيب نفسه، وأن يمسك ممَّا لا ينبغي أن يتكلَّم به.

ورأىٰ رجلاً عثراً، فقال له: تعثر برجلك خير من أن تعثر بلسانك.

وقال: النوم موتة خفيفة، والموت نومة طويلة.

وقال: ينبغي للشاب أن يستعدَّ لشيخوخته مثل ما يستعدَّ الإنسان للشتاء من البرد الذي يهجم عليه.

وقال: جوعوا إلىٰ الحكمة، واعطشوا إلىٰ عبادة الله تعالىٰ قبل أن يأتيكم المانع منهما.

وقال: أخلاق محمودة وجدتها في الناس إلَّا أنَّها إنَّما توجد في قليل، صديق يحبُّ صديقه غائباً كحبّه حاضراً، وكريم يكرم الفقراء كما يكرم الأغنياء، ومقرّ بعيوبه إذا ذُكِّرَ، وذاكر يوم نعيمه في يوم بؤسه، ويوم بؤسه في يوم نعيمه، وحافظ لسانه عند غضبه.

وسُئِلَ: ما فضل علمك علىٰ علم غيرك؟ قال: معرفتي بأنَّ علمي قليل.

وقال: أنفع ما أصابه الفكر، وأقلّه نفعاً ما قلته بلسانك.

وسُئِلَ: ما الكرم؟ قال: النزاهة عن المساوي.

وقيل له: كم عمرك؟ فقال: الوقت الذي أنا فيه.

وقال: يستعمل الكذب عند الضرورة، كما يستعمل الدواء.

وقال: ليس بين الخالق والمخلوق فضل بالزمان إنَّما هو بالعلَّة والمعلول، وعلَّة سبب الموت في العالم بقاء الكلّ.

وقال: كلّ علم أمَّنك من خوف مكروه فهو كنز من الكنوز.

وقال: النفس الفاضلة ترتفع (كذا) الحزن والفرح؛ لأنَّ الفرح إنَّما يعرض إذا نظرت إلىٰ محاسن الشيء دون مساويه، والحزن بأن يرىٰ مساوي الشيء دون محاسنه، والنفس الفاضلة تتأمَّل كلّيّة الشيء، فيتساوىٰ فضائله ورذائله في هذا العالم، فلا يغلب عليها أحد هاتين الحالتين.

وقال: العالم مصنوع علىٰ أن يمدَّ بعضه بعضاً، ويستمدَّ بعضه من بعض، والغاية المطلوبة في ذلك البقاء الدائم.

وقيل له: إنَّ الملك يبغضك، فقال: أيُّ ملك يحبُّ ملكاً أغنىٰ منه. غرضه أنَّ الغناء ليس بكثرة المال والجاه بل بالقناعة.

* * *

(١٤)

الحكيم زينون الأكبر[1]

كـان كامـل الأدب، شـديد العصـبية، عظـيم الأنفـة لأهـل خاصَّـته، وله كتـاب في علـم الطبيعـة، وكتـاب مكتـوب بلغـة أهـل إفريقيـا في الأُمـور الإلهية.

قـال في هـذا الكتـاب علىٰ مـا شرحـه المعلِّـم الثـاني الشـيخ الفـارابي: اعلـم أنّي سـمعت معلِّمـي أرسـطوطاليس، أنَّـه قـال: سـمعت معلِّمـي أفلاطون، أنَّه قال: سمعت معلِّمي سقراط، أنَّه قال:

ينبغي لمـن يـتعلَّم الحكمـة أن يكـون شـابّاً فـارغ القلـب، غـير ملتفـت إلىٰ الدنيا، صـحيح المـزاج محبَّاً للعلـم بحيـث لا يختـار علىٰ العلـم شـيئاً مـن أسـباب الـدنيا، ويكـون صـدوقاً لا يـتكلَّم بغـير الصـدق، ويكـون محبَّـاً للانصاف بالطبع ولا يتكلَّـف، ويكـون أمينـاً متـديّناً عـاملاً بـالأعمال الدينيـة والوظـائف الشـرعية، غـير مخـلّ بواجـب منهـا، فمـن أخـلَّ بواجـب مـن واجباتٍ أتىٰ نبيّ مـن أنبيـاء الله تعـالىٰ بـه ثـمّ ادَّعـىٰ الحكمـة فهـو أهـل لأن يهجـر ويـترك، ويحـرّم علىٰ نفسـه مـا كـان حرامـاً في ملَّـة نبيّـه، ويوافـق الجمهور في الرسوم والعـادات التـي يسـتعملها أهـل زمانـه، ولا يكـون فظَّـاً

---

(١) الملـل والنحـل ٢: ٩٨؛ مختـار الحكـم: ٤٠؛ فلاسـفة اليونـان: ٦٣؛ موسـوعة أعـلام الفلسفة ١: ٥٢٧؛ معجم أعلام المورد: ٢٢٧؛ تاريخ الفلاسفة: ١٥٢.

سيّئ الخلق، فإنَّ الحكمة تنافي سوء الخلق، ويرحم من دونه في الرتبة، ولا يكون أكولاً ولا متهتّكاً ولا خائفاً من الموت جمّاعاً للمال إلَّا بقدر الحاجة ممَّا يحتاج إليه، فإنَّ الاشتغال بطلب أسباب المعاش مانع من اكتساب العلم وعائق عن نيل الرتبة في الآخرة، ولا يستنكف من التعلّم فإنَّ سقراط كثيراً ما يستفيد من تلامذته، وأفلاطون، وكذلك أرسطو، فإنَّ العلم كنز مدفون يفوز به من سهَّل الله طريقه إليه، فكما أنَّك لا تستنكف من أن تستقرض من غلامك ومن دونك في الرتبة من فوقك أو مثلك لتُصلِح به أسباب المعاش، فلا تستنكف من أن تستفيد ممَّن هو مثلك أو دونك لتُصلِح به أسباب المعاد، فإنَّك أحوج إلىٰ أُمور المعاد ونظامها وتدع الوقيعة والبأس.

فإن أردت تهذيبهم هذّبتهم بنصائح غير مؤلمة، وأن تخالطهم ببدنهم وتخالِقهم بخلقهم بالسرّ فلهم ذلك، وعوّد لسانك قول الخير والصدق، وتعين الإخوان بما يفضل منك، فمن فعل ذلك فهو حكيم حقيقي يتمتَّع بالحكمة وأسرارها، ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم مبهرج مثله كمثل نحاس مطلَّاً بالذهب فإذا فارقته نفسه بقيت في حسرة وبلاء، نعوذ بالله تعالىٰ من عذاب الآخرة.

وكان زينون الحكيم معتدل القامة، أخنس الأنف، حسن الصورة، علىٰ خدّه خال، أدعج العينين، معتدل اللحية، سريع الالتفات، رأسه رافع إلىٰ السماء، كثير الكلام، ذا أدب كثير، حلو المنطق، رزين العقل، بطيء الحركة، يأخذ بيده عصىٰ كصورة المِقَصَ مفضَّض بعاج وزمرّد، وكان له نواميس حسنة وسنن شريفة، مات وله ثمانية وسبعون سنة.

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

قال له بعض الملوك: عظني، فتناول شربة ماء، فقال: لو منعت هذه وعظم عطشك بماذا تشتري؟ فقال: بنصف ملكي، ثمّ قال: ولو حُبِستَ هذه بماذا للإدرار؟ قال: بنصف آخر من ملكي، قال: فما الفخر في ملك يساوي شربة وبولة؟!

وقال: لا تخف موت البدن وخف موت النفس، فقيل له: لِمَ قلت ذلك والنفس لا تموت؟ فقال: إذا انتقلت النفس الناطقة من حدِّ النطق إلىٰ حدِّ البهيمي وإن كان جوهرها لا يبطل فإنَّها قد ماتت من العيش العقلي.

قال اللاهجي: ومصداق لكلام الحكيم، ما روىٰ الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد بسنده عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ للجسم ستَّة أحوال: الصحَّة، والمرض، والموت، والحياة، والنوم، واليقظة، وكذلك للروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكّها، وصحَّتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها»[1]، ولا يخفىٰ أنَّ في قوله عليه السلام جملة من الحقائق الحكمية والمسائل الفلسفية.

وقد رأىٰ زينون الحكيم فتىٰ علىٰ شاطئ البحر ملهوفاً محزوناً علىٰ الدنيا، فقال له: ما تلهّفك علىٰ الدنيا، لو كنت في غاية الغناء وأنت راكب لجَّة البحر، وقد انكسرت السفينة وأشرفت علىٰ الغرق هل كانت غاية مطلوبك النجاة بنفسك، وإن كان يفوت كلّ ما في يدك؟ قال: نعم، [قال]: وكذلك لو كنت ملكاً علىٰ الدنيا وقد أحاط بك من

---

(١) التوحيد: ٣٠٠/ ح ٧.

يريد قتلك، هل كانت نهاية مرادك الخلاص من يده؟ قال: نعم، [قال]: فأنت الغني وأنت الملك الآن، فتسلّىٰ الفتىٰ.

وقيل له: أيُّ الملك أفضل، ملك اليونانيين أم ملك الفرس؟ قال: من ملك غضبه وشهوته.

وقال: محبَّة المال وتد الشرّ؛ لأنَّ سائر الآفات يتعلَّق بها، ومحبَّة الشرّ وتد العيوب لأنَّ سائر العيوب متعلّقة بها.

وقال: إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته، وإذا أدركها الطالب لها قتلته.

وقيل له: لِـمَ لا تشرب الخمر؟ قال: قبيح لمثلي أن يغلبه الخمر بعد أن غلبت الملوك.

وكان يقول: إنَّ المبدع الأوَّل كان في علمه صورة إبداع كلّ جوهر وصورة دثور كلّ جوهر، فإنَّ علمه غير متناه، والصور التي فيه من حدِّ الإبداع غير متناهية، وكذلك صور الدثور غير متناهية، فالعوالم تتجدَّد في كلّ حين وفي كلّ دهر فما كان منها مشاكلاً أدركنا حدوده ووجوده ودثوره بالحواسّ والعقل، وما كان غير مشاكل لنا لم ندركه إلَّا أنَّه ذكر وجه التحدّد.

وقال: إنَّ الموجودات باقية داثرة، أمَّا بقاؤها فبتجدّد صورها، وأمَّا دثورها فبدثور الصور الأُولىٰ عند تجدّد الأُخرىٰ، وذكر أنَّ الدثور قد يلزم الصورة والهيولىٰ معاً، ثمّ هذه الصورة كلّها بقاؤها ودثورها في علم الباري تعالىٰ، والعلم يقتضي بقاءها دائماً، وكذلك الحكمة تقتضي ذلك، والباري تعالىٰ قادر علىٰ أن يفني العوالم يوماً إن أراد.

وجاء في كشكول الشيخ البهائي رحمه الله: قال زينون الأكبر الحكيم: أحسن ما عوشر به الملوك: البشاشة، وتخفيف المؤنة، وقلَّة الخلاف.

وقال: طالب يسار الدنيا جاهل؛ لأنَّه لا نهاية له.

وحكي أنَّه قال لتلامذته: إن ذهب منكم شيء فلا تقولوا: ذهب منّا ولكن قولوا: رددناه إلىٰ أهله؛ لأنَّه لو كان لكم لكنتم مالكيه مذ كنتم، بل لتتمتَّعوا به إذا كان عندكم، فالإنسان الساكن في الدار إذا نزل فهي له بيت، وإذا خرج منها فهو غريب.

وقيل له: ما النوم؟ قال: راحة من التعب وملائم للموت.

وقال: لا تأمن من كذبك أن يكذب عليك.

وقال: نقل الصخور من مواضعها أيسر من تفهيم من لا يفهم.

وقال: كلّ أمر حدَّثتك به نفسك بما لو ظهر علىٰ لسانك استحييت من الناس فأخرجه من قلبك فإنَّ الله أحقُّ أن يُستحىٰ منه.

وقال: إيّاك والمراء، فإنَّه يدعو إلىٰ سفك الدماء، وعند إراقتها تكون الهلكة والبوار.

وقال: إذا أردت أن تؤاخي أخاً فأغضبه، فإن أنصفك فالزمه وإلَّا فاحذره.

وقال: إن غَلبتَ علىٰ الكلام فلا تُلغبنَّ علىٰ السكوت، وكن علىٰ أن تسمع أحرص منك علىٰ أن تقول.

وقال: اعتزلوا الناس تسلم لكم قلوبكم، وتستريح أبدانكم، وتطيب أنفسكم.

وقال: أُشكر لمن أنعم عليك، وأنعم علىٰ من شكرك، فإنَّه لا بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

وقال: أوضع الأخلاق اغتيال الصديق، وإضاعة السرّ، والثقة بكلّ أحد، وكثرة الكلام فيما لا يعني، وطلب الفضل من اللئام.

وقال: لا يغلب عليك سوء الظنّ بينك وبين حبيب صلحاً.

وقال: العقل بلا أدب كالشجرة العاقرة، والعقل مع الأدب كالشجرة المثمرة.

وقال: الذي هو أحدُّ من السيف لسان الرجل الفصيح.

* * *

(١٥)

الحكيم ثالس الملطي[1]

ذكر القِفطي في (أخبار الحكماء): أنَّه حكيم مشهور في زمانه، أقاويله مذكورة، وآراؤه في الفلسفة بين أهلها مشهورة، صحب فيثاغورس وأخذ عنه، ورحل إلىٰ مصر وأخذ عن علمائها علم الطبيعة والفلسفة.

وهو أوَّل من قال: إنَّ الوجود لا موجد له تعالىٰ الله العظيم، واحتجَّ له أصحابه: إنَّ الذي حمله علىٰ ذلك ما شاهده في هذا العالم من الاختلاف، فتحقَّق أنَّ الموصوف بالصفات الحسنىٰ لا تصدر عنه هذه الأُمور المختلفة، فقال بذلك، وعلىٰ هذا القول جمهور أهل الهند.

قال اللاهجي في (محبوب القلوب): ومن كلماته أنَّ للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة هويَّته، وإنَّما تدرك من جهة آثاره، وأفاعيله، وإبداعه، وتكوينه الأشياء، فلسنا ندرك له اسماً من نحو ذاته بل من نحو ذاتنا.

ومن هذا الباب ما قد ورد عن مولانا الخامس أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام أنَّه قال: «كلَّما ميَّزتموه بأوهامكم في أدقِّ معانيه فهو

(١) إخبار العلماء: ٧٥؛ الملل والنحل ٢: ٦١؛ مختار الحكم: ٣١٤؛ فلاسفة اليونان: ٢٧؛ معجم أعلام المورد: ٢٧٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٦٤؛ تاريخ الفلاسفة: ٤؛ أعلام الفلسفة: ٦٨.

مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم»[١]، ولعلَّ النمل الصغار تتوهَّم أنَّ لله زبانيَّتين فإنَّ ذلك كمالها، وأنَّ عدمها نقصان لمن لا يتَّصف بهما، وهكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالىٰ، والسرُّ في ذلك أنَّ التكليف إنَّما يتوقَّف علىٰ معرفة الله عزَّ مجده بحسب الوسع والطاقة، وإنَّما كُلِّفوا أن يعرفوه بالصفات التي ألفوها وشاهدوها فيهم مع سلب النقائص الناشئة عن انتسابها إليهم.

ولـمَّا كان الإنسان واجباً بغيره عالماً قادراً مريداً حيَّاً متكلِّماً بصيراً كُلِّفَ بأن يعتقد تلك الصفات في حقّه تعالىٰ مع سلب النقائص الناشئة عن انتسابها إلىٰ الإنسان، بأن يعتقد أنَّه واجب لذاته لا بغيره، عالم بجميع المعلومات، قادر علىٰ جميع الممكنات، وهكذا في سائر الصفات، ولم يُكلَّف باعتقاد صفة له تعالىٰ لا يوجد فيه مثالها منّا بوجه، ولو كُلِّفَ به لما أمكنه تعقّله بالحقيقة، وهذا أحد معاني قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربَّه»[٢].

ثمّ قال الحكيم الملطي: إنَّ القول الذي لا مردَّ له: إنَّه تعالىٰ هو المبدع ولا شيء مبدع، فأبدع الذي أبدع ولا صورة له عنده في الذات، لأنَّ قبل الإبداع إنَّما هو فقط، وإذ كان هو فقط فليس له تعالىٰ حينئذٍ جهة وجهة حتَّىٰ يكون هو وصورة، أو حيث وحيث حتَّىٰ يكون هو ذو صورة، إذ الوحدة الخالصة تنافي هذين الوجهين، والإبداع هو بِأَيش ما ليس بِأَيش، وإذا كان هو مؤيِّش الأَيشات والتأيّش لا من شيء متقادم فمؤيِّش الأشياء لا يحتاج إلىٰ أن يكون عنده صورة الأَيش بالأَيشية وإلَّا

---

(١) بحار الأنوار ٦٦: ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق.

فقد لزمه إن كانت الصورة عنده أن يكون منفرداً عن الصورة التي عنده فيكون هو وصورة.

قال اللاهجي: وقد بيَّنا أنَّه قبل الإبداع إنَّما هو فقط، وأيضاً فلو كانت الصورة عنده إمَّا مطابقة للموجود الخارجي أم غير مطابقة، فإن كانت مطابقة فلتتعدَّد الصورة بتعدّد الموجودات ولكن كلّيّاتها مطابقة للكلّيات، وجزئياتها للجزئيات ولتتغيّر بتغيّرها كما تكثَّرت بتكثّرها، وكلّ ذلك ينافي الوحدة الخالصة، وإن لم يطابق للموجود الخارجي فليس إذن منها وإنَّما هو شيء آخر.

ثمّ قال الحكيم: لكنَّه هو أبدع العنصر الذي فيه صور الموجودات والمعلومات كلّها، فانبعث من كلّ صورة موجود في العالم علىٰ المثال الذي في العنصر الأوَّل، فمحلّ الصور ومنبع الموجودات هو ذات العنصر، وما من موجود في العالم العقلي والعالم الحسّي إلَّا وفي ذات العنصر صورة ومثال عنه.

ثمّ قال: ومن كمال ذات الأوَّل الحقّ سبحانه أنَّه أبدع مثال هذا العنصر، فما يتصوَّره العامّة في ذاته تعالىٰ أنَّ فيها الصور، يعيّن صور المعلومات فهو في مبدعه ويتعالىٰ بوحدانيَّته عن أن يوصف بما يوصف به مبدعه.

ومن أسرار ما نُقِلَ عنه أنَّه قال: المبدع الأوَّل هو الماء، فإنَّ الماء قابل كلّ صورة، ومنه أبدع الجواهر كلّها من السماء والأرض وما بينهما، وهو علَّة كلّ مبدع وعلَّة كلّ مركَّب من العنصر الجسماني، فذكر أنَّ من جمود الماء تكوَّنت الأرض، ومن انحلاله تكوَّن الهواء، ومن صفوة الماء تكوَّنت النار، ومن الدخان والأبخرة تكوَّنت السماء، ومن الاشتعال

الحاصل من الأثير تكوَّنت الكواكب فدارت حول المركز دوران المسبَّب علىٰ سببه للشوق الحاصل فيها إليه.

ولعلَّ مراده من أنَّ المبدع كما أنَّه واسطة لباقي الموجودات وفيه صورها وعنه تقاض كمالاتها، كذلك الماء قوام كلّ حيّ عنصري، وبواسطته تكوَّن، فلقد صدق من قال: ﴿مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

ثمّ قال الحكيم: والماء ذكر والأرض أُنثىٰ وهما يكونان سفلاً، والنار ذكر والهواء أُنثىٰ وهما يكونان علواً.

وكان يقول: إنَّ هذا العنصر الذي هو أوَّل وآخر، هو المبدأ وهو الكمال هو عنصر الجسمانيّة والجرمانيّة إلَّا أنَّه عنصر الروحانيّة البسيطة، ثمّ إنَّ هذا العنصر له صفوة وكدرة فما كان من صفوه فإنَّه يكون جسماً، وما كان من كدره فإنَّه يكون جرماً، والجرم يدثر، والجسم لا يدثر، والجرم كثيف ظاهر، والجسم لطيف باطن، وفي النشأة الثانية يظهر الجسم ويدثر الجرم، ويكون الجسم اللطيف ظاهراً والجرم الكثيف داثراً.

قال اللاهجي: كأنَّه أشار بهذا الكلام إلىٰ المعاد الجسماني كما هو المعنىٰ المطابق للنصوص، وإليه الديّانون من حكماء الإسلام، ولعلَّه عنىٰ بالجسم اللطيف الأجزاء الأصلية، وهي عند المحقّقين من علمائنا الهيولىٰ الباقية في زمان البرزخ، وبالجرم الداثر الصور الفاسدة المتواردة عليها، وفي النشأة الثانية قد أعاد الحكيم الفعّال المادّة المذكورة المنخفضة بصورة أُخرىٰ مثل الصورة الأُولىٰ الفاسدة عند الحشر الجسماني، فسبحان من قادر يوجد من يشاء.

وكان يقول: إنَّ فوق السماء عوالم مبدعة لا يقدر المنطق أن يصف تلك الأنوار، ولا يقدر العقل أن يقف علىٰ ذلك الحسن والبهاء، وهي مبدعة من عنصر لا يُدرَك غوره ولا يُبصَر نوره، والمنطق والنفس والطبيعة تحته ودونه، وهو الله هو من نحو آخر، ولا من نحو أوَّله، وإليه اتّساق العقول والأنفس، وهو الذي سمَّيناه الديمومة والسرمد والبقاء في النشأة الثانية.

ثمّ لا يخفىٰ أنَّه ظهر من هذه الإشارات أنَّه إنَّما أراد بقوله: الماء هو المبدع الأوَّل، أي هو مبدأ المركَّبات الجسمانية لا المبدأ الأوَّل في الموجودات العلوية، لكنَّه إنَّما اعتقد أنَّ العنصر الأوَّل هو قابل كلّ صورة، أي منبع الصور كلّها، فأثبت في العالم الجسماني له مثالاً يوازيه في قبول الصور كلّها، ولم يجد عنصراً علىٰ هذا النهج مثل الماء، فجعله المبدع الأوَّل في المركَّبات وأنشأ منه الأجسام والأجرام السماوية والأرضية.

ونظير هذا المعنىٰ ورد في التوراة في السفر الأوَّل منها: (أنَّ مبدأ الخلق جوهر خلقه الله سبحانه، ثمّ نظر إليه نظر الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماءً، ثمّ ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السماوات، وظهر علىٰ وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض، ثمّ أرساها بالجبال).

فكان ثالس الملطي يلقي حكمته هذه من هذه المشكاة النبويّة، والذي أثبته من العنصر الأوَّل الذي هو منبع الصور شديد الشبه باللوح المحفوظ المذكور في الكتب الإلهية، إذ فيه جميع أحكام المعلومات وصور الموجودات والخبر عن الكائنات، والماء علىٰ هذا القول شديد

الشبه بالماء الذي عليه العرش، كما في التنزيل الكريم: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود: ٧)، وكثيراً ما وقع اسم الماء علىٰ العقل القدسي، أي هو حامله، فكان الماء بهذا المعنىٰ قبل تكوِّن المكوِّنات من الأرض والسماء والجنّ والإنس وغيرها قبليّة باللذات والمرتبة في ترتيب نظام الوجود، فهو علّة كلّ مبدع، ومنه أبدع الجواهر كلّها علىٰ ما هو المقرَّر عند الحكماء في صدور الكثرة هو أعلم بحقائق الأشياء.

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

جاء في كتاب جلاء الكروب في شرح حكمة القلوب (ص ١٥٦): قال ثاليس الملطي الحكيم: اقهر شهواتك فإنَّ الفقير من انحطَّ إليها.

وقال: الإنسان الخيّر أفضل من جميع ما علىٰ الأرض من الحيوان.

وقال: الحكمة أن تدرك صورة العلم بالعمل.

وسُئِلَ عن الرجال، فقال: هم ثلاثة: موسوم بخير، موسوم بشرّ، وغافل لا يعرف الخير من الشرّ.

وقال: الدنيا دار تجارة، فالويل لمن يزداد منها الخسارة.

وقال: الدنيا من نال مراتبها لم يفرح، ومن فقد الرياسة منها كان حقيراً.

وقال: من يعلم أنَّ الحياة لنا مستعبدة، فالموت لها معتق.

وقال: العقل نحوان: طبيعي، وتجاربي، وهما في التعاون بمنزلة الماء والأرض للنبات والأثمار، ومن لم يحسن تدبير هذين النحوين من عقل الطبيعة وعقل التجربة، واستعمالها والاستعانة بهما في أُموره، لم يكمل في العلم والأدب والحكمة والعمل الصالح.

ومن كلامه: قد يُعلَم مذهب الرجل من كلامه، والرجل العادل ليس هو الذي لا يظلم بل الذي يقوىٰ علىٰ أن يظلم فلا يفعل، وإنَّ معرفة الأُمور الحسنة بشيء فاضل.

وقال: ولا ينال الناس شيء من المكروه بغير سبب، إنَّ الذي يهرب من القتال فلا يرجع فيقاتل، الرجل الخير لا ينفض الخير منه.

محبُّ المال ليس له استدامة، الشقي يعيش بالمنىٰ، إنَّ القول الحسن وعاء الغضب.

كلّ من حسنت حاله أحبَّه الأصدقاء، وبالعكس يهرب الأصدقاء.

إنَّ العمر هو الذي غرَّ صاحبه.

وبالفرح جميع الناس تدنيهم أنفسهم كما يدنيهم الله تعالىٰ.

من استعمل العدل في عمره تكون أُجرته أُجرة صالحة.

عمر محتاج إلىٰ عمر غيره ليس بعمر.

إنَّ المرأة تقصِّر عمر الرجل.

إن لم تكن لك امرأة عشت عمراً صالحاً.

زينة كلّ امرأة صالحة سكوتها.

بالمرأة الصالحة يسلم المنزل.

الضحك في غير وقته ابن عمّ البكاء.

الأرض تلد كلّ شيء ثمّ تستره.

الشيخ الفاسق في غاية رداءة البخت.

من تزوَّج فإنَّه سيندم.

تزوَّج بالمرأة لا بجهازها، إنَّ الناس يتزوَّجون بالجهاز لا بالناس.

المخطئ بالشيء مرَّتين ليس بحكيم.

الأحمق يضحك وإن لم يكن شيء يضحك منه.

عبد المنزل هو ربّ المنزل.

إذا كنت ميّتاً فلا تذهب مذهب من لا يموت.

إنَّ ذوي الألباب يختارون الموت علىٰ الحياة الرديئة.

أحسن علىٰ من لا يقدر علىٰ منفعتك.

مساعدة الأشرار علىٰ فعلهم كفر بالله.

* * *

(١٦)

انكساغورس الحكيم[١]

قال القِفطي: انكساغورس حكيم مشهور مذكور، كان قبل أرسطوطاليس وعاصره، وهو من مشاهير الفلاسفة ومذكوريهم، وله مقالات منقولة في مدارس التعليم.

قال فريد وجدي في دائرة المعارف (ج ١/ ص ٧٤٣/ ط الأُولىٰ) نقلاً عن الشهرستاني في (الملل والنحل): انكساغورس هو من الفلاسفة القدماء، قال: إنَّ مبدأ الموجودات هو متشابه الأجزاء، وهي أجزاء لطيفة لا يدركها الحسّ، ولا ينالها العقل، منها كون الكون كلّه العلوي منه والسفلي، لأنَّ المركَّبات مسبوقة بالمشتابهات، أليست المركَّبات إنَّما امتزجت وتركَّبت من العناصر، وهي بسائط متشابهة الأجزاء، وليس الحيوان والنبات وكلّ ما يتغذّىٰ من أجزاء متشابهة أو غير متشابهة، فتجتمع في المعدة فتصير متشابهة، ثمّ تجري في العروق والشريانات فتستحيل أجزاء مختلفة مثل الدم واللحم والعظم.

وحكي عنه أيضاً أنَّه وافق سائر الحكماء في المبدأ الأوَّل أنَّه العقل الفعّال، غير أنَّه خالفهم في قوله: إنَّ الأوَّل الحقّ ساكن غير متحرّك.

---

(١) إخبار العلماء: ٤٤؛ الملل والنحل ٢: ٦٤؛ مختار الحكم: ٣١٧؛ فلاسفة اليونان: ٨٨؛ دائرة معارف البستاني ٤: ٥٣١.

قال اللاهجي: الحكيم انكساغورس حكيم مشهور من أرض ملطية، كان قبل أرسطوطاليس، وقد ملأ كتبه من أقواله وآرائه ومذاهبه، والردّ عليه فيما لم يوافقه.

وكان يأخذ نفسه بالتقشّف، ويسوقها الشدائد من مقاسات البرد والحرّ، والثلج والجليد عرياناً حافياً علىٰ كبره وضعفه، فقيل له في ذلك، قال: لأنَّ نفسي سريعة المرح أخاف أن تجمح عن عقلي، فتثور في أهوائها المذمومة، فما لي لا أجعلها تحتي دون أن أكون تحتها، ولِمَ لا أحملها علىٰ الشدائد دون أن تحملني علىٰ الفواحش؟

وكان في اختلاط لبعض الحوادث وهو ساكن، فقيل له: ألَا تتحرَّك لهذا الأمر؟ فقال: لو رأيتم مثل هذا في النوم كنتم تتحرَّكون له في اليقظة، ولا يقلقني هذا الأمر؛ لأنَّ أُمور هذا العالم كلّها كالحلم، وصحَّة الرأي كاليقظة.

ومن هذا قال بعض أرباب الحال:

كلَّما في الكون وَهْمٌ أو خيال   أو عكوس في المرايا أو ظلال

ومن كلامه: اللسان قد يحلف كاذباً، والعقل لا يحلف إلَّا صادقاً، فاجهد تطابقهما.

ويقال: إنَّ امرأته خاصمته ومكثت زماناً تسمعه المكاره، وهو ساكت متحمّل، فاغتاظت غيظاً شديداً، وكانت تغسل ثياباً، فقامت وصبَّت غسالة الثياب علىٰ رأسه، وكان في يده كتاب يطالعه، فوضع الكتاب من يده ثمّ رفع رأسه إليها، فقال: أرعدتني وأبرقتني ثمّ أمطرتني، ولم يزد علىٰ ذلك.

ومرَّ رجل فشتمه ولم ينقبض منه، فقيل له: لِمَ لا تنقبض من كلامه؟

فقال: لأنّي لا أتوقَّع أن أسمع من الغراب هدير الحمام، ولا من الكركي تغريد القمري، وكان إذا شتمه الأحرار جزع، وكان إذا مدحه الأشرار جزع.

وحكي عنه أنَّه وافق سائر الحكماء في المبدأ الأوَّل أنَّه العقل الأوَّل الفعّال، غير أنَّه خالفهم في قوله: إنَّ الأوَّل الحقّ تعالىٰ ساكن غير متحرّك.

وقد نقل صاحب (الملل والنحل) الشهرستاني اصطلاحهم في ذلك وقال: هؤلاء ما عنوا بالحركة والسكون النقلة من مكان واللبث في مكان، ولا بالحركة التغيّر والاستحالة، وبالسكون ثبات الجوهر والدوام علىٰ حالة واحدة، فإنَّ الأزلية والقِدَم تنافي هذه المعاني كلّها، ومن يحترَّز عن التكثّر فكيف يجازف هذه المجازفة في التغيّر والحركة والسكون في العقل والنفس، فإنَّما عنوا به الفعل والانفعال، وذلك أنَّ العقل لـمَّا كان موجوداً كاملاً بالفعل، قالوا: هو ساكن واحد مستغنٍ عن حركة يصير بها فاعلاً، والنفس لـمَّا كانت ناقصة متوجّهة إلىٰ الكمال قالوا: هي متحرّكة طالبة درجة العقل.

ثمّ قالوا: العقل ساكن بنوع حركة، أي هو في ذاته كامل بالفعل فاعل، مخرج النفس من القوَّة إلىٰ الفعل، والفعل نوع حركة، والسكون والكمال نوع سكون في الحركة، أي هو كامل ومكمّل غيره، فعلىٰ هذا المعنىٰ يجوز علىٰ مقتضىٰ مذهبهم إضافة الحركة والسكون إلىٰ الباري تعالىٰ.

ومن العجب أنَّ هذا الاختلاف قد وُجِدَ في بعض أرباب الملل حتَّىٰ صار بعضهم إلىٰ أنَّه مستقرّ في مكان، ومستو علىٰ مكان، وذلك إشارة إلىٰ السكون، وصار بعضهم إلىٰ أنَّه يجيء ويذهب وينزل ويصعد، وذلك عبارة عن الحركة، إلَّا أن يُحمَل علىٰ معنىٰ صحيح لايقُّ بجناب القدس، حقيق بجلال الحقّ.

وحكىٰ فرفوريوس عنه أنَّه قال: إنَّ أصل الأشياء جسم واحد موضوع الكلّ لا نهاية له، ولم يبيّن ما ذلك الجسم أهو من العناصر أم خارج من ذلك. قال: ومنه يخرج جميع الأجسام والقوىٰ الجسمانية والأنواع والأصناف.

وهو أوَّل من قال بالكمون والظهور، حيث قال: الأشياء كلّها كامنة في الجسم الأوَّل، وإنَّما الوجود ظهورها من ذلك الجسم نوعاً وصنفاً ومقداراً وشكلاً وتكاثفاً وتخلخلاً كما يظهر السنبلة من الحبَّة الواحدة، والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة، والإنسان الكامل الصورة من النطفة المهينة، والطير من البيض، وكلّ ذلك ظهور عن كمون وفعل عن قوَّة وصورة عن استعداد مادّة، وإنَّما الإبداع واحد ولم يكن لشيء آخر سوىٰ ذلك الجسم.

وحكىٰ أرسطاطاليس عنه: إنَّ الجسم الذي يكون منه الأشياء غير قابل للكثرة، قال: وأومأ إلىٰ أنَّ الكثرة جاءت من قِبَل الباري تعالىٰ.

ما أُثر عنه من الحكمة:

في دائرة معارف البستاني: إنَّه سُئِلَ ذات يوم عن أسعد الناس، فقال: إنَّه ليس من الذين تظنّونهم سعداء، ولكن من الذين تظنّونهم تعساء.

وسمع يوماً رجلاً يشكو لموت غريباً، فقال له: ليس في الدنيا مكان إلَّا وبه طريق إلىٰ بطن الأرض.

وأُخبر بموت ابنه فلم يبال بذلك، وقال: إنّي علمت لـمَّا خرج من صلبي أنَّه قابل للفناء، فسار إليه ودفنه بيده.

* * *

(١٧)

فرفوريوس الصوري[1]

من أهل مدينة صور من ساحل الشام، كان بعد زمن جالينوس، وله النباهة في علم الفلسفة والتقدّم في معرفة كلام أرسطوطاليس، وقد فسَّر من كتبه الكثير، وإنَّه لـمَّا صعب علىٰ أهل زمانه معرفة كلام أرسطو شكوا إليه ذلك من الأماكن، وذكروا سبب الخلل الداخل عليهم، ففهم ذلك وقال: كلام الحكيم يحتاج إلىٰ مقدّمة قصر عن فهمها طلبة زماننا لفساد أذهانهم، وشرع في تصنيف كتاب إيساغوجي فأُخِذَ عنه وأُضيف إلىٰ كتب أرسطوطاليس، وجعل أوَّلاً لها، وسار مسير الشمس إلىٰ يومنا هذا.

قال اللاهجي: ويدَّعي أنَّ الذي يُحكىٰ عن أفلاطون من القول بحدوث العالم قول غير صحيح.

وقال في رسالته إلىٰ أيالوا: وأمَّا ما قرَّب به أفلاطون عندكم أنَّه يضع للعالم ابتداءً زمانياً، فدعوىٰ كاذبة، وذلك أنَّ أفلاطون ليس يرىٰ أنَّ للعالم ابتداءً زمانياً، لكن ابتداء علىٰ جهة العلَّة، ويزعم أنَّ له علَّة لكونه، وقد رأىٰ أنَّ المتوهّم عليه في قوله: إنَّ العالم مخلوق أنَّه حدث لا من شيء، وأنَّه خرج من لا نظام إلىٰ نظام قد أخطأ وغلط، وذلك لا

---

(١) إخبار العلماء: ١٦٩؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ١٦٧؛ الملل والنحل ٢: ١٥٥؛ معجم أعلام المورد: ٣٢١.

يصحُّ دائماً أنَّ كلّ عدم أقدم من الوجود فيما علّة وجود شيء آخر عند غيره، ولا كلّ سوء نظام أقدم من النظام، وإنَّما يعني أفلاطون أنَّ الخالق أظهر العالم من العدم إلىٰ الوجود، إن وجد أنَّه لم يكن من ذاته، لكن سبب وجوده من الخالق.

وذكر الشهرستاني في (الملل والنحل) في المسألة الثانية عشر في كيفية تركّب العناصر عن فرفوريوس أنَّه قال: كلّ موجود ففعله مثل طبيعته، فما كانت طبيعته بسيطة ففعله بسيط، ففعل الله تعالىٰ واحد بسيط، وكذلك فعله الاجتلاب إلىٰ الوجود فإنَّه موجود، لكن الجوهر لـمَّا كان وجوده بالحركة كان بقاؤه أيضاً بالحركة، وذلك أنَّه ليس للجوهر أن يكون موجوداً من ذاته بمنزلة الوجود الأوَّل الحقّ، لكن من التشبّه بذلك الأوَّل الحقّ، وكلّ حركة تكون إمَّا مستقيمة أو مستديرة، فالحركة المستقيمة يجب أن تكون متناهية، فالجوهر يتحرَّك في الأقطار الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق علىٰ خطوط مستقيمة حركة متناهي، فيصير بذلك جسماً ويبقىٰ عليه أن يتحرَّك بالاستدارة علىٰ الجهة التي يمكن فيها بالاستدارة حركة بلا نهاية، ولا تسكن في وقت من الأوقات، إلَّا أنَّه ليس يمكن أن يتحرَّك بأجمعه حركة علىٰ الاستدارة، وذلك أنَّ الدائر يحتاج إلىٰ شيء ساكن في وسط منه كالنقطة، فانقسم الجوهر فتحرَّك بعضه علىٰ الاستدارة وهو الفلك، وسكن بعضه في الوسط.

قال: وكلّ جسم يتحرَّك فيماس جسماً ساكناً، وفي طبيعته قبول التأثير منه أحدث سخونة فيه، وإذا سخن لطف وانحلَّ وجفَّ، فكان طبيعة النار تلي الفلك المتحرّك، والجسم الذي يلي النار يبعد عن الفلك ويتحرَّك بحركة النار، لكن جزء منه دون سخونة النار، وهو والجسم الذي يلي الهواء لا يتحرَّك لبعده عن المحرّك له فهو بارد بسكونه،

ورطـب بمجـاورة الهـواء الحـارّ الرطـب، وكـذلك انحـلَّ قلـيلاً، والجسـم الذي في الوسط فلأنَّه بعد في الغايـة عـن الفلـك ولم يسـتفد مـن حركتـه شـيئاً ولا قبل منه تأثيراً، فسكن وبرد وهو الأرض.

وإذا كانـت هـذه الأجسـام تقبـل التـأثير بعضـها مـن بعـض وتختلط، يتولَّد عنها أجسـام مركَّبـة، وهـي المركَّبـات المحسوسـات التـي هـي المعـادن والنبـات والحيـوان والإنسـان، ثـمّ يختصّ بكـلّ نـوع طبيعـة خاصّـة تقبـل فيضاً خاصّاً علىٰ ما قدَّره الباري جلَّت قدرته، انتهىٰ.

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

قال: اجعل نفسك غريباً، وأكرم الغرباء.

وقال: إذا طاب سير سفينتك فاحذر الغرق.

ومن هذا قال من قال:

إذا تـــمَّ شيء دنـــىٰ نقصـــه ... توقَّـــع زوالاً إذا قيـــل تـــمَّ

وقال: من تلبَّس بالدنيا أسرعت إليه في باب الأعداء.

قال اللاهجي: أقول: لعـلَّ مـراده أنَّ الـدنيا لـمَّا كانـت محبوبـة النـاس إلَّا مـن عصـمه الله، وهـي موجـودة عنـد طالبيهـا ومتلبّسـيها، وكـلّ واحـد منهـا رقيـب وعـدوّ لآخـر ومائـل أنَّ مطلوبـه ومعشـوقه لـيس عنـد أحـد غيره، والظاهر أنَّ من مال إليها تردَّد لوجدانها في باب رقبائه وأعاديه.

وقال: عصىٰ الصديق أفضل من كرامة الشرّير.

* * *

(١٨)

الحكيم مهادرجيس[١]

قال الفاضل الشهرزوري في تاريخه: إنَّ مهادرجيس أسمر اللون، أصهب الشعر، طويل اللحية، كبير الأُذنين، عظيم الرأس، صغير العينين، كثير الصمت، حلو المنطق، ناحل الجسم، متأنّياً في كلامه، حسن الثنايا، بيده عصاء علىٰ رأسها صورة هلال، مات وله ثمانون سنة.

من كلماته في الحكمة والأدب:

ومن كلامه: باسم وليّ الحكمة، ومنتهىٰ الإنعام والرحمة، وغاية الطول والإحسان، الواجد بكلّ مكان، الذي جاد بالخير بفضله، وجعل الشكر سبب الزيادة من عطاياه ومواهبه، والكفر تمحيقاً لرزقه ومننه.

وقال: أمران يستصلح به المرء دنياه: أدب يقوّم به نفسه، واجتهاد يحسن به عيشه، وأمران يحتاج له لمعاده: عقل يعرف به حظّه، ونزاهة يقهر بها شَرَحه (شرهه).

وقال: ظهور الهيبة من الولاة دواء يوافق الأشرار والبغاة.

وقال: كرم الحبيب عون علىٰ تثمير الأدب.

وقال: الغنىٰ نزاهة النفس، وملك الهوىٰ.

---

(١) مختار الحكم: ٢٧٩.

وقال: الصمت مع فقد الخطأ في حينه، أفضل من المنطق المصيب في غير أوانه.

وقال: كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل رشدك من غيّك.

وقال: من حسنت نيَّته فقد أحسنت طريقته، ومن لانت كلمته استحقَّ من الجميع محبَّته.

وقال: كم من أدب قد أُهمل لسوء صيانته، وكان ثاقباً جنب صاحبه.

وقال: استصلح نفسك بعملك، واجعل أدبك مرآة تدرك بها من انتشر من أمرك.

وقال: اللطف مسالمة عدوّك، وإن كنت واثقاً بأيدك وقهرك.

وقال: التماس ما لا يدرك عناء ومشقَّة، كذلك تقديم الجاهل توهين للعقل وإتعاب له.

وقال: كما أنَّ الأدب والعلم من السعادة، كذلك الحلم والتواضع جماع البرّ، وسبب لدرك حسن المنزلة.

وقال: السعيد من قمع بالصبر شهوته، ودبَّر بالحزم أمره.

وقال: من ساءت ظنونه تنغَّصت معيشته وعظمت مصيبته.

وقال: جمّاع ما في الدنيا من مكاسب المرء اعتقاد أهل الدين والمروَّة.

* * *

(١٩)

اقليدس المهندس النجّار الصوري[1]

قال البستاني في (دائرة المعارف): اقليدس الرياضي اليوناني المشهور بالهندسة، قيل: وُلِدَ في الإسكندرية، وقيل: في صور، وإنَّ أباه دمشقي الوطن، واسمه نوقراطس، وتوطَّن اقليدس إغريقية قبل الميلاد بثلاثمائة سنة.

وإذ ذاع صيته ووصل إلىٰ بطليموس فيلاذلفوس اجتهد أن يحصِّل عليه في بلاطه، فاستدعاه إليه، فدخل اقليدس الإسكندرية وفتح هناك مدرسة لتعليم الرياضيات فصارت في وقت قصير أوَّل مدرسة في مصر، وكان بطليموس نفسه يحضر ويسمع الدروس، وحصل له بين التلاميذ مقام ممتاز.

ويحكىٰ أنَّ بطليموس استصعب يوماً الدرس وأتعبه الإصغاء إلىٰ الشرح، فقال لاقليدس: أمَا يوجد طريق أسهل من هذه تؤدَي إلىٰ تعلّم الرياضيات؟ فأجابه اقليدس: ليس في الرياضيات طريق ملكية.

وروي أنَّه قال: ليس للملوك طريق إلىٰ الرياضيات مخصوصة.

قال القِفطي في (أخبار الحكماء): اقليدس المهندس النجّار

---

(١) إخبار العلماء: ٤٥؛ الملل والنحل ٢: ١١٤؛ طبقات الأُمم: ٣٦؛ معجم أعلام المورد: ٦٠؛ منن الرحمن ٢: ٨٧؛ دائرة معارف البستاني ٤: ٩١.

الصوري، وهـو ابـن نـوقطرس بـن بـرنيقس، المظهـر للهندسـة، المبرز فيهـا، ويُعـرَف بصـاحب جومطريـا، واسـم كتابـه في الهندسـة باليونـاني الاسطروشيا، ومعناه أُصول الهندسة.

حكيم قـديم العهـد، يونـاني الجـنس، شـامي الـدار، صـوري البلـد، نجّـار الصـناعة، لـه يـد طـولىٰ في علـم الهندسـة، وكتابـه المعـروف بكتـاب الأركـان هـذا اسـمه بـين حكـماء اليونـان، وسـمّاه مـن بعـده الـروم الاستقصّات، وسمّاه الإسـلاميّون الأُصـول، هـو كتـاب جليـل القـدر عظـيم النفع، أصل في هذا النوع، لم يكـن ليونـان قبلـه كتـاب جـامع في هـذا الشـأن، ولا جاء بعده إلَّا من دار حوله وقال قوله.

وقـد عنـىٰ بـه جماعـة مـن ريـاضيّ اليونـان والـروم والإسـلام، فمـن شـارح لـه ومشـكل عليـه ومخـرج لفوائـده، ومـا في القـوم إلَّا مـن سـلَّم إلىٰ فضله وشـهد بغزيـر نبلـه، ولقـد كانـت حكـماء يونـان يكتبـون علىٰ أبـواب مدارسـهم: لا يـدخلنَّ مدرسـتنا مـن لم يكـن مرتاضـاً، يعنـون بـذلك لا يدخلنَّها من لم يقرأ كتاب اقليدس.

قـال يعقـوب بـن إسـحاق الكنـدي في بعـض رسـائله، وكـان كثـير الاطّلاع:

إنَّ بعـض ملـوك اليونـانيين وجـد في خـزائن الكتـب كتـابين منسـوبين إلىٰ أبلونيـوس النجّـار، ذكـر فـيهما صـنعة الأجسـام الخمسـة التـي لا تحـيط كرة بأكثر منها، فطلب مـن يفـكّ لـه الكتـابين، فلـم يجـد في أرض يونـان مـن يعلم ذلك، فسأل القادمين عليـه مـن الأقـاليم فـأخبره بعـض المسـؤولين أنَّـه رأىٰ رجـلاً بصـور اسـمه اقليـدس وصـنعته النجـارة يـتكلَّم في هـذا الفـنّ ويقوم به، فكاتب الملـك ملـك السـاحل يومئـذٍ، وسـيَّر إليـه نسـخة الكتـابين

المقدم ذكرهما، وطلب منه سؤال اقليدس عن فكّهما، ففعل ملك الساحل ذلك وتقدَّم إلىٰ اقليدس به، وكان اقليدس أعلم أهل زمانه بالهندسة، فبسط له أمر الكتابين وشرح له غرض أبلونيوس فيهما، ثمّ وضع له صدراً للوصول إلىٰ معرفة هذه المجسّمات الخمس، فقام من ذلك المقالات الثلاثة عشر المنسوبة إلىٰ اقليدس، ووصله بعد اقليدس من وصله بمقالتين ذكر فيهما ما لم يذكره أبلونيوس من نسب بعض هذه المجسّمات الخمس إلىٰ بعض ورسم بعضها في بعض.

قال البستاني في (دائرة المعارف): وكان اقليدس لطيفاً محتشماً ودوداً، حسن القيام علىٰ عملية، وكان يهتمّ بكلّ من يسعىٰ في تقدّم الرياضيات ويسرّ بنجاحهم كما يسرّ بنجاح نفسه.

وألَّف في هذا العلم عدَّة تآليف قد فُقِدَ أكثرها، ومن أشهرها كتابه المعروف بأُصول اقليدس أو باقليدس أو كتاب اقليدس وهو مقسوم إلىٰ (١٥) كتاباً علىٰ انسكلوبيذيا للفنون الرياضية، ومع أنَّه أُلِّفَ منذ (٢٣) قرناً لم يزل إلىٰ الآن يعتبر دستوراً لتلك الفنون، والقسم المختصّ منه بالهندسة باقٍ إلىٰ الآن أساساً للتعليم والتآليف الهندسية، ولا يُعتمد علىٰ غيره في كلّ مدارس انكلترا الكلّيّة لما في براهينه من الدقَّة والنسق والارتباط.

ولم يكن قبل اقليدس في الهندسة إلَّا رسائل متفرّقة في أبواب الهندسة المختلفة، فجمعها كلّها في كتاب واحد وصحَّح براهينها لتسهيل صعوبات العلم لتلاميذه، وزاد عليها علىٰ أحسن أُسلوب وأدمج انسجام، ووضعها في أحكم نظام، حتَّىٰ أنَّ علماء الأعصر المتأخّرة لم يكادوا يغيّرون شيئاً من هذا النسق المرتَّب ترتيباً بديعاً.

وقد شرحه ثيون وبروكلوس، ثمّ العرب في شروح كثيرة أحسنها الشرح المنسوب إلىٰ العلَّامة نصير الدين الطوسي.

ما أُثر عنه من الحكم والآداب:

قال الشهرستاني في (الملل والنحل): قد وجدنا له حكماً متفرّقة فأوردناها علىٰ سوق مرامنا وطرد كلامنا، فمن ذلك قوله: الخطّ هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية.

قال اللاهجي في تعريف هذه العبارة: لعلَّ مراده من هذا أنَّ مبدأ فعل الإنسان إرادة يظهر أثرها أوَّلاً في القلب، فيُرىٰ منه أثر بواسطة روح الحيواني، ويتصاعد إلىٰ الدماغ، ثمّ يُرىٰ منه أثر إلىٰ الأعصاب الخارجة من الدماغ، ومن الأعصاب إلىٰ الأوتار والرباطات المتعلّقة بالعضد فتنجذب به الأوتار فيتحرَّك به الإصبع، فيتحرَّك بالإصبع القلم، وبالقلم المداد مثلاً، وتحدث منه صورة ما تريد كتابته علىٰ وجه القرطاس علىٰ الوجه المتصوَّر في خزانة التخيّل، فإنَّه ما لم يتصوَّر في خياله صورة المكتوب أوَّلاً لا يمكن إحداثه علىٰ البياض ثانياً، فظهر سرّ ما قال الحكيم في توصيف الخطّ.

قال الحكيم: وقد قال له رجل يهدّده: إنّي لا آلو جهداً في أن أفقدك حياتك، قال اقليدس: وأنا لا آلو جهداً في أن أفقدك غضبك.

وقال: كلّ أمر تصرَّفنا فيه وكانت النفس الناطقة هي المقدرة له فهو داخل في الأفعال الإنسانية، وما لم تقدره النفس الناطقة فهو داخل في الأفعال البهيمية.

وقال: من أراد أن يكون محبوبه محبوبك وافقك علىٰ ما تحبّك، فإذا اتَّفقتما علىٰ محبوب واحد صرتما إلىٰ الاتّفاق.

وقال: افزع إلىٰ ما يشبه الرأي العامّ التدبيري العقلي، واتَّهم ما سواه.

وقال: ما استطيع علىٰ خلعه، ولم يضطرّ إلىٰ لزومه المرء، فلِمَ الإقامة علىٰ مكروهه؟

وقال: الأُمور جنسان: أحدهما يُستطاع خلعه والمصير إلىٰ غيره، والآخر توجيه الضرورة فلا يستطاع الانتقال عنه، والاغتمام والأسف علىٰ كلّ واحد منهما غير سائغ في الرأي.

وقال: إن كانت الكائنات من المضطرّة فما الاهتمام بالمضطرّ إذ لا بدَّ منه، وإن كانت غير مضطرّة فلِمَ الهمّ فيما يجوز الانتقال عنه؟

وقال: الصواب إذا كان (كلّيّاً) عامّياً كان أفضل؛ لأنَّ الخاصّ يقع بالتجرّي وتلقاء أمرٍ مّا.

وقال: العمل علىٰ الإنصاف ترك الإقامة علىٰ المكروه.

وقال: إذا يضطرّك علىٰ الإقامة شيء فإن أقمت رجعت باللائمة عليك.

وقال: الحزم هو العمل علىٰ أن لا تثق بالأُمور التي في الإمكان عسيرها ويسيرها.

وقال: كلّ فائت وجدت في الأُمور منه عوضاً، وأمكنك اكتساب مثله فما الأسف علىٰ فوته، وإن لم يكن منه عوض ولا يصادف له مثل فما الأسف علىٰ ما لا سبيل إلىٰ مثله ولا إمكان في دفعه.

وقال: لـمَّا علم العاقل أنَّه لا ثقة بشيء من أمر الدنيا ألقىٰ منها ما منه بدّ، واقتصر علىٰ ما لا بدَّ منه، وعمل بما يوثق به بأبلغ ما قدر عليه.

وقال: إذا كان الأمر ممكناً فيه التصرّف فوقع بحال ما تحبّ فأعدّه ربحاً، وإن وقع بحال ما تكره فلا تحزن، فإنَّك قد عملت فيه علىٰ غير ثقة بوقوعه علىٰ ما تحبّ.

وقال: لم أرَ أحداً إلَّا ذامَّاً للدنيا وأُمورها، إذ هي علىٰ ما هي من التغيّر والتنكّر، فالمستكثر منها يلحقه أن يكون أشدّ اتّصالاً بما يذمّ وإنَّما يذمّ الإنسان ما يكره، والمستقلّ منها مستقلّ ممَّا يكره، وإذا استقلَّ ممَّا يكره كان ذلك أقرب إلىٰ ما يحبّ.

وقال: أسوء الناس حالاً من لا يثق بأحد لسوء ظنّه، ولا يثق به أحد لسوء فعله.

وقال: الجشع بين شرّين: الإعدام يخرجه إلىٰ التسفّه، والجدة تخرجه إلىٰ الشرّ.

وقال: لا تعِن أخاك علىٰ أخيك في خصومة فإنَّهما يصطلحان علىٰ قليل، وتكتسب المذمَّة.

وقال: الحظّ عند الفقير مال، وعند الغنيّ جمال، وعند الأكابر كمال.

* * *

(٢٠)

الحكيم بطلميوس[1]

ذكر فريد وجدي في دائرة المعارف (ج ٢/ ص ٢٣٨/ ط ٢): إنَّه من أشهر الفلكيين الأقدمين يوناني الأصل، ولد بمصر في القرن الثاني بعد الميلاد، وهو واضع النظرية التي مؤدّاها: أنَّ الأرض مركز العالم والشمس وجميع الأجرام دائرة حولها.

فراجت هذه النظرية في العقول حتَّىٰ ظهر الفلكي البولوني كوبرنيك الشهير، فبيَّن فساد نظرية بطلميوس، وقرَّر أنَّ الشمس مركز مجموعة قائمة بذاتها ويدور حولها كواكب كثيرة، منها الكرة الأرضية، فاعتمد العلماء هذه النظرية لقربها إلىٰ المعقول ولأنَّها تحلّ نظريات كثيرة.

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ٦٧): بطلميوس القلوذي هو صاحب كتاب المجسطي وغيره، إمام في الرياضة، كامل فاضل من علماء يونان، كان في أيّام أندرياسيوس، وفي أيّام أنطميوس من ملوك الروم وبعد أبرخس بمائتين وثمانين سنة.

وإليه انتهىٰ علم حركات النجوم، ومعرفة أسرار الفلك، وعنده اجتمع ما كان متفرّقاً من هذه الصناعة بأيدي اليونانيين والروم وغيرهم

---

(١) إخبار العلماء: ٦٧؛ الملل والنحل ٢: ١١٦؛ مختار الحكم: ٢٥١؛ طبقات الأمم: ٣٨؛ معجم أعلام المورد: ١٠٧؛ منن الرحمن ٢: ٨٥.

من ساكني أهل الشقّ المغربي من الأرض، وبه انتظم شتيتها وتجلّىٰ غامضها، وما أعلم أحداً بعده تعرَّض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمجسطي، ولا تعاطىٰ معارضته بل تناوله بعضهم بالشرح والتبيين، وبعضهم بالاختصار والتقريب.

وفي كتاب منن الرحمن تأليف الشيخ نقدي (ج ٢/ ص ٨٥): قيل: إنَّه أوَّل من أخرج علم الهندسة من القوَّة إلىٰ الفعل، وأوَّل من شرح القول علىٰ هيئات الفلك، وهو صاحب كتاب المجسطي الكبير والجغرافيا والإسطرلاب وكتاب اللحون الثمانية، وهو الذي صوَّر الكرة. ويقال: إنّه ثالث ملوك اليونان بعد الإسكندر، وقيل: إنَّه كان بعد ملوك اليونان في زمن أنطيسوس الرومي، والله أعلم.

وذكر اللاهجي في كتاب محبوب القلوب (ص ١٥٥) قول بعض الشعراء في وصف كتاب المجسطي:

كتاب كتاب للسماء ولم يكن ... ليدخله إلَّا ذووا الحسّ والفهم

نعم سُلَّمٌ أشكاله درج لها ... بها يصعد المرء الذكيّ إلىٰ النجم

هو النجم لكنَّ الدراري درّه ... فناهيك من درٍّ ويا لك من نجم

فبعد كتاب الله لم يُرَ مثله ... بذا قائماً بالقسم شهدا أولوا العلم

قال اللاهجي: وله مؤلَّفات نافعة أُخرىٰ سوىٰ المجسطي، كالأربع مقالات في تقدمة المعرفة، يعني أحكام النجوم، وكتاب الثمرة أَلَّفه في الأحكام أيضاً لتلميذه سورس، وقال في مطلعه: قد قدَّمنا لك يا سورس كتباً فيما تؤثّره الكواكب في عالم التركيب، كثيرة المنفعة في تقدمة، وهذا الكتاب ثمرة ما اشتملت عليه تلك الكتب وما خلص عن التجربة منها.

وكان بطلميوس معتدل القامة، أبيض اللون، لطيف القدم، علىٰ خدّه الأيسر شامة حمراء، كثّ اللحية أسودها، مفلَّج الثنايا، صغير الفم، حسن اللفظ، حلو المنطق، شديد الغضب، بطيء الرضا، كثير السير والركوب، قليل الأكل، كثير الصيام، طيّب الرائحة، لطيف الثياب، مات وله ثماني وسبعون سنة.

ما أُثر عنه من الحكم و الآداب:

قال الشهرستاني في (الملل والنحل): حكم بطلميوس: وهو صاحب المجسطِي الذي تكلَّم في هيأة الفلك، وأخرج علم الهندسة من القوَّة إلىٰ الفعل، فمن حكمه أنَّه قال:

ما أحسن بالإنسان أن يصبر عمَّا يشتهي، وأحسن منه أن لا يشتهي ما لا ينبغي.

وقال: الحكيم الرحيم الذي إذا قُذِفَ صبر، لا الذي إذا قُذِفَ كظم.

وقال: لمن يغنىٰ عن الناس ولا يسأل أشبه بالملك ممَّن يستغني بغيره ويسأل.

وقال: لأن يستغني الإنسان عن الملك أكرم له من أن يستغني به.

وقال: موضع الحكمة من قلوب الجهّال كموقع الذهب من ظهر الحمار.

وسمع جماعة من أصحابه وهم حول سرادقه يقعون فيه ويثلبونه، فهزَّ رمحاً كان بين يديه ليعلموا أنَّه يسمع منهم، وأن يتباعدوا عنه قيد رمح ثمّ يقولوا ما أحبّوا.

وقال: العلم في مواطنه كالذهب في معدنه، لا يستنبط إلَّا بالدؤوب والتعب والكد والنصب، ثمّ يجب تخليصه بالفكر كما يخلص الذهب بالنار.

وقـال: دلالـة القمـر في الأيّـام أقـوىٰ، ودلالـة الشـمس والزهـرة في الشهور أقوىٰ، ودلالة المشتري وزحل في السنين أقوىٰ.

وقال: نحن كائنون في الزمن الذي يأتي بعد، وهذا زمن منه إلىٰ المعـاد، إذ الكون والوجود الحقيقي ذلك الكون والوجود في ذلك العالم. انتهىٰ.

وفي كتـاب (محبـوب القلـوب): ومـن حكمـه قـال: نعمـة الجهّـال كرياض المزابل.

وقال: الأمن يُذهِب وحشة الوحدة، والخوف يُذهِب أُنس الجماعة.

وقـال: كـما أنَّ البـدن إذا سـقم لم ينفعـه الطعـام ولا الشـراب، كـذلك القلب إذا غفله حبّ الدنيا لم تنفعه المواعظ.

وقال: أعظم الناس قدراً من لم يبال في يد من كانت الدنيا.

وقال: الناس اثنان: بالغ لا يكتفي، وطالب لا يجد.

قال اللاهجـي: لعـلَّ غرضـه أنَّ البـالغ والطالـب سـيّان في الاحتيـاج، أمَّـا احتيـاج الطالـب فظـاهر، وأمَّـا احتيـاج البـالغ فبسـبب الحـرص أيضـاً كأنَّـه محتـاج، فـإنَّ الحـريص كالمستسـقي الـذي كلَّـما شرب المـاء احتـاج إلىٰ شرب آخر، بل احتياج البالغ أشدّ وأقبح من احتياج الطالب.

وبهذا نبَّه مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في الشعر المنسوب إليه:

الـنفس تجـزع أن تكـون فقـيرة	والفقـر خـير مـن غنـىٰ يطغيهـا
وغنىٰ النفـوس هـو الكفـاف وإن	فجميـع مـا في الأرض لا يكفيهـا

وقال الحكيم: الحاسد يرىٰ زوال نعمة غيره نعمة عليه.

وقال: من زاد أدبه علىٰ عقله كان كالراعي الضعيف من كثرة الغنم.

وقال: عبد الشهوات أذلّ من عبد الرقّ.

وقال: الشفيع جناح الطالب.

وقال: النفس الجاهلة أعدىٰ عدوّ أصحابها.

وقال: النيَّة أساس العمل، والعمل سفير الآخرة.

قال اللاهجي: مراد الحكيم أنَّ النيَّة هي المقصودة بالذات من الأعمال، كما أنَّ المقصود من الأبدان الأرواح، فالنيَّة روح العمل، كما أنَّ الإخلاص روح النيَّة، والمعنىٰ روح اللفظ، والأعمال شُرِّعت لغرض النيَّة، وصيرورتها شجرة مغروسة في أرض القلب، وملكة راسخة لجوهر النفس، فالأصل الأصيل والركن الوثيق في اكتساب السعادة والشقاوة الأُخروية صحَّة النيَّة وفسادها، ومن هنا ورد في الحديث مرفوعاً عن سيّدنا رسول الله ﷺ عن مولانا أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يحشر الناس علىٰ نيّاتهم يوم القيامة»[1].

ومراده بأنَّ العمل سفير الآخرة، أنَّ التوجّه والإقبال والحضور المعنوي بدون الأعمال الصورية الظاهرية بالقوىٰ البدنية غير كافٍ ولا يُخرِج من عهدة التكليف؛ لأنَّ للطاعات والملكات البدنية تأثيراً بالتنوير في النفس، كما للمعاصي تأثير بالقسوة والظلمة، وبأنوار الطاعة تستحكم مناسبة النفس لاستعدادها لقبول المعارف الإلهية ومشاهدة حضرة الربوبية، كما بالقسوة والظلمة تستعدّ للبعد والحجاب عن مشاهدة الجمال الإلهي، فالطاعة مولدة للذَّة المشاهدة والقرب بواسطة الصفاء والنور الذي يحدث في النفس فهو السفير والمصلح لأُمور الآخرة والخاتمة.

وقال الحكيم بطلميوس: ينبغي للعاقل أن يستحي من ربّه إذا اتَّصلت فكرته في غير طاعته.

---

(١) الكافي ٥: ٢٠/ باب الغزو مع الناس إذا خيف علىٰ الإسلام/ ح ١.

وقال: العاقل من عقل لسانه إلَّا عن ذكر الله تعالىٰ، والجاهل من جهل قدر نفسه.

وقال: رضىٰ المرء عن نفسه مقترن بسخط الله ﷻ.

وقال: فرحك بما لم تنطق به من الخطأ أكثر من فرحك بما نطقت به من الصواب.

وقال: إذا غضبت فلا تمدّ غضبك إلىٰ الإثم، واعف إذا لم يكن ترك الانتقام عجزاً.

وقال: قلوب الأخيار حصون الأسرار.

وقال: أيدي العقول تمسك أعنَّة النفوس.

وقال: الكاتم للعلم غير واثق بالإصابة فيه.

وقال: من قبل عطاءك فقد أعانك علىٰ البرّ والفضل، ولولا من يقبل الجود لم يكن من يجود.

وقال: النفس أغلب عدوّك.

وقال: ينبغي للعاقل أن لا يختار صحبة ملك، وإن اختار ذلك فعليه أن يعظه بما فيه صلاح ملكه ورعيَّته بحيث لا يلحق الملك عيب.

وقال: الأموات أولاد الأمراض، والأمراض أولاد الأخلاط، والأخلاط أولاد الأمزجة، والأمزجة أولاد النباتات، والنباتات أولاد الأرض، وكلّ شيء يرجع إلىٰ أصله.

ومن كلامه: إنَّ لله جلَّ شأنه في السرّاء نعمة الإفضال، وفي الضرّاء نعمة التمحيص والثواب.

* * *

(٢١)

ديوجانس الكلبي[١]

قال ديوجانس الحكيم: ليس من كفَّ عن الشرّ بمرء، ولكن من عمل الخير.

ورأىٰ شابّاً قبيح الوجه سيّئ الأدب، فقال له: جمعت فضائل نفسك بمحاسن وجهك.

وسُئِلَ عن وقت الأكل، فقال: لمن يمكنه إذا جاع، ولمن لا يمكنه إذا وجد.

وسُئِلَ عن الأصدقاء، فقال: نفس واحدة في أجساد متفرّقة.

ورأىٰ رجلاً يخطب امرأة فقال: راحة قليلة تجلب تعباً كثيراً وكثيراً.

وقيل له: إنَّ الملك لا يحبّك، فقال: نعم لأنَّه لا يحبّ من هو أكبر منه.

ورأىٰ رجلاً يدعو ويسأل الله أن يرزقه الحكمة، فقال: لو اجتهدت في التعلّم لرزقتها.

ودخل عليه الإسكندر وهو نائم فضربه برجله، وقال له: قم فقد فتحنا مدينتك، فقال له: إنَّ فتح المدن لا يُنكَر للملوك، ولكن الضرب بالرجل من صنيع الحمير.

---

(١) إخبار العلماء: ١٢٥؛ الملل والنحل ٢: ١٤١؛ مختار الحكم: ٧٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤٥٨؛ معجم أعلام المورد: ١٩٨؛ دائرة معارف البستاني ٨: ٢٦٠.

وكان في زمانه رجل يصوِّر فترك التصوير وصار طبيباً، فقال له: أحسنت إنَّك لـمَّا رأيت خطأ التصوير ظاهراً للعين، وخطأ الطبّ يواريه التراب تركت التصوير ودخلت في الطبّ.

ورأىٰ رجلاً شرّيراً حسن الوجه، فقال: نعم البيت وبئس الساكن.

ورأىٰ حدثاً لا أدب له وهو جالس علىٰ حجر، فقال: حجر علىٰ حجر.

وسُئِلَ عن العشق، فقال: ميل نفس فارغة لا همَّة لها.

ورأىٰ عجوزاً تزيَّنت، فقال: إن كنت تهيَّأت للأحياء فأنت مخادعة، وإن كنت تهيَّأت للأموات فبادري.

وعوتب علىٰ ترك النساء، فقال: وجدت مكائد العانة أيسر عليَّ من الاحتيال لمصلحة العيال.

ومرَّ به الإسكندر فوجده جالساً في مشرق فوقف عليه وقال له: سل حاجتك، فقال: حاجتي إليك التنحّي عنّي حتَّىٰ تقع عليَّ الشمس.

وقيل له: لِـمَ سُمّيت بالكلب؟ فقال: لأنّي أُبصبص للأخيار، وأهرُّ علىٰ الأشرار.

ووقف الإسكندر عليه يوماً فلم يلتفت إليه، فقال: يا ديوجانس ما هذا التهاون بي، أُترك الإعراض عنّي وسلني حاجتك، فقال: وأيُّ حاجة تكون لي إلىٰ عبد عبدي، فقال له الإسكندر: ومن عبد عبدك؟ قال: أنت، قال: وكيف ذلك؟ فقال له: لأنّي ملكت الشهوة فقهرتها واستعبدتها، وملكتك الشهوة فقهرتك واستعبدتك، فأنت عبد لمن استعبدته أنا.

قال البستاني في (دائرة المعارف): ومن نوادر ديوجانس التي تستحقّ الذكر لما فيها من التعقّل والزهد ونحو ذلك:

أنَّه كان في زمن الصيف إذا احتدم القيظ يأتي الرمل ويتدحرج عليه، وفي أيام الشتاء إذا اشتدَّ الزمهرير أتىٰ الرخام المغطّىٰ بالثلج وتدحرج عليه، زعماً منه أنَّه يريد تعويد بدنه علىٰ المشقّات.

وكان يحتقر أصحاب الثروة، ويُسمّي الخطباء عبيد الرعايا، وينسب أفلاطون وتلاميذه إلىٰ حبّ التبذير، وكان يقول: تيجان الملوك سريعة العطب كالزجاج، وحبّ الظهور ليس إلَّا فخر المجانين، وكان يقول: متىٰ تأمَّلت حقيقة الحكّام والحكماء والفلاسفة الذين في الدنيا اعتقدت أنَّ الإنسان بعقله يفوق البهائم، ولكن إذا رأيت من يدَّعي الوحي والعرافة وتعبير الرؤيا، ومن إذا حصَّلوا مالاً وجاهاً تكبَّروا وشَخَوا اعتقدت أنَّهم أشدُّ الحيوانات جنوناً.

ورأىٰ ذات يوم ولداً يأخذ الماء براحتيه ويشرب، فرمىٰ القدح الخشبي الذي كان يحمله وقال: كيف تكون الأولاد أحكم منّي بالأُمور.

وكان يمدح من تهيَّأ للزواج ولم يتزوَّج، ويقول: إذا تزوَّج الإنسان شابّاً فقد بكَّر، وإذا تزوَّج كهلاً فقد أبطأ.

وكان يوماً يتكلَّم في أُمور مفيدة جوهرية فلم يلتفت أحد إلىٰ كلامه، فجعل يغنّي وإذا بالناس ازدحمت عليه، فأخذ يوبّخهم لاجتماعهم علىٰ الهزل وفرارهم من الجدّ.

وكان يلوم الموسيقيين لاهتمامهم في أُمور الإيقاع وتركهم تنظيم عقولهم، ويلوم أرباب الهيأة لاجتهادهم في رصد الكواكب وهم يجهلون ما تحت أرجلهم، ويلوم الخطباء لقولهم أشياء لا يعملون بموجبها، ويلوم البخلاء لتظاهرهم بالزهد والقناعة واعتكافهم في الباطن علىٰ

جمع المال، ويعنِّف الذين يتعبَّدون في الهياكل ويقرِّبون القرابين فإذا خرجوا انهمكوا في الولائم والملاهي والشهوات البدنية.

وكان يقول: طالما رأيت الناس يتسابقون في ميدان المزاح، ولم أرَ منهم من ينافس في الفضائل.

وذهب مرَّة مع رجل للتفرّج علىٰ قصر عظيم مزخرف بنقوش الذهب والمرمر، فبعد أن تأمَّله ورأىٰ كلّ ما فيه حسناً نظيفاً تنَخَّم وتفل في وجه الرجل، وقال: المعذرة لأنّي لم أجد هنا موضعاً وسخاً إلَّا وجهك.

وعيَّره بعض السفلة بالفقر، فقال: لم أرَ أحداً يُعَيَّر علىٰ فقره، لكن رأيت كثيرين يعاقبون علىٰ رذائلهم.

وكان يقول: أنفع الأشياء أقلّها ثمناً، فكم رأيت صورة تساوي أُلوفاً من الدراهم، ومدّ القمح يباع باليسير.

وأدخل يوماً علىٰ فيلبس المكدوني، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جاسوس طمعك، فتعجَّب من حسن جوابه وخلّىٰ سبيله.

وكان يقول: لا يحتاج الحكماء إلىٰ شيء وكلّ شيء في قبضة يدهم؛ لأنَّ كلّ شيء للخالق والحكماء أحبّاؤه.

ويحكىٰ أنَّ إسكندر سمع بديوجانس فأراد مقابلته، وسار إلىٰ قرنقية لأنَّه كان بها، فرآه جالساً في الشمس بقرب برميلة، فقال له: أنا إسكندر، فقال: وأنا الكلب ديوجانس، قال: أمَا تهابني، قال: أنت صالح أو شرير؟ قال: صالح.

قال: أوَأُهاب الصالح؟ فعجب إسكندر من ذلالة لسانه، ثمّ قال له: سلني حاجتك، قال: تحوَّل من هذه الجهة فقد حلت بيني وبين الشمس، فزاد تعجّب إسكندر.

ثمّ قال ديوجانس: أيّنا أغنىٰ أصحاب العباءة والخرج أو الذي لم يقنع بعظم سلطانه وسعة مملكته بل اقتحم الأخطار لزيادة حدودها، واشتغل الليل والنهار في إصلاح شؤونها، فتعجّب خواصّ إسكندر من احترامه لهذا الرجل الدنيّ مع قحّته وجرأته عليه، وشعر إسكندر بذلك فالتفت إليهم، وقال: لو لم أكن إسكندر لاشتهيت أن أكون ديوجانس.

واتّفق مرّة أنّه ركب البحر فأسره القرصان في من أُسروا وساقوه إلىٰ كريت وعرضوه للبيع فرأىٰ رجلاً غليظ الجثّة حسن الملبس اسمه يزناذس فقال: بيعوني لهذا الرجل لأنّي أراه يحتاج إلىٰ مؤدّب، فعرضوه عليه فقال له ديوجانس: تقدّم أيّها الولد واشتر لك رجلاً يؤدّبك، فسأل: ماذا تعرف؟ قال: سياسة الرجال، ثمّ قال للدلّال: ناد في السوق من كان محتاجاً إلىٰ مؤدّب فليأتِ لشرائي، ثمّ اشتراه زيناذس.

فقال له ديوجانس: نعم إنّي صرت عبدك لكن يجب أن تطيعني في كلّ ما آمرك به لكي تفلح أُمورك، فجعله زيناذس معلّماً لأولاده، فاعتنىٰ بهم غاية الاعتناء وعلّمهم الشعر والحكمة والصراع والسباق والصيد ورمي السهام والمقلاع، وعوّدهم القناعة ولبس الخشن وأمرهم بحلق رؤوسهم، فكانوا يحبّونه جدّاً.

وسأله رجل: أيُّ وقت أنسب لأن آكل فيه؟ فقال: إن كنت غنياً فكُلْ حينما تشاء، وإن كنت فقيراً فكُلْ حينما تقدر.

وكان من عادته أن يعطّر أقدامه، فقيل له: كيف تخالف الناس فإنَّ العادة تعطير الرأس، قال: إنَّ العطر في الرأس يطير في الهواء فلا يشمّ صاحبه رائحته، وأمّا في الأقدام فيصعد إلىٰ الأنف ولا يذهب سدىٰ.

وكان إذا سمع أحداً يتكلَّم في علم الهيأة والنجوم يقول له: متىٰ نزلت من السماء؟

قيل: إنَّ أفلاطون حدَّ الإنسان بأنَّه حيوان ذو رجلين لا ريش له، فأخذ ديوجانس ديكاً ونتفه وطرحه أمام جماعة أفلاطون قائلاً: هذا إنسان، فزاد أفلاطون علىٰ الحدّ إنَّه عريض الأظفار.

ورأىٰ يوماً محفَّةً جميلة فيها امرأة، فقال: أيليق أن يكون هذا القفص المليح لمثل هذا الحيوان القبيح.

وكان بعض العظماء يتحيَّل علىٰ مجيء ديوجانس إلىٰ وليمته، فقال له: آكل كسر الخبز في أثينا أحبُّ إليَّ من قصورك.

ورأىٰ مرَّة قضاة يحكمون علىٰ رجل سرق إناء من الخزينة العمومية، فقال: هؤلاء لصوص كبار يحكمون علىٰ لصّ صغير.

ومن كلامه: الشهوات منبع المصائب، والعلماء مظهر الآلهة، والبطن آفة العمر، والعشق شغل أهل البطالة، وأسوأ الحالات الهرم مع الفقر، والحرّية أحسن ما في الدنيا، وأشدُّ الحيوانات عضّاً السأب والمداهن، وصفرة الذهب كثرة حسّاده، واحمرار الخجل لون الفضيلة.

وسُئِلَ عن سبب تصدّق الناس علىٰ العميان والعرج دون الفلاسفة؟ فقال: لأنَّهم قد يصيرون عمياناً وعرجاً وأمَّا فلاسفة فلا.

وقال له رجل: متىٰ متَّ فمن يدفنك؟ قال: الذي يحتاج إلىٰ بيتي.

وقال له رجل: أنت كنت تعمل النقود الزائفة، قال: أنا كنت كما أنت الآن، وأمَّا ما أنا عليه الآن فلا تحصل عليه طول عمرك.

ورأىٰ رجلاً مسرفاً فقال له: أعطني ديناراً، فقال الرجل: لِمَ تطلب من غيري درهماً ومنّي ديناراً؟ قال: لأنّي آمل من غيرك أن آخذ مرَّة أُخرىٰ، وأمَّا أنت فأخاف أن لا يبقىٰ عندك حتَّىٰ تعطيني.

وسُئِلَ يوماً: لما لقَّبك الناس بالكلب؟ فقال: لأنّي أتملَّق من يعطيني، وأنبح من يمنعني، وأعضّ من يؤذيني.

وعوتب علىٰ الأكل في الطرق والشوارع، فقال: كما يدركني الجوع في البيت يدركني في السوق، فحيثما أدركني أكلت.

واجتمع عليه جماعة وهو يأكل وصاروا يقولون: هذا ديوجانس الكلب، فقال: بل أنتم الكلاب لأنَّكم اجتمعتم علىٰ من يأكل.

وقيل له: ماذا ربحت من الفلسفة؟ قال: التجلّد علىٰ شرور الناس.

وأتوه يوماً بشاب ليعلِّمه، وصاروا يطنبون في حذقه ومعارفه وآدابه، فقال لهم: ولماذا جئتم به إليَّ وهو بهذا الكمال؟

وكان يقول: الذين يعلِّمون الصلاح ولا يعملون به أشبه بآلات الموسيقي تخرج أحسن الأنغام ولا شعور لها.

وقيل له: إذا متَّ فأنّىٰ تريد أن ندفنك؟ قال: اطرحوني في الفلاة، قالوا: ألَا تخشىٰ أن تكون طعاماً للسباع؟ قال: ضعوا عندي عصا لأطردها إذا جاءت، قالوا: وكيف تقدر علىٰ ذلك وأنت ميّت، قال: فإذن كيف أخشىٰ أن تأكلني وأنا لا أشعر؟

وفي كشكول الشيخ البهائي ﵀: عيَّرت امرأة ديوجانس الحكيم بقبح المنظر، فقال لها: يا هذه، إنَّ منظر الرجال بعد المخبَر، ومخبَر النساء بعد المنظر، فخجلت.

ورأىٰ امرأة قد حملها السيل، فقال لأصحابه: هذا موضع المثل دع الشرّ يغسله الشرّ.

ورأىٰ امرأة تحمل ناراً، فقال: الحامل أشرُّ من المحمول.

ورأىٰ امرأة قد خرجت متزيّنة يوم عيد، فقال: هذه خرجت لِتُريَ لا لِترَىٰ.

ورأىٰ جارية تُعلَّم الكتابة، فقال: هذا سُمٌّ يسقي سُمَّاً.

وقيل له: هل لك بيت تستريح فيه؟ فقال: إنَّما يحتاج إلىٰ البيت ليستراح فيه، وحيث ما استحرت فهو بيت لي.

ورأىٰ رجلاً أكولاً سميناً، فقال له: يا هذا، إنَّ عليك ثوباً من نسج أضراسك.

ومرَّ يوماً بشرطي يضرب لصَّاً، فقال: أُنظروا إلىٰ لصِّ العلانية يؤدِّب لصَّ السرِّ.

وكان ديوجانس من أساطين حكماء اليونان، وكان متقشّفاً زاهداً، لا يقتني شيئاً ولا يأوي إلىٰ منزل.

دعاه الإسكندر إلىٰ مجلسه، فقال للرسول: قل له: إنَّ الذي منعك من المسير إلينا هو الذي منعنا من المسير إليك، منعك استغناؤك عنّا بسلطانك، ومنعني استغنائي عنك بقناعتي.

وله مثل هذه النوادر والحكم الشيء الكثير، ونكتفي بهذا القدر عمَّن سواه، ومات وهو ابن (٩٠) سنة.

* * *

(٢٢)

الحكيم بوزرجمهر

ذكر ابن أبي اصيبعة في عيون الأنباء (ج ٢/ ص ٣٤١): قيل: إنَّه كان عالماً بصناعة الطبّ موسوماً بها، متميّزاً في زمانه، فاضلاً في علوم الفرس والهند، وإنَّه هو الذي جلب كتاب كليلة ودمنة من الهند إلىٰ أنوشيروان بن قياذ بن فيروز ملك الفرس، وترجمه له من اللغة الهندية إلىٰ الفارسية.

وهذا الكتاب قد عظمت شهرته أنَّه في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس لا نظير له في معناه.

وكان محفوظاً في خزائن ملوك الهند يحرصون عليه حرصهم علىٰ أثمن الكنوز، لا يسمحون لسواهم بالاطّلاع عليه، حتَّىٰ القرن السادس للميلاد، لـمَّا أفضىٰ عرش فارس إلىٰ كسرىٰ أنوشيروان، وكان محبَّاً لأسباب الإصلاح، فأخذ في نقل العلم والأدب، فبلغه خبر هذا الكتاب فاستشار خاصَّته في رجل يبعث به لهذه المهمَّة، يكون عارفاً باللسانين السنسكريتي والفارسي مع علم وفلسفة، فاختاروا له طبيباً فيلسوفاً اسمه بوزرجمهر ابن أزهر، فأسرَّ إليه أمر الكتاب وحرَّضه علىٰ نقله ونقل ما يتيسَّر من علوم الهندي التي ليس في اللغة الفارسية شيء منها، وأمدَّه بما يحتاج إليه في سبيل ذلك الغرض، فسافر برزويه بعشرين جراباً من المال كلّ جراب فيه عشرة آلاف دينار، حتَّىٰ قدم بلاد الهند، فجعل

يجالس الحكماء ويسأل خواصّ الملك وجلساءه من العلماء والفلاسفة، ويوهمهم أنَّه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلم والأدب وأنَّه محتاج إلىٰ معرفتهم، ولم يزل كذلك وهو يبحث سرَّاً عن مكان ذلك الكتاب في خبر طويل استخدم فيه دهاءه ودرايته، حتَّىٰ ظفر بالكتاب ونقله من اللسان الهند السنسكريتي إلىٰ اللسان الفارسي، وهو يومئذٍ الفهلوي، ونقل غيره من كتب العلم وعاد إلىٰ أنوشيروان فأجازه بالأموال وألبسه التاج، وأجلسه علىٰ سريره تشريفاً له وزيادةً في إجلاله.

وفي سنة (١٤٠٣هـ) قرأت في كشكول الشيخ البهائي رحمه الله (ج ١/ ص ٤): من حكم بوزرجمهر، قال:

عاداني الأعداء، فلم أرَ عدوَّاً أعدىٰ إليَّ من نفسي.

وعالجت الشجعان والسباع فلم يغلبني أحد كصاحب سوء.

أكلت الطيّب وضاجعت الحسان، فلم أرَ ألذّ من العافية.

أكلت الصبر وشربت المرّ، فما رأيت أشدّ من الفقر.

صارعت الأقران وبارزت الشجعان، فلم أرَ أغلب من المرأة السليطة.

رميت بالسهام ورجمت بالأحجار، فلم أجد أصعب من كلام السوء يخرج من فم مطالب بحقّ.

تصدَّقت بالأموال والذخائر، فلم أرَ صدقة أنفع من ردِّ ذي ضلالة إلىٰ الهدىٰ.

سُررت بقرب الملوك وصِلاتهم، فلم أرَ أحسن من الخلاص منهم.

قال أنوشيروان لبوزرجمهر: أيُّ الأشياء خير للمرء؟ فقال: عقل

يعيش به، قال: فإن لم يكن؟ قال: إخوان يشيرون عليه، قال: فإن لم يكن؟ قال: فمال يتحبَّب به إلىٰ الناس، قال: فإن لم يكن؟ قال: ففيٌّ صامت، قال: فإن لم يكن؟ قال: فموت جارف.

من بعض التواريخ: سخط كسرىٰ علىٰ بوزرجمهر، فحبسه في بيت مظلم، وأمر أن يصفَّد بالحديد، فبقي أيّاماً علىٰ تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر مطمئن النفس، فقالوا له: أنت في هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال، فقال: اصطنعت ستَّة أخلاط وعجنتها واستعملتها فهي التي أبقتني علىٰ ما ترون، قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلَّنا ننتفع بها عند البلوىٰ، فقال: نعم، أمَّا الخليط الأوَّل فالثقة بالله ﷻ، وأمَّا الثاني فكلّ مقدَّر كائن، وأمَّا الثالث فالصبر خير ما استعمله الممتحن، وأمَّا الرابع فإذا لم أصبر فماذا أصنع ولا أعين علىٰ نفسي بالجزع، وأمَّا الخامس فقد يكون أشدُّ ممَّا أنا فيه، وأمَّا السادس فمن ساعة إلىٰ ساعة فرج، فبلغ ما قاله كسرىٰ فأطلقه وأعزَّه.

ومن حكمه: من أعيب عيوب الدنيا أنَّها لا تعطي أحداً ما يستحقّه، إمَّا أن تزيده أو تنقصه.

وقال: من لم يكن له أخ يرجع إليه في أُموره، ويبذل نفسه وماله له في شدَّته، فلا يعدَّنَّ نفسه من الأحياء.

وقيل له: ما السعادة؟ فقال: أن يكون للرجل ابن واحد، فقيل: إذن يخشىٰ عليه الموت، فقال: إنَّك لم تسألني عن الشقاوة وإنَّما سألتني عن السعادة.

وقال: أخذت من كلّ شيء أحسنه حتَّىٰ من الكلب ذبَّه عن حريمه، ومن الخنزير بكوره في إرادته.

وجاءت إليه امرأة فسألته عن مسألة، فقال: لا يحضرني جوابها، فقالت: أنت تأخذ من الملك ما تأخذ وليس عندك جواب مسألتي، فقال: يا هذه، إنَّ الملك يعطيني علىٰ ما أعلمه، ولو أعطاني علىٰ ما لا أعلمه لم يسعني بيت ماله.

وقال له كسرىٰ: أيُّ الناس تحبّ أن يكون عاقلاً؟ قال: عدوّي، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّه إذا كان عاقلاً كنت منه في أمان وعافية.

* * *

حوار بين تلميذ وأُستاذه

تبدأ المحاورة كسؤال وجواب:

التلميذ: ما.. ومن.. وممَّ.. وكيف.. وأين.. ومتىٰ..؟

الأُستاذ: أسئلتك هذه هي التي شغلت عقول الفلاسفة، بل عقول الناس كافّة، منذ بدأ الإنسان يفكّر، والفلسفة هي التي تحاول أن تجد لها جواباً...، أمَّا أنَّها وجدت الجواب الصحيح علىٰ كلّ سؤال أو لم تجده، فهذا شيء سوف تعرفه إذا بلغت الغاية في رحلتك هذه، وأعطيت الحوار حقّه من التفهّم والتدبّر.

وأنت تريد بأسئلتك هذه (معرفة الفلسفة) التي تعرف حقيقة كلّ شيء وكنهه، وأصله، وغايته، ولا تكتفي بالظواهر، بل تريد النفوذ إلىٰ البواطن، ولا تكتفي بهذا العالم المحسوس، بل تريد أن تعرف ما وراءه وما كان قبله، وتريد أن تعرف من الذي خلقه، ومن أيّ شيء خلقه، ومتىٰ خلقه، وتريد أن تعرف ما هو هذا الخالق، وما كنه ذاته، وما حقيقته، وصفاته، وما هو.

وما هو هذا الإنسان، وما حقيقته، وما هو عقله، وكيف يتمّ إدراكه، وما مبلغ هذا الإدراك من الصحَّة، وما هو الخير، وما هو الجمال، ولِمَ كان الخير خيراً والجميل جميلاً، إلىٰ غير ذلك من الأسئلة التي لا تنتهي سعياً وراء معرفة المبادئ الأُولىٰ لكلّ شيء.

ولـذلك قـالوا في تعريـف الفلسـفة: إنَّهـا النظـر في حقيقـة الأشـياء، وقالوا: إنَّها علم المبادئ الأُولىٰ، وقالوا: غير ذلك.

أمَّا أنا فإنّي أُعرّفهـا لـك بأنَّهـا: محاولـة العقـل إدراك كنـه جميـع المبـادئ الأُولىٰ، وسوف يتَّضح لك إن كنت علىٰ حقٍّ من هذا التعريف.

التلميذ: إنَّ العلم يبحث أيضاً يـا مـولاي عـن حقـائق الأشـياء، فهـل العلم غير الفلسفة؟

الأُسـتاذ: الفـرق بـين العلـم والفلسـفة أنَّ العلـم يكتفـي بـدرس ظـواهر هـذا الكـون ونظمـه ونواميسـه، أمَّـا الفلسـفة فتبحـث في أصـل الكـون وعلَّتـه وحقيقتـه، فالعـالم الطبيعـي يكتفـي بـدرس المظـاهر الطبيعيـة للمادّة من غير أن يفكّر في أصلها وعلَّة وجودها.

والريـاضي يبحـث في الهندسـة والحسـاب مـن غـير أن يتكلَّـف عنـاء التفكـير في معنـىٰ المكـان والزمـان، وكلاهمـا يبحثـان بواسـطة هـذا العقـل الذي يتمتَّعان بـه مـن غـير أن يفكّـرا في كنـه هـذا العقـل وقدرتـه عـلىٰ إدراك الحقيقة.

أمَّـا الفيلسـوف فإنَّـه يريـد أن يفهـم في آنٍ واحـد كنـه المـادّة وأصـلها وعلَّة وجودها، ويفهم معنـىٰ المكـان والزمـان ويعـرف كنـه العقـل وحقيقتـه ومبلغه مـن السـلامة، والقـدرة عـلىٰ إدراك الحقيقـة، فيتنـاول بدرسـه وبحثـه المعقول والعقل في آنٍ واحد.

ومن البحث في الكون وعلَّته تكوَّنت (فلسفة الوجود)، ومن البحـث في العقل وكنهه وقدرته تكوَّنت (فلسفة المعرفة)، ومن البحث في كنه الخير والجمال والقبح تكوَّنت (فلسفة القيم)، والذي يهمّني أن أبسطه لك في هذه المباحث هو (مبحث الوجود) و(مبحث المعرفة) دون سواهما.

التلميذ: لم أفهم يا مولاي وجه هذه العناية بمبحث دون مبحث؟

الأُستاذ: وجه العناية ظاهر لو تأمَّلت، فمبحث الوجود يتناول طبيعة الوجود وحقيقته وأصله وعلَّته، أي المخلوق والخالق.

ومبحث المعرفة يتناول الآراء التي قالها الفلاسفة في كيفية حصول المعرفة ووسائلها، ومبلغها من الصحَّة.

وأسئلتك التي تشغل بالك وتلقيك بين براثن الحيرة والشكّ، تكاد تنحصر في المبحثين الأوَّلين، وليس لها كبير علاقة بمبحث القيم، الذي يتكلَّم في حقيقة الجمال، والخير، والقبح، والشرّ.

التلميذ: حقَّاً إنَّ الذي يشغل بالي يكاد يكون منحصراً في مبحث الوجود دون سواه، فما هو الداعي للتبسّط في مبحث المعرفة.

الأُستاذ: إنَّ المسألة الميتافيزيقية التي أعلم أنَّها هي وحدها التي تشغل بالك، لا يمكن درسها إلىٰ علىٰ ضوء (مبحث المعرفة)، لأنَّ درسنا للآراء العديدة التي قيلت في تفسير المسألة الميتافيزيقية لا يتمّ ولا يستقيم إلَّا بعد درس طرق المعرفة ووسائلها، والوقوف علىٰ صدق هذه الوسائل وقدرتها علىٰ إدراك اليقين من الحقّ الذي نبحث عنه.

التلميذ: إذن يكون مبحث المعرفة خادماً لمبحث الوجود ووسيلة لإدراك الحقّ.

الأُستاذ: هذا هو الواقع، فالفلسفة كانت وما زالت في جوهرها عبارة عن البحث عن الله.

ثمّ أخرج الأُستاذ من تحت وسادته كتاباً ضخماً، وقال: هيا نبدأ في موضوعنا.

التلميذ: ما هذا الكتاب يا مولاي؟

الأُستاذ: هذا الكتاب يُحدِّثنا عن مفكّرين يبحثون عن الله الخالق لهذا الكون وما حواه.

البحث الأوّل عن فلاسفة اليونان:

التلميذ: ما اسم هذا الكتاب؟

الأُستاذ: فلاسفة اليونان.

التلميذ: كيف قال مولاي: إنَّه كتاب المفكّرين يبحثون عن الله الخالق لهذا الكون؟

الأُستاذ: نعم، هم المفكّرين، يبحثون عن الإله الحقّ، ألم أقل لك: إنَّ جوهر الفلسفة هو البحث عن الله، الخالق لهذا الكون وما حواه؟

التلميذ: إنَّني قرأت شيئاً من أقوال هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الأوَّلين فوجدت أنَّهم كافرون.

الأُستاذ: نعم، إنَّهم كافرون بآلهة اليونان، وأمَّا الإله الحقّ فهم يبحثون عنه، فمنهم من اهتدىٰ إليه، ومنهم من عجز عن ذلك وأقرَّ علىٰ نفسه بالعجز، ومنهم من قاده عجزه إلىٰ الضلال، وسوف نرىٰ أنَّ آراءهم علىٰ ما فيها من ذكاء وإخلاص في البحث تنطوي علىٰ نظرات إلىٰ الكون ساذجة حائرة، فيها ومضات من نور الحقّ.

فطاليس يبدأ بالعقيدة الكاذبة التي لازمت عقول كلّ الفلاسفة بل كلّ البشر، فيرىٰ أنَّ العالم لا يمكن أن يكون مخلوقاً من (العدم المحض) فاعتبر أصله (الماء).

وأمَّا انكسيمنس[1] فاعتبر أصله (الهواء).

---

(١) راجع: فلاسفة اليونان: ٣١؛ الملل والنحل ٢: ٦٦؛ أعلام الفلسفة: ٧١.

وأمَّا انكسيمندر[1]، فأنكر ذلك كلّه وقال: إنَّه سخافة، لأنَّ الماء والهواء لا يتَّفق مع صفات الأشياء كلّها...، ومن هنا اضطرّه عقله السليم إلىٰ القول السليم بأنَّ أصل الكائنات (مادّة لا شكل لها، ولا نهاية، ولا حدود).

ومن هنا تدرك صدق ما قلته لك، فهؤلاء الفلاسفة الأوَّلون معذورون في كفرهم بآلهة اليونان، ومحقّون في بحثهم العقلي عن مصدر للعالم، غير ما عند غيرهم ممَّن تقدَّمهم، حيث جعلوا الآلهة من سنخ البشر وصفاته.

التلميذ: وهل كان عند هؤلاء اليونانيين القدماء فكرة وجود إله غير آلهتهم؟

الأُستاذ: إنَّ فكرة وجود الإله الحقّ لم تخل منها الأرض منذ صار الإنسان علىٰ ظهرها.

وهذا اكزنوفنس أحد فلاسفة اليونان الأوائل الذي سما علىٰ أهل عصره، فنبذ أساطير اليونان القائلة بفكرة التجسيد البشري للإله، وسخر من آلهتهم التي تأكل وتشرب، وتولد وتموت، وها هو يقول عن أُولئك: (إنَّ الناس هم اخترعوا الآلهة وتصوَّروها بمثل هيئاتهم...)، ثمّ قفز قفزة سما بها ألفي سنة إلىٰ الأمام فقال: (كلَّا ثمّ كلَّا إنَّه لا يوجد غير إله واحد هو أرفع الموجودات، ليس مركَّباً علىٰ هيأة المخلوقات أجمع...، وإدراك الخلق له مستحيل بكنهه وذاته...).

التلميذ: أفهم من قولك يا مولاي أنَّ اكزنوفنس قفز بكلمته هذه ألفي سنة إلىٰ الأمام، أنَّ الفلسفة انتهت إلىٰ الإيمان بوجود الله، فإذا كان

---

(١) راجع: فلاسفة اليونان: ٢٩؛ أعلام الفلسفة: ٧٠.

الأمر كذلك فأرجو من مولاي أن يريحني ويريح نفسه من سخافة الأوَّلين التي قرأت شيئاً منها فيما سبق، وينقلني إلىٰ الفلسفة الحديثة.

الأُستاذ: لقد أوصيتك من قبل بالصبر، والآن أُكرِّر لك النصيحة فإنَّه لا ينفعك أن أنتقل بك إلىٰ النتيجة التي انتهت إليها الفلسفة التي تشغل بالك بدون أن تكون قد عرفت ما قاله الأوائل والأواسط، لئلَّا يرجع لك الوسواس إلىٰ أنَّ الحقيقة قد تكون عند الأوائل، فيرجع إليك شكّك، وتعود إليك حيرتك ولن تقنع نفسك بما وصل إليه الأواخر، وتسلم من ذلك كلّه بعد اطّلاعك الجميع، فعليك بالصبر فإنَّه من صبر ظفر.

التلميذ: لقد أدركت حكمة مولاي في الربط بين سلاسل التفكير، فأرجو مسامحتي.

الأُستاذ: ثمّ يأتي بارمنيدس[1] الذي يرىٰ أنَّ الماء والهواء... أو أيّ شيء آخر، لا تصلح أن تكون أصلاً للأشياء لأنَّ الأشياء كلّها متغيّرة، وهذا الوجود دائم فهو الذي يصحُّ أن نتَّخذه أصلاً للكائنات.

وجاء بعده تلميذه مليسوس[2] فزاد علىٰ رأي أُستاذه: إنَّ هذا الوجود غير متناهٍ، وكلّ حادث لا بدَّ له من مبدأ، وليس الوجود حادثاً، لأنَّه لو كان حادثاً لكان من اللاوجود، فالوجود إذن ليس له مبدأ، وما ليس له مبدأ ليس له نهاية، وهو غير متغيّر فهو واحد أزلي، أبدي، حيّ عاقل، لا يتغيَّر.

وجاء هرقليط[3] الذي تردَّد في هذا الرأي، وذهب إلىٰ أنَّ أصل الكون هو (نار) تحوَّل إلىٰ هواء، ثمّ تحوَّل الهواء إلىٰ ماء، والماء إلىٰ يابس،

---

(١) راجع: فلاسفة اليونان: ٥٧.

(٢) راجع: فلاسفة اليونان: ٧١.

(٣) راجع: موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٥٤٣.

ثـمّ يعـود اليـابس مـاء، فهـواء فنـاراً، وكأنّـه رأىٰ حيـاة الحيـوان ترافقهـا الحرارة، فزعم أنَّ الروح عبارة عن نار.

وجـاء أميـدوقيس فيلسـوف العنـاصر الأربعـة، فوضـع نظريـة (العناصر الأربعـة) التـي ضـلَّت تسـيطر حتَّىٰ القـرن الثـامن عشـر، فـزعم أنَّ الوجـود مجموعـة مـن عنـاصر أربعـة هـي: (الـتراب والمـاء والنـار والهـواء)، وجميـع الأشـياء مـزيج مـن هـذه الأربعـة، ومـا اختلافهـا إلَّا لاختلاف نسبة هذه العناصر.

ثمّ جاء ديموقريطس[1] الذي يُنسَب إليه المذهب الذرّي، حيث قـال: إنَّ الكون يتألَّف من عدد لا يتناهي من الذرّات...، فهي متحرّكة بـذاتها في فـراغ، ومن حركتها واختلاطها تكوَّنت الأشياء، وتكوَّن العالم بأسره...

التلميـذ: لـيس في تكـوّن العـالم المـادّي مـن الـذرّات شيء بعيـد عـن العقل، لكن من الذي خلق هذه الذرّات، ومن الذي حرَّكها؟

الأُسـتاذ: الجـواب عـن أسـئلتك لم يكتـب الـديموقريطس بـل كتـب لسواه، أمَّا هو فقد تجـرَّد عـن سـلامة التفكـير حـين زعـم أنَّ حركـة الـذرّات هي نتيجة (ضرورة عمياء)، وتكـوين هـذا الكـون بـما فيـه مـن جمـاد ونبـات وحيوان مركَّبة من ذرّات بقوَّة هذه (الضرورة العمياء).

وجاء أناكساغورس[2] بعد ديموقريطس ففنَّد آراءه في الضـرورة العمياء وسفَّهها، فقال كأنَّه أعظم المؤمنين: من المستحيل علىٰ قوَّة عمياء أن تبـدع هـذا الجمال، وهذا النظام اللّذين يتجلّيان في هذا العالم _ البديع _، لأنَّ القوَّة العمياء لا تنتج إلَّا الفوضىٰ، فالذي يحرّك المادّة هو عاقل رشيد بصير حكيم.

---

(١) راجع: موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٤٥٥؛ تاريخ الفلاسفة: ٦٧.

(٢) راجع: تاريخ الفلاسفة: ٦٢.

التلميذ: هذا عظيم، فهل يمكن أن يكون أناكساغورس قصد بأقواله هذه أن يثبت وجود الله الخالق المتقن لهذا الكون البديع.

الأُستاذ: لا أدري، فإنَّ الله موجد للهدىٰ بلسان الرسل في زمان أقدم من اليونان وفلسفتهم، بل إنّي أُرجِّح أنَّ كثيراً من فلسفة الأقدمين في مصر والصين والهند، هي بقايا نبوّات نسيها التاريخ، فحشر أصحابها في عداد الفلاسفة، ولعلَّهم من أتباعهم، ولكن الظاهر من أقوال أناكساغورس أنَّه كان يحول حول هذا الإيمان حتَّىٰ أدرك بعقله السليم أنَّ هذا النظام المحكم البديع لا يمكن أن يصدر إلَّا من عقل حكيم، ولذلك عُدَّ أناكساغورس أوَّل من فتح باب الفلسفة الروحية، وأتىٰ برأي يحوم حول الحقّ، وهذا ما جعل أرسطو يقول عنه: إنَّه الوحيد الذي احتفظ برشده أمام هذيان أسلافه.

التلميذ: الحمد لله فقد وصلنا إلىٰ مطلع الفلسفة التي تتسامىٰ عن الهذيان.

الأُستاذ: لا ريب أنَّ الفلسفة تسير نحو الحقّ، ولكن بخطىٰ بطيئة يعرقلها أحياناً رهط من الشكّاك، كالسوفسطائيين الذين كادوا يقضون علىٰ كلّ تفكير سليم.

التلميذ: إنَّني أسمع بكلمة سفسطة التي يُراد بها الجدل الخدّاع.

الأُستاذ: نعم، من كلمة السوفسطائية جاءت السفسطة...، وليس للسوفسطائيين مذهب فلسفي معلوم، ولا آراء تربطها بروح الفلسفة التي تبحث عن الحقّ، ولكنَّهم جماعة من المعلِّمين ظهروا في بلاد اليونان في ظروف كانت تطغىٰ فيها علىٰ البلاد موجة من الشكّ والكفر بآلهة الأساطير، وموجة من الديمقراطية، فتحت للناس أبواب المناصب من

طريق التلاعب بالجماهير حتَّىٰ كادت طريقتهم تؤدّي إلىٰ هدم أُسس العقل والمعرفة، وتمزيق الأخلاق، ومن أشهر هؤلاء برونـاغوراس وجاء بعده غورجياس فدفع السوفسطائية إلىٰ غايتها الأخيرة من السخافة والهذيان والتعطيل، حيث أنكر دفعة واحدة وجود الأشياء، وقال باستحالة المعرفة والتعارف والتفاهم بين الناس، وأنت ترىٰ أنَّ هذا الهذيان أضعف وأوهن من أن يدخل في مباحث الفلسفة، وإن كان له الفضل من حيث إنَّه كان السبب الوحيد في دفع سقراط لتفنيده وإبطاله.

التلميذ: كيف كان هذا الهذيان سبباً في دفع سقراط لحكيم إلىٰ تفنيده وإبطاله؟

الأُستاذ: إنَّ سقراط هو الذي أسَّس وبنىٰ فلسفة المعرفة التي لا تزال تسيطر علىٰ العقول السلمية منذ أكثر من ألفي سنة إلىٰ اليوم الذي نحن فيه مهما اختلف الجدل، وما كان لسقراط في الفلسفة من غرض إلَّا أن يضع قواعد المعرفة علىٰ أساس العقل ويوطد دعائم الفضيلة في صدور الناس علىٰ أساس من الحقّ الذي لا ريب فيه.

فقد رأىٰ هذا الفيلسوف أنَّ أخلاق عصره تنهار أمام دخل السوفسطائيين الذين أنكروا العقل والحقّ واليقين وفضائل الأخلاق، بما زعموا من ردِّ أُصول المعرفة كلّها إلىٰ الإحساس، فأراد أن يردَّ أُصول المعرفة إلىٰ العقل الذي يتَّفق الناس جميعاً علىٰ أحكامه، بلا خلاف ليصل بهذا إلىٰ وضع حدٍّ وتعريف للفضيلة.

يقول سقراط: لا يُعقَل أن تكون المعرفة مبنيّة علىٰ الحواسّ؛ لأنَّ الحواسّ تختلف باختلاف الأفراد والظروف والأحوال، فعلينا أن نلتمس أصلاً ثابتاً

للمعرفة لا يختلف فيه الناس أبداً، وإذا نظرنا إلىٰ معارفنا رأينا أنَّها تنطوي علىٰ إدراكات جزئية تأتينا من طريق الحواسّ، وعلىٰ إدراكات كلّيّة عامّة ليس لها وجود في الخارج ليمكن الإحساس بها.

وضرب علىٰ ذلك مثلاً معنىٰ (النوع) الذي تدركه عقولنا بجميع الصفات التي يشترك بها كلّ أفراد النوع، وطرح الخصوصيات التي تظهر في بعض أفراد في الخارج، فقال: إنَّ هذا الإدراك شيء لا يحسّ، ولا وجود له في الخارج، وهو إدراك كلّي لا يرتاب عاقل في كونه من عمل العقل وحده.

وهذا الإدراك الكلّي العقلي، هو الذي يجب أن تؤسَّس عليه المعرفة..، ونحن بهذه الإدراكات العقلية الكلّيّة نستطيع أن نضع لكلّ شيء حدّاً وتعريفاً، ونضع مقاييس صحيحة ثابتة للحقائق، ونعرف ما هي الفضيلة، وما يتنافىٰ معها من الرذائل والقبائح.

وجاء بعد سقراط تلميذه أفلاطون الشهير، فأيَّد نظرية المعرفة التي وضعها أُستاذه وزاد توطيدها، ولكن لا ندري لماذا وضع هذه المعرفة علىٰ أساس (المُثُل).

التلميذ: ولكن ما هذه المُثُل يا مولاي.. وما حقائقها؟

الأُستاذ: حقٌّ لك أن تعجب، قد عجب من قبلك أرسطو، فإنَّ أفلاطون وصف هذه المُثُل بأوصاف عديدة تجعلها غير مفهومة ولا معقولة، وأنَّ عناصر وجودها من نفسها لا من شيء، وأنَّها أساس الأشياء ولا تعتمد علىٰ شيء، بل غيرها معتمد عليها، وهي دائمة ثابتة وأبدية كاملة، ولعلَّه يريد بها ما في علم الله من الأُمور.

التلميذ: هل كان أفلاطون مؤمناً بوجود الله؟

الأُستاذ: إنَّ أفلاطون من أوَّل الفلاسفة القائلين بوجود الله تعالىٰ وبأنَّه الخالق للعالم، والمدبّر لأمره، ويقيم علىٰ ذلك براهين أهمّها برهان النظام، فيقول: إنَّ العالم آية في الجمال والنظام، ولا يمكن أبداً أن يكون هذا نتيجة علل اتّفاقية، بل هو وضع عاقل كامل أراد الخير ورتَّب كلّ شيء عن قصد وحكمة.

وعلىٰ كلّ حال فإنَّ أفلاطون أدرك وجود الله، وأدرك أنَّه الخالق المدبّر لأُمور هذا الكون بقوَّته وحكمته، ولكنَّه لـمَّا أراد الدخول في سرّ الخلق أدركه العثار كما أدرك تلميذه أرسطو سيّد الفلاسفة المؤلّهة الأقدمين.

التلميذ: إنَّني أعرف أنَّ أرسطو هو أعظم الفلاسفة الأقدمين، وهو واضع علم المنطق، حتَّىٰ لقَّبوه بالمعلِّم الأوَّل، فكيف أدركه العثار؟

الأُستاذ: إنَّ أرسطو هو حقَّاً أعظم الفلاسفة المؤلّهة الأقدمين، وكان من المؤمنين بوجود الله، ولكنَّه لـمَّا أراد الدخول في سرّ الخلق أدركه العثار كما أدرك سواه، ولو سمعت إلىٰ رأيه في المعرفة، لعجبت كيف يتعثَّر هذا العقل الجبّار الكبير.

يقول: إنَّ أوَّل خطوة يخطوها الفكر في سبيل المعرفة هي (الإدراك الحسّي)، فإذا تجمَّعت في الذهن طائفة من الإدراكات الجزئية الحسّية واحتفظت بها الذاكرة، بدأ الفكر مرحلته الثانية في التجربة التي تقوم علىٰ مقارنة الأشياء ومعرفة علاقاتها وعللها وأسبابها، ثمّ ينتقل الفكر إلىٰ المرحلة الثالثة، وهي مرحلة (التأمّل النظري) للوصول إلىٰ الاستنتاج والحكم، والطريق النظري الذي يسلكه العقل في هذه المراحل هو المنطق الفكري الذي رتَّب أرسطو قواعده وجعله علماً، فاستحقَّ به أن يُسمّىٰ في تاريخ الفلسفة باسم (المعلِّم الأوَّل).

ولكـن هـذا المعلِّـم الأوَّل صـاحب هـذا المنطـق السـليم، لـمَّا أراد أن يفسِّـر نشأة العـالم، تعثَّـر في عقبـة الفكـرة (المادّيـة) التـي تسيطر عـلىٰ عقـول كثيرة، وتخدعها بقيـاس التمثيـل الـذي تعـوَّده الإنسـان مـن ممارسـة الأشـياء المادّية في الحياة فصعب عليه أن يتصـوَّر خلـق المـادّة مـن العـدم، فـادَّعىٰ قِـدَم المادّة.

ثـمّ سـاقه عقلـه السـليم إلىٰ الاعـتراف بـأنَّ هـذه المـادّة يسـتحيل أن تكون شيئاً معيَّنـاً...، وانتهـىٰ بـه الأمـر إلىٰ أن قـال: إنَّهـا عبـارة عـن (قابليـة التلقّي)، فكأنَّه عبَّر عن العدم.

التلميذ: لقـد ارتبـك عقـلي يـا مـولاي، فأوضـح لي بـالله كيـف تكـون المادّة عبارة عن قابلية التلقّي؟

الأُسـتاذ: إنَّـك معـذور، وسأُوضِّـح لـك رأيـه بـأوجز كـلام وأبسـطه...، فهـو يقـول: إنَّ كـلّ شيء ينشـأ ويتكـوَّن بتـأثير علـل أربـع: (العلَّـة المادّيـة) التـي يتكـوَّن منهـا الشـيء، و(العلَّـة الصـورية) التـي تصـير بهـا مـادّة معيَّنـة، و(العلَّـة الفاعليـة) التـي تصـنع الشـيء، و(العلَّـة الغائيـة) التي مـن أجلهـا قامـت العلَّـة الفاعلـة بصـنع ذلـك الشـيء، مثلاً: المـادّة في السرير هي الخشب، والعلَّـة الصـورية فيـه صـورته، والعلَّـة الفاعليـة النجّـار الذي صنع السرير، والعلَّة الغائية النوم والراحة.

وبعـد تركيـزه العلـل الـثلاث: الصـورية والغائيـة والفاعليـة في الصورة لم تبقَ لديه إلَّا العلَّة المادّية، وهي (المادّة) أو الهيولىٰ.

التلميـذ: أرىٰ أرسـطو يسـير حتَّـىٰ الآن سـيراً معقـولاً...، ولكـن مثـال السـرير لا ينطبـق عـلىٰ قضـيّة نشـأة أصـل العـالم، فخشـب السـرير موجـود، ولـيس النجّـار هـو الـذي أوجـده، وإنَّـما هـو الـذي خلـع عليـه

صورة السرير، فمن الذي أوجد الخشب وخلقه؟ بل من الذي أوجد مادّة العالم الأصلية وخلقها وخلع عليها صورتها الهيولانية الأصلية.

الأُستاذ: إنَّ أرسطو لا يقصد بـ (المادّة الهيولىٰ) ما نفهمه نحن من كلمة مادّة، لأنَّ المادة التي نفهمها نحن لها شكل وحجم ووزن علىٰ الأقلّ، أمَّا الهيولىٰ عند أرسطو فليس لها صفات مطلقاً، فهي قبل أن تأخذ صفاتها لم تكن شيئاً يمكن وصفه وتحديده، وليست إلَّا شيئاً بالقوَّة لها قابلية التلقّي، وهذا ما جعلني أقول لك: إنَّ المادّة التي ذكرها أرسطو هي عبارة عن العدم.

التلميذ: ومن هو المحرّك الذي أعطىٰ العالم صورته وحركته؟

الأُستاذ: إنَّ أرسطو يريد بذلك أنَّه هو الله، وأنَّه هو العلَّة الصورية والغائية والمحرّكة، ويقول: إنَّ العلَّة الأُولىٰ المحرّكة، وهي الله ثابتة، لها نفس القدرة من الأزل، فلو فرضنا وقتاً لم تكن فيه حركة، لزم عن ذلك لا تكون حركة أبداً، لأنَّ القول بحدوث الحركة بعد أن لم تكن يعني أنَّ مرجّحاً قد استجد، فأوجب الحركة، والحال أنَّ المحرّك الأوَّل ثابت له نفس القدرة، ولا يتصوَّر حصول مرجّح يرجّح عنده الحركة، فلا بدَّ من القول بقِدَم الحركة، وهذا الخطأ في الاستدلال نشأ من الوقوف عند صفة (القدرة) وتناسىٰ صفة (الإرادة) وهو الخطأ الذي خدع كثيراً من الناس.

التلميذ: إنَّ هذا في غاية الوضوح، فكيف غفل عنه المعلِّم الأوَّل؟

الأُستاذ: إنَّ الخطأ الفكري الأوَّل الذي نشأت عنه كلّ هذه الأخطاء، هو عجز العقول عن تصوّر الخلق من (العدم)، وسترىٰ الردّ علىٰ ذلك في كلام الغزالي وغيره، والمهمّ أنَّ أرسطو لم ينكر وجود الله، بل

أكَّده، ولكنَّه لـمَّا أراد وصف ذات الله أدركه عقله الكلال كما أدرك أُولئك الذين رووا عنه وشرحوا أقواله.

وإنَّما ذكرت لك هذه الخيالات عن كيفية الخلق والفيض والانبثاق والعقول والنفوس، لأدلّك علىٰ منشأ تلك السخافات التي وقع بها الفلاسفة الإسلاميّون الذين أخذوا الكثير عمَّن سبقهم من فلاسفة اليونان.

التلميذ: لقد قرأت أنَّ ابن سينا يجاري أرسطو في رأيه عن قِدَم العالم.

الأُستاذ: إنَّ ظاهر كلام ابن سينا يدلُّ علىٰ أنَّه يجاريه، ولكنّي أفهم من باطن كلامه أنَّه يخرج عن كلام أرسطو، ويفسّر معنىٰ القِدَم تفسيراً بديعاً يدلُّ علىٰ بعد نظره وسلامة تفكيره وصدق إيمانه، حيث يقول:

(القِدَم يقال علىٰ وجوه: قِدَم بالقياس، وهو شيء زمانه في الماضي أكثر من زمان شيء آخر، فهو قديم بالقياس إليه، وأمَّا القديم المطلق فهو أيضاً يقال علىٰ وجهين: بحسب الزمان، وبحسب الذات، فالقديم بحسب الزمان هو الذي له مبدأ زماني، والقديم بحسب الذات هو الذي ليس له مبدأ يتعلَّق به، وهو الواحد الحقّ، تعالىٰ عمَّا يقول الظالمون علوَّاً كبيراً).

فمن كلامه هذا في معنىٰ القِدَم، وهو يشير به إلىٰ معنىٰ الزمان الذي أوضحه الغزالي من بعده، يظهر لك أنَّه لا يرىٰ أبداً أنَّ العالم قديم بذاته وغير مخلوق لله، بل يريد أنَّ قِدَم العالم إنَّما يُسمّىٰ قديماً مطلقاً، لأنَّ الله خلقه قبل الزمان، فليس له مبدأ زماني، ولا يقاس هذا القِدَم المطلق الزماني بـ (القِدَم المطلق الذاتي) الذي يوصف به الله القديم المطلق الأزلي الحقّ، فقد كان الله ولم يكن عالم ولا زمان.

ثمّ خلق الله العالم فبدأ الزمان، وإذا كان العالم يوصف بأنَّه قديم فإنَّما يُراد أنَّه قديم بحسب الزمان الذي لم يكن له وجود.

فلا يلتبس عليك، وسوف ترىٰ أنَّ أعاظم الفلاسفة كالغزالي، وابن طفيل، وعمانوئيل كانط، يشيرون إلىٰ هذا الالتباس والارتباك الذي يعتري العقول.

التلميذ: لماذا لا تحدّثني يا مولاي عن الغزالي، فإنَّك تكثر من ذكره؟

الأُستاذ: سأُحدِّثك عنه ـ إن شاء الله ـ إذا جاء دوره في الترتيب الذي اخترته لك بعد أن أُحدِّثك عن ابن مسكويه، وابن خلدون، وابن الطفيل.

التلميذ: إنَّني لم أسمع لابن مسكويه بهذه الشهرة.

الأُستاذ: إنَّ لابن مسكويه في فلسفة الأخلاق والمعرفة والوجود كلاماً لا يقلُّ سموَّاً وبياناً عمَّا جاء به أعظم الفلاسفة.

وسأذكر لك طرفاً من آرائه في (المعرفة والوجود)، أمَّا فلسفته الأخلاقية التي اشتهر بها أكثر ممَّا اشتهر في النواحي الأُخرىٰ، فلا أُحدِّثك عنها لأنَّها ليست من موضوعنا الذي نحن فيه، ولكنّي أُوصيك بأن تقرأها، لأنَّها من أطرف ما كتب في فلسفة القيم.

يقول ابن مسكويه في المعرفة بعد أن يتكلَّم عن النفس ويبرهن علىٰ أنَّها ليست بجسم ولا عرض:

(إنَّ الجسم قواه لا تعرف العلوم من الحواسّ، فلها من نفسها مبادئ أُخر وأفعال لا تأخذها عن الحواسّ البتَّة، وهي المبادئ الشريفة العالية التي تُبنىٰ عليها القياسات الصحيحة، وذلك: أنَّها إذا حكمت أنَّه ليس بين طرفي النقيض واسطة، فإنَّها لم تأخذ هذا الحكم بشيء آخر،

لأنَّـه (أوَّلي)، ولـو أخذتـه مـن شيء آخـر لم يكـن أوَّليـاً، فـالحواسّ تـدرك المحسوسـات فقـط، وأمَّـا الـنفس فإنَّهـا تـدرك أسـباب الاتّفاقـات وأسـباب الاختلافات التـي في المحسوسـات، وهـي معقولاتهـا التـي لا تسـتعين عليهـا بشــيء مـن الجسـم، ولا آثـار الجسـم، كـذلك إذا حكمـت علىٰ الحسّ أنَّـه صـدق أو كـذب، فلـيس تأخـذ الحكـم مـن الحـسّ، لأنَّ الحـسّ لا يضـادّ نفسـه، ونحـن نجـد الـنفس العاقـل فينـا تسـتدرك شـيئاً كثيراً مـن أخطـاء الحواسّ...

ثـمّ إنَّ الـنفس إذا علمـت أنَّهـا أدركـت معقولاتهـا، فلـيس تعلـم هـذا العلم من علـم آخـر وإلَّا لاحتاجـت في ذلـك العلـم أيضـاً إلىٰ علـم آخـر إلىٰ ما لا نهاية، وهو باطل بالضرورة.

فـإذن علمهـا بأنَّهـا علمـت هـو مـن ذاتهـا وجوهرهـا، أعنـي العقـل وليس تحتاج في إدراكها ذاتها إلىٰ شيء آخر غير ذاتها).

هكـذا يفصِّـل ابـن مسـكويه نظريـة المعرفـة الحسّـية والعقليـة تفصـيلاً دقيقـاً رائعـاً، يفـوق مـا ذهـب إليـه أعـاظم المتـأخّرين، أمثـال ديكـارت، ولوك، وعمانوئيل كانط.

أمَّـا في (الوجـود) فـإنَّ ابـن مسـكويه يعـترف بـأنَّ العـالم مخلـوق، وأنَّ الله تعالىٰ خلقه من العدم، حيث يقول:

(إنَّ الصـانع ﷻ جـليّ غـامض، أمَّـا أنَّـه جـليّ فمـن قِبَـل أنَّـه الحـقّ، والحـقّ نـيِّر، وأمَّـا أنَّـه غـامض فلضـعف عقولنـا بسـبب تكثّـر الأغشـية الهيولانيـة عـلىٰ جوهرهـا، وأنَّ الله الواحـد الأزلي أبـدع الأشـياء كلّهـا مـن لا شيء، إذ لا معنـىٰ للإبـداع إن كـان عـن شيء موجـود)، وسـترىٰ أنَّ ابـن الطفيل يؤيّد هذا الرأي في قصَّة الإيمان والعقل.

قصّة حيّ بن يقظان:

التلميذ: ماذا يقول ابن الطفيل، وما هي قصَّة الإيمان والعقل؟

الأُستاذ: لقد أبدع ابن الطفيل في تصوير التلاقي بين النظر العقلي الخالص وبين الوحي المنزل علىٰ الأنبياء عليهم السلام في قصَّته الشهيرة (حيّ بن يقظان).

التلميذ: لقد فهمت من مولاي أنَّها قصَّة خيالية وضعها ابن طفيل، فهل تكون الفلسفة التي هي البحث عن الحقّ في حنايا قصَّة من نسيج الخيال.

الأُستاذ: ليس في القصَّة من الخيال إلَّا اسم البطل والمسرح، ولو أبدلت كلمة (حيّ بن يقظان) بكلمة (العقل) واعتبرت أنَّ الجزيرة النائية هي أرضنا التي نعيش عليها، لانقلبت القصَّة تاريخاً صحيحاً، ليس فيه أثر للخيال، إلَّا يحث يتخلّىٰ (العقل البطل) عن درره.

إنَّ آراء ابن طفيل في المعرفة والوجود والإيمان بالله والفضيلة، واضحة في ثنايا قصَّته التي لولا ما فيها من مجاراة لابن سينا وغيره علىٰ أوهامهم في (مراتب الصدور) لكانت قصَّة الحقّ من الفلسفة، بل قصَّة العقل كيف يتدرَّج في مسالك المعرفة ويترقّىٰ في مراتب الفلسفة حتَّىٰ يعرف الله والحقّ والخير والجمال.

وقبل أن أقرأ عليك خلاصتها أُريد أن أضع أمام عينيك أهمّ الآراء التي أراد ابن طفيل أن يبيّنها في قصَّته والحقائق التي أراد أن يبسطها في ثنايا قصَّته لتكون عالماً بما بين السطور من مقاصد وأفكار:

أ _ المراتب التي يتدرَّج بها العقل في سُلَّم المعرفة من المحسوسات الجزئية إلىٰ الأفكار الكلّيّة.

ب _ إنَّ العقل الإنساني قادر من غير تعليم ولا إرشاد علىٰ إدراك وجود الله تعالىٰ بآثاره في مخلوقاته وإقامة الأدلَّة الصادقة علىٰ ذلك.

ج _ إنَّ العقل قد يعتريه الكلال والعجز في مسالك الأدلَّة، عندما يريد تصوّر الأزلية المطلقة والعدم المطلق واللانهاية والزمان والقِدَم والحدوث وما شاكل ذلك.

د _ إنَّ العقل سواء ترجَّح لديه (قِدَم العالم أو حدوثه) فإنَّ اللازم من كلّ واحد من الاعتقادين شيء واحد، وهو وجود الله.

ص _ إنَّ الإنسان قادر بعقله علىٰ إدراك أُسس الفضائل، وأُصول الأخلاق العملية والاجتماعية، والتحلّي بها وإخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل من غير إهمال لحقّ الجسد أو تفريط فيه.

و _ إنَّ ما تأمر به الشريعة الإسلاميّة وما يدركه العقل السليم بنفسه من الحقّ والخير والجمال يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف.

ز _ إنَّ الحكمة كلّ الحكمة هي فيما سلكه الشرع من مخاطبة الناس علىٰ قدر عقولهم دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة وأسرارها، وإنَّ الخير كلّ الخير للناس هو في التزام حدود الشرع وترك التعمّق لمن ليس له أهلية ذلك.

مبدأ القصّة:

التلميذ: لقد شوَّقتني إلىٰ استماع قصَّة (حيّ بن يقظان) شوقاً عظيماً.

الأُستاذ: إليك تلخيص القصَّة:

يصوِّر لنا ابن طفيل طفلاً رضيعاً يُسمّىٰ (حيّ بن يقظان)، أُلقي به في جزيرة خالية من الناس، فحنَّت عليه ظبية فقدت ولدها، فأرضعته وتعهَّدته حتَّىٰ أينع، وتعلَّم أصوات الحيوانات، ورآها كاسية مسلَّحة

وهو عار أعزل، فاتَّخذ من الورق والريش ستراً وكساءً، ومن العصي سلاحاً...، ثمّ ماتت الظبية فهاله سكونها وسكوتها، فأراد أن يعرف علَّتها فلم يجد في ظاهرها تغيّراً، فترجَّح عنده أنَّ العلَّة في عضو محجوب عن بصره.

فشقَّ صدرها بالمحدَّد من الأحجار وشقاق القصب اليابس حتَّىٰ اهتدىٰ إلىٰ قلبها فلم يجد في ظاهره آفة، فلمَّا شقه وجد البيت الأيسر منه خالياً، فقال: إنَّ هذا الشيء الذي كان في هذا البيت وارتحل عنه هو الذي أفقد الظبية حياتها.

وأخذ يفكّر في هذا الشيء، فأدرك أنَّ الظبية هي في الحقيقة ذلك الشيء المرتحل وما جسدها إلَّا آلة.

وزاده يقيناً بهذا أنَّه رأىٰ الجسد ينتن، ثمّ رأىٰ غراباً يواري أخاه الميّت، فوارىٰ هو مثله الظبية في التراب.

ثمّ اكتشف النار وقبس منها وأخذ يمتحنها، وجرَّب أن يلقي فيها بعض ما طرحه البحر من الحيوانات، فاهتدىٰ إلىٰ شيء من اللحوم وإنضاجها...

وزاد عجبه من هذه النار التي لها قوىٰ كثيرة، وخطر بباله أنَّ الشيء الذي ارتحل من قلب الظبية قد يكون من جوهر النار، فأخذ يبحث عن ذلك بتشريح الحيوانات، فتعلَّم كثيراً من وظائف أعظائها، ثمّ بدا له أن يعمِّر بيتاً يأوي إليه، وأن يتَّخذ أسلحة يدافع فيها عن نفسه ويصطاد بها الحيوانات.

وكان قد بلغ العام الحادي والعشرين من عمره، فأخذ يتأمَّل في هذا الكون وما فيه من حيوانات ونباتات ومعادن، فرأىٰ لها أوصافاً

كثيرة، وأفعالاً مختلفة، وأنَّها تختلف في بعض الصفات وتتَّفق في بعضها، فتكوَّنت عنده فكرة (الكثرة)، ثمّ أخذ ينظر إلىٰ الحيوانات والنباتات...، فتكوَّنت عنده فكرة (النوع) وفكرة (الجنس)، ثمّ نظر إليها وإلىٰ الجماد...، فتكوَّنت عنده فكرة (الروح)، فعظم في عينه أمر (الروح) وعلم أنَّها أعظم وأسمىٰ من الجسد الفاني الذي هو من سنخ الجماد إذا فقدت منه الروح.

ثمّ عاد إلىٰ التفكير فتكوَّنت عنده فكرة (الحدوث)، وعلم أنَّ كلّ حادث لا بدَّ له من محدِث، ثمّ جعل يفكّر فحدث عنده ضرورة حدوث هذه الأشياء وأنَّها مسبقة بالعدم، وفكَّر في أنَّه يستحيل علىٰ من أوجدها أن يكون محدَثاً ومسبوقاً بالعدم، وليس بجسم لأنَّه لو كان جسماً لاحتاج إلىٰ محدِث، ولو كان المحدِث الثاني جسماً لاحتاج إلىٰ محدِث ثالث، والثالث إلىٰ رابع، ويتسلسل إلىٰ غير نهاية أو يدور، وكلاهما باطل بالضرورة، فلا بدَّ أن يكون المحرِّك الأوَّل بريئاً عن المادّة وعن صفات الأجسام، فانتهىٰ (حيّ بن يقظان) من هذا الطريق إلىٰ ثبوت الخالق الموجود بذاته المباين لمخلوقاته، ولم يضرّه تشكّكه في قِدَم العالم وحدوثه.

ثمّ رأىٰ أنَّه يتوجَّب عقلاً أن يكون الخالق لهذه الموجودات عظيماً في جميع صفات الكمال من علم وقدرة وإرادة واختيار ورحمة وحكمة.

ولـمَّا حصلت له المعرفة بهذا الخالق العظيم، أراد أن يعرف بأيّ شيء اهتدىٰ إلىٰ معرفته، فرأىٰ أنَّ الحواسّ عاجزة عن هذا الإدراك، لأنَّها ليس لها أهلية المقارنة والموازنة، فتبيَّن له أنَّ ذاته التي أدرك بها هذا الخالق العظيم، فأخلص له في الشكر والحمد علىٰ ما أنعم عليه من وجود حياة بعد العدم، وجهَّزه بحواسّ وعقل استطاع بواسطة ذلك إلىٰ معرفته وشكره.

ثمّ ينتقل ابن طفيل في القصَّة إلىٰ وصف جزيرة قريبة من جزيرة (حيّ بن يقظان) فيها ملَّة تدين بدين الإسلام...، وأنَّه كان من جملة المؤمنين بدين الإسلام فتيان أحدهما يُدعىٰ (سالم) والآخر (سلمان)، فأخذا يتفقّهان في دين الإسلام وتعاليمه، ويحاولان إدراك ما وراء تلك الشريعة من صفات الله وملائكته وأخبار المعاد.

فكان سالم أشدُّ غوصاً علىٰ الباطن من سلمان، وكان سلمان أشدُّ احتفاظاً بالظاهر من رفيقه سالم، فانصرف سالم إلىٰ اعتزال الناس، وانصرف سلمان إلىٰ معاشرة الناس، واختلفت أنظارهما في طريق السلامة، حسب ما اختار كلّ منهما لنفسه، ثمّ ارتحل سالم إلىٰ الجزيرة التي يسكنها (حيّ بن يقظان) واجتمع بحيّ، فلمَّا سمع قراءة سالم ورأىٰ صلاته وتسبيحه ودعاءه، أدرك أنَّه من الذوات العارفة، لكنَّه لم يفهم كلامه، فجعل سالم يُعلِّم حيَّاً أسماء الأشياء كلّها حتَّىٰ استطاع النطق والكلام، حتَّىٰ انتهىٰ به إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، فلمَّا سمع حيّ منه جعل يخبره بحاله وكيف أنَّه ترقّىٰ بالتفكير حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، فتطابق عنده (المعقول والمنقول)، وتطابق ما عرفه من سالم لما وصل إليه بعقله وتفكيره...

فآمن بنبيّ الإسلام وشريعته وصدَّق بكلّ ما جاء به من عند خالقه، وحدَّث (حيّ بن يقظان) نفسه أن يتَّصل بالناس ويُحدِّثهم بما اتَّضح له من الحقّ بالمشاهدة والتفكير، واتّخاذ العقل السليم دليلاً وهادياً حتَّىٰ وصل إلىٰ بغية مراده، وفاوض صديقه سالم بذلك فترك له الخيار لنفسه من الانعزال والبقاء في مكانه أو الارتحال والسفر.

فاختار الارتحال، وقيَّض الله لهما سفينة مارّة فأقلّتهما إلىٰ جزيرة

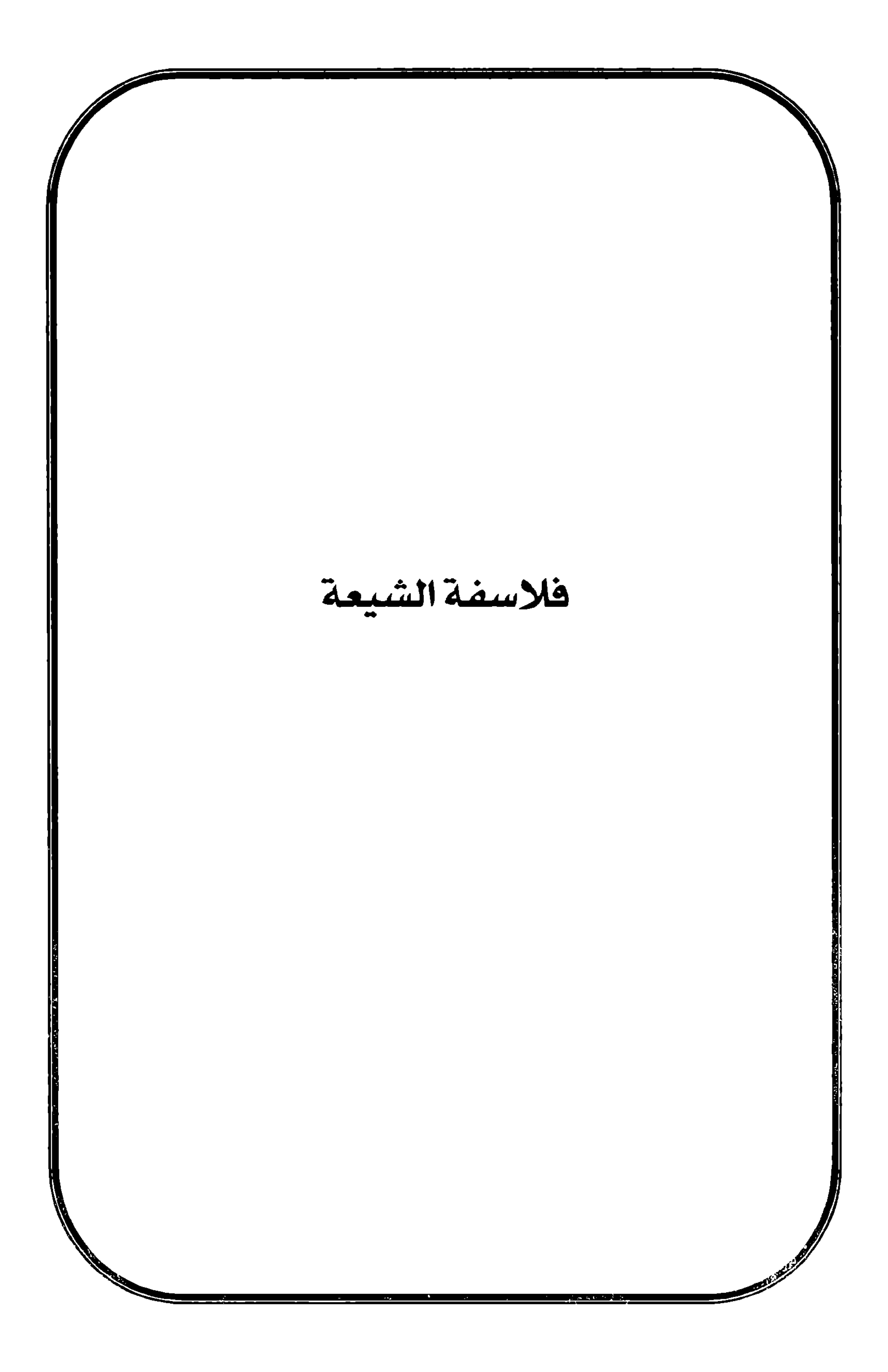
سلمان، واجتمع سالم به وبأصحابه وعرَّفهم بحال (حيّ بن يقظان) ومقامه فأعظموه وبجَّلوه وأقبلوا عليه.

فشرع (حيّ) في تعليمهم وبثّ أسرار الحكمة إليهم، فما خرج عن الظاهر إلَّا قليلاً حتَّىٰ جعلوا ينقبضون عنه، فيئس من إخلاصهم وهم خاصّة القوم، فكيف بحال العامّة الذين وجدهم متكالبين علىٰ الدنيا، منغمسين في الجهالة، فتحقَّق لديه أنَّ مخاطبة الناس بطريق المكاشفة لا ينفعهم لمضادَّته مع شهواتهم وأهوائهم.

ثمّ ودَّعهم وعاد مع صاحبه سالم إلىٰ جزيرته وبقيا فيها يعبدان الله تعالىٰ حتَّىٰ أتاهما اليقين.

والحمد لله ربّ العالمين، وبه نستعين علىٰ القوم الظالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولىٰ ونعم النصير.

* * *



فلاسفة الشيعة

رجال من الشيعة عُرفوا بالفلسفة:

قد تكون هذه المحاولة هي الأُولىٰ من نوعها لدرس فلاسفة الشيعة في نطاق معيَّن محدود، للتعريف بشخصياتهم وبظروفهم، ولعرض بعض آرائهم البارزة، ومناهجهم العلمية، لتكون في متناول من يريد دراسة الفلسفة الإسلاميّة، صورة واضحة نقيّة، تعكس لهم دافع الفكر الإسلامي دون التواء أو انحراف.

لا بدَّ لي من الاعتراف بأنَّه لم يحن الوقت الكافي بعد لكتابة تاريخ نهائي لفلاسفة الشيعة ومفكّريهم، إذ لم تصل معرفتنا بهم درجة كافية من الإحاطة والاستيعاب، تسمح لنا بالقيام بمثل هذه المحاولة الضخمة، التي تحتاج إلىٰ جهود متضافرة عديدة، تقوم بها جماعات كثيرة لا شخص واحد.

فهناك فلاسفة من الشيعة محاطون بشيء كثير من الغموض والإيهام، وهناك مؤلَّفات عديدة أُهملت قروناً أو فُقِدَت في ظلّ ظروف صعبة مُني بها الشيعة منذ العصور الأُولىٰ الإسلاميّة حتَّىٰ عصر قريب، كان الرعب والتشريد يطاردهم فيها في كلّ دروب الأرض.

كانت تلك الظروف السياسية الصارخة بالرعب والدم عاملاً قويَّاً في اختفاء مفكّريهم، وضياع آثارهم ومؤلَّفاتهم، وفي تراكم الأساطير من حولهم.

لذلك كان الباحث قبل اليوم مضطرَّاً في الرجوع لمعرفة تاريخهم

ومـذاهبهم وألـوان تفكـيرهم، إلىٰ مؤلَّفـات خصـومهم المتحـاملين، وإلىٰ كتب وضعت في زحمة تلك الظروف القاسية.

ومـن هنـا أمكـن لنـا أن نلـتمس العـذر لأُولئـك الـذين كتبـوا عـن الشيعة مفكّريهم وآرائهم في ظـلّ تلـك الحقـب الماضـية، ومتَّكئـين عـلىٰ تلـك المؤلَّفـات التـي وُضِـعَت بـوحي السياسـة والطائفيـة والعصـبية، وجـاءت دراسـتهم مشـوَّهة لا تعكـس واقـع الفكـر الشـيعي، ولم تعـطِ صـورة صحيحة نفيسة عنه.

أمَّـا هـؤلاء المعـاصرون الـذين يعيشـون مـع الشـيعة ومفكّـريهم وعلمائهـم جنبـاً إلىٰ جنـب، في أرض واحـدة، تظلّهـم سـماء واحـدة، ويكتبـون عـنهم كـما لـو كـانوا في عصـر الاضـطهاد السـحيق، ويعتمـدون عـلىٰ كتـب خصـومهم في جـلاء حقيقـتهم وبيـان مـذاهبهم وآرائهـم، أمَّـا هؤلاء الذين يجـترون أقـوال المتحـاملين منـذ العصـور الأُولىٰ، الـذين عاشـوا في ظـروف سياسـية معروفـة، فـلا أظـنّ أن يجـدوا لدراسـتهم المنحرفـة إلىٰ العذر سبيلاً.

لهـذه الأسـباب رأيـت أن أضـع هـذا الكتـاب، للتعريـف بفلاسـفة الشـيعة وتـاريخهم، ولبيـان آثـار مفكّـريهم ومؤلَّفـاتهم، وإشـارة مقتضـبة للمواضـيع التـي تناولوهـا بالبحـث والتفكـير، سـدّاً لفـراغ كبـير في مكتبتنـا العربية[١].

* * *

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٣ و١٤.

حكماء القرن الثاني

(١)
جابر بن حيّان[1]

نظرة عامّة في حياته:

جابر بن حيّان الكوفي، مقتطفة من كتاب (فلاسفة الشيعة): من المدهش _ حقّاً _ أن نجد جابر بن حيّان أوّل رائدٍ عربي صميم، احتضن العلوم الكونية بملء إهابه، وعكف عليها بقلبه وعقله، وامتزج بها بروحه ودمه، يدرسها ويبحثها ليدرك أسرارها، ويكتشف مجهولاتها، علىٰ أساس مبدأ التجربة والاختبار، وعلىٰ أساس تغيّر الطبيعة بالطبيعة، لا بالفرضيات والأشكال المنطقية.

من المدهش أن يكون جابر من أُولئك الذين سبقوا عصورهم بعصور كثيرة، وحاولوا أُموراً كانت تُحسَب من الأحلام حتّىٰ عصر متأخّر، وذلك في وحدة العناصر وإمكان انقلابها من شيء إلىٰ شيء، ولكن ما كانوا يحلمون به قد أصبح اليوم حقيقة راهنة، ولم يقف التحويل الذي عالجوه علىٰ الانقلاب من عنصر إلىٰ عنصر، بل تحوّل العنصر إلىٰ طاقة، وبذلك أمكن تحطيم الذرَّة والحصول علىٰ طاقتها الهائلة.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٨٤؛ أعيان الشيعة ١٥: ١١٥؛ روضات الجنّات ٢: ٢١٨؛ أعلام العرب في الكيمياء: ٣٦؛ طبقات الأُمم: ٨٠؛ إخبار العلماء: ١١١؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٣٦٩؛ موسوعة أعلام المورد: ١٥٥؛ معجم المؤلّفين ٣: ١٠٥؛ الأعلام ٢: ١٠٣.

كان جابر من أُولئك المفكّرين الذين أطلقوا الفكر من عقاله، وكانوا من روّاد الحضارة البشرية، والذين مهَّدوا السبل لفهم الطبيعة، وتعمَّقوا في إدراك أسرار الكون، والذين كان عصرنا الحاضر مديناً لأمثال هؤلاء الذين عبَّدوا له الطريق، وأناروا له السبيل، ولولا هؤلاء لتأخَّر سير الحضارة أجيالاً كثيرة، ولكان علىٰ عصرنا الحاضر أن يبدأ من أوَّل الطريق من حيث ابتدأ أُولئك.

نقول: ذلك يوم كانت أكثر المعارف في دور التكوين، ولم تكن لتتَّخذ العلوم طريقها المعبَّد ذا الوحدة الموضوعية، التي اتَّخذتها فيما بعد.

ونحن إذ نذكر جابر بن حيّان نذكر أوَّل ماردٍ علمي، يظهر أمامنا منتصباً علىٰ قدميه في ميدان العلوم، وبخاصّة في ميدان الكيمياء، ونذكر به كذلك الدور العظيم الذي ساهم في تطوّر الناحيتين: النظرية والعلمية، المبنيّة علىٰ أساس التجربة والاختبار، والتي كانت من أهمّ الدعائم في دفع الصناعة، وبلوغها في عصرنا الحاضر إلىٰ المستوىٰ الرفيع المثمر، والتي كان من أثرها السيطرة الرائعة للإنسان علىٰ كثير من قوىٰ الطبيعة، والتعرّف علىٰ أسرار كثيرة من الكون.

ومهما يكن من شيء، فإنَّ جابر بن حيّان _ دون ريب _ من قمم الفكر والثقافة العربية، ومن مفاخر المسلمين التي لا تُنكَر.

فهو أحد الأمجاد التي تفاخر الشعوب؛ الذي تنحني له الأجيال بإجلال وتقدير.

وبالرغم من أنَّ جابر بن حيّان أحد العباقرة الذين اشتغلوا بالفلسفة والمنطق والطبّ والرصد والرياضيات والكيمياء والميكانيك والفلك وسواها من المعرفة الإنسانية، إلَّا أنَّه طغت عليه شهرته بالكيمياء وعُرِفَ بها، وبأنَّه إمام هذا الفنّ من غير منازع.

وجاء الباحثون من بعده من قديم وحديث ومعاصر، يدرسون جابراً علىٰ أساس هذه الشهرة، ونظروا إليه من هذه الزاوية، حتّىٰ قال عنه برتيلو: لجابر بن حيّان في الكيمياء، ما لأرسطو في المنطق.

ويعتبر برتيلو أيضاً أنَّ جميع الباحثين العرب في هذا العلم نقلوا عن جابر، واعتمدوا علىٰ تآليفه وبحوثه[١]، وأنَّ إليه يعود الفضل في حمل عصبة من التلامذة المجتهدين علىٰ متابعة البحوث عدَّة قرون، فمهَّدوا بذلك لعصر العلم الحديث[٢].

ويعتبره سارطون من أعظم الذين برزوا في ميدان العلم في القرون الوسطىٰ[٣].

أمَّا الجوانب الأُخرىٰ لجابر، جوانب الفلسفة والطبّ والمنطق والفلك والرياضيات وغيرها، فلم نجد أحداً تناولها بالبحث، أو أعطاها جانباً من العناية والاهتمام.

ولعلَّ السبب المقبول في ذلك، أنَّ آثاره في تلك الجوانب الأُخرىٰ غير الكيمياء، قد ضاعت ودرست، فلم تستبن حقيقة مكانته منها، أو الوقوف علىٰ خطوط تفكيره فيها، لذلك أُهملت دراسته إلَّا من هذه الزاوية، زاوية الكيمياء التي قامت شهرته عليها.

مع أنَّ فهرست مؤلَّفاته قد اشتمل علىٰ أعداد هائلة، وضعها في الطبّ والفلسفة والميكانيك، كما اشتمل علىٰ أسماء مؤلَّفات وضعها في الرصد والزهد والوعظ، هذا عدا ما وضعه من المؤلَّفات الكثيرة في الكيمياء التي تطغىٰ علىٰ جدول مؤلَّفاته.

---

(١) أُنظر: الخالدون العرب: ١٦ و١٧.

(٢) أُنظر: الخالدون العرب: ١٩.

(٣) المصدر السابق.

فقد وضع (١٣٠٠) مؤلَّفاً في الحيل (الميكانيك)، و(٥٠٠) مؤلَّفاً في الطبّ، و(٥٠٠) مؤلَّفاً في النقض علىٰ الفلاسفة، و(٣٠٠) مؤلَّفاً في الفلسفة، ومنها كتاب أسماه (الجاروف) الذي نقضه عليه المتكلِّمون، وسوىٰ ذلك ممَّا عفىٰ عليه الزمن، وضاع فيما ضاع من آثار المفكّرين الإسلاميّين، وضاع بها جهد كبير من فكر جبّار، وآراء عبقري موهوب، لا تستطيع البشرية أن تأتي به ساعة تريده...

كان متقدّماً في العلوم الطبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة مشهورة، وكان مع هذا مشرفاً علىٰ كثير من علوم الفلسفة، ومتطلّعاً للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو مذهب المتصوّفين في الإسلام[1].

وقال الدكتور إسماعيل مظهر في كتابه (تاريخ الفكر العربي): لعلَّ جابر بن حيّان أشهر من أن يذكره تاريخ العلم في العصر العربي، وقد أنزلته آثاره الجليلة مكاناً مرموقاً بين العلماء، حتَّىٰ اعترفوا بفضله.

قال القِفطي: ... كان متقدّماً في العلوم الطبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة مشهورة، وكان مع هذا مشرفاً علىٰ كثير من علوم الفلسفة، ومتقلِّداً للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو من المتصوّفين في الإسلام.

وقال الدكتور إسماعيل مظهر في كتابه (تاريخ الفكر العربي): لعلَّ جابر بن حيّان من أشهر من يذكره تاريخ العلم في العصر العربي من العلماء، فإنَّ اسمه يقترن من حيث الشهرة، ومن حيث الأثر النافع بأسماء العظماء من روّاد الحضارة والعمران.

---

(١) المصدر السابق.

وقال عنه برتيلو الفرنسي في كتابه (تاريخ الكيمياء) كما سبق: إنَّ اسم جابر ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم أرسطوطاليس في تاريخ المنطق. وعُرِفَ جابر بن حيّان في العالم اللاتيني باسم (جبير).

وهو عند سارطون من أعظم الذين برزوا في ميدان العلم في القرون الوسطىٰ، وعند يكارك من أكبر العلماء في القرون الوسطىٰ، وأعظم علماء عصره.

وتبدو عبقرية جابر ومواهبه، بأنَّه كان عالماً بالكيمياء بالمعنىٰ الصحيح، فقد درسها دراسة وافية، ووقف علىٰ ما أنتجه الذين سبقوه، وعلىٰ ما بلغته المعرفة في هذا العلم في عصره، وبأنَّه أخضع الكيمياء للتجربة والملاحظة والاختبار.

وقد ابتكر شيئاً جديداً في الكيمياء، فأدخل ما سمّاه علم الموازين، ووضع كتباً فيه، كما نلحظ ذلك من أسماء كتبه، والمقصود به معادلة ما في المعادن من طبائع، فجعل لكلّ من الطبائع ميزاناً، ولكلّ جسد من الأجساد موازين خاصّة بطبائعه...

ويرىٰ بعضهم في هذا الرأي وفيما ورد عنه من التفصيلات في كتب جابر وجاهةً وقيمةً، ونظيراً في بعض ما جاء في النظريات الحديثة عن تركيب العناصر، وإمكان استحالة بعضها في بعض[١].

وتتجلّىٰ مواهبه في أنَّه أوَّل من استحضر (الحامض الكبريتيك) بتقطيره من الشبه، وسمّاه (زيت الزاج)، ولسنا بحاجة إلىٰ القول: إنَّ هذا عمل عظيم له أهمّيته الكبرىٰ في تاريخ تقدّم الكيمياء والصناعة، وكيف لا وتاريخ الحضارة يُقاس بما تخرجه الأُمم من هذا الحامض،

---

(١) الخالدون العرب: ٢٠ و٢١.

واستحضـر أيضاً (حـامض النتريـك)، كـما أنّـه أوّل مـن كشـف (الصـودا الكاويـة)، وأوّل مـن استحضـر (مـاء الـذهب)، وأوّل مـن أدخـل طريقـة فصل الذهب عن الفضَّة بالحلّ بواسطة الحامض.

ولا تـزال هـذه الطريقـة تسـتخدم إلىٰ الآن في تقـدير عيـارات الـذهب في السـبائك الذهبيـة وغيرهـا، وهـو _ كـذلك _ أوّل مـن لاحـظ مـا يحـدث مـن راسـب (كلـورور الفضَّـة) عنـد إضـافة محلـول ملـح الطعـام إلىٰ محلـول نترات (الفضَّة).

ويُنسَـب إليـه استحضـار مركَّبـات أُخـرىٰ غـير التـي مـرَّت، كــ (كربونــات البوتاســيوم)، و(كربونــات الصــوديوم)، واســتعمل (ثــاني أُوكسـيد المنغنيـز) في صـنع الزجـاج، ودرس خصـائص ومركَّبـات (الزئبـق) واستحضـرها، وقـد اسـتُعْمِلَ بعضـها فـيما بعـد في تحضـير الأُوكسـيجن، ولا يخفـىٰ أنَّ جميـع هـذه المركَّبـات ذات أهمّيـة كـبرىٰ في عـالم الصـناعة، فبعضـها يُسـتعمَل في صـنع المفرقعـات والأصـبغة، وبعضـها الآخـر في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي.

ويمتـاز جـابر عـلىٰ سـواه مـن العلـماء بكونـه في مقدمـة الـذين عملـوا التجـارب عـلىٰ أسـاس علمـي، هـو الأسـاس الـذي نسـير عليـه الآن في المعامل والمختبرات.

لقـد دعـا جـابر إلىٰ الاهـتمام بالتجربـة، وحـثَّ عـلىٰ إجرائهـا مـع دقَّـة الملاحظـة. كـما دعـا إلىٰ التـأنّي وتـرك العجلـة، وقـال: (إنَّ واجـب المشـتغل بالكيميـاء هـو العمـل وإجـراء التجربـة، وإنَّ المعرفـة لا تحصـل إلَّا بهـا)، وطلب من الـذين يعنـون بـالعلوم الطبيعيـة أن يحـاولوا عمـل شيء مسـتحيل أو عـديم النفـع، وأن يعرفـوا السـبب في إجـراء كـلّ عمليـة، وأن يفهمـوا

التعليمات جيّداً، لأنَّ لكلّ صنعة أساليبها الغنيّة علىٰ حدٍّ قوله[١]. (انتهىٰ عن فلاسفة الشيعة).

أقوال العلماء فيه:

جاء في (أعيان الشيعة)[٢]: كان حكيماً رياضياً فيلسوفاً منجّماً طبيباً منطقياً رصدياً مؤلِّفاً مكثراً في جميع هذه العلوم، وغيرها: كالزهد والمواعظ، من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام وأحد أبوابه، ومن كبار الشيعة، وما يأتي عند تعداد مؤلَّفاته يدلُّ علىٰ أنَّه كان من عجائب الدنيا ونوادر الدهر.

وإنَّ عالماً يؤلِّف ما يزيد علىٰ (٣٩٠٠) كتاب في علوم جلّها عقلية وفلسفية لهو حقَّاً من عجائب الكون.

فبينا هو فيلسوف حكيم، ومؤلِّف مكثر في الحيل والنير النيرنجات والعزائم، ومؤلِّف في الصنائع وآلات الحرب، إذ هو زاهد واعظ مؤلِّف كتباً في الزهد والمواعظ، ومن يكون بهذه الإحاطة في العلوم متىٰ يتَّسع وقته لتأليف (١٣٠٠) كتاب في الحيل _ كما يأتي _؟ ومن لا يكون متخصّصاً بعلم الطبّ ولا مشهوراً به، كيف يؤلِّف فيه (٥٠٠) كتاب، وأيُّ شيء أغرب من أن يكون _ وهو فيلسوف _ يؤلِّف (٥٠٠) كتاب نقضاً علىٰ الفلاسفة.

وإنَّ هذه الكتب التي تُعَدُّ في العلم الواحد بـ (١٣٠٠) كتاب، و(٥٠٠) كتاب، و(٣٠٠) كتاب، و(١٣٠٠) رسالة مهما صغر حجمها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أعيان الشيعة ٤: ٣٠.

لهي دالّة علىٰ باع طويل وهمَّة شمّاء، وهو مع ذلك يشتغل بصناعة الكيمياء حتَّىٰ صار أشهر من يُنسَب إليه هذا العلم، وذلك يحتاج إلىٰ زمن طويل وجهد عظيم.

ويكفي في تفرّد الرجل أنَّ كتبه بقي كثير منها محفوظاً في مكاتب الغرب والشرق، وطُبِعَ جملة منها.

قال علي بن يوسف القِفطي في (تاريخ الحكماء): جابر بن حيّان الصوفي الكوفي كان متقدّماً في العلوم الطبيعية، بارعاً في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنَّفات مشهورة، وكان مع هذا مشرفاً علىٰ كثير من علوم الفلسفة، ومتقلِّداً للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو مذهب المتصوّفين كالحارث بن أسد المحاسبي، وسهل بن عبد الله التستري ونظرائهم.

وذكر محمّد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن المشّاط الإصطرلابي الأندلسي:

أنَّه رأىٰ لجابر بن حيّان بمدينة مصر تأليفاً في عمل الإصطرلاب يتضمَّن ألف مسألة لا نظير له.

قال ابن خلّكان في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام:

له كلام في صناعة الكيمياء والزجر والفأل، وكان تلميذه أبو موسىٰ جابر بن حيّان الصوفي الطرسوسي قد ألَّف كتاباً يشتمل علىٰ ألف ورقة تتضمَّن رسائل جعفر الصادق، وهي خمسمائة رسالة[1].

وقال السيّد علي بن طاووس الحسني الحلّي في كتابه (فرج المهموم

---

(١) وفيات الأعيان ١: ٣٢٧.

بمعرفة علم النجوم) عند ذكره لجماعة من الشيعة كانوا عارفين بعلم النجوم: ومنهم جابر بن حيّان صاحب الصادق عليه السلام[١].

وقال كرنيلوس فانديك في مقالته (أطبّاء الشرق) المنشورة في مجلّة المقتطف لعام (١٨٧٦م) ما لفظه:

أبو عبد الله جعفر بن محمّد بن علي الصادق السادس من الأئمّة المستورين العلويين ألّف في الهيأة والكيمياء والرمل، وتوفّي في المدينة سنة (١٤٨هـ/ ٧٦٠م)، وأبو موسىٰ جابر بن حيّان الصوفي الطوسي مولداً الكوفي مسكناً، من تلامذة جعفر الصادق، واشتهر في الكيمياء، وجمع خمسمائة رسالة من رسائل جعفر في ألف صفحة، طُبِعَ مؤلّفه في ستراسبورج سنة (١٥٣٠م)، وطُبِعَ أُصول الكيمياء لجابر في باستل سنة (١٥٧٤م)، وكتاب له في الهيأة طُبِعَ في نورسبرج.

وذكره ابن النديم في رجال الشيعة.

وقد روىٰ الحسين بن بسطام بن سابور، وأخوه أبو عتاب (أو غياب) عبد الله بن بسطام بن سابور الزيّات، عن جابر بن حيّان، عن الإمام الصادق عليه السلام، في كتابهما المعروف بـ (طبّ الأئمّة).

وفي (روضات الجنّات): أبو موسىٰ جابر بن حيّان الصوفي الطرسوسي، كان من مشاهير قدماء العلماء بالأفانين الغريبة من الكيمياء والليمياء والهيمياء والسيمياء والريمياء، وسائر علوم السرّ والجفر الجامع وأمثال ذلك.

وقال اليافعي في (مرآة الجنان): ألّف جابر بن حيّان الصوفي تلميذ

---

(١) فرج المهموم: ١٤٦.

جعفر الصادق كتاباً يشتمل علىٰ ألف ورقة، يتضمَّن رسائله، وهي خمسمائة رسالة.

وفي (عيون الأنباء) في ترجمة أبي بكر محمّد بن زكريا الرازي، أنَّه نقل كتاب (الأُس) لجابر إلىٰ الشعر.

وفي ترجمة عبد اللطيف البغدادي أنَّه قال: ورد إلىٰ بغداد رجل مغربي قد أمعن في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها، وأتىٰ علىٰ كتب جابر بأسرها.

ثمّ قال عبد اللطيف عن نفسه: وحصَّلت كثيراً من كتب جابر بن حيّان الصوفي.

كلّ ذلك يدلُّنا علىٰ اشتهار الرجل وكتبه واعتناء العلماء بها، ويعبِّر عنه الرازي بأُستاذنا، كما في الفهرست لابن النديم، وترجم بعض كتبه كما مرَّ عن عيون الأنباء.

قال ابن النديم في (الفهرست)[1]: أخبار جابر بن حيّان وأسماء كتبه: هو أبو عبد الله جابر بن حيّان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي، واختلف الناس في أمره، فقالت الشيعة: إنَّه من كبارهم وأحد الأبواب ـ يعني أبواب أئمّة أهل البيت وحملة علومهم ـ، وزعموا أنَّه كان صاحب جعفر الصادق، وكان من أهل الكوفة، وزعم قوم من الفلاسفة أنَّه كان منهم وله في المنطق والفلسفة مصنَّفات. وزعم أهل صناعة الذهب والفضَّة أنَّ الرياسة انتهت إليه في عصره، وأنَّ أمره كان مكتوماً. قال: وزعموا أنَّه كان ينتقل في البلدان لا يستقرّ به بلد خوفاً من

(١) فهرست ابن النديم: ٤٢٠ و٤٢١.

السلطان علىٰ نفسه. وقيل: إنَّه كان في جملة البرامكة ومنقطعاً إليهم ومتحقّقاً بجعفر بن يحيىٰ، فمن زعم هذا قال: إنَّه عنىٰ بسيّده جعفر هو البرمكي، وقالت الشيعة: إنَّما عنىٰ جعفر الصادق. وحدَّثني بعض الثقات ممَّن تعاطىٰ الصنعة _ أي صنعة الكيمياء _ أنَّه كان ينزل في شارع باب الشام في درب يُعرَف بدرب الذهب، وقال لي هذا الرجل: إنَّ جابراً كان أكثر مقامه بالكوفة، وبها كان يدبّر الإكسير لصحَّة هوائها، ولـمَّا أُصيب بالكوفة الأزج الذي وجد فيه هاون ذهب فيه نحو مائتي رطل، ذكر هذا الرجل أنَّ الموضع الذي أُصيب ذلك فيه كان دار جابر بن حيّان، فإنَّه لم يصب في ذلك الأزج غير الهاون فقط، وموضع قد بني للحلّ والعقد هذا في أيّام عزّ الدولة ابن معزّ الدولة، وقال لي أبو سبكتكين دستارداد: إنَّه هو الذي خرج ليستلم ذلك. وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الورّاقين: إنَّ هذا الرجل _ يعني جابراً _ لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال: إنَّه ما صنَّف _ إن كان له حقيقة _ إلَّا كتاب الرحمة، وإنَّ هذه المصنَّفات صنَّفها الناس ونحوله إيّاها.

وأنا أقول: إنَّ رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنِّف كتاباً يحتوي علىٰ ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه ثمّ ينحله لغيره إمَّا موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل، وإن كان لا يستمرّ علىٰ أحد ولا يدخل تحته من تحلّىٰ ساعة واحدة بالعلم، وأيُّ فائدة في هذا وأيُّ عائدة، والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصانيفه أعظم وأكثر، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة أنا أُوردها في مواضعها، وكتب في معانٍ شتّىٰ من العلوم قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب، انتهىٰ.

وقال إسماعيل مظهر في كتابه (تاريخ الفكر العربي): لعلَّ جابر بن حيّان أشهر من يذكره تاريخ العلم في العصر العربي من العلماء، فإنَّ اسمه يقترن من حيث الشهرة ومن حيث الأثر النافع بأسماء العظماء من روّاد الحضارة والعمران، ولقد قال فيه الأُستاذ برتيلو المؤلِّف الفرنسي صاحب كتاب تاريخ الكيمياء في القرون الوسطىٰ: إنَّ اسمه ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم أرسطوطاليس في تاريخ المنطق، فكأنَّ جابراً عند برتيلو أوَّل من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمه في تاريخ الدنيا، وقد عُرِفَ جابر بن حيّان في العالم اللاتيني باسم جيبر.

عاش جابر بن حيّان في بلاط هارون الرشيد في بغداد، وكان علىٰ صلة حسنة بالبرامكة، والظاهر من سيرته أنَّه كان أشدّ تعلّقاً بهم منه بخليفة المسلمين، لأنَّ البرامكة كانوا يعلّقون علىٰ علم الكيمياء شأناً كبيراً، وكانوا يشغلون بذلك العلم ويدرسونه درساً عميقاً، ولقد ذكر جابر في كتابه الخواصّ كثيراً من المحاورات التي وقعت بينه وبينهم في معضلات هذا العلم، والظاهر أنَّه كان له نصيب من الاشتغال بعلم الطبّ وطرق العلاج، لأنَّه كان من الشائع في ذلك العهد أن يقترن العلم بالكيمياء بالعلم في صناعة الطبّ، انتهىٰ.

ثمّ حكىٰ عن الجلدقي في كتابه (نهاية المطلب) أنَّه روىٰ كثيراً ممَّا عانىٰ الكيمياويون من العرب في أوَّل اشتغالهم بهذا العلم من الاضطهاد والمصاعب، وذكر عن جابر بن حيّان أنَّه خلص من الموت مراراً عديدة، كما أنَّه قاس كثيراً من انتهاك الجهلاء لحرمته ومكانته، وأنَّهم كانوا يحسدونه علىٰ علمه وفضله، وأنَّه اضطرَّ إلىٰ الإفضاء ببعض أسرار الصناعة (أي الكيمياء) إلىٰ هارون الرشيد وإلىٰ يحيىٰ البرمكي وابنيه الفضل وجعفر، وأنَّ ذلك هو السبب في غناهم

وثروتهم، ولـمّا ساورت الرشيد الشكوك في البرامكة وعرف أنَّ غرضهم نقل الخلافة إلىٰ العلويين مستعينين علىٰ ذلك بمالهم وجاههم وقتلهم عن آخرهم، اضطرَّ جابر بن حيّان أن يهرب إلىٰ الكوفة خوفاً علىٰ حياته، حيث ظلَّ مختبئاً إلىٰ أيّام المأمون فظهر بعد احتجابه، انتهىٰ.

ويستفاد ممَّا سلف أُمور وهي: تشيّعه، وعلمه بصناعة الكيمياء، وتصوّفه، وفلسفته، وتلمّذه علىٰ الصادق عليه السلام، واشتهاره عند أكابر العلماء، واشتهار كتبه بينهم اشتهاراً لا مزيد عليه.

وعن صاحب (رياض العلماء) أنَّه قال في ترجمة جابر بن حيّان المذكور: قال الحكيم سلمة بن أحمد المجريطي في كتاب (غاية الحكم) بعد نقل مهارة أبي بكر محمّد بن زكريا الرازي في علوم الطلسمات ونحوها من العلوم الحكمية بهذه العبارة:

وأمَّا البارع في هذه الصناعة علىٰ الإطلاق، فهو المقدَّم فيها الشيخ الأجلّ أبو موسىٰ جابر بن حيّان الصوفي منشئ كتاب المنتخب في صنعة الطلسمات، وكتاب الطلسمات الكبير الذي جعله خمسين مقالة، وكتاب المفتاح في صور الدرج وتأثيراتها في الأحكام، وكتاب الجامع في الإسطرلاب علماً وعملاً، يحتوي علىٰ ألف باب ونيف، ذكر فيه من الأعمال العجيبة ما لم يسبقه إليه أحد، وما ظنّك بكتابه الكبير في الطلسمات الذي جمع فيه من العلوم عجائب ما تشاح القوم عليها ولم يتسامحوا بذكرها من علم الطلسمات والصور والخواصّ وأفعال الكواكب وأفعال الطبايع وتأثيرها، وهو المنبئ لعلم الميزان والمستنبط له بعد دثوره، فبحث ما صيَّرت نفسي لهذا الرجل تلميذاً علىٰ بعد ما بيننا من المدَّة.

وأقول: قد كان المجريطي المذكور إلىٰ ما بعد ثلثمائة وخمسين أيضاً، فجابر بن حيّان هذا من الأقدمين.

وقال بعض أفاضل هذه الصنعة في ديباجة السفر الأوَّل من كتاب (المصباح في علم المفتاح): واعلم أنَّ الحكماء المتأخّرين من أهل هذه الصنعة أجمعوا علىٰ الأوصل المتقدّم ذكرها أيضاً، ولكنَّهم افترقوا في شرح كلام القوم علىٰ أنحاء كثيرة فكلّ منهم تكلَّم بكلام فتح عليه من الرموز ووضع الأسماء والكنايات، مثل الأمير خالد بن يزيد فإنَّه أبدع في كتابه الفردوس ما لا يخفىٰ علىٰ أهل التحصيل، وله في المنثور كتب أُخرىٰ ومصنَّفات عالية وقفنا عليها واستفدنا منها، ومن بعده الأُستاذ الكبير جابر بن حيّان فإنَّه الأُستاذ العظيم الشأن، هو أُستاذ كلّ من وصل بعده إلىٰ هذه الصناعة الكريمة، لكنَّه فرَّق العلم في كتب كثيرة، فمن اطَّلع علىٰ كثير من كتبه وكان من أهل الفهم والإشراق فإنَّه يستفيد منه ما قسم له من أسباب الوصول.

ثمّ من بعده الإمام مؤيّد الدين الطغرائي، وأعلىٰ كتبه (المصابيح والمفاتيح)، والأُستاذ الكبير العلَّامة سلمة المجريطي وله كتب جليلة في هذه الصناعة، وكذلك الأُستاذ الكبير العارف الصادق محمّد بن أميل التميمي، وأجلّ كتبه كتاب (مفتاح الحكمة العظمىٰ).

وكذلك الأُستاذ الكبير صاحب (المكتسب)، وأنَّه أخفىٰ اسمه ولم نقف له علىٰ ترجمة، وقد شرحنا كتابه المكتسب في كتابنا (نهاية الطلب) وبيَّنا مقاصده، ولعلَّه أوضح ما لم يوضِّح من تقدَّمه، وحذونا حذوه في الإيضاح والبيان، وأمَّا الأُستاذ الكبير أبو الحسن علي بن موسىٰ صاحب (الشذور)، فقد شرحنا صدر كتابه في عدَّة كتب لنا، وشرحنا جميع ديوانه في كتابنا المسمّىٰ (غاية السرور) في أربعة أجزاء، فمن تأمَّلها بحسن نظر واعتبار فقد أدرك المعاني الغامضة المتعلِّقة بعلم

الحجر وعلم الميزان، وهو أيضاً أربعة أجزاء كبار، وذكرنا فيه أجزاء كثيرة من العلم الطبيعي والإلهي علىٰ مقدّمات أُصول القوم، وشرحنا فيه كتاب بليناس في الأصنام السبعة، وكتاب جابر في الأجساد السبعة، وحلَّلنا فيه غالب كتب الموازين لجابر، ووعدنا فيه بكتابنا هذا الذي سمَّيناه (المصباح في علم المفتاح) وجعلناه الخلاصة من جميع ما ألَّفناه؛ لأنَّه الحاوي لمفاتيح أبواب كنوز الصناعة وبه يحلُّ الطالب جميع المشكلات من رموزهم، فمن أوصله الله تعالىٰ إلىٰ كتابنا هذا فليحمد الله ويشكره، ويحسن فيه النظر حتَّىٰ يبلغ العلم ويتسلَّم المفتاح بإذن الله الملك الفتّاح...

إلىٰ أن قال: فالله الله يا أخي في كتمان هذا العلم المصون عن غير أهله، والسلام وبالله التوفيق علىٰ الدوام.

ثمّ ذكر في أواخر هذا الكتاب أنَّ من جملة الأسباب لتأليفنا هذا لكتاب: أنَّه قد ثبت عندنا بطريق البرهان ثبوت الصناعة الإلهية من طريق المادّة الأصلية للحجر المكرَّم والإكسير الأعظم، فيسَّر الله تعالىٰ علينا أن سلكنا الطريق الوسطىٰ التي هي جادّة القوم وعليها أكثر الرموز، وقد صوّرت صورها في المصاحف والكنوز، فثبت عندنا صحَّة الطريق الوسطىٰ، فتصوَّرنا بالبرهان أنَّه لا سبيل لأحد إلىٰ الوصول للإكسير الأعظم إلَّا من هذا الطريق.

وكنت أتعجَّب من أقوال جابر في الباب الأعظم والأكبر والأصغر، وأظنّ أنَّ هذا من جملة رموزه، ثمّ اطَّلعت للأمير خالد بن يزيد في كتبه علىٰ إشارات وطرق وعبارات مباينة لما نحن عليه من سلوك تلك الجادّة، فما زلت في حيرة من التناقض في ذلك، ولم يثبت عندي أنَّ الرصاص الأسربي مستحيل ذهباً

إلَّا في الإكسير الأوسط المنصوص عليه بالبرهان، فأخذت في الرحلة إلىٰ طلب العلم من صدور الرجال حتَّىٰ درت الآفاق وجمعت من الكتب الجابرية ما يزيد علىٰ ألف كتاب، واطَّلعت بحمد الله تعالىٰ علىٰ كتب غالب الحكماء في غالب الأبواب، ولا زلت أرتاض بالعلم والعمل إلىٰ أن اطَّلعني الله علىٰ علم الميزان وعلىٰ التراكيب الكثيرة من سائر الأركان، ورأينا من نتائج العلوم العجائب والغرائب...

تلمّذه على الإمام الصادق عليه السلام:

فيدلُّ عليه قول ابن طاووس: إنَّه صاحب الصادق عليه السلام، ورواية ابني بسطام عنه عن الصادق عليه السلام، وتصريح اليافعي وابن خلّكان بأنَّه تلميذه، وأنَّه ألَّف كتاباً يشتمل علىٰ خمسمائة رسالة من رسائله، وقول ابن النديم عن الشيعة: إنَّهم زعموا أنَّه كان صاحب جعفر الصادق، وأنَّه عنىٰ بسيّده جعفر هو جعفر الصادق، وحكىٰ أنَّ نسخة كتاب السموم المحفوظة بالمكتبة التيمورية بمصر مكتوب فيها يذكر أنَّ مؤلِّفه جابر بن حيّان الصوفي تلميذ جعفر الصادق.

ويُحكىٰ عن بعض رسائله المطبوعة أنَّه قال فيها: (كنت يوماً خارجاً من منزلي قاصداً دار سيّدي جعفر عليه السلام).

[شبهة] تلمّذه على خالد بن يزيد بن معاوية:

في (كشف الظنون): أوَّل من تكلَّم في علم الكيمياء ووضع فيها الكتب، وبيَّن صنعة الإكسير والميزان، ونظر في كتب الفلاسفة من أهل الإسلام، خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وأوَّل من اشتهر هذا العلم عنه جابر بن حيّان الصوفي من تلامذة خالد كما قيل:

حكمـــــة أورثناهـــا جـــابر عــن إمـام صـادق القـول وفي

لـــــوصيّ طـــاب في تربتـــه فهــو كالمسـك تـراب النجـفِ

وذلك لأنَّه وفىٰ لعلي واعترف له بالخلافة وترك الإمارة.

قال السيّد الأمين[1]: في هذا الكلام من الخبط ما لا يخفىٰ:

أوَّلاً: الظاهر أنَّ جابر المذكور في هذا الشعر هو جابر الجعفي من أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام، روىٰ عنهما كثيراً من غوامض العلوم وغرائب الحوادث، فالحكمة المذكورة هي حكمة النفس لا علم الكيمياء.

ثانياً: يظهر أنَّه فسَّر ما في الشطر الثاني من البيت الأوَّل بخالد بن يزيد، وأنَّه سمّاه وفيّاً لأنَّه وفىٰ لعلي، واعترف له بالخلافة وترك الإمارة، وظاهر أنَّ المراد به جعفر الصادق عليه السلام وقوله: (لوصيّ)، صفة لقوله: (حكمة)، لا متعلّق بقوله: (وفي).

ثالثاً: إنَّ خالد بن يزيد لم يُنقَل عنه أنَّه كان يعترف بالخلافة لعلي عليه السلام، ولا أنَّه ترك الإمارة لاعتقاده أنَّها ليست له، وإنَّما الخلافة تركته فتركها مغلوباً علىٰ أمره.

رابعاً: إنَّ تلمّذ جابر بن حيّان علىٰ خالد بن يزيد لم يقم عليه برهان، ولم يؤيّده تاريخ، ولا أشار إليه أحد من المؤرِّخين.

فجابر بن حيّان خراساني المنبت، عراقي المنشأ، كوفي المسكن، شيعي المذهب، علويّ النزعة، وخالد بن يزيد شامي المنبت والمنشأ، أُموي النسب والنزعة، فلا علاقة تربطه بجابر بن حيّان، وإنَّما يشتركان في صناعة الكيمياء، فخالد بن يزيد بعد فراغ يده من الخلافة اشتغل بهذه الصنعة، وجابر بن حيّان كان معروفاً بها، فكأنَّه لبعض المناسبات توهَّم تلمّذ جابر علىٰ خالد.

---

(١) أعيان الشيعة ٤: ٣٦.

مذهب جابر:

في كتاب (فلاسفة الشيعة): وجابر بن حيّان _ دون ريب _ من فلاسفة الشيعة وأعاظم مفكّريهم، الذين تسيطر علىٰ مؤلَّفاتهم وآثارهم روح التشيّع، وتبرز فيها الروح الجعفرية بوضوح.

ويُعَدُّ جابر من أشهر تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام، الذين اختصّوا به وحظوا بمجلسه الخاصّ.

وقد كانت له ساعة معيَّنة لأخذ العلوم عن الإمام، يختصُّ بها لديه، لا يشاركه فيها أحد.

ورسائله جلّها لا بل كلّها مصدَّرة باسم أُستاذه جعفر، ورأيت خمسين منها، قديمة الخطّ، يقول فيها: (قال لي جعفر عليه السلام، وألقىٰ عليَّ جعفر، وحدَّثني مولاي جعفر عليه السلام)، وقال في رسالته الموسومة بـ (المنفعة): (أخذت هذا العلم من جعفر بن محمّد سيّد أهل زمانه).

وقد طُبِعَت خمسمائة رسالة منها في ألمانيا قبل ثلاثمائة سنة وهي موجودة في مكتبة الدولة ببرلين ومكتبة باريس[١].

ويؤكِّد تشيّع جابر أنَّ السيّد رضي الدين علي بن طاووس المتوفّىٰ عام (٦٦٤هـ) قد صرَّح في كتابه (فرج المهموم) عند ذكر جماعة من الشيعة كانوا عارفين بعلم النجوم، قال: ومنهم جابر بن حيّان صاحب الصادق عليه السلام[٢].

ونقل ابن النديم عن الشيعة، أنَّهم عدّوا جابراً من كبارهم، وأحد الأبواب، وأنَّه صاحب جعفر الصادق، ومن أهل الكوفة المعروفين

---

(١) الإمام الصادق لأبي زهرة: ١٠١.

(٢) الإمام الصادق لأبي زهرة: ١٤٦.

بالتشيّع، وأنّه إنّما كان يعني في رسائله بسيّده جعفر الصادق لا جعفر البرمكي...

ويقول ابن النديم أيضاً: ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة، أنا أُوردها في مواضعها[1].

وقد أصبح من الثابت المؤكّد عند الشيعة أنَّ جابر بن حيّان كان شيعياً، ولذلك فقد عدَّه السيّد الأمين من رجالات الشيعة في كتابه (أعيان الشيعة)، وأدرج الطهراني في كتابه (الذريعة) أكثر مؤلَّفات جابر.

كما وضع السيّد محمّد علي هبة الدين كتاباً خاصّاً في جابر أسماه (جابر والكيمياء) أثبت فيه تشيّع جابر، وتلمذته علىٰ يد الإمام الصادق عليه السلام.

آثار جابر ومؤلّفاته:

لا ريب أنَّ جابر بن حيّان من أكثر العلماء إنتاجاً وتأليفاً، في معظم الثقافات، ومؤلَّفاته الكثيرة تدلُّ علىٰ الطاقة الحيّة في هذا الرجل التي يندر وجودها.

ومهما شُكَّ في نسبة هذه المؤلَّفات إلىٰ جابر فليس لدينا ما يوجب الجزم بكونها منحولة إليه أو موضوعة عليه، بعد أن كان هناك نصوص تؤكِّد نسبتها إليه، وليس ثَمَّ ما يدفع ذلك.

والشكُّ إذا لم يؤيَّد بأدلَّة واضحة مقبولة لا يعبأ به؛ ونستطيع القول بصحَّة نسبة معظم ما نسب إليه من مؤلَّفات لأسباب:

أوَّلاً: إنَّه قد نسب إليه هذه المؤلَّفات والرسائل جماعة عاشوا العصر الذي تلا عصر جابر كابن النديم والمجريطي والرازي وسواهما.

---

(١) الإمام الصادق لأبي زهرة: ٤٢٠.

ثانياً: إنَّ بعض كتبه قد شرحها بعض من قرب من عصره كأبي بكر الرازي الذي نقل كتاب (الأُس) لجابر إلىٰ الشعر، و(كتاب الاثنين) أيضاً لجابر، وكالشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر الذي شرح كتاب (الرحمة) لجابر، وكأبي قران النصيبي الذي شرح كتاب (الرحمة) أيضاً علىٰ ما أشرنا إليه سابقاً.

ثالثاً: إنَّ رسائل جابر _ كما يقول كراوس _ تتميَّز بوحدة أُسلوبية ولغوية وأدبية، وإنَّ العلاقة بين هذه الرسائل شديدة، وإنَّ كلّ رسالة منها تشير إلىٰ رسالة الأُخرىٰ، وإنَّ بينها من الترابط ما يجعل بينهما وحدة متراصّة، بحيث لا يمكن عدُّ واحدة منها منحولة إلَّا إذا حكمنا علىٰ البقيّة بهذا الحكم.

ومع جزمنا بأنَّ بعض هذه المؤلَّفات هي لجبار دون ريب، مثل كتاب الرحمة، مع اعترافنا باشتمال هذه المؤلَّفات علىٰ تلك الوحدة، وعلىٰ الترابط بينها، فإنَّه لا بدَّ من القول بصحَّة نسبة هذه الرسائل إلىٰ جابر.

علىٰ أنَّنا في أثناء ذلك لا يمتنع أن يكون في فهرست كتب جابر أسماء مكرَّرة أو متداخلة بأن يكون كتاب واحد، له أكثر من اسم؛ بل قد يكون قسم من أسماء الرسائل والكتب التي ورد ذكرها في فهرست مؤلَّفاته، هي أسماء لفصول من كتاب واحد، وقد يجد الباحث شواهد ليست بقليلة تؤيّد ذلك.

ومؤلَّفات جابر كثيرة قد زادت علىٰ (٣٩٠٠) كتاب ورسالة، وُضِعَت في أنواع المعرفة والثقافة، تناول فيها الفلسفة، وعلم الحيل (الميكانيك)، والنيرنجات والعزائم والصنائع وآلات الحرب والزهد والوعظ والطبّ والكيمياء بقسميها.

وقد وضع (١٣٠٠) كتاب في الحيل، و(٥٠٠) كتاب في الطبّ،

و(٥٠٠) كتاب في النقض علىٰ الفلاسفة، هذا عدا مؤلَّفاته الكثيرة التي وضعها في الكيمياء المعروف بها، وغير ذلك من المباحث العلمية.

وممَّا هو جدير بالملاحظة أنَّ شيئاً من مؤلَّفات جابر قد تُرجِم إلىٰ لغات أجنبية، كما طُبِعَ قسم وفير منها، بل لا يزال كثير منها مخطوطاً في مكاتب الشرق والغرب، ولعلَّك لا تتردَّد حين تقرأ فهرست كتبه في أنَّ موضوع الكيمياء هو الموضوع البارز من بين الموضوعات التي تناولها بالدرس، حتَّىٰ اشتهر بها، وأصبح إمام الكيمياء الذي لا يدافع.

ومن حسن حظّ جابر أن يبقىٰ الشيء الكثير من كتبه ورسائله ماثلاً معبراً، ما بين مطبوع كالخمسمائة رسالة عن الإمام الصادق في أُوروبا في ألف ورقة وسواها، وبين مخطوط حفظته مكاتب الشرق والغرب، وبين مترجَم إلىٰ اللاتينية والفرنسية وسواهما، ولولا ذلك ما عُلِمَ جابر ومواهبه، ولأصبح شخصية وهمية لا حقيقة لها، كما كان يزعمه بعض الورّاقين والعلماء، علىٰ ما حكاه ابن النديم، وقد مرَّ.

ويقول الأُستاذ طوقان: إنَّ تآليفه ضاع معظمها، ولم يبقَ منها غير ثمانين كتاباً ورسالة في المكتبات العامّة والخاصّة في الشرق والغرب، وقد تُرجِم بعض منها إلىٰ اللاتينية، وكانت منبعاً للإفرنج، استقوا منه واعتمدوا عليه في الموضوعات الطبيعية والطبّية، وكان لهذا النبع أثر كبير في تكوين مدرسة كيميائية ذات أثر فعّال في الغرب.

وقد يدهش القارئ من التراث الذي خلَّفه جابر في الكيمياء وغير الكيمياء، ممَّا يكون عادةً فوق الطاقة البشرية، ويبدو أنَّ الكثير من هذه المؤلَّفات صغير الحجم لا يعدو أن يكون صفحات معدودة، وعلىٰ هذا نجد تفسيراً صحيحاً لهذا العدد الضخم من مؤلَّفاته.

وهو علىٰ كلّ حال عمل عظيم وفريد معاً، قد أحلَّ جابراً _ بحقّ _ مكاناً مرموقاً بين الخالدين من رجال العلم وأصحاب المواهب، ممَّا دفع العلماء إلىٰ الاعتراف بفضله والإشادة بآثاره، كما عرفت سابقاً.

ومن كتب جابر التي تُرجِمت إلىٰ اللاتينية (كتاب الجمع) و(كتاب الاستمام) و(كتاب الاستيفاء) و(كتاب التكليس).

وقد تركت هذه الكتب الأربعة وغيرها أبلغ الأثر عند العلماء والفلاسفة، حتَّىٰ أنَّ بعضهم رأىٰ فيها من المعلومات ما هو أرقىٰ وأبعد أثراً ممَّا يمكن تصوّره صادراً عن شخص عاش في القرن التاسع للميلاد، ممَّا يدلُّ علىٰ قيمة هذه الكتب ونفاستها من الناحية العلمية والكيميائية.

ولا بدع بالنظر إلىٰ هذه الآثار القيّمة أن يصبح جابر أحد أعلام العلم والمعرفة الأفذاذ، ومن مفاخر الإنسانية، إذ استطاع أن ينتج ويبدع في الإنتاج، ممَّا جعل علماء أُوروبا يعترفون له بالفضل والسبق والنبوغ، ويعطونه عنايتهم واهتمامهم، أمثال هولميارد واستابلتن وبارتجنن[1].

أفكار جابر:

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٢١١): وممَّا يجدر بالملاحظة أنَّ جابراً قد خطا خطوة، أبعد ممَّا قطع اليونان في وضع التجربة أساساً للعمل، ووضع الاختبار العنصر العامل في تكوين النظرية العلمية، لا اعتماداً علىٰ التأمّل المجرَّد.

ولعلَّه كان أسبق عالم إسلامي في هذا المضمار، فإنّا نجده يقول: (وملاك هذه الصنعة العمل، فمن لم يعمل ولم يجرِّب، لم يظفر بشيء أبداً).

---

(١) أُنظر: الخالدون العرب للأُستاذ طوقان.

ويقـول في مقـام آخـر: (إنَّ الأصـل كـان مـن الطبـائع لا مـن غيرهـا، فالوصـول إلىٰ معرفتهـا ميزانهـا، فمـن عـرف ميزانهـا عـرف كـلّ مـا فيهـا، وكيف تركَّبت، والدربة مخرج ذلـك، فمـن كـان دربـاً كـان عالمـاً حقَّـاً، ومـن لم يكـن دربـاً لم يكـن عالمـاً، وحسـبك بالدربـة في جميـع الصـنائع، إذ الصـانع الدرب يحذق، وغير الدرب يعطل).

ويدهشنا _ حقَّاً _ أن نجد لدىٰ جابر بن حيّان طريقـة جديـدة، تـذكرنا بطريقة منهج العلوم الحديث، والمنطق التطبيقي، الذي يهدف إلىٰ مطابقة الفكـر للأشياء الخارجية، وإلىٰ مطابقة العقل للواقـع، علىٰ خـلاف المنطـق الصـوري لأرسطوطاليس الذي يهدف إلىٰ مطابقة الفكر لنفسه، وهو ما يفهم من تعريـف غايته (صون الفكر عن الخطأ) أي صون الفكر عن الخطأ في تفكيره.

وهذا المنطـق التقليـدي في الأكثـر ينطـوي فيـه الفكـر علىٰ نفسـه، ولا يشـمل إلَّا الكلّيـات التـي لا تعـيش إلَّا في رؤوس مفكّريهـا، ولا يتنـاول الجزئيات ولا تتَّصل بالواقع اتّصـالاً مبـاشراً، ومـن هنـا لم تكـن فائدتـه تلـك الفائـدة المطلوبـة أو الحاصـلة مـن المنطـق التطبيقـي، عـلىٰ خـلاف المنطـق اليوناني، فإنَّه لم يعطنا أيّ اكتشـاف علمـي، فقـد كـان يسـتحيل عقـلاً تحويـل المعدن إلىٰ ذهب عند كثير مـن الفلاسـفة كالكنـدي وابـن خلـدون وسـواهما عملاً منهـا بـالمنطق الأرسـطوي، أمَّـا الآن فقـد أصـبح ممكنـاً بفضـل تحطـيم الذرَّة كما أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً.

نجـد لـدىٰ جـابر جـذوراً مـن المنطـق التطبيقـي، تـتجلّىٰ في نقـده للقيـاس أو الاسـتدلال والاسـتنباط، ويقسّـمه إلىٰ ثلاثـة أقسـام: المجانسـة، مجـرىٰ العـادة، الآثـار. فيقـول منتقـداً القيـاس المعتمـد عـلىٰ التجـانس بـين المقيس والمقيس عليه:

(إنَّ مثل دلالة المجانسة الأُنموذج، كالرجل يُري صاحبه بعضاً من الشيء ليدلَّ به علىٰ أنَّ الكلّ من ذلك الشيء مشابه لهذا البعض، ودلالة هذا الباب من هذا الوجه دلالة ثابتة صحيحة، غير أنَّ جماعة من أهل النظر قد استدلّوا من هذا الباب علىٰ ما دلالة فيه عليه باضطرار، أعني إنَّهم أثبتوا من أجل هذا الشيء الذي هو الأُنموذج مثلاً وهو من جنسه شيئاً آخر هو أكثر منه، وهذا دلالة غير اضطرارية ولا ثابتة في كلّ حال، وذلك أنَّ هذا الشيء الذي هو الأُنموذج مثلاً لا يوجب وجود شيء آخر من جنسه، حكمه في الطبيعة والجوهر حكمه، وقد استدلَّت المنّانية بهذا الاستدلال، فقالت: إذا كان في العالم نور وظلمة وخير وشرّ وحسن وقبح، يجب أن يكون خارج هذا العالم أيضاً نور وظلمة وسائر ما ذكروا تكون كلّيات لهذه، وليس هذا الاستدلال بواجب دون أن يثبتوا أنَّ ما في هذا العالم أجزاء وأبعاض، وأمَّا قبل أن يثبتوا ذلك فليس يجب ما أوجبته اضطراراً، وذلك أنَّه يمكن أن لا يكون ما في العالم من هذه أبعاضاً؛ بل هي كلّيات أنفسها، فلذلك لا تصحُّ هذه الدلالة).

ويقول منتقداً القياس المعتمد علىٰ جري العادة: (وأمَّا التعلّق المأخوذ من جري العادة فإنَّه ليس فيه علم يقين واجب اضطراري برهاني أصلاً، بل علم إقناعي، يبلغ أن يكون أحرىٰ وأولىٰ وأجدر لا غير، لكن استعمالهم له وتقلّبهم فيه، واستدلالهم به، والعمل في أُمورهم عليه أكثر من استعمالهم للتعلّقين الآخرين، (يريد بها التعلّق بالمجانسة والتعلّق بالآثار)، وذلك أنَّ القياس استقراء النظائر باستشهادها للأمر المطلوب عليه، وهذا الباب يناسب البرهان ويقابله كثيراً، ويدلُّ علىٰ خلاف ما يدلُّ عليه، وقوَّته وضعفه بحسب كثرة النظائر والأمثال

المتشابهة وقلّتها، حتّىٰ أنَّ قوماً قد ظنّوا أنّه يمكن أن يكون هذا الباب علم برهاني يقيني، وذلك إذا لم يجد في كلّ ما يسبقه أمراً واحداً مخالفاً لما يشهد بأمر من الأُمور، ونستوفي جميع هذا الباب ونقول فيه: فإنَّ الحاجة إلىٰ معرفة كيفية ذلك الاستدلال شديدة جدّاً، وهذا عامّ لك في هذه الصناعة.

وغيرها... وليس في هذا الباب علم يقين وواجب، وإنّما وقع منه تعلّق واستشهاد بالشاهد علىٰ الغائب، لما في النفس من الظنّ والحسبان، فإنَّ الأُمور ينبغي أن تجري علىٰ نظام ومشابهة ومماثلة، فإنّك تجد أكثر الناس يجرون أُمورهم علىٰ هذا الظنّ والحسبان، ويكاد أن يكون ذلك يقيناً، حتّىٰ لو حدث في يوم ما حادث لنرجو حدوث مثل ذلك الحادث بعينه في ذلك اليوم من السنة الأُخرىٰ، فإن حدث ذلك اليوم بعينه مثل هذا الحادث تأكّد عندهم ذلك أن يحدث مثله في السنة الثالثة، حتّىٰ إذا حدث ذلك مثلاً عشر مرّات، لم يشكّوا البتّة في حدوثه في كلّ سنة تكون من بعد).

وبعد أن يتكلّم عن تعاقب الأزمان والفصول يقول في هذا الصدد: (... وأنا أحسب أنَّ هذه المقدّمة ليست بصحيحة، فإنّه لا يؤمن أن يكن صيف لا يعقبه خريف، ولم يتقدّمه ربيع).

ويذكرنا جابر في كلامه الأخير بنظيرة الغزالي في نفي السببية والمسبَّبية، وأنَّ كلّ ما يظنّ أنّه سبب ومسبَّب إنّما هو من باب المقارنة التي قد لا تكون لازمة، فاحتراق القطن يكون بممارسة النار له جرياً علىٰ العادة، وإلّا فيجوز احتراقه دون أن تمسّه النار، وهكذا في كلّ شيء، وأنَّ السبب الحقيقي هو الله تعالىٰ.

وينتقد جابر القياس والاستنباط المبني علىٰ الآثار فيقول: (مثال ذلك أنّا نقول: إنَّه إنَّما كان يمكن أن يكون مولود إلّا علىٰ مثال ما أدركناه وشاهدناه، لو كنّا قد أدركنا جميع الموجودات، وأحاط علمنا بها، فأمَّا نحن نقصر عن ذلك فإنَّه يمكن أن يكون موجودات مخالف حكمها في أشياء حكم ما شاهدنا وعلمنا، إذ كان التقصير عن جميع الموجودات لازماً لكلّ واحد منّا.

وبالجملة: فليس لأحد أن يدَّعي بحقّ أنَّه ليس في الغائب إلّا مثل ما شاهد، أو في الماضي والمستقبل إلّا مثل ما في الآن، إذا كان مقصّراً جزئياً، متناهي المدَّة والاحساس...، وذلك أنَّ في العالم بلداناً وأُمماً لم يحسّ أهلها بالتمساح قطّ، فيجب علىٰ هذا الحكم متىٰ خبَّرهم مخبر أنَّه موجود حيوان، يحرّك لحيته العليا عند المضغ، أن يدفعوا ذلك ويمنعوه.

وكذلك يوجد في العالم أُناس وأهل بلدان ومواضع لم يشاهدوا جذب المغناطيس الحديد، ولا هرب الباغض للخلّ من الخلّ...، وأشباه هذه الأُمور كثيرة، يجب علىٰ هذا الكلام أن يبطل وجودها البتَّة من لم يشاهدها، أو لم يخبره مخبر أنَّه شاهدها.

وإذا كان الأمر كذلك أمكن أن يكون حال جميع الناس في التقصير عن إدراك أشياء كثيرة في الغائب مخالفاً للشاهد، كتقصير هؤلاء القوم الذي ذكرنا، فليس لأحد أن يمنع ويدفع وجود ما لم يشاهد مثله، بل إنَّما ينبغي له أن يتوقَّف عن ذلك حتَّىٰ يشهد البرهان بوجوده أو عدمه.

وكذلك ينبغي إذا ذهب الدهري، يمنع أن يكون العالم مكوَّناً مصنوعاً، لأنَّه لم يشاهد ولا واحد من الناس بدء تكوينه ووضعه، أن

يقال له: ما تنكر أن يكون وجود الناس بعد وجود ابتداء العالم بدهر طويل، وتذكر كون مدينة أو قصر، ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه، فسلم أن تثبت قِدَم ذلك بالعلّة التي أثبت بها قِدَم العالم، فإن قال: إنّما علمت المدينة والقصر التي لم نشاهد ولا من توقّىٰ أنباء بنائها، أنّها مبنيّة من قبل أنّي رأيت مثلها بني، لم أرَ مثل العالم مبنيّاً.

قيل له: إنّ هذا بعينه ما نقول وندفع كونه في طريق الاستدلال، فمن أين قلت ووجب عندك أنّ كلّ ما نشاهده، وله مثل وشبيه موجود، وأنّ كلّ ما لم نشاهده وليس له مثل وشبيه فليس بموجود...، إذ قد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات، فأمكن أن يكون أكثر الموجودات ممّا لم يشاهد)[1].

لعلّك تجد معي فيما قرأته من كلمات جابر جذوراً بارزة للمنطق التطبيقي، ويلتقي بنقده للقياس تصحيحاً لأفكار خاطئة ونظريات مغلوطة، ودفعاً للفكر في طريق جديد، يستمدّ تفكيره من الواقع، يلتقي بأُولئك العلماء الذين وضعوا أُسس مناهج العلوم العصرية، أمثال فرانسوابيكون ورينة ديكارت وغيرهما.

وقد يبدو ما نراه لدىٰ جابر من الجذور للمنطق التطبيقي لا شيء أمام ما وضعه أصحاب المنطق التطبيقي من المنهج للعلم الحديث، ويبدو أمامه ضئيلاً.

ولكن أهمّيته تبدو عندما نلاحظ الزمن الذي برزت فيه أمثال هذه الأفكار، يوم كانت العلوم أكثرها في دور التكوين، ويوم كان العلماء مأخوذين بمنطق أرسطو وعلوم اليونان.

---

(١) راجع: ملهم الكيمياء: ١٤٤ - ١٤٩.

النصوص في كتب جابر ورسائله:

يحسن بنا أن نذكر هنا شيئاً من النصوص في كتب جابر ورسائله، تتميماً للفائدة، ولنكون علىٰ بصيرة من اتّجاهه العلمي وطريقته إلىٰ حدٍّ ما، وعلىٰ علاقته بالإمام الصادق عليه السلام.

ومن ذلك: ذكر أبو الريحان البيروني في كتابه (الجماهر) ما يدلُّ علىٰ أنَّ جابر بن حيّان كان يشتغل بالكيمياء والصنعة، فقد قال: وقال جابر بن حيّان في (كتاب الرحمة): إنَّه كان عندنا مغناطيس، يرفع وزن مائة درهم من الحديد، ثمّ لم يرفع بعد مضيّ زمان عليه سوىٰ ثمانين درهماً، ووزنه علىٰ حاله، لم ينقص منه شيء وإنَّما النقصان وقع في قوَّته[١].

ويقول في كتاب (الحاصل): ليس في العالم شيء إلَّا وهو فيه جميع الأشياء، والله لقد وبَّخني سيّدي (يعني الإمام جعفر) علىٰ عملي فقال: «والله يا جابر؛ لولا أنّي أعلم أنَّ هذا العلم لا يأخذه إلَّا من يستأهله، وأعلم علماً يقيناً أنَّه مثلك لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العالم، أتعلم ما قد كشفت للناس فيها»، فإن لم تصل إليه فاطلبه فإنَّه يخرج لك غوامض كتبي وجميع علم الميزان وجميع فوائد الحكمة[٢].

ويقول في أثناء كلامه علىٰ الزئبق: واعلم أنَّ الزئبق يثقل اللؤلؤ ويشدّه ويصلبه، هذا من الأُمَّهات وحبّات القلوب، رضي الله عن سيّدي، فإنَّه كان إذا أمر به مثل هذه الخواصّ شيء قال: «يا جابر، هذه حبّات القلوب...».

---

(١) راجع: الإمام الصادق لأبي زهرة: ٢٤٧.

(٢) ملهم الكيمياء: ١١٧ و١١٨.

ويقول في كتاب (السبعين): وهذه الطبائع في كلّ موجود ظاهرة تامّة، وباطنة تامّة، ولا يخلو كلّ موجود أن يكون فيه طبعان فاعل ومنفعل ظاهران، وطبعان فاعل ومنفعل باطنان، ومعنىٰ تامّة وغير تامّة أنَّ الفضَّة عندهم ظاهرها ناقص وباطنها تامّ، وإنَّ الذهب بخلاف ذلك، ولذلك سهل عليهم، وقرب ردّ الأجسام إلىٰ أُصولها في أقرب مدَّة.

وعند ذكر الميزان يقول: وهذا في الميزان عجيب أن لا يدخل أحد العلوم عليها، لا التدبير ولا غيره، وهذا الذي نقول: إنَّه أوَّل وعظيم النفع في خواصّ القِدَم والتوحيد _ تعالىٰ علوَّاً كبيراً _ ونقض عظيم علىٰ الثنوية، كذا أخبرني سيّدي وأمرني أن أقول وأُصنِّف[1].

ويفتح كتابه (إخراج ما في القوَّة إلىٰ الفعل) بقوله: الحمد لله الذي ليس كمثله شيء، وهو علىٰ كلّ شيء قدير، الأوَّل بلا مثال، والآخر بلا زوال، وتعالىٰ وتقدَّست أسماؤه، وهو بكلّ شيء محيط، اللطيف الغامض في بطون الأجزاء ظاهرها وباطنها وما في أوساطها، العليّ إلىٰ ما لا نهاية له، والأسفل إلىٰ ما لا نهاية له، القدير علىٰ إدراك جميع الأشياء لطيفها وكثيفها، وتقدَّست أسماؤه، وتعالىٰ علوَّاً كبيراً.

ومن أروع مؤلَّفات جابر كتاب (السموم) المارّ ذكره، بحث فيه السموم ودفع مضارّها، وهو من أندر المؤلَّفات في هذا الباب، ابتاعه البحّاثة باشاتيمور، وكتب عنه بشيء من التفصيل.

ولقد سار جابر في معالجة بحوث الكتاب علىٰ طريقة علمية لا تختلف في جوهرها عمَّا هو جار الآن، فأتىٰ فيه علىٰ أسرار وأقوال الفلاسفة اليونان في السموم وأفعالها، كما ضمَّنه آراء جديدة، وتعلميات

---

(١) ملهم الكيمياء: ١١٩.

لأنواع السموم وأدويتها وتأثيرها وأفعالها في أجسام الحيوانات ممَّا لم يصل إليه غيره.

ولهذا الكتاب أهمّية كبرىٰ عند علماء تاريخ العلوم، وذلك لما له من وثيق العلاقة بالطبّ والكيمياء، وأوَّله كما يلي: بسم الله الرحمن الرحيم، قال أبو موسىٰ جابر بن حيّان الصوفي: قد ارتسمت أطال الله بقاءك ما أمرت به وأحدثت من الشرح، ما علمت أنَّك من الفهم بحسبه، وانتهيت إلىٰ غرادتك، وأتيت علىٰ حاجتك، وأرجو أن تبلغ به رغبتك، وتنال به بغيتك، وتكون به راضياً، ولأدبك كافياً...

قال بعضهم: إنَّ السمّ جسم كوني ذو طبائع غالبة مفسدة لمزاج أبدان الحيوان..، وقال آخر: إنَّه مزاج طبائع غالبة لدواب الحيوان بذاته. وقال بعضهم بأنَّه مزاج قوَّة، مزاج غالب مفسد ومصلح.

فهذه آراء الناس في حدِّه، فأمَّا غرضنا في هذا الكتاب فهو الإبانة عن أسماء أنواع السموم وكنه أفعالها، وكمّية ما يُسقىٰ منها، ومعرفة الجيّد من الرديء.

وينقسم الكتاب إلىٰ ستَّة فصول:

الأوَّل: في أوضاع القوىٰ الأربع وحالها مع الأدوية المسهّلة، والسموم القاتلة، وحال تغيّر الطبائع المركَّبة منها أجسام الحيوان.

الثاني: في أسماء السموم ومعرفة الجيّد منها والرديء، وكمّية ما يُسقىٰ من كلّ واحد منها، وكيف يُسقىٰ، ووجه إيصالها إلىٰ الأبدان.

الثالث: في ذكر السموم العامّة الفعل في سائر الأبدان، والتي تخصُّ بعض أبدان الحيوان دون بعض، والتي تخصُّ بعض الأعضاء من أبدان الحيوان دون بعض.

الرابع: في علامات السموم المسقات، والحوادث العارضة منها في الأبدان، والإنذار فيها بالخلاص والمبادرة إلىٰ العلاج.

الخامس: في ذكر السموم المركَّبة، والحوادث الحادثة منها.

السادس: في الاحتراس من السموم قبل أخذها، فإذا أُخذت لم تكد تضرّ، وذكر الأدوية النافعة من السموم إذا شربت من بعد الاحتراس منها.

وقد قسّم السموم إلىٰ ثلاثة أنواع: حيوانية، ونباتية، وحجرية، وذكر من السموم الحيوانية: مرارة الأفاعي، ومرارة النمر، ولسان السلحفاة، وذيل الأيّل، والأرنب البحري، والضفدع، والعقاب.

ومن السموم النباتية: قرون السنبل، والأفيون، والشيلم، والحنظل، والشوكران، وغيرها.

ومن السموم الحجرية: الزنجار، والزئبق، والزرنيخ، والنورة، والزاج، والشبّ، والطلق، وبرادة الحديد، وبرادة الذهب.

وقد أكثر جابر فيه من ذكر فلاسفة اليونان وأطبّائهم، كقوله: قد أطلق سقراط وجالينوس واندروماخس، وسائر أصحاب المهنة الطبّية أنَّه لا شيء في أجسام الحيوان من الأخلاط أكرم من الدم، وأنَّه قاعدة البدن.

* * *

(٢)

إبراهيم بن أبي إسحاق حبيب بن سيمان بن سمرة بن جندب الفزاري الكوفي

(منجّم المنصور العبّاسي)[١]

عن كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٩٩): ظهر في أوائل الدولة العبّاسية، واشتهر بعلم الفلك، وعمل الإصطرلاب.

وصفه القِفطي بقوله: الإمام العالم المشهور، المذكور في حكماء الإسلام، وهو أوّل من عمل في الإسلام إصطرلاباً...، وكان من أولاد سمرة بن جندب...، وكان ميله إلىٰ علم الفلك وما يتعلّق به.

وله تصانيف مذكورة...، وله كتاب تسطيح الكرة، منه أخذ كلّ الإسلاميّين، كما في أخبار الحكماء (ص ٤٢).

وقال ابن النديم عنه: إنَّه أوّل من عمل في الإسلام إصطرلاباً، وعمل مبطحاً ومستطحاً[٢].

وصرَّح السيّد ابن طاووس في أوّل كتابه (فرج المهموم) بأنَّ إبراهيم الفزاري من منجّمي الشيعة، وأنَّه صاحب القصيدة في النجوم[٣].

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٩٩؛ إخبار العلماء: ٤٢؛ معجم المؤلِّفين ١: ١٩؛ أعلام العرب ١: ٦٢؛ فرج المهموم: ١٢٨.

(٢) فهرست ابن النديم: ٣٣٢.

(٣) فرج المهموم: ١٢٨.

أمّا مؤلّفاته:

١ _ تسطيح الكرة، يقول عنه القِفطي كما سبق: منه أخذ كلّ الإسلاميّين، وقد وضع كلّ من أبي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي كتاباً في هذا الموضوع وأسماه تسطيح الكرة.

٢ _ كتاب القصيدة في علم النجوم، وربَّما نُسِبَت إلىٰ ولده محمّد الفزاري، كما نسبها ياقوت في المعجم.

ولكن الأرجح أنّها لإبراهيم الفزاري لا لولده كما رواها القِفطي وابن طاووس، والقصيدة تقوم مقام زيجات المنجّمين، وهي مزدوجة طويلة، تدخل مع تفسيرها عشرة أجلاد، كما في معجم الأدباء[1]، أوّلها:

الحمد لله العلي الأعظم ذي الفضل والمجد الكبير الأكرم

الواحد الفرد الجواد المنعم

الخالق السبع العلىٰ طباقاً والشمس يجلو ضوءها الأغساقا

والبدر يملأ نوره الآفاقا

وهكذا ثلاثة أقفال ثلاثة أقفال، (كما في المعجم).

٣ _ كتاب المقياس للزوال.

٤ _ كتاب الزيج علىٰ سنيّ العرب. ويعلِّق عليه نكليتو فيقول: ومعنىٰ ذلك أنَّ الفزاري قد علم في زيجه تحويل (كلب أو مهايك) إلىٰ سنين هلالية، وحساب أوساط الكواكب بالتاريخ العربي[2].

٥ _ كتاب العمل بالإصطرلاب المسطَّح.

* * *

---

(١) معجم الأُدباء ١٧: ١١٧/ الرقم ٣٣، في ترجمة ابنه.

(٢) تراث العرب العلمي: ٩٨.

حكماء القرن الثالث

(٣)

الكندي أوّل فيلسوف عربي إسلامي شيعي[1]

في كتاب (حياة الكندي) لمؤلّفه العلّامة الشيخ عبد الكريم الزنجاني رحمه الله: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، ينتهي نسبه إلىٰ يعرب بن قحطان، وُلِدَ في واسط، وعاش في القرن الثالث الهجري، أي القرن التاسع الميلادي، وقيل: إنَّ الكندي وُلِدَ في البصرة، وقد يقال: إنَّه وُلِدَ في الكوفة حيث كان أبوه والياً علىٰ الكوفة زهاء عشرين عاماً، وسنة ولادته غير معلومة؛ مثل سنة وفاته.

درج الكندي بين أحضان أُسرة ماجدة كان لها السيادة والإمارة منذ زمن بعيد، فأبوه إسحاق بن الصباح كان أميراً علىٰ الكوفة في عهدي المهدي والرشيد، وجدّه أشعث بن قيس كان من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد الإسلام، وكان في الجاهلية ملكاً علىٰ كندة كلّها ورث المملكة عن آبائه وأجداده.

دراسته:

بدأ الكندي حياته العلمية في البصرة ثمّ ارتحل إلىٰ بغداد، عاصمة

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٥٨١؛ تراث العرب العلمي: ١٣٧؛ عيون الأنباء ٢: ١٧٨؛ تاريخ فلاسفة الإسلام: ١؛ طبقات الأُمم: ٦٨؛ أعلام العرب في الكيمياء: ٥٨؛ إخبار العلماء: ٢٤٠؛ معجم المؤلّفين ١٣: ٢٤٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٢٧٧؛ معجم أعلام المورد: ٣٦٩؛ الأعلام ٨: ١٩٥؛ أعلام العرب ١: ١٢١.

العلم والثقافة العالمية إذ ذاك، ففيها تهذَّب وتأدَّب، ومن معارفها انتهل حتَّىٰ أصبح رأسه دائرة معارف كبرىٰ، حوت من الفلسفة والأدب والطبّ والفلك وفنّ الألحان والعلوم الرياضية والطبيعيات والكيميائيات ما تعجز عن احتوائه عشرات الرؤوس.

ولقد دفعه تطلّعه إلىٰ أن يستقيها من مناهلها، إلىٰ أن تعلَّم اللغتين اليونانية والسريانية، وكان ينقل منها إلىٰ العربية حتَّىٰ أصبح من حذّاق الترجمة في الإسلام.

وكان معجباً بالفلسفة اليونانية والحكمة الهندية والمعارف الفارسية إعجاباً شديداً، حتَّىٰ أنّه عكف علىٰ كلّ هذه المنتجات القيّمة، يلتهمها في نهم، لم يعرف العرب له نظيراً من قبل، ولهذا كان هو أوّل من دُعي بالفيلسوف العربي.

مؤلّفاته:

أوصل بعض المؤرِّخين مؤلَّفات الكندي إلىٰ ثلاثمائة وخمسة عشر كتاباً ورسالةً، والبعض الآخر إلىٰ مأتين وواحد وثلاثين كتاباً ورسالة، ذكرها ابن النديم في الفهرست، وقد سرد الكثير منها ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء سرداً بلا ترتيب ولا نظام، وقد قسَّمت في كتاب تاريخ الحكماء تقسيماً أفردت كلّ فضيلة منها علىٰ حدة.

ووضع بعض المؤرِّخين لهذه الفضائل الأرقام الآتية: (فلسفة ٢٢ كتاباً)، (نجوم ١٩)، (فلك ١٦)، (جدل ١٧)، (أحداث ١٤)، (الكربات ٨)، (فنّ الألحان ٧)، (نفس ٥)، (تقدمة المعرفة ٥)، (حساب ١١)، (هندسة ٢٣)، (طبّ ٢٢)، (سياسة ١٢)، (طبيعيات ٢٣)، (منطق ٩)، (أحكام ١٠)، (أبعاد ٨).

ولكن من المؤسف أنَّ هذه الكتب لم يبقَ منها إلَّا النزر اليسير

الذي لا يستطيع أن يعطي للمؤرِّخ صورة واضحة عن فلسفة الكندي، وإن قال بعض الثقات من المؤرِّخين: إنَّها مزيج من فلسفات أفلاطون، وأرسطو، وافلوطين، منسوبة كلّها إلىٰ أرسطو.

ولكن عندنا سند متَّصل إلىٰ الكندي عن طريق معاصره الفارابي، وابن سينا، يعطينا صورة حقيقية واضحة من فلسفة الكندي، وسنعطيكم صورة موجزة منها في هذه الكلمة.

أهمّ أسباب تفلسفه:

إنَّ أهمّ أسباب تفلسف الكندي خاصّة، وتفلسف العرب والمسلمين عامّة، هو الإسلام، الذي هو دين الفطرة والطبيعة، والقرآن الكريم الذي هو أوَّل كتاب سماوي فرض تعلّم العلم والفلسفة علىٰ أتباعه فرضاً، وأوجب عليهم التفكير في أسرار الكون وخفايا الوجود، ليصلوا من هذا التفكير إلىٰ معرفة المبدع الأوَّل والإيمان به، والتيقّن بخلود الروح، وبالعودة إلىٰ حياة أُخرىٰ تتحقَّق فيها عدالة الخالق بمجازاة الخير والشرّ، بما يستحقّانه علىٰ عمليهما، وهل الفلسفة الحقّة شيء غير هذا؟ وهل هناك فرق بين دعوة الفلسفة معتنقيها إلىٰ الفكر والتأمّل في نشأة العالم ومصيره، وفي عظمة الكون ونظام تسييره، وبين قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥)؟ وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، وسائر الآيات القرآنية الصريحة في أنَّ الإسلام خوَّل العقل الفطري السليم من شوائب الأوهام كامل سلطانه، ولم

يشترط للنظر العقلي وجهة معيَّنة، ولم يحد له حدّاً مخصوصاً مقرَّراً، بل ترك العقول السليمة حرَّة لبلوغ الحقيقة المجرَّدة في العقائد وفي عالم الوجود والتكوين من مبدأ وجود العالم إلىٰ مصيره (أي معرفة المبدأ والمعاد) حسبما تتطلَّبه غريزة الشعور الديني في الإنسان.

وهذا التخويل إن شوهد في الفلسفة والعلم والحكمة وكان من مقوّماتها، وهو الذي ضمن لها الاحترام العامّ والخلود ودوام الارتقاء، فلم يشاهد في دين من الأديان ما عدىٰ الإسلام.

واعتماد الإسلام علىٰ العقل هو الذي حفَّز العرب والمسلمين إلىٰ الجهد في تحصيل العلوم والتنقيب عن المعارف، وإلىٰ وضع الفلسفة الإسلاميّة وكثير من العلوم وإبداعها وإنشائها.

والسرّ في ذلك هو أنَّه لا شكَّ في أنَّ الحياة العقلية أساس طبيعي تستند إليه أنواع الحياة العامّة وفروع الشؤون الحيوية، وهي أساس الرقي والنهوض، فكان من شأن الإسلام الذي هو دين الطبيعة والفطرة والاجتماع أن يشيّدها، وأن يجعل طلب العلم فريضة علىٰ معتنقيه.

ولا ريب في أنَّ كلّ من يلقىٰ نظرة فاحصة علىٰ القرآن الكريم، ويتأمَّل في آياته الدافعة إلىٰ التدبّر والتفكّر في شيء عظيم من الجدّ يتَّضح له أنَّ هذا الكتاب السماوي الكريم هو أوَّل أسباب تغلغل الفلسفة في البيئات العربية، وهو العامل الأوَّل الذي فتح للعرب باب البحوث الفلسفية المؤسَّسة علىٰ المنطق والتأمّل، فظهر لهم شيء من هذه البحوث التي لم يكن لهم بها عهد قبل نزول القرآن، وكانت هذه البحوث تدور حول علوم الكون وعلوم الدين من توحيد وتفسير وتشريع.

ولا شكَّ أنَّ هذا طليعة سافرة من طلائع الفلسفة ظهرت في

صدور الإسلام وأخذت تنمو وتتزايد إلىٰ أن بدئ في الترجمة عن اليونانية والفرسية والهندية، وكان العربي المسلم يمتاز بذكاء طبيعي وبقوىٰ عقلية دفينة، وبرغبة في الاطّلاع علىٰ الجديد، فأصبح بعد وقت قصير وريث حضارة الشعوب العريقة في القِدَم التي تغلَّب عليها أو احتكَّ بها، وتبع دور الترجمة الطويل بما كان فيه من إنتاج دور الابتكار والابتداع المؤسّس علىٰ الثقافة الإسلاميّة.

أثر الترجمة إلى العربية:

اعترف التاريخ بأنَّ الأُمَّة العربية وثبت إلىٰ الأمام والرقي بعد الإسلام وثبتين هائلتين: إحداهما علىٰ إثر إشعاع القرآن في جنباتها، فأنارها بعد ظلمة، وهداها بعد حيرة، ونظَّمها بعد اضطراب، وفتق أذهان أبنائها بعد ارتتاق؛ لاشتماله علىٰ عظائم المعارف الربوبية، وأُمَّهات العلوم الإلهية، والجميع في أنواره منطمسة، والكلّ من نوره مقتبسة؛ لأنَّه أضاف إلىٰ لغتها ألفاظاً جديدة، وأساليب دقيقة، وتعبيرات فنّيّة وعلميّة لم يكن للعرب عهد بها من قبل، وعرَّب كثيراً من الكلمات الأعجمية، ففتح بذلك باباً عظيماً للثراء اللغوي.

وقبل كلّ هذا نبَّه القرآن علىٰ وجوب النظر في الكون العامّ، وفي النفس الإنسانية، وفي الأسباب والمسبَّبات، والعلل والمعلولات، فكان مصباحاً أنار لمعتنقيه سبيل الحكمة والفلسفة، فأخذوا ينتجعونهما ويتطلَّعون إليهما في شوق وشغف حتَّىٰ فازوا منهما بحظّ وافر.

نعم هكذا كان فيهم تأثير كتاب الله العظيم الذي يقول في وصفه العالم الفرنسي مؤلِّف كتاب (في الدراسات الدينية): كفىٰ هذا الكتاب

_ يعني القرآن _ مجداً وجلالاً، أنَّ الأربعة عشر قرناً التي مرَّت عليه لم تستطع أن تجفّف أُسلوبه؛ بل هو الذي تحدّىٰ أعداءه علىٰ طول الخطّ أن يجاروا أقصر سورة منه في ميدان الفصاحة والبلاغة اللتين كانتا كلّ ما امتاز به العرب من موهبة، فأعلنوا عجزهم وسلَّموا الراية لصلابة هذا الدين الجديد، وأخذوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، وهو في كلتا الحالتين لا ينطق عن الهوىٰ، ولا يصدر إلَّا عن وحي أو إلهام من أحكم الحاكمين وأعلم العالمين بالخير والمصلحة، فكان من الطبيعي أن تقودهم هذه الأوامر الإلهية إلىٰ النظام العمراني والرفعة الاجتماعية، والكمال الأخلاقي، وهذا هو الذي كان بالفعل، فلم يكد الإسلام يبسط جناحيه علىٰ جزيرة العرب حتَّىٰ رأب صدوعها، ولمَّ شقها وجمع متفرّقاتها، وأخذ يضرب بيد من حديد علىٰ كلّ أسباب الفشل والشقاق من عادات العرب وتقاليدهم الهمجية الأُولىٰ، ونشر فيهم روح الديمقراطية والسلام، وأعلن فيهم أنَّ الإسلام قد ساوىٰ بين رفيعهم ووضيعهم، وحرَّم عليهم التمسّك بتلك العصبية البربرية، فلمَّا تغلغلت في نفوسهم هذه التعاليم خلقتهم خلقاً جديداً، وكوَّنت منهم خير أُمَّة صالحة لا للحياة فحسب؛ بل لبسط سلطانها ونشر دينها علىٰ قارَّتي آسيا وإفريقيا، وجزء عظيم من قارَّة أُوربا، ولولا ظروف خاصّة ذكرها التاريخ السياسي لاكتسح الإسلام أمامه الديانات الأُخرىٰ، ولأظلَّ المعمورة بظلاله الوارف، هذه الوثبة الأُولىٰ.

أمَّا الثانية: فقد كانت بعد نقل الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية، والثقافة الفارسية إلىٰ العربية.

بهذه كلّها استنار المسلمون، وعلىٰ آثارها وقفوا وبما فيها من خير

تهذَّبوا وتأدَّبوا، ولكن بعد أن أصلحوها بالمعارف الإسلاميّة وتعاليم دينهم الحنيف، إصلاحاً جعلها صالحة للحياة والخلود.

عرف العرب المسلمون بفضل هذه الترجمة مبدأ الحياة الفلسفية عند هذه الأُمم، وتتبَّعوا أطوار تفكيراتهم ومذاهبهم، فكان لهذا التاريخ المرتَّب بعضه علىٰ بعض أثر بعيد الفور في العقلية العربية المثقَّفة بالثقافة الإسلاميّة، ولولا نكبة الأُمَّة العربية علىٰ أيدي التتار، لشاهد العالم الحديث الآن في بغداد مكتبة حافلة بأهمّ ما أنتجته العقلية البشرية في جميع أنحاء المعمورة إلىٰ عصرهم.

هيَّأت هذه الترجمة تلك المواهب الكامنة في رؤوس العرب المسلمين إلىٰ البروز في عالم الواقعيات، برزت بهيأة أدهشت المؤرِّخين والباحثين، وانتهت إلىٰ إيجاد فلسفة إسلاميّة وعلوم عربية، تخصُّ المسلمين أنفسهم، وأصبح عصر الإسلام عصر ابتكار في الفلسفة والعلوم، ونظريات جديدة.

صورة موجزة من فلسفة الكندي:

تمهيد نقلاً عن كتاب (الكندي خالد بفلسفته) للشيخ الزنجاني رحمه الله: وقع بعض الباحثين في الحيرة والارتباك، وخيَّل إليهم أنَّ الكندي لم يزد علىٰ علوم اليونان وفلسفتهم جديداً، وأنَّه قد هوىٰ في حضيض الأُسلوب الغامض الذي يحول بينه وبين الجدارة بالخلود، وأنَّ النزر اليسير الباقي من كتبه لا يعطي صورة واضحة عن فلسفته.

ولكنّا عرفنا فلسفة الكندي من كتبه ومؤلَّفاته، ومن إلهاماته المسجَّلة في مؤلَّفات معاصره ومستودع أسرار فلسفته، وهو الفارابي

المعلِّم الثاني، واقتفىٰ ابن سينا أثر الفارابي في ذلك، وتبعه كثيرون من أبرع المؤلِّفين في الفلسفة وتاريخها العامّ من العرب والمسلمين، فلا نشكّ في أنَّ الكندي عاش في القرن الثالث الهجري، وأتمَّ ترجمة الفلسفة اليونانية والمعارف الفرسية والثقافة الهندية، وفرغ من شرحها والتعليق عليها بما يدلُّ علىٰ أنَّه هضمها ونضج في فهمها، وبرز فيها تبريزاً يستوجب الاحترام والإجلال والخلود، فأصبح فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها.

ثمّ استعان بثقافته الإسلاميّة والقرآنية علىٰ تعديلها وتقويمها وتصحيح أخطائها، فأبدع مذهباً مستقلّاً في الفلسفة، ابتناه علىٰ أساس استعمال البراهين المنطقية، والحجج النظرية التي ينتهي أوَّل قضاياها إلىٰ البديهيات المسلَّمة، فظلَّ مصدر إلهام أسمىٰ الأفكار وأعلىٰ النظريات إلىٰ معاصريه ومن جاء من بعده من فلاسفة العرب والإسلام، ولُقِبَ بحقّ (أوَّل فلاسفة العرب والإسلام)، وهو أوَّل فيلسوف عربي وإسلامي حاول التوفيق بين آراء أفلاطون وأرسطو، واقتفىٰ أثره الفارابي في ذلك، ثمّ ابن سينا، فألَّف كتاب الشفاء في الحكمة المشّائية، ثمّ كتاب الإشارات في الحكمة الإشراقية، والكندي حكيم إلهي وعقلي وتأكيدي وخلقي وديني، وقائل بوجود المجرَّدات والموجودات الغير المحسوسة، ومعتقد بشرف الإنسانية واحترام النواميس الفطرية.

وذكر الشيخ عبد الله نعمة في كتابه فلاسفة الشيعة (ص ٥٨٩/ ط الأُولىٰ في بيروت): إنَّ الكندي مؤمناً كبير الإيمان، مسلماً متمسّكاً بعقائد الإسلام، كثير المدافعة عنها، ولعلَّك تجد شواهد علىٰ ذلك في بعض كتبه، وكان عاملاً بالشريعة.

ويقـول ثانيـةً (ص ٥٨٣): ويُعَـدُّ الكنـدي في طليعـة المفكّـرين الـذين ظهـروا في دور التكـوين الفلسـفي الإسـلامي، وفي بدايـة الأدوار الانتقاليـة للثقافـة، مـن عهـد الكـلام الخـالص إلىٰ عهـد مـزيج بالفلسـفة الإفريقيـة والهندية والفارسية وسواها.

ومجهوده الخصب الرائـع في التـأليف يفـوق كثـيراً مـا يتوقّعـه الإنسـان مـن مفكّـر عـربي في ميـدان الفلسـفة، وفي مختلـف الفـروع العلميـة، أيّـام كانـت كـلّ الفـروع العقليـة، وحتّـىٰ الشـريعة مـا زالـت لـدىٰ المسـلمين في دور التكوين.

وقـد شـملت جهـوده المعشـبة في التصـنيف أكثـر جوانـب المعرفـة البشرية، ولم يترك ناحية مـن نـواحي الأبحـاث الفلسـفية _ كـما كانـت تفهـم في ذلك العهد _ إلَّا وضع رسـالة أو كتابـاً فيهـا، حتّـىٰ أحصـىٰ ابـن النـديم مؤلّفـات فيلسـوف العـرب وذكـر أنّهـا تبلـغ حـوالي (٢٣٨) رسـالة وكتابـاً، وأحصـاها غـيره وأنهاهـا إلىٰ (٢٦٥) رسـالة وكتابـاً، وضـعها في مختلـف العلـوم، مـن الحسـاب، والهندسـة النظريـة، والهيـأة، والظـواهر الجوّيـة، وتقـويم البلـدان، والطبيعـة، والسياسـة، والموسـيقي، والطـبّ، والفلسـفة، والأخلاق، والكلام وغير ذلك.

ويعتـبر الكنـدي مـن أبـرز فلاسـفة الإسـلام الـذين لهـم فضـل علىٰ العلـوم الرياضـية والفلكيـة، التـي بـذل كثـيراً مـن جهـوده ونشـاطه في سـبيلها، ومـن الـذين دفعـوا الحضـارة الإسـلاميّة الفكريـة إلىٰ الأمـام في أشـواط بعيـدة، وهـو مـن الأوائـل الـذين عنـوا عنايـة خاصّـة بـالعلوم الدخيلة الأجنبية، إذ أقبل عليها بالترجمة والنقل والتفسير.

وقـد كـان الكنـدي طبيبـاً حاذقـاً، وفيلسـوفاً عظـيماً، ومـنجّماً مـاهراً،

كما كان رياضياً كبيراً، آخذاً بجوانب المعرفة، وقد ترك آثاراً جليّة جعلت باكون الشهير يقول: إنَّ الكندي، والحسن بن الهيثم في الصفّ الأوَّل مع بطلميوس.

ويقول صالح زكي في كتاب (آثار باقية): إنَّ الكندي أوَّل من حاز علىٰ لقب فيلسوف الإسلام.

ثمّ يعود ثالثةً فيقول (ص ٥٨٧): وكان الكندي ذا حظوة كبيرة لدىٰ المأمون والمعتصم وابنه أحمد، وقد وضع باسم هذا الأخير أكثر من رسالة، ولا نعلم كم لبث في بلاط الخلافة، ولا نعرف منصبه فيه، نعم يذكر أنَّ مهمَّته كانت هي القيام بترجمة كتب اليونان إلىٰ العربية، وتهذيب ما يترجمه غيره. وربَّما كان الكندي يقوم في قصر الخلافة بعمل المنجّم أو الطبيب، كما قد يكون أيضاً قد عمل بديوان الخراج.

غير أنَّه أُقصي في أواخر أيّامه عن قصر الخلافة، وحرم منهم زمناً طويلاً، حين أفسد محمّد وأحمد ابنا موسىٰ بن شاكر بينه وبين المتوكّل بالدسّ والوشاية، ودبَّرا عليه حتَّىٰ ضربه المتوكّل، وصادر كتبه، فأخذاها وأفرداها في مكتبة خاصّة سُمّيت بالكندية.

ويفسِّر الأُستاذ أبو رَيدة غضب المتوكّل علىٰ الكندي بأنَّه قد أصابه ما أصابه عند رجوع سلطان مذهب أهل السُّنَّة في عهد المتوكّل الذي ناصر هذا المذهب وشدَّد علىٰ المعتزلة، وأنَّ نزعة الكندي الاعتزالية كانت جزءً من أسباب غضب المتوكّل عليه.

وهو تفسير لم يتأيَّد بشاهد واضح، وبخاصّة أنَّ المحور الرئيسي في الخلاف بين المعتزلة وبين غيرهم كان هو قضيّة خلق القرآن وقِدَمه، ولا نجد لهذا الموضع أثراً في مؤلَّفات الكندي، ولا يبعد أن يكون

لغضب المتوكّل علىٰ الكندي ووشاية ابني عبّاس التي سبَّبت له هذا التنكيل يتَّصل بما هو أبعد جذوراً ممَّا فسَّره الأُستاذ أبو رَيدة، وما ندري لعلَّ نزعة الكندي الشيعية لها علاقة قريبة في موضوع تلك الوشاية، وبالتالي في غضب المتوكّل عليه المعروف بعداوته اللدودة للشيعة.

ويعود رابعاً فيقول: وكانت شهرة الكندي العلمية، وقوَّة شخصيته الفلسفية، وقربه من البلاط العبّاسي من العوامل الرئيسية التي ألَّبت من حوله خصوماً ومنافسين، يزاحمونه علىٰ مكانته، وكانت سبباً في خلق الحسّاد له، شأن كلّ عظيم موهوب متفوِّق.

وكان من هؤلاء المنافسين محمّد وأحمد ابنا موسىٰ بن شاكر، اللّذان لمع نجمهما في عصر الكندي، ونبغا في الرياضيات والهيأة والفلسفة، فلم يرقهما أن يسمعا عن الكندي وفضله، وبخاصّة حين يريان حظوته الكبيرة في البلاط العبّاسي، فأخذا يكيدان له بالدسّ عند المتوكّل العبّاسي، والوشاية عليه، حتَّىٰ أفسدا ما بينه وبين المتوكّل، وكان من إثر ذلك أن أقصاه عن مكانه، وضربه وصادر مؤلَّفاته ومكتبته، فنقلاها إلىٰ البصرة، حيث أفرداها في مكتبة كبيرة خاصّة سُمّيت بالكندية، وأخيراً انكشفت دسائسهما ووقعا في غضب المتوكّل، ولم ينقذهما إلَّا منافس قديم لهما كانا أقصياه أيضاً بنفس الطريقة عن المتوكّل، وهو المهندس الشهير سند بن علي الذي ظهر حوالي عام (٨٥٠م)، وذلك بعد أن فشلا في حفر القناة، فوعد بحلّهما شريطة أن يرجع للكندي جميع كتبه، وقد تمَّ ذلك حين وصلته رقعة من الكندي بأنَّه تسلَّمها.

ومن خصوم الكندي أبو معشر جعفر بن محمّد البلخي الذي توفّي عام

(٢٧٢هـ) بعد أن جاوز المائة، وكان من أشدّ خصوم الكندي، كثير المضاغنة له، والتشنيع عليه، وإغراء العامّة به لاشتغاله بعلوم الفلسفة، ولم ينقطع شرّه عن الكندي حتّىٰ اشتغل بالفلسفة والنجوم، بعد أن دسَّ إليه الكندي من حسَّن له النظر فيها، وأصبح بعد ذلك من المعجبين به والآخذين عنه، ونجد في ثبت مؤلَّفات الكندي رسالة وضعها في جواب مسائل طبيعية في كيفيّات نجومية سأله أبو معشر عنها.

وللكندي رسالة في الفلسفة الأُولىٰ يهاجم فيها أعداء الفلسفة الجامدين، ولعلَّه كان يقصد بها أبا معشر البلخي قبل أن يحبّب إليه دراسة الفلسفة.

وله أيضاً قطعة شعرية يعبّر فيها عن انقلاب أوضاع الناس، ويحثُّ فيها علىٰ العزلة، ويشيد بغنىٰ النفس، ولعلَّه قالها وقد شهد انقلاباً تقدَّم فيه الأصاغر وتأخَّر فيه الأفاضل، ومن أن تكون حادثة غضب المتوكّل عليه بسعاية ابني موسىٰ بن شاكر التي سلفت، وما تبعها من التنكيل به سبباً للتعبير عمَّا يعتلج في نفسه بهذه المقطوعة:

أناف الذنابىٰ علىٰ الأرؤس ... فغمِّض جفونك أو نكِّس

وضائل سوادك واقبض يديك ... وفي قعر بيتك فاستجلس

وعند مليكك فابغ العلوّ ... وبالوحدة اليوم فاستأنس

فإنَّ الغنىٰ في قلوب الرجال ... وإنَّ التعزّز بالأنفس

وكائن ترىٰ من أخي عسرةٍ ... غنيّ وذي ثرو مفلس

ومن قائم شخصه ميّت ... علىٰ أنَّه بعد لم يُرمس

فإن تطعم النفس ما تشتهي ... تقيك جميع الذي تحتسي

والكندي هو صاحب القصَّة المعروفة مع أبي تمام الطائي الشاعر المعروف حين مدح أحمد ابن المعتصم بقوله من قصيدة:

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء أياس

وقال له الكندي: إنَّك مدحت الأمير بأجلاف العرب ولم تأتِ بجديد، ففكَّر أبو تمام هنيئة ثمّ قال:

لا تعجبوا ضربي له من دونه   مثلاً شروداً في الندىٰ والبأس

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره   مثلاً من المشكاة والنبراس

وعندئذٍ قال الكندي لابن المعتصم: إنَّ هذا لا يعيش كثيراً.

تشيّع الكندي:

أمَّا تشيّع الكندي كما جاء في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٥٩٢) فقد ذكره السيّد ابن طاووس في الجزء الخامس من كتابه (فرج المهموم) من علماء الشيعة الذين لهم معرفة بالنجوم، وقال ما لفظه: (فصل: وممَّن اشتهر بعلم النجوم، وقيل: إنَّه من علماء الشيخ الفاضل إسحاق بن يعقوب الكندي...)[(١)] الخ.

وقد ذكره الطهراني في مؤلِّفي الشيعة، وأورد بعضاً من مؤلَّفاته في كتابه (الذريعة).

وقد علمنا أنَّه وُلِدَ بالكوفة عاصمة التشيّع، وهي موطن آبائه وأجداده، والعادة تقضي بأن يتأثَّر بروح محيطه.

كما وجدناه يختم رسائله بتعابير ممَّا اعتاده الشيعة واختصّوا به دون سواهم، مثل ما ختم به رسالته في الفلسفة الأُولىٰ: (والحمد لله ربّ العالمين، وصلواته علىٰ محمّد النبيّ وآله أجمعين).

---

(١) فرج المهموم: ١٢٨.

ومثل ما جاء في ختام رسالته (في سجود الجرم الأقصىٰ): (والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة علىٰ محمّد المصطفىٰ وآله الطاهرين).

ومثل ذلك ورد في ختام (رسالته في النفس)، وفي ختام (رسالته في حدود الأشياء)، وغيرها.

أُنظر رسائل الكندي الفلسفية التي أخرجها وعلّق عليها الأُستاذ محمّد عبد الهادي أبو رَيدة، فإنَّك تجد هذه التعابير في ختام أكثر هاتيك الرسائل.

إنَّ هذه التعابير يصحُّ أن نجعلها قرينة قويّة علىٰ تشيّع الرجل دون الرجوع إلىٰ شيء من قرائن أُخرىٰ، انتهىٰ.

والآن فالنعد إلىٰ ما ذكره العلَّامة الزنجاني في كتابه الكندي خالد بفلسفته (ص ١٨/ ط النجف): قرأ الكندي في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧).

فتحيَّر الكندي في المتشابهات، فقال له بعض تلامذته: إنَّما يعرف القرآن من خوطب به، وهو رسول الله ﷺ وأهل البيت أدرىٰ بما في البيت، وعندنا في سامراء رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ وهو حفيده وسبطه الإمام الحسن العسكري عليه السلام وقد أجبره الخليفة علىٰ الإقامة في سامراء، فاسأله عن تفسير الآيات وتأويل المتشابهات، فاستحسن الكندي كلامه، وهكذا ساعده التوفيق الإلهي علىٰ تحصيل الثقافة القرآنية الكاملة من الإمام الحسن بن علي بن محمّد بن علي بن

موسىٰ بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهذه منقبة تاريخية تفرَّد بها الكندي ولا يشاركه فيها أحد من فلاسفة العرب والمسلمين.

فلسفة الكندي الإلهية:

ذكر الشيخ الزنجاني في كتابه الكندي (ص ١٩): يرىٰ الكندي أنَّ العالم _ أي ما سوىٰ الله _ كلّه حادث ومخلوق لله الواحد الأحد، وهو المبدع الأوَّل وعلَّة العلل، وأنَّ سلسلة الموجودات الإمكانية التي أفاضها المبدأ الأوَّل بقدرته الأزلية وبعلمه العنائي بالنظام الأحسن تبتدء من أكملها وأتمّها وجوداً، وهو العقل المجرَّد من المادّة ذاتاً وفعلاً، فهو ليس مادّياً ولا زمانياً بل هو فوق المادّة وفوق الزمان.

خلق الله العقل الأوَّل مزوَّداً بالقدرة علىٰ التأثير في ما يليه؛ وهو العقل الثاني وعلىٰ تصوير مادّة المخترعات الفلكية كما أراده الله تعالىٰ، وتنتهي سلسلة العقول الطولية _ التي جعل الله كلّ سابق منها علَّة إمكانية للاحق _ إلىٰ العقل العاشر المدبّر في عالم التكوين المادّي بأمر الله تعالىٰ، والعقول العشرة الطولية كلّها جواهر مجرَّدة عن المادّة ومستغنية عنها في ذواتها وفي أفعالها، ولكن النفس جوهر مجرَّد عن المادّة في ذاتها ومحتاج إليها في أفعالها، وعالم العقول يسمّىٰ: (عالم الإبداع) المنزَّه عن المادّة والزمان، والعقول العشرة هي (المرتبة الأُولىٰ) في سلسلة الوجود الإمكاني المرتَّب علىٰ نظام الأشرف فالأشرف، وتُسمّىٰ العقول العشرة (المبدعات)، كما تُسمّىٰ المرتبة الثانية (المخترعات)، وهي موجودات

مادّيـة لا تقـترن بالزمـان، وهـي الأفـلاك والفلكيـات ونفوسـها الكلّيـة، والموجـودات المثاليـة، وعالمهـا (عـالم الاخـتراع)، والاخـتراع في مصـطلح الفلاسـفة إيجـاد شيء لا في زمـان عـن مـادّة لطيفـة غـير مـادّة المكوّنـات، تُسمّىٰ بـ (الأثير).

وأمَّا المرتبة الثالثـة فهـي (المكوّنـات)، وعالمهـا (عـالم التكـوين)، وهـي موجـودات مقترنـة بالمـادّة والزمـان، وهـي العنـاصر، والطبـع، والصـورة الجسـمية، والهيـولىٰ _ العنصـر المـادي _ التـي هـي خاتمـة القـوس النـزولي للوجـود والعنصـريات مـن الأجسـام، والمواليـد الـثلاث: أي النبـات، والحيوان، والإنسان.

وفي رأي الكنـدي للنبـات نفـس نباتيـة مـع قواهـا، وللحيـوان نفـس حيوانية مـع قواهـا، والإنسـان مخصـوص بـالنفس الناطقـة التـي هـي مجـرَّدة عـن المـادّة في ذاتهـا، وأمَّـا في أفعالهـا فهـي محتاجـة إلىٰ البـدن والجـوارح؛ وللـنفس الناطقـة الهابطـة مـن عـالم الملكـوت إلىٰ عـالم الملـك (قوَّتـان) إحداهما: قوَّة نظرية بهـا تسـتكمل الفـيض الـذي تأخـذه مـن عـالم الملكـوت، وللنفس بحسـب هـذه القـوَّة العلَّامـة مراتـب أربـع وهـي: العقـل الهيـولاني فالعقل بالملكة، والعقل المستفاد، والعقل بالفعل.

ووجه الضبط أنَّ مراتـب الـنفس مـن بدايـة الاسـتكمال إلىٰ نهايتـه، إمَّـا اسـتعداد الكـمال أو نفـس الكـمال والاسـتعداد، أمَّـا اسـتعداد محـض فهـو (العقـل الهيـولاني) تشـبيهاً في خلـوّه عـن جميـع الصـور العقليـة الكماليـة بـالهيولىٰ الأُولىٰ الخاليـة في ذاتهـا عـن جميـع الصـور الجسـمية، وأمَّـا اسـتعداد الاكتسـاب، فهـو العقـل بالملكـة، وهـو عقـل اسـتعداد كسـب النظريـات المعقولـة مـن أوَّليـات معقولـة بـالفكر أو بالحـدس، وأمَّـا اسـتعداد

الاستحضار، وهو العقل بالفعل، وهو عقل استعداد استحضار النظريات المكتسبة المخزونة متىٰ شاء بمجرَّد الالتفات إليها من دون حاجة إلىٰ تجديد النظر.

وأمَّا مرتبة نفس الكمال فهي بعد انتهاء درجات الاستعداد إلىٰ درجة الفعلية الكاملة، فمتىٰ صارت النظريات حاصلة لدىٰ النفس واستحضرت المعلومات مشاهدة إيّاها مستفادة من العقل الفعال يقال لها: (العقل المستفاد).

والثانية قوَّة عمليّة بها تستنبط النفس واجبها فيما يجب أن تفعل، وللنفس بحسب هذه القوَّة العمّالة أيضاً أربع مراتب وهي: التجلية، فالتخلية، فالتحلية، فالفناء. والتجلية: تهذيب الظاهر باستعمال الشرائع النبوية والنواميس الإلهية؛ والتخلية: تهذيب الباطن عن الأخلاق السيّئة والملكات الرديّة؛ والتحلية: أن تتحلّىٰ النفس الناطقة المهذَّبة بالفضائل النفسية ومكارم الأخلاق؛ والفناء: هو الوصول في العمل إلىٰ ما ينطبق عليه الاعتقاد بمراتب التوحيد، من توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد الآثار.

هذه صورة مصغَّرة من بعض آراء الكندي في الفلسفة، ولكن بعض مؤرّخي الفلسفة وقع تحت تأثير دعايات أعداء الكندي فلا يميل إلىٰ الأخذ بالرأي القائل بأنَّ الكندي أبدع مذهباً مستقلَّاً في الفلسفة.

ما نُسِبَ إليه من البخل والحرص الشديد:

لا غرو في اختلاف المؤرِّخين القاصرين، أو المقلِّدين في فلسفة الكندي، ولا في اختلاف بعض المغفَّلين، قصصاً مدسوسة علىٰ الكندي من أعدائه للتشهير بقيمته العملية، كما شهَّروا بقيمته العلمية.

فروىٰ ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (ج ٢/ ص ١٨٢) للكندي وصيّةً، زعم أنَّه أوصىٰ بها ابنه، تدلُّ علىٰ أنَّه كان شديد البخل إلىٰ حدِّ الشحّ المغالي الذي لا يمنع صاحبه من الإحسان فحسب؛ بل يحول بينه وبين الإنفاق علىٰ نفسه.

ومن هذه الوصيّة في زعمه قوله: (قول لا يصرف البلا، وقول نعم يزيل النعم، والدينار محموم فإن صرفته مات، والدرهم محبوس فإن أخرجته فرَّ، والناس سخرة فخذ شيئهم واحفظ شيئك...).

وهذه الوصيّة إن صحَّت نسبتها إليه، لا تتَّفق مع شرف العلم الحقيقي، وبعيدة عن روح الفلسفة المعروفة، وعن خصال الكرم الذي ينبغي أن يتحلّىٰ بها العلماء.

ومثل الكندي الذي تبحَّر في الفلسفة اليونانية، ودرس الحكمة الهندية المغالية في الزهد والاستخفاف بالحياة المادّية، والعلوم والآداب الفرسية، وأتقن الثقافة القرآنية ومكارم الأخلاق الإسلاميّة دراسة ذات أثر فعّال، لا يمكن أن يكون في أخلاقه العملية شحوحاً إلىٰ هذا الحدّ الذي رموه به أعدائه ومقلِّدوهم.

وإذا صحَّت هذه الوصيّة إليه، فمن الجائز أنَّه قالها بحكم ظروف مادّية خاصّة، وأن تكون ضرباً من الحكمة التاشؤمية التي تعبِّر عن منطق الحياة القاسي، وعن موقف النفس وهي تحت رحمة المادّيات بما لها من سلطانها القاهر.

وقال أبو رَيدة في كتابه رسائل الكندي (ص ١٥): أمَّا قصَّة بخل الكندي، فهي قصَّة غريبة، ولعلَّ أوَّل من تحدَّث عن بخله الجاحظ في كتاب البخلاء، ولكن هذا الأديب الجاد الهازل لا يصرِّح بأنَّه الكندي

الفيلسوف، كما أنّه لا يذكر اسمه ونسبه علىٰ أكثر صراحة، كما هو الحال في كتاب الحيوان.

وهو يذكر من مظاهر بخل الكندي الذي يقصده، ما يدلُّ علىٰ بخل في إكرام الضعيف، وعلىٰ تشدّد في معاملة المستأجر ومحاولة الانتفاع منه بالاستيلاء علىٰ بقايا المستهلكات المنزلية، وعلىٰ أصناف الطعام من الجيران والسكّان يطعم بها أبناءه.

ويظهر أنَّ في ذلك كثيراً جدّاً من الخيال الأدبي، أو من التشنيع علىٰ سبيل التماس الطرائف حول الشخصيات الكبيرة، حيث لا يصحُّ أن تُنتظر؛ لأنّنا لا نعلم أنَّ الكندي كان له أبناء كثيرون، ولا يذكر الجاحظ _ مع أنّه كان معاصراً للكندي _ تلك الوصايا المشهورة المأثورة عنه في الحرص علىٰ المال، ممّا نجده عند ابن أبي أصيبعة، وهذا المؤرِّخ وحده هو الذي انفرد بروايتها دون سائر المؤلِّفين المتقدّمين.

ويظهر أنَّ من بعده قد أخذ عنه، ومن الجائز أنَّ الكندي كان محبّاً للمال لأجل الاستغناء ورفع الهمّة عن سؤال الناس، أو أنّه كان يتكلَّم في قيمة المال وأهمّية الحرص عليه بحسب ما يقتضيه تقرير حكمة الحياة العملية تقريراً موضوعياً واقعياً، لا علىٰ سبيل البخل الشخصي الحقيقي، فكان فهمُ ذلك فهماً غير صحيح هو السبب في أن نُسِبَ إليه ما يحكيه الجاحظ.

وفي أن نُسِبَت إليه هذه العبارات التي يندهش الباحث أن تصدر عن عربي من بيت ملك قديم ومجد مؤثل مشهور بالكرم، وعن فيلسوف صميم لا نستطيع أن نتصوَّر بسهولة أن يجعل للخيرات المادّية من القيمة ما يجعله لها البخلاء الحقيقيون الذين لا يعرفون قدر القيم العقلية

والروحية العليا؛ بل إنَّ الكندي يزهِّد الناس في المادّيات ويقول كما يحكي عنه البيهقي: (لا تغترّ بمال وإن كثر).

آراؤه:

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٦٠٥): قد يبدو لنا أنَّ كثيراً من آراء الكندي لا تستحقّ كثيراً من الاهتمام، وليس لها من الشأن ما يحملنا علىٰ العناية بها، نظراً لخلوّها من الملاحظات العلمية الناضجة، كالتي نلمسها عند المفكّرين المتأخّرين، أمثال ابن سينا والطوسي وسواهما.

قد يبدو لنا ذلك حين ننظر إليها نظرة موضوعية مجرَّدة عن الظروف التي تكوَّنت فيها، ولم نأخذ في اعتبارنا عصرها الذي صدرت فيه، يوم كانت الفلسفة وسائر العلوم في دور تكوينها، وبملاحظة عصرها وظروفها، نجد كثيراً من تلك الآراء التي صدرت عن الكندي تمثّل أرقىٰ الفكر، وأبدع ما أنتجه العرب في ذلك الدور.

وسنجد في بعض آرائه الآتية شواهد واضحة علىٰ أنَّ الكندي لم يكن ناقلاً عن سواه من الفلاسفة اليونانيين وسواهم فحسب؛ بل كان إلىٰ ذلك أيضاً محاكماً ومحوّراً ومطوّراً، وأنَّه أخذ من الفلسفة الأجنبية ما يلائم آراءه ويعدّل ما يخالفها. وفي ذلك دحض للفكرة القائلة: إنَّ فلسفة العرب هي الفلسفة اليونانية بلغة عربية كما يقول رينان.

ومن تلك الآراء:

١ ـ حدوث العالم والحركة والزمان، بإثبات استحالة وجود جسم بالفعل لا نهاية له.

ويقدِّم للبرهنة علىٰ ذلك مقدّمات كثيرة، عرفت فيما بعد لدىٰ المتكلِّمين والفلاسفة بـ(برهان التطبيق)، الذي اتَّخذوه برهاناً كافياً لإبطال التسلسل.

وتلك المقدّمات عند الكندي هي بحسب تعبيره:

ألف _ أنَّ كلّ الأجرام التي ليس منها شيء أعظم من شيء متساوية.

ب _ والمتساوية، أبعاد ما بين نهاياتها واحدة بالفعل والقوَّة.

ج _ ذو النهاية ليس لا نهاية له.

د _ وكلّ الأجرام المتساوية، إذا زيد علىٰ واحد منها جرم، كان أعظمها، وكان أعظم ممَّا كان من قبل أن يُزاد عليه ذلك الجرم.

هـ _ وكلّ جرمين متناهي العِظَم، إذا جمعا كان الجرم الكائن عنهما متناهيَ العِظَم، وهذا واجب في كلّ عِظَم وكل ذي عِظَم.

و _ وأنَّ الأصغر من كلّ شيئين متجانسين، بعد الأعظم منهما أو بعد بعضه.

وينتهي بعد هذه المقدّمات إلىٰ النتيجة التالية: إذا أُخذ جزء من الجسم المفروض أنَّه لا نهاية له بالفعل، ثمّ أُضيف إليه من جديد، لكان مع ما يضاف إليه أكبر منه قبل الإضافة، لكنَّه قبل الإضافة وبعدها هو هو، أي لا متناهٍ، وإذن: اللامتناهي أكبر وأصغر في وقت واحد، وهو تناقض باطل، فإذن يتحتَّم القول بنهاية الجسم وحدوثه وعدم قِدَمه.

ويترتَّب علىٰ ذلك تناهي جميع توابع الجرم من الحركة والزمان والمكان، التي هي من محمولات الجرم، وينتهي بعد ذلك إلىٰ أنَّ الجرم (الجسم) حادث عن ليس (أي المعدوم)، وأنَّ المحدِث له هو الله الواحد سبحانه.

وهذا دليل علىٰ أنَّ أوَّل فلاسفة الإسلام قد ناقض أرسطو في قضيّة حدوث العالم، ولم يكن أرسطو يسيطر حتَّىٰ في أوَّل عهد الفلسفة علىٰ الفكر الفلسفي في الإسلام.

فقد كان رأي أرسطو هو قِدَم العالم من حيث حركته، ومن حيث مدَّة وجوده، مع قوله بتناهي هذا العالم من حيث مساحته وامتداده الجسمي في المكان.

ومن هنا نجد المعارضة الواضحة في رأي أرسطو هذا مع رأي الكندي القائل بحدوث العالم من حيث مساحته، ومن حيث حركته ومن حيث الزمان، ومن حيث المكان.

٢ _ يبدو أنَّ الكندي لا يعتبر الزمان أمراً موجوداً قائماً بذاته، وإنَّما هو مجرَّد أمر وهمي اعتباري، وأنَّه ليس للزمان حقيقة أُخرىٰ وراء مدَّة وجود الجسم، وهو تابع له.

وهو يقسِّم الزمان إلىٰ ثلاثة أقسام: الآن، والماضي، والمستقبل، وأنَّ الأوَّل هو الذي يفرض لوصل الماضي بالمستقبل، وليس له بقاء؛ لأنَّه ينقضي قبل تفكيرنا.

وأنَّ الآن ليس زماناً، لأنَّنا كلَّما نحاول إيجاد (آنٍ) للاتّصال بين الماضي والمستقبل، توجد حلقة أُخرىٰ.

ويقول: إنَّ الزمان بالنسبة إلىٰ الماضي والمستقبل ليس سوىٰ أمرين إضافيين هما (قبل) و(بعد).

ثمّ هو بعد هذا يفسِّر الزمان تفسيراً رياضياً، تمشّياً مع نزعته الطبيعية، فيقول: (فهو إذن ليس سوىٰ العدد، وإذن فالزمان هو عدد عاد للحركة). وينتهي إلىٰ أنَّ الزمان والحركة كلاهما متناهيان؛ لأنَّهما مرتبطان بالجسم.

وهو في هذا علىٰ خلاف رأي أرسطو القائل بأزلية الزمان وأبديَّته، لربطه فكرة الزمان بالحركة، الذي هو مقدارها أو عددها، ودعامة رأيه بقِدَم الزمان قائمة علىٰ فكرته بقِدَم الهيولىٰ والعالم.

٣ _ يقول: إنَّ المكان موجود وبيّن، ولكنَّه ليس بجسم، وهو في هذا يوافق أرسطو ويخالف أفلاطون صاحب الفكرة القائلة بأنَّ المكان جسم.

٤ _ يفسِّر تكوّن الغمام والمطر بالأبخرة المتصاعدة بسبب حرارة الشمس التي تبخِّر الماء والعناصر المائية والأرضية، فترفع هذه وتؤلِّف الغمام، حتَّىٰ إذا صادف العوامل المبرّدة (المكتنفة) للأبخرة هطلت مطراً.

ويتجلّىٰ في تفسيره لتكوين الغمام والمطر روح محاولة لتفسير هذه الظواهر تفسيراً علمياً طبيعياً، دون أن يكون فيها أيّ تفسير خيالي، ولا أيّ استناد إلىٰ الاستنباط من أُصول نظرية مجرَّدة، وهو تفسير لم يزد عليه المعاصرون شيئاً ذا قيمة، يدخل في أساس هذه النظرية، وتبدو قيمة تفسير الكندي هذا حين نعرف أنَّه وُجِدَ يوم كان التفسير لأشياء هذه المواضيع يعتمد علىٰ أسباب خيالية وتقليدية، وقد ظلَّت روح هذه التفاسير باقية عند جمع من الفقهاء في عصرنا الأخير، حتَّىٰ وضع بعضهم رسالة في تكفير من يفسِّر تكوين الأمطار من البخار، وسمّىٰ رسالته تلك بـ (السيف البتّار في دفع شبهات الكفّار القائلين بأنَّ المطر من البخار).

٥ _ ولم يفت الكندي التنبيه علىٰ أنَّ التمدّد والانبساط في الجسم هو من خواصّ الحرارة، وأنَّ التقلّص والتمدّد يتحرَّك بتحرّك الهواء وقد تكوّن ريحاً فيقول: (وكلّ جسم برد انقبض واحتاج إلىٰ مكان أصغر من مكانه قبل برده، وكلّ جسم حمىٰ انبسط واحتاج إلىٰ مكان أعظم من مكانه قبل حميه، فسال الهواء من جهة الموضع المنبسط الحارّ الذي يتَّسع بالحرارة إلىٰ جهة الموضع المنقبض البارد الذي ثقل مساحته بالبرودة).

فأنت ترىٰ أنَّ الكندي قد أشار إلىٰ النظرية الطبيعية، وهي تمدّد الجسم بالحرارة وتقلّصه بالبرودة، وهي نظرية صحيحة ثابتة، كما أشار إلىٰ أسباب هبوب الريح ومؤثّراتها، وهي إشارة صحيحة بجملتها.

أمَّا آراء الكندي في العقل والنفس فهي بجملتها لا تعدو آراء سواه من اليونانيين، ويظهر أنَّه كان متأثّراً بآراء أرسطو أكثر من أيّ فيلسوف يوناني آخر.

ونجده في رسالته في النفس يختصر رأيه فيها من كتاب أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة، ويلخِّص آراءهم فيها فيقول: (إنَّ النفس بسيطة، ذات شرق وكمال، عظيمة الشأن جوهرها من جوهر الباري ﷻ، كقياس ضياء الشمس من الشمس..، وإنَّ هذه النفس منفردة عن الجسم مباينة له، وإنَّ جوهرها جوهر إلهي روحاني).

ثمّ هو يبيّن أنَّها إذا فارقت البدن انكشفت لها جميع الحقائق، وصارت في عالم (الديمومة) أو عالم العقل، أو عالم الحقّ، ثمّ يعضد آراءه هذه بأقوال كلّ من أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس.

ونجده في رسالته في العقل ينقل آراء المحمودين من قدماء اليونان، غير أنَّه يعتبر أنَّ أرسطو هو الممثّل الأكبر لهذه النظرية، وأنَّ حاصل قول أفلاطون في ذلك هو قول تلميذه أرسطو، فيقول: (إنَّ رأي أرسطاطاليس في العقل أنَّ العقل علىٰ أنواع أربعة: الأوَّل منها: العقل الذي بالفعل أبداً. والثاني: العقل الذي بالقوَّة، وهو للنفس. والثالث: العقل الذي خرج في النفس من القوَّة إلىٰ الفعل. والرابع: العقل الذي نسمّيه الثاني)، ثمّ يأخذ في تفسير هذه الأقسام العقلية.

ولعلَّ رسائله في العقل والنفس وما إليهما، التي يبدو فيها أنَّ

الكندي كان مأخوذاً بآراء أرسطو جعلت بعض مترجمي الكندي يقول فيه: (إنَّه حذا في تآليفه حذو أرسطاطاليس).

ولكن إطلاق هذا الحكم عليه في تآليفه لا يوافق الواقع، بل هو صحيح علىٰ نحو (الموجبة الجزئية)، وفي قسم من مؤلَّفاته.

المنقول عنه من الحكم و الآداب:

ذكر أبو رَيدة في كتابه رسائل الكندي الفلسفية (ص ١٦/ ط مصر/ ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م): من كلماته (أي الكندي) الدالّة علىٰ حكمته: اعتزل الشرّ فإنَّ الشرّ للشرّير خُلِقَ.

من لم ينبسط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك.

اعصِ الهوىٰ وأطع من شئت.

لا تغترّ بمال وإن كثر.

لا تطلب الحاجة إلىٰ كذوب، فإنَّه يبعّدها وهي قريبة، ولا إلىٰ جاهل فإنَّه يجعل حاجتك وقاية لحاجته.

لا تنجو ممَّا تكره حتَّىٰ تمتنع عن كثير ممَّا تحبّ وتريد.

العاقل يظنّ أنَّ فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظنّ أنَّه قد تناهىٰ، فتمقته النفوس لذلك.

ليتَّق الله تعالىٰ المتطبّب ولا يخاطر، فليس علىٰ الأنفس عوض، وكما يحبّ أن يقال: إنَّه كان سبب عافية العليل وبرئه، فليحذر أن يقال: إنَّه كان سبب تلفه وموته.

من لم يكن حكيماً لم يزل سقيماً.

يحتاج طالب العلم إلىٰ ستَّة أشياء حتَّىٰ يكون فيلسوفاً، فإن

نقصت لم يتمّ: ذهن بارع، وعشق لازم، وصبر جميل، وروع خال، وفاتح مُفهم، ومدَّة طويلة.

وممَّا يُنسَب له في وصيّة لابنه أبي العبّاس في الحرص:

يا بني الأب ربّ، والأخ فخّ، والعمّ غمّ، والخال وبال، والأقارب عقارب، وقول: (لا) يصرف البلا، وقول: (نعم) يزيل النعم، وسماع الغناء برسام حادّ؛ لأنَّ الإنسان يسمع فيطرب، وينفق فيسرف فيفتقر فيغتمّ فيعتلّ فيموت، والدينار محموم فإن صرفته مات، والدرهم محبوس فإن أخرجته فرَّ، والناس سخرة فخذ شيئهم واحفظ شيئك، ولا تقبل ممَّن قال: (لا) يمين الفاجرة، فإنَّها تدع الديار بلا قع خاوية.

ويذكر ابن نباتة من هذه الوصيّة: يا بني كن مع الناس كلاعب الشطرنج تحفظ شيئك وتأخذ من شيئهم، فإنَّ مالك إذا خرج عن يديك لم يعد إليك. واعلم أنَّ الدينار محموم، فإذا صرفته مات، واعلم أنَّه ليس شيء أسرع فناءً من الدينار إذا كُسِرَ والقرطاس إذا نُشِرَ، ومثل الدرهم كمثل الطير الذي هو لك ما دام في يدك، فإذا طار عنك صار لغيرك.

وقال المتلمّس:

قليل المال تصلحه فيبقىٰ ... ولا يبقىٰ الكثير مع الفساد
لحفظ المال خير من فناء ... وسير في البلاد بغير زاد

وسمع رجلاً ينشد قول ربيعة الرقّي:

لو قيل للعبّاس يا ابن محمّد ... قل: (لا) وأنت مخلَّدٌ ما قالها

فقال: ليس يجب أن يقول الإنسان في كلّ شيء: نعم، وكان الوجه أن يستثني، ثمّ قال:

هجرت في القول (لا) إلّا لعارضة ... تكون أولىٰ بلا في اللفظ من نعم

قال القِفطي في أخبار الحكماء (ص ٢٤٦): وقد ذكروا من عجيب ما يُحكىٰ عن يعقوب بن إسحاق الكندي، أنَّه كان في جواره رجل من كبار التجّار، موسَّع عليه في تجارته، وكان له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه وضبط دخله وخرجه، وكان ذلك التاجر كثير الإزراء علىٰ الكندي والطعن عليه، مدمناً لتعكيره والإغراء به، فعرض لابنه سكتة فجأة، فورد عليه من ذلك ما أذهله، وبقي لا يدري ما الذي في أيدي الناس وما لهم عليه، مع ما دخله من الجزع علىٰ ابنه، فلم يدع بمدينة السلام طبيباً إلَّا ركب إليه واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج، فلم يجبه كثير من الأطبّاء لكبر العلَّة وخطرها إلىٰ الحضور معه، ومن أجابه منهم فلم يجد عنده كبير غناء، فقيل له: أنت في جوار فيلسوف زمانه وأعلم الناس بعلاج هذه العلَّة، فلو قصدته لوجدت عنده ما تحبّ.

فدعته الضرورة إلىٰ أن تحمَّل علىٰ الكندي بأحد إخوانه فثقل عليه في الحضور فأجاب وصار إلىٰ منزل التاجر، فلمَّا رأىٰ ابنه وأخذ مجسّه، أمر بأن يحضر إليه من تلامذه في علم الموسيقي من قد أنعم الحذق بضرب العود، وعرف الطرائق المحزنة والمزعجة، والمقويّة للقلوب والنفوس، فحضر إليه منهم أربعة نفر، فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه، وأن يأخذوا في طريقة أوقفهم عليها وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم علىٰ الدساتين ونقلها، فلم يزالوا يضربون في تلك الطريقة والكندي آخذ مجسّ الغلام، وهو في خلال ذلك يمتدّ نفسه ويقوىٰ نبضه ويراجع إليه نفسه شيئاً بعد شيء، إلىٰ أن تحرَّك ثمّ جلس وتكلَّم، وأُولئك يضربون في تلك الطريقة دائماً لا يفترون.

فقال الكندي لأبيه: سَلْ ابنك عن علم ما تحتاج إلىٰ علمه ممَّا لك

وعليك وأثبته، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره ويكتب شيئاً بعد شيء، فلمَّا أتىٰ علىٰ جميع ما يحتاج إليه، غفل الضاربون عن تلك الطريقة التي كانوا يضربونها وفتروا، فعاد الصبي إلىٰ الحال الأُولىٰ وغشيه السكات، فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ما كانوا يضربون به، فقال: هيهاتَ إنَّما كانت صبابة قد بقيت من حياته ولا يمكن فيها ما جرىٰ، ولا سبيل لي ولا لأحد من البشر إلىٰ الزيادة في مدَّة من قد انقطعت مدَّته، إذ قد استوفىٰ العطية والقسم الذي قسم الله له.

* * *

(٤)

أبو حنيفة الدينوري[1]

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ١٤٣): هو أحمد بن داود بن وتند الدينوري، وُلِدَ في القرن الثالث الهجري، وتوفي حوالي (٢٩٠هـ/ ٨٩٣م).

كان أبو حنيفة من النابغين الذين اشتهروا بالفلسفة والحساب والهندسة والفلك والنبات والأدب والتاريخ والجبر وغيرها.

وهو كما يقول عنه أبو حيّان التوحيدي: من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، وله في كلّ فنّ ساق وقدم، ورواء وحكم، وهذا كلامه في الأنواء، يدلُّ علىٰ حظّ وافر من علم النجوم، وأسرار الفلك، فأمَّا كتابه في النبات فكلامه فيه في عروض كلام أبدىٰ بدوي، وعلىٰ طباع أفصح عربي.

وأبو حنيفة رغم أخذه بأسباب المعرفة والفكر، وتنوّع ثقافته وجمعه لأنواع العلوم قد غلب علىٰ شهرته الجانب الأدبي والتاريخي، وأكثر من التأليف في ذلك، وتروىٰ مناقشة وقعت في مجلس أبي سعيد السيرافي النحوي المعروف بصدد تفضيل بلاغة أبي حنيفة والجاحظ المشهور، وحاول أبو سعيد أن يختم النقاش بأن قال:

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٤٣؛ تراث العرب العلمي: ١٥٣؛ معجم الأُدباء ٣: ٢٦؛ الأعلام ١: ١٢٣؛ معجم المؤلّفين ١: ٢١٨؛ معجم أعلام المورد: ١٩٨؛ الكنىٰ والألقاب ١: ٥٤.

وأبو حنيفة أكثر ندارةً، وأبو عثمان الجاحظ أكثر حلاوةً، ومعاني أبي عثمان لائطة بالنفس، وسهلة في السمع، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأغرب وأدخل في أساليب العرب.

وممَّا لا ريب فيه أنَّ شهادة كهذه لا ترسل عبثاً وجزافاً، وهي تدلُّ علىٰ مقام الرجل ومكانته.

ويعلن أبو حيّان التوحيدي: أنَّه يضع ثلاثة من الكتّاب فوق جميع من كتب، هم: الجاحظ، وأبو زيد البلخي، وأبو حنيفة الدينوري.

وكان لغوياً كبيراً أيضاً، فقد حكي خبر ورود المبرَّد مدينة الدينور، وقد سأله مضيفه عيسىٰ بن ماهان عن كلمة غريبة في الحديث، وإذ كان المبرَّد غير متأهّب للسؤال، ارتجل معنىٰ للكلمة، وعندما سُئِلَ عن شاهد عليها، انتحل بيتاً من الرجز ثمّ أعلن حضور أبي حنيفة وقدَّم له السؤال فأكَّد أنَّ شاهد المبرَّد منتحل، وأنَّ للكلمة معنىٰ يختلف كلّ الاختلاف عمَّا قاله المبرَّد، واضطرَّ المبرَّد إلىٰ الاعتراف بإصابة أبي حنيفة، معتذراً بأنَّه أنف أن يرد من العراق، وذكر ما قد شاع، ولا يعرف أوَّل ما يُسئل عنه.

وكان موضع ثقة العلماء فيما يرويه ويحكيه. يقول ياقوت: (وكان نحوياً لغوياً مهندساً منجّماً حاسباً، راوية ثقة فيما يرويه ويحكيه)[1].

ويقول ابن النديم: ... أخذ عن البصريين والكوفيين، وكان متفنّناً في علوم كثيرة، وثقة فيما يرويه، معروفاً بالصدق[2].

وهو تلميذ ابن السكّيت المعروف، وقد أكثر الأخذ عنه، ووصفه القمّي بقوله: (... الفاضل العالم بالهندسة والحساب والفلسفة...).

---

(١) معجم الأُدباء ٣: ٢٦.

(٢) أُنظر: فهرست ابن النديم: ٨٥.

وقد أثار أبو حنيفة بعلمه وعمقه انتباه الموفَّق أخي الخليفة المعتمد العبّاسي فآثره ورعاه، وعرف مكانته.

وكتبه التي أحصاها ياقوت متنوّعة أشدّ التنوّع، فهي تمثّل الجغرافيا، والنبات، والرياضيات من الحساب والجبر والهندسة، والتاريخ، والفلك، وغير ذلك.

ومؤلَّفاته ذات قيمة علمية، تزهر في تراثنا الإسلامي، وهي حسب إحصائها كما يلي:

١ _ كتاب الباه.

٢ _ كتاب ما يلحن فيه العامّة.

٣ _ كتاب الشعر والشعراء.

٤ _ كتاب الفصاحة.

٥ _ كتاب الأنواء، وهو يدلُّ علىٰ حظّ وافر من النجوم وأسرار الفلك، يتضمَّن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء، ومهاب الرياح وتفضيل الزمان وغير ذلك.

٦ _ كتاب في حساب الدور.

٧ _ كتاب البحث في حساب الهندي.

٨ _ كتاب الجبر والمقابلة.

٩ _ كتاب البلدان الكبير.

١٠ _ كتاب النبات، قيل: إنَّه لم يصنَّف مثله في معانه، وأطراه كثير ممَّن ترجموا الدينوري، وقد اختصره موفَّق الدين عبد اللطيف البغدادي.

١١ _ كتاب الردّ علىٰ نصرة الأصفهاني، وقد ردَّه عليه أبو نعيم علي بن حمزة البصري الشيعي المتوفّي عام (٣٧٥هـ).

١٢ _ كتاب الجمع والتفريق.

١٣ _ كتاب الأخبار الطوال، وهو مطبوع في بغداد نشره نعمان الأعظمي، ثمّ طُبِعَ حديثاً في القاهرة بإخراج جيّد وتعليقات مفيدة.

١٤ _ كتاب الوصايا.

١٥ _ كتاب نوادر الجبر.

١٦ _ كتاب إصلاح المنطق.

١٧ _ كتاب القبلة والزمان.

١٨ _ كتاب الكسوف.

١٩ _ كتاب في تفسير القرآن، قال أبو حيّان التوحيدي: إنَّه بلغ ثلاثة عشر مجلَّداً، وأنَّه ما سبق إلىٰ ذلك النمط.

٢٠ _ كتاب جواهر العلم، ذكره الطهراني في الذريعة، ناقلاً عن كشف الظنون (ج ١/ ص ٤٠٩).

٢١ _ كتاب الردّ علىٰ رصد الأصفهاني، ذكره التوحيدي في المقابسات، وابن النديم في الفهرست.

٢٢ _ وله زيج اسمه زيج أبي حنيفة.

وتتضافر الدلائل علىٰ أنَّ أبا حنيفة كان شيعياً، وقد ذكر الطهراني في كتابه (الذريعة)[1] عندما عرض لمؤلَّفاته التي أدركها في كتابه المذكور:

ويؤكِّد ذلك أنَّه كان تلميذاً لابن السكّيت الشيعي المتصلّب، والذي قُتِلَ بسبب عقيدته، قتله المتوكّل العبّاسي في قصَّة معروفة، وقد عرفنا ممَّا سبق أنَّ أبا حنيفة أكثر من الأخذ عن ابن السكّيت، والكثير في العادة أن يتأثَّر التلميذ بآراء أُستاذه وطريقته.

(١) راجع: الذريعة ١: ٣٣٨.

ومؤيّد آخر أنَّ أبا حنيفة ذكر في كتابه الأخبار الطوال (ص ٣٨٨) قصَّة عن الرشيد خلاصتها: أنَّ الرشيد أحضر ولديه الأمين والمأمون وهما فتيان، والأصمعي حاضر يلقي عليهما بعض المسائل بطلب من الرشيد وهما يجيبان، وقد أطراهما الأصمعي فضمَّهما الرشيد إلىٰ صدره، ثمّ أذن لهما بالانصراف، وتحدَّرت دموعه، حتَّىٰ إذا خرجا من عنده قال الرشيد: كيف بكم إذا ظهر تعاديهما، وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما حتَّىٰ تسفك الدماء، ويودُّ كثير من الأحياء أنَّهم كانوا موتىٰ.

فقال له الأصمعي: يا أمير المؤمنين هذا شيء قضىٰ به المنجّمون عند مولدهما؟ أو شيء أثرته العلماء في أمرهما؟ قال: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما.

قالوا: فكان المأمون يقول في خلافته: قد كان الرشيد سمع جميع ما جرىٰ بيننا من موسىٰ بن جعفر بن محمّد؛ فلذلك قال ما قال.

فنقل هذا الحديث مع ما جاء فيه من ذكر الأوصياء، ونقل نسبة ذلك إلىٰ الإمام موسىٰ بن جعفر تظهر عليه روح التشيّع، وما كان لغير شيعي أن يذكر ذلك.

وهناك مواضع عديدة في كتابه المذكور تبدو عليه روح التشيّع واضحة، وقد لمح هذه الحقيقة محمّد السباعي الحفناوي في كتابه (أبو سفيان بن حرب)، وصرَّح بها فقال: (... وأنَّ أبا حنيفة الدينوري صاحب كتاب الأخبار الطوال، هو من أقدم المؤرِّخين الذي لهم ميول شيعية).

* * *

حكماء القرن الرابع

(٥)

أحمد بن محمّد الطبرسي الطبيب

في (أعيان الشيعة)[1]: في مجالس المؤمنين ما ترجمته: بقراط الدهر، وجالينوس العصر، أبو الحسن أحمد بن محمّد الطبرسي، فيلسوف مشهور وطبيب ماهر، تلميذ أبو طاهر موسىٰ بن سيار.

وكان طبيب الملك ركن الدولة الديلمي وأخيه الملك معزّ الدولة، كما أشار إليه في الباب الحادي والثلاثين من المقالة الثالثة من كتاب المعالجات البقراطية.

والحقّ أنَّ مقدّماته أشاعت صيت تبحّره في الحكمة الطبيعية والإلهية.

وفي طبقات الأطبّاء لابن أبي أصيبعة: أبو الحسن أحمد بن محمّد الطبرسي من أهل طبرستان، فاضل عالم بصناعة الطبّ، وكان طبيب الأمير ركن الدولة.

ولأحمد بن محمّد الطبرسي من الكتب: الكناش المعروف بالمعالجات البقراطية، وهو من أجلّ الكتب وأنفعها وقد استقصىٰ فيه ذكر الأمراض ومداواتها علىٰ أتمّ ما يكون، وهو يحتوي علىٰ مقالات كثيرة.

* * *

(١) أعيان الشيعة ٣: ١١٨/ الرقم ٣٨٧.

(٦)

الفارابي الحكيم التركي المعلّم الثاني[١]

أبـو نصـر محمّـد بـن طرخـان بـن أوزلـغ الفـارابي التركـي الحكـيم المشـهور، قـال ابـن خلّكـان في المجلَّـد الثـاني مـن (وفيـات الأعيـان)[٢]: أبـو نصـر محمّـد بـن طرخـان، صـاحب التصـانيف في المنطـق والموسـيقي وغيرهما من العلـوم، وهـو أكـبر فلاسـفة المسـلمين، ولم يكـن فـيهم مـن بلـغ رتبته في فنونه، والرئيس ابن سينا بكتبه تخرَّج وبكلامه انتفع في تصانيفه.

وكـان رجـلاً تركيـاً، ولـد في بلـده ونشـأ بهـا، ثـمّ خـرج مـن بلـده وانتقلـت بـه الأسـفار إلىٰ أن وصـل إلىٰ بغـداد، وهـو يعـرف اللسـان التركـي وعدَّة لغـات غـير العـربي، فتعلَّمـه وأتقنـه غايـة الإتقـان، ثـمّ اشـتغل بعلـوم الحكمة، ولـمَّا دخل بغداد كـان بهـا أبـو بشـر متّـىٰ يـونس الحكـيم المشـهور، وهـو شـيخ كبـير، وكـان يقـرأ النـاس عليـه فـنّ المنطـق، ولـه إذ ذاك صـيت عظـيم وشـهرة وافيـة، ويجتمـع في حلقتـه كـلّ يـوم المئـون مـن المشـتغلين بـالمنطق، وهـو يقـرأ كتـاب أرسـطاطاليس في المنطـق، ويمـلي عـلىٰ تلامذتـه

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٥٠٣؛ معجم أُدباء الأطبّاء ٢: ١١٦؛ تأسيس الشيعة: ٣٨٣؛ طبقات الأُمم: ٧٠؛ عيون الأنباء ٣: ٢٢٣؛ تاريخ فلاسفة الإسلام: ١٣؛ إخبار العلماء: ١٨٢؛ روضات الجنّات ٧: ٣٢١؛ معجم المؤلِّفين ١١: ١٩٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ١٢٦؛ كشكول البهائي ٣: ٤١.

(٢) أُنظر: وفيات الأعيان ٥: ١٥٣ - ١٥٦/ الرقم ٧٠٦.

شرحه، فكتب عنه في شرحه سبعين سفراً، ولم يكن في ذلك الوقت أحد مثله في فنّه، وكان حسن العبارة في تآليفه، لطيف الإشارة، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل، حتّىٰ قال بعض علماء هذا الفنّ: ما أرىٰ أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة إلَّا من أبي بشر ـ يعني المذكور ـ.

وكان أبو نصر يحضر حلقته في غمار تلامذته، فأقام أبو نصر كذلك برهة، ثمّ ارتحل إلىٰ مدينة حرّان وفيها يوضا بن خيلان الحكيم النصراني، فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً، ثمّ إنَّه قفل راجعاً إلىٰ بغداد، وقرأ بها علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس وتمهَّر في استخراج معانيها والوقوف علىٰ أغراضه فيها، ويقال: إنَّه وُجِدَ كتاب النفس لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخطّ أبي نصر الفارابي: (إنّي قرأت هذا الكتاب مائة مرَّة)، ونُقِلَ عنه أنَّه كان يقول: (قرأت السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرَّة، وأرىٰ أنّي محتاج إلىٰ معاودة قراءته)، ويروىٰ عنه أنَّه سُئِلَ: من أعلم الناس بهذا الشأن، أنت أم أرسطاطاليس؟ فقال: (لو أدركته لكنت أكبر تلامذته).

وذكره أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد القرطبي في كتاب (طبقات الحكماء)، فقال: الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة، أخذ صناعة المنطق عن يوحنّا بن خيلان المتولّي بغداد المتوفّي بمدينة السلام في أيّام المقتدر، فبذَّ جميع أهل الإسلام وأربىٰ عليهم في التحقيق لها، وشرح غامضها في كشف سرّها وقرَّب تناولها وجميع ما يحتاج إليها منها، في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، مُنبِّهاً علىٰ ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وإنحاء التعاليم، وأوضح

القول فيها عن مواد المنطق الخمسة، وأفاد وجوه الانتفاع بها وعرَّف طرق استعمالها وكيف تتصرَّف صورة القياس في كلّ مادّة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة، ثمّ له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يُسبَق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا تستغني طلَّاب العلوم كلّها عن الاهتداء به. انتهىٰ كلام ابن صاعد.

ولم يزل أبو نصر ببغداد مكبّاً علىٰ الاشتغال بهذا العلم والتحصيل له إلىٰ أن برز فيه وفاق أهل زمانه، وألَّف بها معظم كتبه، ثمّ سافر منها إلىٰ دمشق ولم يقم بها، ثمّ توجَّه إلىٰ مصر، ثمّ عاد إلىٰ دمشق وأقام بها وسلطانها يومئذٍ سيف الدولة بن حمدان، فأحسن إليه.

ورأيت في بعض المجاميع أنَّ أبا نصر لـمَّا ورد علىٰ سيف الدولة، وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف، فأُدخل عليه وهو بزيّ الأتراك، وكان ذلك زيّه دائماً، فوقف فقال له سيف الدولة: أُقعد، فقال: حيث أنا أم حيث أنت؟ فقال: حيث أنت، فتخطّىٰ رقاب الناس حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتَّىٰ أخرجه عنه، وكان علىٰ رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاصّ يسارّهم به قلَّ أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: إنَّ هذا الشيخ قد أساء الأدب وإنّي مسائله عن أشياء إن لم يوفِ بها فاخرقوا به، فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيّها الأمير اصبر فإنَّ الأُمور بعواقبها، فعجب سيف الدولة منه، وقال له: أتحسن هذا اللسان؟ فقال: نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً.

فعظم عنده، ثمّ أخذ يتكلَّم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فنٍّ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتَّىٰ صمت الكلّ، وبقي

يتكلَّم وحده، ثمّ أخذوا يكتبون ما يقوله، فصرفهم سيف الدولة وخلا به، فقال له: هل لك في أن تأكل؟ فقال: لا، فقال: فهل تشرب؟ فقال: لا. فقال: فهل تسمع؟ فقال: نعم، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كلّ ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي، فلم يحرّك أحد منهم آلته إلَّا وعابه أبو نصر وقال له: أخطأت.

فقال له سيف الدولة: وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً؟ فقال: نعم، ثمّ أخرج من وسط خريطة ففتحها وأخرج منها عيداناً وركَّبها ثمّ لعب بها فضحك منها كلّ من كان في المجلس، ثمّ فكّها وركَّبها تركيباً آخر، ثمّ ضرب بها فبكىٰ كلّ من كان في المجلس، ثمّ فكَّها وغيَّر تركيبها وضرب بها ضرباً آخر، فنام كلّ من في المجلس حتَّىٰ البوّاب، فتركهم نياماً وخرج.

ويُحكىٰ أنَّ الآلة المسمّاة بالقانون من وضعه، وهو أوَّل من ركَّبها هذا التركيب، وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس، وكان مدَّة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلَّا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، ويؤلِّف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه، وكان أكثر تصنيفه في الرقاع، ولم يصنِّف في الكراريس إلَّا القليل، فلذلك جاءت أكثر تصانيفه فصولاً وتعاليق، ويوجد بعضها ناقصاً منثوراً.

وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن، وأجرىٰ عليه سيف الدولة كلّ يوم من بيت المال أربعة دراهم، وهو الذي اقتصر عليها لقناعته، ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ أن توفّي في سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق، وصلّىٰ عليه سيف الدولة في أربعة نفر من خواصّه، وقد ناهز ثمانين سنة، ودُفِنَ بظاهر دمشق خارج الباب الصغير رحمه الله تعالىٰ.

وظفرت في مجموع بأبيات منسوبة إلىٰ الفارابي، وهي:

أخــي خــلّ حيّــز ذي باطــل	وكــن للحقــائق في حيّــز
فــما الــدار دار خلــود لنــا	ومــا المــرء في الأرض بــالمعجز
ينــافس هــذا لهــذا علىٰ	أقــلّ مــن الكلــم المــوجز
وهـل نحـن إلَّا خطـوط وقعـن	عــلىٰ كــرة وقــع مســتوفز
محــيط الســماوات أولىٰ بنــا	فــماذا التنــافس في مركــز

(انتهىٰ ما ذكره ابن خلّكان عن الفارابي).

وكـان الفـارابي ورعـاً تقيّـاً لـه دعـاء خـاصّ بـه ومناجـاة مـن صـميم الفؤاد، ومن أدعيتـه التـي ذكرهـا ابـن أبي أصـيبعة في كتابـه عيـون الأنبـاء في طبقـات الأطبّـاء (ج ٣/ ص ٢٢٧)، وهـذا نصّـه: وهـذا دعـاء لأبي نصـر الفـارابي قـال: اللّهـمّ إنّي أسـألك يـا واجـب الوجـود، ويـا علّـة العلـل، يـا قديماً لم يزل، أن تعصمني مـن الزلـل، وأن تجعـل لي مـن الأمـل مـا ترضـاه لي مـن عمـل، اللّهـمّ امنحنـي مـا اجتمـع مـن المناقـب، وارزقنـي في أُمـوري حسـن العواقـب، تـنجح مقاصـدي والمطالـب، يـا إلـه المشـارق والمغـارب، ربّ الجوار الكـنَّس السـبع التـي انبجسـت عـن الكـون انبجـاس الأبهـر مـن الفواعل، عـن مشيئته التـي عمَّـت فضـائلها جميـع الجـواهر. اللّهـمّ ألبسـني حلل البهـاء وكرامـات الأنبيـاء وسـعادة الأغنيـاء وعلـوم الحكـماء وخشـوع الأتقيـاء. اللّهـمّ أنقـذني مـن عـالم الشـقاء والفنـاء واجعلنـي مـن إخـوان الصـفاء وأصـحاب الوفـاء وسـكّان السـماء مـع الصـديقين والشـهداء، أنـت الله الـذي لا إلـه إلَّا أنـت علّـة الأشـياء ونـور الأرض والسـماء، امنحنـي فيضـاً مـن العقـل الفعّـال يـا ذا الجـلال والإفضـال، هـذِّب نفسـي بـأنوار

الحكمة، وأوزعني شكر ما أوليتني به من نعمة، أرني الحقّ حقّاً وألهمني اتّباعه، والباطل باطلاً وأحرمني اعتقاده وإسماعه، هذِّب نفسي من طينة الهيولىٰ إنَّك أنت العلَّة الأُولىٰ.

يا علَّة الأشياء جمعاً والذي ... كانت به عن فيضه المتفجّر

ربّ السماوات الطباق ومركز ... في وسطهنَّ من الثرىٰ والأبحَر

إنّي دعوتك مستجيراً مذنباً ... فاعف خطيئة مذنب ومقصّر

هذِّب بفيض منك ربّ الكلّ من ... كدر الطبيعة والعناصر عنصري

اللّهم ربّ الأشخاص العلوية والأجرام الفلكية والأرواح السماوية، غلبت علىٰ عبدك الشهوة البشرية وحبّ الشهوات والدنيا الدنية، فاجعل عصمتك مجنّي من التخليط، وتقواك حصني من التفريط، إنَّك بكلّ شيء محيط. اللّهمّ أنقذني من أسر الطبائع الأربع وانقلني إلىٰ جنابك الأوسع وجوارك الأرفع. اللّهم اجعل الكفاية سبباً لقطع مذموم العلائق التي بيني وبين الأجسام الترابية والهموم الكونية، واجعل الحكمة سبباً لإيجاد نفسي بالعوالم الإلهية والأرواح السماوية.

اللّهمّ طهِّر بروح القدس الشريفة نفسي، وآثر بالحكمة البالغة عقلي وحسّي، واجعل الملائكة بدلاً من عالم الطبيعة أُنسي. اللّهمّ ألهمني الهدىٰ وثبِّت إيماني بالتقوىٰ وبَغِّض إلىٰ نفسي حبّ الدنيا. اللّهمّ قَوِّ ذاتي علىٰ قهر الشهوات الفانية، وألِحق نفسي بمنازل النفوس الباقية واجعلها من جملة الجواهر الشريفة الغالية في جنّات عالية، سبحانك اللّهمّ سابق الموجودات التي تنطق بألسنة الحال والمقال، إنَّك المعطي كلّ شيء منها ما هو مستحقّه بالحكمة، وجاعل الوجود فيها بالقياس إلىٰ

عـدمها نعمـة ورحمـة، فالـذوات فيهـا والأعـراض مسـتحقّة بآلائـك شـاكرة فضائل نعمائـك، سـبحانك اللّهـمّ وتعاليـت، إنَّـك الله الأحـد الفـرد الصـمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

اللّهمّ إنَّك قد سجنت نفسـي في سجن من العنـاصر الأربعـة، ووكَّلـت بافتراسها أسباعاً من الشهوات. اللّهـمّ جسِّـد لهـا بالعصـمة، وتعطَّـف عليهـا بالرحمة التي هي بك أليق والكرم الفائض الذي هو منك أجدر وأخلق، وأمـنّ عليها بالتوبة العائدة بهـا إلىٰ عالمهـا السـماوي، وعجِّـل لهـا بالأوبـة إلىٰ مقامهـا القدسي، وأطلع علىٰ ظلمائها شمساً من العقـل الفعّـال، وابسـط عنهـا ظلـمات الجهل والضلال، واجعل ما قوَّاها بالقوَّة كامناً بالفعل وأخرجهـا مـن ظلـمات الجهل إلىٰ نور الحكمـة وضـياء العقـل، ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِيـنَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُمْ مِـنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

اللّهمّ أرِ نفسـي صور الغيوب الصالحة في منامها، وبدِّلها من الأضـغاث برؤيا الخيرات والبشـرىٰ الصادقة في أحلامهـا، وطهّرهـا مـن الأوسـاخ التـي تأثَّرت بها عن محسوساتها وأوهامها، وابسط عنها كدر الطبيعة، وأنزلها في عـالم النفوس المنزلة الرفيعة، الله الذي هداني وكفاني وآواني.

هـذا الـدعاء الطويـل قـد يكشـف لنـا جانـب التقـوىٰ والإنسـانية في نفس هذا الفيلسوف العظيم، ينبـع عـن روحـه النبيلـة الطـاهرة، التـي تـدعو الله أن يزداد علماً وهو من أكابر العلماء.

ولقد كتب الكثير عن الفارابي بين متبسّط وبين موجز، وأحسن وأجمل من كتب عن حياته العلَّامة الشيخ عبـد الله نعمـة في كتابـه فلاسـفة الشـيعة (ص ٥٠٣)، لذلك رأينا أن نقتصـر علىٰ ما كتب ونكتفي به دون سواه، قال:

الفارابي هو أبـو نصـر محمّـد بـن محمّـد بـن أوزلـغ بـن طرخـان، مـن

فاراب، وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خراسان، توفّي عام (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) عند سيف الدولة علي بن حمدان في خلافة الراضي والمقتدر العبّاسيين، في دمشق عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وعلىٰ ذلك فيكون ميلاده عام (٢٥٩هـ) علىٰ وجه التقريب.

ويحتلّ الفارابي المكان الشامخ بين المفكّرين والفلاسفة، ممَّا دفع المترجمين إلىٰ وصفه بأنَّه أكبر فلاسفة المسلمين، وأنَّه فيلسوف المسلمين غير مدافع، وأنَّه فيلسوف المسلمين بالحقيقة، ودفعهم إلىٰ تسميته بالمعلِّم الثاني، ويعنون أنَّه المعلِّم الثاني بعد أرسطو باعتباره المعلِّم الأوَّل.

ويعتبر الفارابي المؤسّس الأوَّل للفلسفة بمعناها الحقيقي، عاش لها وتفاعل بها، وبذل طاقته في سبيلها، وهجر في إشباع نهمه الفلسفي كلّ شيء من مغريات الحياة وملذَّاتها، ممَّا لم نجد له شبيهاً بين الفلاسفة الإسلاميّين.

وحسب الفارابي مكانةً أنَّه يأتي في رعيل القافلة الإسلاميّة في الثقافة والفلسفة والعلم.

وكانت مؤلَّفاته قد مهَّدت السبيل لظهور ابن سينا وابن رشد، وكانت نبراساً لحكماء الشرق والغرب، وسراجاً وهّاجاً، يستضيئون بنوره ويسيرون علىٰ هداه.

وقد اطَّلع المستشرقون والمؤرِّخون في أُوربا وأميركا علىٰ فلسفة الفارابي ودرسوها وتأثَّروا بها، وخرجوا بالقول: إنَّ الفارابي مؤسّسة الفلسفة في عصره والمقدَّم فيها، وهو المرجع وعليه الاعتماد.

وقد دفع ذلك دي فو إلىٰ القول: إنَّ الفارابي شخصية قويّة وغريبة حقَّاً، وهو عندي أعظم جاذبيةً وأكثر طرافةً من ابن سينا؛ لأنَّ روحه

كانت أوفر تدفّقاً وجيشاناً، ونفسه أشدُّ تأجّجاً وحماسةً، لفكره وثبات كوثبات الفنّان، وله منطق مرهف بارع متفاوت، ولأُسلوبه مزيّة الإيجاز والعمق.

ولتأثير أفكار الفارابي البعيد صرَّح ماسينيون بأنَّ الفارابي أفهم فلاسفة الإسلام، وأذكرهم للعلوم القديمة، وهو الفيلسوف فيها لا غير، وهو مدرك محقّق.

والفارابي هو أوَّل من حمل المنطق الصوري اليوناني تامَّاً منظَّماً إلىٰ العرب، وقد أعجب بأرسطو، فشرح كتبه المنطقية وعلَّق عليها، فأظهر غامضها، وكشف سرّها وقرَّب متناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة، منبّهة علىٰ ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعليم.

والفارابي أوَّل الإسلاميّين الذين عنوا عناية خاصّة بقانون التناقض، الذي يظهر به للعقل صدق قضيّة أو كذبها. وربَّما كان الفارابي أوَّل من ظهرت إليه فكرة (الواجب) و(الممكن) بدلاً من فكرة (الحادث) و(القديم).

وقد قسَّم الموجود إلىٰ واجب الوجود، وممكن الوجود، وليس هناك سوىٰ هذين القسمين من الوجود، ولـمَّا كان كلّ ممكن لا بدَّ أن يتقدَّم عليه علَّة تخرجه إلىٰ الوجود، وبالنظر إلىٰ أنَّ العلل لا يمكن أن تتسلسل إلىٰ غير نهاية أو تدور، فلا بدَّ لنا من القول بوجود موجود هو واجب الوجود لا علَّة لوجوده.

وهو لتجرّده للحقّ وإخلاصه للحقيقة اندفع بحرارة إلىٰ القول بإبطال صناعة النجوم، فخالف الكثيرين من علماء عصره والذين أتو

قبله وبعده، ووضع كتاباً في ذلك أسماه (النكت فيما يصحُّ وما لا يصحُّ من أحكام النجوم) فبيَّن في هذا الكتاب فساد علم أحكام النجوم الذي يعزو كلّ ممكن وكلّ خارق إلىٰ فعل الكواكب وقراناتها، (لأنَّ الممكن متغيّر لا يمكن معرفته معرفة يقينية).

ويبيّن أنَّه من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمون، من أنَّ بعض الكواكب تجلب السعادة، وأنَّ بعضها تجلب النحوسة.

وهزئ بقول فيثاغورس من أنَّ للنجوم أصواتاً.

ويبرز أثر الفارابي علىٰ المفكّرين من بعده في موضعين: أحدهما أنَّه ما من فكرة في الفلسفة الإسلاميّة إلَّا وتجد جذورها في فلسفته، وثانيهما حرصه علىٰ التوفيق بين أفلاطون وأرسطو، وبالتالي بين الدين والفلسفة فيما قالوا.

ونجد الفارابي يسلك لإثبات الخالق سبلاً، لا تزال هي السبل التي يسلكها الفلاسفة المتأخّرون عنه في إثبات الصانع، ولم يزيدوا عليها شيء يذكر، والطرق هي:

١ _ طريقة الحكماء الطبيعيين الذين ينظرون في الطبيعة للاهتداء إلىٰ صانعها، وهو الاستدلال من الفعل علىٰ الفاعل، وهو ما يُسمّىٰ بالطريق الإنّي (أي الانتقال من المسبَّب إلىٰ السبب)، وخلاصة النظر في آيات الله وآثاره التي توصل إلىٰ العلم بالمؤثّر والصانع، وهو الذي جاءت فيه أكثر الآيات القرآنية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصّلت: ٥٣)، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ۝﴾ (الذاريات: ٢٠ و٢١).

وهو يرىٰ أنَّ السالك لهذا الطريق يكون عرضةً لاختلاط الأمر

عليه، فلا يصل إلىٰ معرفة الخالق، أو هو قد لا يستطيع أن يعرفه حقّ المعرفة، باعتبار أنَّ الحواسّ الظاهرة قد تُخدَع أحياناً.

٢ _ طريق الحكماء الإلهيّين، وهو في نظرهم أوثق من الطريق الأوَّل، وهو ما كان يؤثره الفارابي علىٰ سواه.

ويعود هذا الدليل إلىٰ تأمّل (عالم الوجود المحض) فإنّا لو نظرنا في الوجود من حيث هو لوجدنا أنَّه إمَّا أن يكون واجباً، أي يلزم من افتراض عدمه المحال، وإمَّا أن يكون ممكناً، وهو الذي لا يلزم من فرض عدمه محال، وهذا الممكن الذي ليس وجوده من ذاته يستوي وجوده وعدمه، بحيث لا بدَّ أن يكون وجوده من غيره، ولكن لا يمكن أن يذهب تسلسل العلّية والمعلولية إلىٰ غير نهاية، وإلَّا لما وُجِدَ الممكن، بل لا بدَّ من انتهائه إلىٰ شيء واجب الوجود بذاته، وهو المبدأ الأوَّل الذي هو علَّة جميع الممكنات.

وهذا الطريق لدىٰ الحكماء الإلهيين أوثق باعتبار أنَّه لا يستند إلىٰ العقل ونظره في معنىٰ الوجود، وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصّلت: ٥٣).

٣ _ إنَّ الأشياء الحادثة أو الممكنة لكلّ منها ماهية وحقيقة كالإنسانية في الإنسان، ولكلّ منها أيضاً هويّة أو وجود متعيَّن مشار إليه، يتميَّز به عن غيره من الممكنات، ولـمَّا كانت الماهية ليست داخلة في الهوية، كما أنَّ الهوية ليست داخلة في الماهية (أي إنَّهما متغايران) وأنَّ الوجود المتعيّن لم يكن ناشئاً عن الماهية من ذاتها وإلَّا لم يكن الممكن ممكناً، فلا بدَّ أن يكون الوجود في كلّ ما كان وجوده المتعيّن أو هويته مغايرة لماهيته معلولاً لغيره، ولا يمكن تسلسل العلّية والمعلولية، بل لا

بـدَّ مـن انتهائـه إلىٰ مبـدأ أوَّل، ماهيتـه غـير مباينـة لهويتـه، يعنـي لا بـدَّ مـن الانتهاء إلىٰ موجود واجب الوجود بذاته.

وهذه الطرق التـي أشـار إليهـا الفـارابي هـي نفـس الطـرق عنـد مـن تأخَّر عنه من غير تبديل في جوهرها.

ويظهـر أنَّ الفـارابي كـان مـن منـاصري فكـرة الكيميـاء القديمـة، (تحويل المعدن إلىٰ ذهب أو فضَّة) التي كان يقـول بهـا جـابر بـن حيّـان، وأبـو بكر الرازي، فقد وضع (رسالة في وجوب الكيمياء والردّ علىٰ مبطليها).

وهو في هذا يعتمد عـلىٰ افـتراض وجـود هيـولىٰ أوَّليـة واحـدة تشـترك فيها جميع الأجسام، فيقـول في كتابـه عيـون المسـائل (ص ٩): (إنَّ العنـاصر الأربعة تشترك في مادّة واحدة).

وقـد تكلَّـم الفـارابي عـن روابـط الاجـتماع، فـذكر مـن هـذه الـروابط الإيمان والتحالف والتعاهـد عـلىٰ كـلّ مـا يعطيـه كـلّ إنسـان مـن نفسـه، ولا ينافر الباقين ولا يخاذلهم.

وهـذا التحـالف والتعاهـد شـبيه بتعاقـد الأفـراد الـذي تكلَّـم عنـه روسو في كتابه (العقد الاجتماعي).

ويـذكر الفـارابي مـن هـذه الـروابط: (التشـابه بـالخلق والشـيم الطبيعيـة، والاشـتراك في اللسـان واللغـة، والاشـتراك في المنـزل، ثـمّ الاشـتراك في المسـاكن والمـدن، ثـمّ الاشـتراك في الصـقع، وهـذه الـروابط كلّها رابطة العدالة)، يذكر ذلك كلّه دون مناقشة أو تفنيد.

والفـارابي أوَّل مـن عَنـي بإحصـاء العلـوم، يـتجلّىٰ ذلـك في كتابـه (إحصـاء العلـوم)، فهـو بـذلك أوَّل مـن وضـع دائـرة معـارف، ولم يعـرف قبله من عَني بتدوين جملة المعارف الإنسانية في عصره سواه.

ويمتاز الفارابي _ كما يقول العقّاد _ من بين فلاسفة الإسلام بأنَّه عالج البحث في السياسة من الناحية الفلسفية الخالصة. فالتفكير السياسي في نظام الدولة وتصوّر المثل الأعلىٰ للحكم ووضع الموازين الخلقية والمقاييس السياسية، وتحديد الغاية من الحاكم والمحكوم، ونقد المجتمع الذي يؤدّي إلىٰ الشرور والمفاسد، كلّ هذه الوسائل التي انفرد بها الفارابي بالبحث فيها، والتي تدلُّ علىٰ قوَّة الشخصية واستقلال الرأي.

وكتابه آراء أهل المدينة الفاضلة، قد اشتمل علىٰ مذهبه الفلسفي كلّه، ممَّا يتعلَّق بآرائه في الإلهيات والنفس الإنسانية وقواها المتعدّدة المختلفة، والأخلاق والسياسة، وهو حين يضع خطوط مدينته، ويربط نظامها بكلّ ذلك يبرز عليه فيها اتّجاه معيَّن لا تخفىٰ ملامحه، فتحرّكه في التيّار الإسلامي، وبخاصّة المذهب الشيعي هو الذي يبرز واضحاً في الشروط والصفات والحدود التي يضعها لرئيس مدينته الفاضلة.

وممَّا هو جدير بالذكر أنَّه يشبّه المدينة بجسم كما يفعل علماء الاجتماع اليوم.

ويبدو أنَّ الفارابي لم يسلم من التحامل عليه، فقد رموه بالزندقة ونُسِبَ إليه إنكار المعاد وقِدَم العالم وما إلىٰ ذلك.

ويقول السيّد الصدر في كتابه (النصوص) علىٰ خلاف ذلك، وإنَّ كتبه المشتملة علىٰ ما يبدو فيها إنكار المعاد أو قِدَم العالم إنَّما كانت ترجمة ونقل، وإنَّ ذلك لا يمثّل رأيه الحقيقي.

وآراء الفارابي صريحة بحدوث العالم وبوجوده من لا شيء، كما سيأتي في فصل (اتّجاهاته).

وحياة الفارابي محاطة بشيء كثير من الغموض، وكتب التراجم لا تعي من أخباره إلَّا القليل، فمراحل دراسته وتفاصيل حياته لا نعرف عنها شيئاً، وهي لا تزال في ركام من الضباب.

وكلّ ما ذكره مترجموه أنَّه وُلِدَ في (وسيج) قرية صغيرة حصينة من قرىٰ منطقة (فاراب) من بلاد الترك في ما وراء النهر، وأنَّ والده كان قائد جيش، وأصله فارسي، ولم يذكروا تاريخ ولادته، لكنَّه من المتَّفق عليه أنَّه توفي في دمشق عام (٣٣٩هـ) عن ثمانين عاماً، وعليه فيكون ميلاده علىٰ وجه التقريب عام (٢٥٩هـ).

ويذكر ابن أبي أصيبعة خبرين متناقضين عن حاله في أوَّل عمره، أحدهما أنَّه كان ناطوراً في أوَّل أمره في بستان بدمشق، وثانيهما أنَّه كان في أوَّل عمره قاضياً فلمَّا شعر بالمعارف نبذ ذلك، وأقبل بكلّيته عليها.

ويصرِّح أكثر من ترجم له أنَّه كان فقيراً ضعيف الحال، حتَّىٰ أنَّه كان يسهر للمطالعة والتصنيف علىٰ ضوء قنديل الحارس الليلي.

وعاش في بغداد زمناً طويلاً، وحصَّل فيها علومه، ثمّ غادرها إلىٰ حلب عام (٣٣٠هـ) حيث استقرَّ في كنف الأمير سيف الدولة الحمداني، الذي عرف حقّه، ورفع مكانته، وبذل له العطاء، ولكن الفارابي اكتفىٰ من كلّ ذلك بأربعة دراهم ينفقها في وجوه معاشه.

ويذكر ابن خلّكان أنَّ الفارابي قضىٰ أواخر أيّامه مع سيف الدولة منعزلاً خالياً بنفسه، قال: (وكان مدَّة مقامه بدمشق لا يكون إلَّا عند مجتمع ماء، أو مشتبك رياض).

وأخيراً توفّي في دمشق وهو مسافر في صحبة سيف الدولة عام (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، وقد صلّىٰ عليه سيف الدولة بنفسه في خمسة عشر رجلاً من خاصَّته.

ويصفه ابن أبي أصيبعة بقوله: (كان ﷺ فيلسوفاً كاملاً، وإماماً فاضلاً، قد أتقن العلم الحكمية، وبرع في العلوم الرياضية، زكيّ النفس قويّ الذكاء متجنّباً عن الدنيا، مقنعاً منها بما يقوم بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدّمين...، ولم يكن معتنياً بهيأة ولا منزل ولا مكسب).

وكان مع ذلك ملمّاً بالأدب والشعر واللغة والفقه، كما كان كبير الثقة بنفسه من غير غرور، فقد سُئِلَ مرَّة: من أعلم أنت أم أرسطو؟ فأجاب: (لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه).

ويذكر عنه أنَّه قال: قرأت (السماع الطبيعي) لأرسطو أربعين مرَّة، وأرىٰ أنّي بحاجة إلىٰ معاودته...

واستعرض ذكره العلَّامة الأمين العاملي في كتابه (أعيان الشيعة)[1].

تشيّعه:

يؤكِّد كثير ممَّن ترجموا للفارابي، أنَّه كان شيعياً، يدين بمذهب التشيّع. فقد صرَّح الصدر في كتابه (تأسيس الشيعة)، والسيّد الخونساري في (روضات الجنّات) بتشيّعه، كما أكَّد الأُستاذ رحيم زاده صفدي في كتابه (ابن سينا) بترجمة علي البصري، أنَّ أبا نصر الفارابي من الشيعة، وأنَّه لم يكن يبرّر ملازمة الفارابي لسيف الدولة الحمداني سوىٰ التقائهما في مذهب التشيّع.

ويؤيّد ذلك أنَّ الفارابي أوصىٰ سيف الدولة بأن يُصلّي عليه ويكفّنه ويدفنه علىٰ الطريقة الشيعية، ويروىٰ أنَّ أميره _ سيف الدولة _ تزيّا بزيّ أهل التصوّف وصلّىٰ عليه في بعض خاصَّته، ومن الغريب بعد

---

(١) راجع: أعيان الشيعة ٩: ١٠٣/ الرقم ٢١٦.

هذه النصوص أن نلمح من وصيَّته لسيف الدولة أن يصلّي عليه، ومن تنكّر سيف الدولة حين صلّىٰ عليه بزيّ أهل التصوّف، في نفر من خاصَّته دلالة خاصّة، تثير التساؤل: لماذا تنكَّر سيف الدولة حين صلّىٰ عليه؟ ولماذا صلّىٰ عليه في نفر من بطانته؟ وإذا أخذنا رواية وصايته لسيف الدولة أن يصلّي عليه علىٰ الطريقة الشيعية ظهر لنا بوضوح أنَّ الأمير سيف الدولة التزم جانب التحفّظ حذراً من النعرات المذهبية أن تنبث في صفوف جيشه الذي يجمع بين طوائف إسلاميّة من شيعة وغيرهم، وهو الذي أخذ علىٰ عاتقه حماية الثغور الإسلاميّة المتاخمة للروم، وخاصّة أنَّ الحادثة وقعت في دمشق حمأة التعصّب المذهبي.

ومن جانب آخر رأينا الفارابي عند كلامه علىٰ رئيس المدينة الفاضلة وتحديده وذكر صفاته، يسير فيه في مخطَّط شيعي بارز، ولا يحيد عنه، فالشروط والحدود والصفات التي يجب أن يتَّصف بها رئيس المدينة الفاضلة هي بعينها الشروط والحدود التي تصف بها الشيعة الإمام.

فهو يذكر أنَّ رئيس المدينة الفاضلة يجب أن يكون معدّاً لمنصبه بالطبع والفطرة، ولا يمكن أن يكون أيّ إنسان اتَّفق.

والرئيس الفاضل إنَّما تكون مهنته ملكية مقرونة بوحي من الله تعالىٰ، وإنَّما يقدِّر الآراء والأفعال التي في المدينة الفاضلة بالوحي، بأحد وجهين أو بكليهما، أحدهما أن توحىٰ إليه هذه كلّها مقدَّرة، والثاني أن يقدّرها هو بالقوَّة التي استفادها هو من الوحي والموحي تعالىٰ، حتَّىٰ تكشَّفت له بها الشرائط التي بها يقدّر الآراء والأفعال الفاضلة، أو يكون بعضها بالوجه الأوَّل، وبعضها بالوجه الثاني.

أليس فيما ذكره التقاء صريح مع الفكرة الشيعية القائلة: إنَّ الإمام

لا يمكن أن يكون أيّ شخص، وإنَّما هو شخص اختصَّه الله بكرامته وإمامته، إمَّا بالنصّ من رسوله ﷺ، وإمَّا بنصّ من نصَّ رسوله عليه السلام.

وفيه التقاء أيضاً مع الفكرة الشيعية في علم الإمام القائلة بأنَّه يستند في علمه إلىٰ تعاليم الرسول أو إلىٰ وحي الله بواسطة رسوله محمّد ﷺ. وهذا أحد الوجهين اللّذين يقدِّر الرئيس بهما الأفعال والآراء كما يقول الفارابي.

ويذكر الفارابي صفات الرئيس التي تكون معدَّة له بالطبع والفطرة، ممَّا لا تختلف بجوهرها عن الشروط التي يذكرها الشيعة في صفات الإمام، وقد ذكرنا ذلك في فصل اتّجاهات الفارابي الفكرية.

وقد أدرك الدكتور فروخ هذه الحقيقة ممَّا دفعه إلىٰ أن يقول: (ثمّ يشترط الفارابي لرئيس المدينة الفاضلة شروطاً، ويسمّيه بها يتَّفق تمام الاتّفاق من النظرية الشيعية في الإمام، ممَّا يميل بنا إلىٰ القول: إنَّ الفارابي لن يتأثَّر بالإسلام فحسب عند كتابه (المدينة الفاضلة) بل بالمذهب الشيعي).

ودفعه أيضاً إلىٰ القول: (وهكذا نرىٰ بوضوح أثر الإمامة حسب المذهب الشيعي ظاهراً في الخصال التي يضعها الفارابي في رئيس المدينة الفاضلة).

ويزيد ذلك وضوحاً أنَّ الفارابي يشبّه الرئيس للمدينة بالقلب وسائر الناس بالأعضاء الخادمة للقلب، علىٰ نحو ما كان يقرّره هشام بن الحكم المتكلِّم في مناظرته مع عمرو بن عبيد المعتزلي ممَّا يجعلنا نجزم بأنَّ الفارابي كان يسير في تيّار المذهب الشيعي في كلّ ما هناك من نظريات تتَّصل بهذا المذهب.

كما ستجد في بعض آرائه الكلامية وغيرها ملامح شيعية بارزة بوضوح وجلاء.

ولوضوح اتّجاهه إلىٰ مذهب التشيّع عدَّه الشيخ الطهراني في مؤلِّفي الشيعة، وأدرج مؤلَّفاته في كتابه الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة.

فلسفة الفارابي واتّجاهاته:

من العسير أن نحدّد اتّجاهات الفارابي الفلسفية بكاملها، نظراً إلىٰ ضياع أكثر مؤلَّفاته، ولأنَّ الباقي القليل من كتبه لا يمثّل نزعته وميوله تمثيلاً صريحاً، وإن كان قيل: إنَّ كتابه (فصوص الحكم) هو السجل الصحيح لآرائه ونزعاته، وإنَّ هذا الكتاب خلو من كلّ ما نُسِبَ إليه من نظرية العقول، وقِدَم المادّة زماناً وسوىٰ ذلك، ممَّا أثبته في كتبه الأُخرىٰ، التي كان فيها ناقلاً ومفسّراً لآراء الفلاسفة اليونانيين.

لكن من المؤكَّد أنَّ الفارابي قد احتظن الفلسفة اليونانية بملء إهابه وجرىٰ في تيّار الفكر اليوناني، وخاصّة أفكار أرسطو وأفلاطون، فقد عكف عليها بالشرح والتعليق عليها والتفسير لها.

ويتَّضح ذلك لنا جليَّاً حين نجد الشطر الغالب من مؤلَّفاته قد خصّص بهذا الجانب، وأنَّ كتبه التي وضعها في شرح المؤلَّفات اليونانية قد تجاوزت الثلاثين كتاباً.

ومن المؤكَّد أيضاً أنَّ الفارابي أوَّل من حمل المنطق اليوناني تامَّاً منظَّماً إلىٰ العرب، وعني به عناية خاصّة، وقد أخذ بأرسطو دون سواه، فشرح كتبه المنطقية، وعكف في تفسيرها والتعليق عليها، ومن مظهر هذا الاتّجاه تلك المؤلَّفات الكثيرة التي وضعها في المنطق ما بين شرح وتعليق وتفسير علىٰ كتب أرسطو المنطقية، وما بين مؤلَّفات مستقلَّة وضعها في الموضوع نفسه التي بلغت حوالي (٣٠) مؤلَّفاً.

وقد عرف له المفكّرون ذلك، ممَّا حمل بعض الفلاسفة علىٰ القول وهو يوصي بعضهم: (ألَّا يقرأ في المنطق إلَّا كتب الفارابي، لأنَّ كلّ ما ألَّفه، خصوصاً كتاب مبادئ الموجودات فهو زهرة الدقيق الخالصة).

ويكفي دلالة علىٰ ذلك أنَّ كتب أرسطو المنطقية الثمانية التي شرحها وفسَّرها الفارابي صارت تُفسَّر وتُشرَح علىٰ طريقة الفارابي دون تغيّر أو تبديل منذ عصر الفارابي إلىٰ الآن.

ونعني بكتب أرسطو المنطقية الثمانية هي:

١ _ كتاب المقولات، قاطيغورياس.

٢ _ كتاب العبارة، باري ارميناس.

٣ _ كتاب القياس، أنالوطيقا الأُولىٰ.

٤ _ كتاب البرهان، أنالوطيقا الثانية.

٥ _ كتاب الجدل، طوبيقا.

٦ _ كتاب المغالطات، سوفسطيقا.

٧ _ كتاب الخطابة، ريطوريقا.

٨ _ كتاب الشعر، بويطيقا.

وقد تكلَّم الفارابي علىٰ هذه الأقسام وفصَّلها، وبيَّن خواصّ كلّ قسم ومكانته وغايته من علم المنطق في كتابه إحصاء العلوم (طبعة مصر/ عام (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)/ ص ٢١ _ ٣٢).

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الفارابي قد فهم منطق أرسطو فهماً دقيقاً، فأظهر غامض مؤلَّفات أرسطو وكشف أسرارها، وقرَّب متناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة، منبّهة علىٰ ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعليم.

وطريقة البرهان الذي يتوصَّل به من المعلوم إلىٰ المجهول هي المنطق عند الفارابي علىٰ الحقيقة، وما سوىٰ ذلك من بحوث المنطق كالحدود والقضايا والأقيسة ليس إلَّا مقدّمات وتوطئة لهذا البرهان، وإنَّ مقاصد البرهان هو الوصول إلىٰ قوانين علم ضروري، وأهمّ هذه القوانين قانون التناقض الذي يظهر به للعقل صدق قضيّة أو كذبها، إذ كلّ برهان يقيني لا بدَّ أن ينتهي إلىٰ قضيّة ضرورية، ولا يكون ذلك إلَّا إذا طُبِّقَ عليها قانون التناقض. وليس البرهان عند الفارابي آلة للفلسفة فحسب ومقدّمة لها، بل هو جزء منها.

وكما تفاعل الفارابي بمنطق أرسطو تفاعلاً كبيراً، كذلك تفاعل بفلسفته، والتزم الفلسفة الأرسطوية التزاماً أشدُّ صرامة من التزام الكندي لها، علىٰ ما قيل عن الكندي: (إنَّه حذا حذو أرسطو).

ومن هنا اعتبر الفارابي الفيلسوف الوحيد من بين فلاسفة المسلمين الذي تتجسَد في أفكاره وآرائه الفلسفة اليونانية، وخصوصاً فلسفة أرسطو إذ كان من الذين فهموها فهماً صحيحاً بقدر الإمكان.

ومن هنا أيضاً نجد عظم أثره في اتّجاه التفكير الأُروبي، حين نُقِلَت كتبه إلىٰ اللاتينية، وطُبِعَت جملة منها في باريس عام (١٦٣٨م)، ونجد أثر الفارابي بارزاً علىٰ فلاسفة القرون الوسطىٰ، أمثال الراهب الفرنسي الدومينيقي فنسان ده بوفيه الذي توفّي عام (١٢٦٤م) حين ضمَّ أجزاء من فلسفة الفارابي في بعض مؤلّفاته، والبرنوس ماغنوس أو ألبرت الكبير الذي توكّأ في عرضه لفلسفة أرسطو علىٰ آثار الفارابي، ولم يستطع أن يعرض فلسفة شيخ فلاسفة اليونان بأحسن ممَّا عرضها الفارابي.

ومن الذين تأثَّروا بفلسفة الفارابي رونالد القرموني ودمينيقوس غند يسالفي رئيس أساقفة ساغوفيا وسواهما.

وكان أثر الفارابي في فرناس علىٰ أشدّه، ويظهر ذلك من المحاولة في التوفيق بين فلسفتي أرسطو وأفلاطون التي قام بها رهبان مدرسة شارتر منذ القرن الثاني عشر للميلاد علىٰ نحو ما فعله الفارابي قبل ذلك بثلاثمائة عام في كتابه (الجمع بين رأيي الحكيمين).

ويبدو أنَّ الفارابي قد فَتِنَ ببعض الجوانب من فلسفة أفلاطون، كما فَتِنَ بفلسفة أرسطو، فقد احتضن الجانب السياسي من فلسفة أفلاطون، واستخدم خلاصة وافية لفلسفته، التي كانت مجهولة حتَّىٰ زمن قريب، تحتوي علىٰ عرض للجانب السياسي من هذه الفلسفة، وشرحاً علىٰ (جمهورية) أفلاطون، وخلاصة لكتابه (النواميس) أو القوانين، وحذف الفارابي معظم المنطق والطبيعة، وما بعد الطبيعة من فلسفة أفلاطون لاستغنائه عن ذلك بما تطوَّر عنها في العصور الأخيرة، وخاصّة آراء أرسطو المتأخّرة فيما بعد الطبيعة والمنطق.

ووضع مؤلَّفاته العديدة في الفلسفة السياسية علىٰ ضوء أفكار أفلاطون مثل (المدينة الفاضلة) و(آراء أهل المدينة الفاضلة) وسواهما، ونهج في مؤلَّفاته هذه منهج (جمهورية أفلاطون) الذي اتَّخذه كتاباً لتدريس علم السياسة، كما حذا حذوه ابن رشد الذي كان يدرِّس (الجمهورية) لطلَّابه، وخاصّة أنَّ (سياسة) أرسطو لم تكن ترجمت بعد، وأصبح كتابا النواميس والجمهورية أساساً للنظريات السياسية في مدرسة الفارابي.

وتبرز شخصيته المستقلَّة في محاولته للتوفيق بين رأيي الحكيمين المعدودة في أغلب الظنّ بروح تفكيره المستقلّ، والتي يجري فيها في التيّار الإسلامي، ومن ذلك:

تصريحه بأنَّ أفلاطون وأرسطو يقولان: (إنَّ العالم مبتدع من غير

شيء... فمآله إلىٰ غير شيء)، ويعتبر أنَّ ما يذهب إليه بعضهم من أنَّ أرسطو يقول بقِدَم العالم (قبيح مستنكر).

ومن ذلك قوله بحدوث العالم علىٰ خلاف ما هو سائد بين فلاسفة المسلمين حتَّىٰ عصر الغزالي.

وينكر علىٰ أرسطو قوله بعدم علم الله تعالىٰ بالجزئيات، ويخالفه في هذا مخالفة صريحة، فيقول: (إنَّ الله هو المدبّر لجميع هذا العالم، لا يعزب عنه مثقال حبَّة من خردل، ولا يفوته شيء من أجزاء هذا العالم..، وأنَّ العناية شائعة في الجزئيات، وأنَّ كلّ شيء من أجزاء العالم وأحواله موضوع بأوثق المواضع وأتقنها).

والفارابي في معالجته للأخلاق يوافق أفلاطون تارة، وأرسطو تارة أُخرىٰ، وقد يتجاوز آراءهما أحياناً، نازعاً منزع تصوّف وزهد.

ونجد كثير من آرائه ملامح شيعية واضحة، ومن ذلك:

إنَّ الإنسان _ في قضيّة اختياره وإرادته _ فيه جانبان، هما إرادة واختيار، وإنَّ الأُولىٰ هو النزوع إلىٰ ما يدركه الحيوان من إحساس وتخيّل وهذا عام في الإنسان والحيوان، وإنَّ الاختيار هو النزوع عن رويّة وتعقّل، وميدانه ميدان التعقّل الخالص، وأنَّ الاختيار متوقّف علىٰ أسباب من الفكر، فكأنَّه اختيار واضطرار في وقت واحد لأنَّه مقدَّر في علم الله.

وعلىٰ فكرته هذه تجد ظلال الفكرة الشيعية في الموضوع نفسه، وهو خلاصة ما يقوله الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين»[1]، وهو يعني أنَّ الإنسان مضطرّ باعتبار الأسباب البعيدة للفعل التي لا يملكها، ومختار باعتبار السبب القريب.

---

(١) الكافي ١: ١٦٠/ باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين/ ح ١٣.

فإذا لوحظ السبب المهيّج لإرادته المنبعث عن التحسّس والتخيّل اللّذين لا يقعان تحت قدرته كان مضطرًّاً، وإذا لوحظ تنفيذ هذه الإرادة وتصريفها عن رويّة وتعقّل، وهو ما نسمّيه بالاختيار، كان الإنسان مختاراً في فعله.

ونجد روح المحاكمة في تفكير الفارابي بارزة علىٰ (مدينته الفاضلة) التي استعان فيها بفلسفة اليونان وجمهورية أفلاطون واقتبس منها، فكانت مدينته الفاضلة مدينة جديدة، أحسن فيها الاختيار والاقتباس، ولوَّنها بالألوان الأفلاطونية والإسلاميّة، وعمل علىٰ امتزاجها وأحكم هذا الامتزاج، فظهرت فيها قواعد سامية، وأُصول علمية جديرة بالتقدير.

وليست مدينته الفاضلة كما يتصوَّر بعض المؤرِّخين صورة مصغَّرة لجمهورية أفلاطون اليوناني، علىٰ الرغم من بعض المشاركات والتشابه بينهما في الأُصول.

فهو يرىٰ أنَّ الناس قد دعتهم الضرورة الطبيعية إلىٰ الاجتماع، أو قل: (الإنسان مدنيّ بالطبع)، فهم يخضعون لإرادة رئيس واحد تتمثَّل فيه المدينة بخيرها وشرّها، فتكون فاسدة إذا كان حاكمها جاهلاً بقواعد الخير أو كان فاسقاً أو ضالّاً.

أمَّا المدينة الفاضلة والخيّرة فهي نوع واحد، ويرأسها الفيلسوف، وهو يصف أمير هذه المدينة بكلّ الفضائل الإنسانية وكلّ فضائل الفلسفة، فهو أفلاطون في ثوب النبيّ محمّد ﷺ، حين يعتبر رئيس هذه المدينة نبيّاً يوحىٰ إليه إذ لا يمكن أن يكون كلّ إنسان هذا الحاكم الذي جمع في نفسه الفلسفة والنبوَّة والملوكية والتشريع إلَّا الرسول محمّد ﷺ.

وبعد أن ذكر أنَّ الرئيس يجب أن يكون معدَّاً لمنصبه بالطبع والفطرة، وأنَّه لا يمكن أن يكون كلّ إنسان اتَّفق قال:

... فهذا الرئيس.. هو الإمام وهو الرئيس الأوَّل لمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأُمَّة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض كلّها، ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلَّا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة، قد فطر عليها، وهي أن يكون:

١ _ تامّ الأعضاء سليمها. ٢ _ جيّد الحفظ لما يفهمه ويراه ويسمعه ويدركه. ٣ _ جيّد الفطنة ذكياً. ٤ _ حسن العبارة. ٥ _ محبَّاً للتعليم والاستفادة. ٦ _ غير شره في المأكول والمشروب والمنكوح، متجنّباً للّعب، مبغضاً للّذّات الكائنة عن هذه. ٧ _ محبَّاً للصدق ومبغضاً للكذب. ٨ _ كبير النفس محبَّاً للكرامة. ٩ _ بعيداً عن حبّ الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا. ١٠ _ محبَّاً للعدل وأهله، ومبغضاً للجور والظلم وأهلهما. ١١ _ عدلاً غير صعب القياد. ١٢ _ قوي العزيمة جسوراً في الحقّ مقداماً.

ويشترط الفارابي في الحاكم أن يكون خطيباً مفوَّهاً حسن العبارة، يواتيه لسانه علىٰ إبانة كلّ ما يضمره إبانة تامّة، قادراً علىٰ إيصال ما يعرف إلىٰ الجمهور، بليغاً في التأثير علىٰ مخيّلتهم، وأن يكون أهلاً لأن يرشد إلىٰ الخير والنعمة، ويهديهم إلىٰ الأعمال التي يحصلون بها السعادة العظمىٰ، وأن يكون قويّ الجسم، ملمَّاً بفنون الحرب، قادراً علىٰ خوض معاركها.

ويقول الفارابي: إنَّ هذا الرئيس هو أكمل أهل المدينة، وهو السبب في وجود المدينة وتربيتها، وكلّ من هم دونه خدم له، ويشبّهه بالقلب الذي هو أكمل الأعضاء وأتمّها، ودونه أعضاء هو رئيسها.

وهنا لا بدَّ لنا من الإشارة إلىٰ أنَّ فكرة الرئيس الذي يفترضه (المدينة الفاضلة) بأوصافه وحدوده المذكورة متأثّر فيها إلىٰ حدٍّ كبير بالروح الإسلاميّة، وخاصّة روح المذهب الشيعي في الإمام وشروطه.

وتذكرنا أوصاف الرئيس التي ذكرها الفارابي بما كان يقرّره هشام بن الحكم في أوصاف الإمام: أن يكون معصوماً، وأعلم الناس، وأشجع الناس، وأسخىٰ الناس، وأعفّ الخلق، وأن يكون معروف القبيلة، معروف الجنس، معروف النسب، معروف البيت.

كما يذكرنا تشبيه الرئيس بالقلب وما عداه بالأعضاء الخادمة للقلب بمناظرة هشام بن الحكم أيضاً مع عمرو بن عبيد المعتزلي.

ويؤكّد الفارابي بإمكان العقل أن يحكم علىٰ الفعل بأنَّه خير أو شرّ.

ونجد الفارابي هنا يتَّجه اتّجاهاً واضحاً نحو نظرية العدلية من الشيعة والمعتزلة، القائلة بالقبح والحسن العقليين، وأنَّ هناك قبحاً ذاتياً وحسناً ذاتياً، يستطيع العقل أن يدركهما من دون أن يعتمد في ذلك علىٰ عرف عامّ أو خاصّ.

كما نجده يبتعد عن فكرة الأشاعرة القائلة بأنَّ الحسن والخير ما حسَّنه الله وأمر به، وأنَّ القبيح والشرّ ما قبَّحه ونهىٰ عنه، وهي فكرة تؤول إلىٰ نفي الخير الذاتي والشرّ الذاتي.

والفارابي أوَّل من أدخل نظرية الفيض والعقول في الفكر الإسلامي، والتي تلقَّفها المفكّرون المسلمون من بعده، ولاسيّما ابن سينا الذي يُعَدُّ تلميذاً له عن طريق مؤلَّفاته.

أمَّا مصدر هذه النظرية التي أخذ بها الفارابي فهو كتاب (أثولوجيا) المنسوب إلىٰ أرسطو خطأً، والذي اشتمل علىٰ بعض الآراء

لأفلاطون المدافع الأكبر عن فلسفة الفيض، وقد يكون جاءه ذلك عن طريق بعض أساتذته من النساطرة أمثال: يوحنّا بن حيلان ومتّىٰ بن يونان.

وقد وجد الفارابي في هذه النظرية تفسيراً لأعوص المسائل التي كانت تعترض تفكير الفيلسوف المؤمن، هي كيفية صدور الكثير من الواحد البسيط (الله)، ووجد فيها حلّاً لموقف الفيلسوف من العقيدة الإسلاميّة، القائمة علىٰ خلق العالم وحدوثه من (لا شيء)، وعلىٰ أنَّ الخالق عالم ومريد ومفكّر، وعلىٰ أنَّه منزَّه عن كلّ نقص.

وأيّاً كانت المصادر التي أمدَّت الفارابي للقول بهذه النظرية، أسواء كانت أفلوطينية حديثة، أم حرّانية صائبة باعتبارهم يقدّسون الأفلاك والكواكب، أم سواهما من مصادر، أم كانت مزيجاً من كلّ ذلك، فإنَّ هذه النظرية التي جاء بها الفارابي كانت شيئاً جديداً علىٰ الفكر الإسلامي آنذاك، إذ لم نجد لها أثراً بهذه الحدود في تفكير الفلاسفة المسلمين الذين عاشوا قبل عصر الفارابي.

علىٰ أنَّنا نجد لهذه النظرية جذوراً في رسائل أقدم فيلسوف عربي وهو الكندي، فقد ورد في رسالته (في الفاعل الحقّ الأوَّل) وفي (رسالته عن العلَّة القريبة للكون والفساد)، قوله: (بفعل الفلك الأعلىٰ فيما دونه، وبفعل كلّ شيء فيما دونه).

ومن هنا صحَّ قول فورمس: إنَّ الفارابي أوَّل من أدخل مذهب الصدور في الفلسفة الإسلاميّة. وكيفية الصدور عنده مبنيّة علىٰ أنَّ علَّة وجود الأشياء ليست هي إرادة الخالق القادر علىٰ كلّ شيء؛ بل علمه بما يجب.

ويقول: إنَّ وجود الأشياء عنه ليس عن قصد يشبه قصودنا، ولا هو علىٰ سبيل الطبع، بدون أن يكون له معرفة ورضاء بصدورها وحصولها، وإنَّما ظهرت الأشياء عنه لكونه عالماً بذاته، ولأنَّه مبدأ النظام الخير في الوجود علىٰ ما يجب أن يكون عليه، فإذن علمه علَّة لوجود الشيء الذي يعلمه.

وعلىٰ ذلك فيفيض عن الله منذ الأزل العقل الأوَّل، فإذا تعقَّل العقل الأوَّل مبدعه صدر عنه عقل، ومن تعقّله لذاته يلزم عنه وجود الفلك الأقصىٰ، ويستمرّ فيض العقول بعضها عن بعض فيضاً ضرورياً إلىٰ نهاية العقول والأفلاك.

وترتيب العقول وما يلزم منها من أفلاك يجدها القارئ في كتابه (المدينة الفاضلة)، وخلاصتها كما وردت لدىٰ ابن سينا الذي يُعَدُّ تلميذ الفارابي ويمثّل اتّجاهه في نظرية الصدور، هو:

أنَّ الواحد لا يصدر عنه إلَّا واحد، هو العقل الأوَّل، والكثرة إنَّما تبدأ في هذا العقل، فبتعقّله لعلَّته (الله) يصدر عنه ثالث، وهو العقل الثاني الذي يدير الفلك الأقصىٰ، وبتعقّله لذاته تصدر عنه نفس، يفعل عقل الفلك فعله بتوسّطها، ثمّ إنَّ العقل الأوَّل من حيث هو ممكن الوجود، يصدر عنه جرم الفلك الأقصىٰ.

ثمّ إنَّ العقل الثاني المدبّر للفلك بتعقّله لعلَّته وهي العقل يصدر عنه عقل ثالث، وبتعقّله لذاته يصدر عنه نفس، وهكذا يستمرّ صدور العقول العشر والأفلاك علىٰ هذا النحو، فعن كلّ عقل يصدر ثلاثة أشياء: عقل ونفس وجسم، ولـمَّا كان العقل لا يمكنه تحريك الجسم بغير واسطة فلا بدَّ له من نفس يؤثّر بتوسّطها، وأخيراً يأتي العقل الأخير

وهو العقل الفعّال الذي تصدر عنه مادّة الأشياء الأرضية والصورة الجنسية والنفوس الإنسانية، وهو يدير هذه كلّها.

وقد آثرنا أن نذكر مذهب الصدور كما بيَّنه ابن سينا لكونه أكثر إيضاحاً، ولغموضه في الكتب التي عرضت لمذهب الفارابي فيه، ولأنَّ ابن سينا هو الممثّل حقيقة لمذهب الفارابي في الصدور.

وينبغي أن لا تفوتنا الإشارة إلىٰ أنَّ مذهب الفارابي في الصدور لا يعدو أن يكون افتراضاً علمياً لتفسير كيفية الصدور فقط، دون أن يكون مذهباً يعتقده أو يؤمن به، وهذا الافتراض العلمي شبيه بافتراض علمي آخر افترضه العلماء المعاصرون، هو افتراض (الأثير) تفسيراً لوصول الحرارة والنور من الشمس وانتقالها إلينا، فقد صرَّح هؤلاء بأنَّ الأثير هو مادّة افتراضية، اضطرّهم إلىٰ افتراضها تعليل ظاهرة سير النور والحرارة، وقالوا: إنَّه لا يُرىٰ ولو بأكبر المجاهر العلمية ولا يقبل الوزن أو أيّة خاصّة من صفات المادّة.

ويدلُّ علىٰ ذلك أنَّ الفارابي الذي احتضن هذه النظرية لم يقم أيّ برهان علىٰ صحَّتها، وأنَّ من لوازم النظرية أن يفقد الخالق تعالىٰ سيطرته علىٰ الجزئيات الحادثة، مع أنَّه صرَّح في بعض كلامه أنَّه تعالىٰ عالم بالجزئيات كما هو عالم بالكلّيات، وهو وحده يصرفها ويحرّكها، وأنَّ عنايته شاملة لها كما سبق ذكره.

آثاره:

ترك الفارابي آثاراً كثيرة، كانت في الطليعة التي ساهمت في بناء الحضارة الفكرية الإسلاميّة، ومهَّدت السبيل للمفكّرين والفلاسفة فيما بعد في فهم الآثار اليونانية، وتفسير المؤلَّفات الفلسفية منها.

وتعتبر آثار الفارابي النموذج المختار من الكتب الفلسفية في ذلك العصر، لما فيها من وعي للكثير من أفكار اليونان، والوقوف علىٰ أسرار نظريّاتهم وحقائقها.

وحسبك من ذلك أنَّ ابن سينا الفيلسوف لم يكن ليفهم مباحث ما وراء الطبيعة لولا بعض مؤلَّفات الفارابي التي وضعها في هذا الموضوع، وفسَّر فيها بعض كتب الفلاسفة اليونانيين.

وبالرغم من طريقة الاختصار والاقتضاب التي اتَّبعها الفارابي في مؤلَّفاته، حتَّىٰ ليكاد يصعب فهم مقاصده وأغراضه أحياناً، إلَّا أنَّ قيمتها تظهر فيما أعطته من نتائج علمية للمفكّرين من بعده، حتَّىٰ شقَّت لهم الطريق وفتحت لهم باب المعرفة والبحث، وخاصّة حين نأخذ في اعتبارنا العصر الذي عاشه الفارابي، وهو العصر الذي كان يوجّه المفكّرون جهودهم إلىٰ نقل الأفكار اليونانية وتفسيرها والتعليق علىٰ الكثير منها.

وتميَّزت هذه الحقبة بنشاط كبير في ترجمة وتفسير ونقل الفكر اليوناني وغيره، وقام بهذه المهمّة جمع كبير من التراجمة والنقلة النساطرة واليعاقبة المسيحيين من أمثال متّىٰ بن يونان (يونس)، ويوحنّا بن حيلان، وسواهما.

ونجد أثر هذا الاتّجاه بادياً علىٰ مؤلَّفات الفارابي، ففيها شطر كبير من تفسير كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما.

وقد كانت تربطه بالمترجمين النصارىٰ روابط وثيقة، فمتّىٰ بن يونان، ويوحنّا ابن حيلان، كانا من أساتذته، ويحيىٰ بن عدي كان من تلاميذه، هذا بالإضافة إلىٰ صادقته الوثيقة بسوىٰ هؤلاء الذين التقىٰ بهم

في بغداد، وكان ذلك ممَّا ساعده علىٰ فهم فلسفة أفلاطون وأرسطو، التي كانت في متناول يده فهماً تامَّاً.

وقد اشتهر بتفسيره لكتب أرسطو، لاسيّما فيما يتعلَّق بالمنطق، وهو يُعَدُّ في هذا المضمار من أعظم المفسّرين، ولكن فضله لا يقف عند التفسير ولا عند التمهيد للنهضة الفلسفية في الإسلام؛ بل بما له من أنظار مبتدعة، وبحوث في الحكمة العملية والعلمية، عميقة سامية، لم يتهيَّأ بعد للباحثين كلّ الوسائل لتفصيلها تفصيلاً وافياً.

وكان الفارابي منتجاً إلىٰ أبعد حدود الانتاج، فقد ذكر له ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء) حوالي (١٢٠) مؤلَّفاً، كما أحصىٰ له المستشرق بروكلمن (١٨٧) كتاباً في الموسيقي والفلك والفلسفة والكلام والمنطق والطبّ، وفي الآثار العلوية وفي الردود علىٰ الفلاسفة والمتكلِّمين، وفي النفس والسياسة والأخلاق والهندسة والعدد والمناظر وسوىٰ ذلك.

وقد سار في عرض أكثرها علىٰ أُسلوب ممتاز بالقصد في اللفظ والعمق في المعنىٰ، مع دقَّةٍ في التعبير، وقوَّةٍ في التماسك وحسن الانسجام والنظام في التأليف، وربط المواضيع ربطاً محكماً منطقياً.

ونجد في مؤلَّفاته حوالي (٣٠) مؤلَّفاً في المنطق خاصّة، كما نجده قد وضع حوالي (٣٠) مؤلَّفاً في الفلسفة، كما خصَّص حوالي (٧٠) مؤلَّفاً في الهندسة والفلك والمقاييس والموسيقي وما إلىٰ ذلك.

وكان حظّ مؤلَّفات الفارابي حظّ سواها من آثار فلاسفتنا القدامىٰ، التي ضاعت في خضمّ الأحداث، وعفت بمرور الزمان.

تنزيهه ممَّا رُمي به من التهم والأفاتك:

وبالتالي لم يسلم الفارابي من التهم والأفاتك، كأمثاله من الأكابر، وقع هدفاً لسهام اللوم والتكفير والطعن والتفنيد، والحقيقة أنَّه لا واقع لهذه التهم والأفاتك؛ لأنَّ أغلب الأكابر لم يسلموا عن هذه السهام المسمومة، ولم يشذّ أحد منهم عن القذف والمروق والشذوذ وما شابه ذلك، ولم يسلم أكثرهم سواء في حياتهم أو بعد مماتهم عن الكلمات الخاطئة والتحامل عليهم بقول الزور وبكلّ أفيكة، ولذا لا ينبغي التسرّع إلىٰ تلقّي الكلمات الشائنة في حقّهم بالقبول والإصغاء إليها، كما صرَّح به العلّامة الوحيد البهبهاني ﷺ وغيره؛ لأنَّ للرمي بالتكفير والتفسيق وما شابهها جهات وأسباب مختلفة منها: الجهل وقصور الفهم، وعدم القابلية والاستعداد لدرك الحقائق ونقصان الغريزة عن فهم المطالب الغامضة والمعاني الدقيقة التي دبَّج الأكابر تضاعيف عبائرهم المعضلة وكلماتهم المتشابهة بها، وهي ودائع منهم لأهلها، ولمن نال استعداد فهمها وحفظها، فصلوات الله وتسليماته علىٰ من تكلَّم بهذه الكلمة النيّرة: «إنَّ هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها»(١).

ومن الواجب علىٰ روّاد العلم وحملة الفضيلة أن ينعموا النظر في تلك الكلمات والعبارات الغامضة، ويحملونها علىٰ الصحَّة والسداد لا علىٰ الإعوجاج والفساد مع الذهول عن المقصود والغفلة عن المراد، وأن يحملوا كلمات كلّ طائفة علىٰ ما هو ظاهر عندهم ومعلوم لديهم، مع رعاية مصطلحاتهم ومعرفة اصطلاحاتهم، وإيّاهم والتدخّل في العلوم

---

(١) شرح الأخبار ٢: ٣٦٩/ ح ٧٣٢.

التي لم يحوموا حولها ولم يدرسوها بالدراسة التحليلية عند أساتذتها، فإنَّهم إن لم يراعوا هذه الطريقة المثلىٰ والشرعة الوسطىٰ ولم يرفضوا المشاغبات والمضاربات من جميع الجهات، فلا محالة يتورَّطون في المهالك والمسالك الوعرة والغياهب المدهشة.

وأخزىٰ تلك النكبات والهلكات تكفير قوم بغير حقّ، وهذه هلكة هلكاء وشقَّة سوداء، ولذا لم يكد يسلم أكثر الأكابر في كلّ الأعصار وحتَّىٰ اليوم عن طعن الطاعنين ورمي الغرضين وغمز الجاهلين.

أليس مثل الشيخ الرئيس ابن سينا، والفقيه الحرّ المتضلّع ابن إدريس الحلّي صاحب السرائر، وآية الله العلَّامة الحلّي، والشيخ ابن أبي جمهور الأحسائي صاحب عوالي اللئالي، وشيخنا البهائي، وتلميذه صدر المتألّهين صاحب كتاب الأسفار الذي هو من جلائل كتب الإمامية ومن أنفس آثارهم العلمية، والحكيم الإلهي المولىٰ رجب صاحب المقاصد، والفيض الكاشاني صاحب الوافي، والمحقّق السبزواري صاحب الكفاية والذخيرة، ونظرائهم من حماة الحقّ وذادته وأعضاد الملَّة وقادتها، لقا ما لقاه أمثالهم من الطعن والتشنيع؟

بل جمّ غفير من علمائنا قبل هؤلاء العظماء لم يسلموا من الرمي بالغلوّ والتكفير، والتصوّف البغيض، أليس القمّيون رموا جمعاً من علمائنا بالغلوّ والتكفير، وأخرجوا من قم بأدنىٰ غمز فيهم، وكانوا ينسبون إليهم الانحراف في العقائد الدينية بمجرَّد رؤية رواية في كتابهم، أو نسبة أحدٍ ذلك إليهم، حتَّىٰ أفرطوا في الجمود وطعنوا في مثل يونس بن عبد الرحمن الثقة الكبير الذي كان من أكابر رجال الشيعة وعلَّامة زمانه؟

وقد وَبَّخ سيّدنا مفخرة الإمامية السيّد المرتضىٰ علم الهدىٰ ﷺ في بعض رسائله القمّيين بسبب جمودهم علىٰ الظواهر وإفراطهم في التمسّك بها، واستثنىٰ منهم رئيس المحدِّثين الشيخ الصدوق ﷺ حيث أنَّ الإفراط في الجمود علىٰ ظواهر عدّه من أخبار الآحاد _ التي لا بدَّ من تأويلها ورفع اليد عن ظاهرها _ يفضي إلىٰ بعض المحظورات والأخطار من الجبر والتشبيه وأمثال ذلك.

وكذا وبَّخهم سيّد الإمامية وحذَّرهم من ذلك، ولم يكن مقصود السيّد أنَّ القمّيين كانوا يعتقدون بعض العقائد الفاسدة، حاشا سيّد الإمامية من نسبة العقائد السخيفة إليهم، وحاشاهم أيضاً أن يعتقدوا العقائد الباطلة، كما هو معلوم بالضرورة.

فلو جمعنا ما ضبطه التاريخ من الطعون علىٰ الأكابر لصار كتاباً مستقلّاً وسفراً لطيفاً.

قال الوحيد البهبهاني ﷺ: الذي نراه في زماننا أنَّه لم يسلم جليل مقدَّس، وإن كان في غاية التقديس، عن قدح جليل فاضل متديّن، فما ظنّك بغيرهم ومن غيرهم حتَّىٰ آل الأمر إلىٰ أنَّه لو سمعوا من أحد لفظ (الرياضة) وأمثال ذلك اتَّهموه بالتصوّف[1].

قال بعض الأعلام ﷺ: اعلم أنَّ بعض العلماء تسرَّع في تكفير الفارابي حيث وجد في كتبه ما يدلُّ علىٰ قِدَم العالم وإنكار المعاد وأمثال ذلك، ولم يلتفت أنَّ هذا كلّه ترجمة بالعربي لكتب بعض الفلاسفة، لا أنَّه كتاب عقيدة لأبي نصر الفارابي، أوَليس في رسالة النصوص المنسوبة إليه خلاف هذه الكلمات؟

---

(١) أُنظر: تعليقة علىٰ منهج المقال: ١٠٧.

وبالجملة لا ينبغي التسرّع في مثل هؤلاء الأعاظم المعلوم بالضرورة إسلامهم وإيمانهم بمجرَّد السواد علىٰ البياض الذي لم يتحقَّق موضوعه، ولا حقيقة نسبته ولا صاحب قبله، نعوذ بالله من سوء الرأي في الأعاظم، ونسأل الله تعالىٰ أن يحفظنا من الإعوجاج، وأن يجمع كلمتنا علىٰ الخير والهدىٰ وإماتة المطاعنات، وهو مجيب الدعوات وغافر الخطايا والسيّئات. (نقلاً عن التعليقة علىٰ الفردوس الأعلىٰ).

* * *

بنو نوبخت[1]

في كتاب (فلاسفة الشيعة): عُرِفَت هذه الأُسرة في التاريخ، منذ عهد الخليفة المنصور العبّاسي، حين اتَّصل نوبخت مؤسّس هذا البيت بالخليفة المذكور، وقد تنبَّأ له بانتصاره علىٰ إبراهيم الحسني الثائر، وصدقت نبوءته.

وظلَّت هذه الأُسرة منارة وضّاءة بالعلم والمعرفة، والفلسفة والفقه والآثار، وحتَّىٰ النجوم والطبّ والأدب عشرات السنين، ولم تخبُ أضواؤها إلَّا في أوائل القرن الخامس الهجري.

وكان مؤسّس هذه الأُسرة نوبخت المنجّم مجوسياً، قد أسلم هو وولده أبو سهل وزوجته زرين، فسمّاه المنصور عبد الله، ونال عنده حظوة كبيرة.

وقام أبو سهل مقام أبيه نوبخت عند المنصور بالتنجيم والترجمة والصحبة ضعف والده نوبخت عن الخدمة، وعمَّر زهاء ثمانين سنة، وأدرك سبعة من الخلفاء، وتوفّي عام (٢٠٢هـ).

وأعقب ذرّية علمية وفلسفية، لمعت في تاريخ العلم والثقافة والفلسفة والنجوم وغيرها، منهم: سهل، وسليمان، وإسحاق، وإسماعيل، وهارون، ومحمّد، وعبد الله، وعبيد الله.

---

(١) يُنظَر حول أُسرة آل نوبخت: فلاسفة الشيعة: ١٥٢؛ تأسيس الشيعة: ٣٦٤؛ أعيان الشيعة ٥: ٣٩؛ (خاندان نوبختي) لعبّاس إقبال الآشتياني.

وبرز من هذا البيت رجالات علمية وفكرية، وشخصيات سياسية واجتماعية لامعة مرموقة. وقد عنوا بوجه عامّ بالنقل والترجمة للثقافات الأجنبية.

ويصفهم القِفطي فيقول: (وآل نوبخت كلّهم فضلاء، لهم فكرة صالحة، ومشاركة في علوم الأوائل).

ويقول السيّد ابن طاووس في فرج المهموم: (كانوا علماء بالنجوم، وقدوة في هذا الباب)[1].

ويقول القمّي في الكنىٰ والألقاب: (وآل نوبخت طائفة كبيرة، خرج منها جماعات كثيرة من العلماء والأدباء، والفلاسفة والمتكلِّمين، والكتّاب والحكّام والأُمراء)[2].

وهذه الأُسرة من الشيعة الإمامية، يقول ابن النديم: (إنَّ آل نوبخت معروفون بولاية علي وولده عليهم السلام في الظاهر)[3].

ويقول السيّد الصدر في تأسيس الشيعة: (إنَّ آل نوبخت علماء حكماء متكلِّمون إماميون).

أمَّا السيّد محسن الأمين في أعيان الشيعة فإنَّه يشكّ في أن يكون نوبخت وابنه أبو سهل من الشيعة، ولكنَّه يجزم بأنَّ بقيّة أعقابهم شيعيون، قال: (أمَّا باقي طائفته فكلّهم شيعة؛ بل فيهم المدافعون عن مذهب الشيعة، المحامون باحتجاجهم ومؤلَّفاتهم)[4].

---

(١) أُنظر: فرج المهموم: ١٢١.

(٢) أُنظر: الكنىٰ والألقاب ١: ٩٥.

(٣) فهرست ابن النديم: ٢٢٥.

(٤) أُنظر: أعيان الشيعة ٢: ٩٤.

وتُعَدُّ أُسرة بني نوبخت من أكثر أُسر التاريخ فلاسفة ومنجّمين وعلماء وأُدباء وأُمراء، ويربو عدد رجالاتها اللامعة في هذه الجوانب علىٰ ستّة وعشرين، ما بين عالم وفيلسوف، أفادوا أجيالهم التي عاشوها منذ أوائل القرن الثاني الهجري حتّىٰ أوائل القرن الخامس، بآرائهم وأفكارهم ومؤلَّفاتهم، وبما نقلوه من اللغتين الفارسية واليونانية إلىٰ العربية.

ويقول آدم متز: وكان النوبختي (يعني الحسن بن موسىٰ) من نقلة كتب اليونان إلىٰ لسان العرب.

ومن أبرز هذه الأُسرة، وأكثرهم آثاراً:

١ _ أبو سهل الفضل بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت.

٢ _ أبو سهل علي بن إسماعيل بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت.

٣ _ أبو محمّد الحسن بن موسىٰ بن الحسن بن العبّاس بن إسماعيل بن أبي سهل بن نوبخت.

٤ _ أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت.

وسنقتصر من دراستنا لبني نوبخت علىٰ هؤلاء الأربعة باعتبارهم البارزين منهم، ولأنَّهم يمثّلون اتّجاه بني نوبخت العلمي بوجه عامّ.

ويبدو من كلمات المؤرِّخين وكتب الفلسفة والكلام أنَّه حين يعزىٰ شيء إلىٰ أبي سهل فإنَّ المقصود به هو أبو سهل علي بن إسماعيل، كما أنَّ إطلاق النوبختي إذا نُسِبَ إليه شيء، فإنَّهم يعنون به أبا محمّد الحسن بن موسىٰ النوبختي.

وينبغي أن لا ننسىٰ أنَّه كان للنوبختي مدرسة فكرية خاصّة، لها

اتّجاه معيَّن، حول نظريّاتهم الفلسفية والكلامية، وبخاصّة حول العقائد، ظلَّت هذه المدرسة بطابعها الخاصّ، تتصدَّر ما هناك من آراء ونظريات...

ولنشرع الآن في ترجمة الأربعة المتقدّمة أسماؤهم: ...

* * *

(٧)

أبو إسحاق إبراهيم بن
إسحاق بن أبي سهل النوبختي[1]

هو من أعلام العلم والكلام، ومن قدامىٰ الشيعة الإمامية المؤلِّفين، وقد وصفه العلَّامة الحلّي الحسن بن المطهَّر في أوَّل شرحه علىٰ كتاب (الياقوت) للمترجم فقال:

وقد صنَّف شيخنا الأقدم، وإمامنا الأعظم، أبو إسحاق إبراهيم بن نوبخت قدَّس الله روحه الزكيّة ونفسه العلميّة مختصراً سمّاه (الياقوت)، قد احتوىٰ من المسائل علىٰ أشرفها وأعلاها، ومن المباحث علىٰ أجلّها وأسناها، لأنَّه صغير الحجم، كبير العلم، مستصعب علىٰ الفهم.

ولا نعرف شيئاً عن حياة أبي إسحاق، أو تاريخ ولادته ووفاته، ولا عن عصره الذي عاش فيه، ولكن باعتبار أنَّه ابن إسحاق بن أبي سهل، فهو _ علىٰ الأرجح _ كان موجوداً في أوائل القرن الثالث الهجري.

ومن آثار المترجَم التي لا تزال باقية، كتاب (الياقوت) في الكلام، وقد عني المتأخّرون عن عصره بشرحه والتعليق عليه، وحظي بشروح عديدة، ومن ذلك:

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٥٨؛ تأسيس الشيعة: ٣٦٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ٢: ٥٠٩؛ الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة ٢٥: ٢٧١ وفيه اسمه إسماعيل؛ أعيان الشيعة ٥: ١٠٤.

١ _ أنوار الملكوت في شرح الياقوت للعلَّامة الحلّي، رأىٰ صاحب (أعيان الشيعة) نسخة مخطوطة من هذا الشرح، كُتِبَت في عصر الشارح، وتاريخ كتابتها يوم السبت (٢٧) شوال سنة (٧٣٢هـ)، وقد عثر علىٰ هذه النسخة في جبل عامل.

٢ _ فصّ الياقوت، وهو شرح عليه لابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة.

٣ _ شرح له أيضاً للسيّد عبد المطَّلب ابن الأعرج المعروف بالسيّد العميدي، وهو ابن أُخت العلَّامة الحلّي.

٤ _ كما نظم الياقوت شعراً الشيخ أحمد ابن أبي عبد الله الحسين العودي العاملي.

٥ _ كتاب الابتهاج، ذكره المؤلِّف في كتاب الياقوت، لدىٰ ذكره لعقيدة كان يعتقدها، وقال: صنَّفت كتاباً في ذلك سمَّيته (الابتهاج). وقد ذكر الطهراني هذا الكتاب في (الذريعة)[1] باسم (الابتهاج في إثبات اللذَّة العقلية لله تعالىٰ)، وأنَّ المؤلِّف (يعني إبراهيم النوبختي) أحال إليه مسألة علم الباري تعالىٰ من كتابه الياقوت، وليس لدينا مصادر كافية تعطينا صورة واضحة عن تفكيره، أو ترسم لنا الخطوب الكاملة عن ثقافته ومذاهبه الكلامية.

نعم هناك آراء قليلة له ذُكِرَت عرضاً، تعطينا صورة مجملة، تدلُّ علىٰ شخصيته العلمية، وعلىٰ أنَّه كان ذا إمكانات فكرية رحبة، وتدلُّ كذلك علىٰ مدىٰ العمق والتحرّر الفكريين اللّذين كان يتمتَّع بهما.

---

(١) الذريعة ١: ٦٢/ الرقم ٣٠٣.

ومن تلك الآراء:

١ _ كان يقول بوجوب الأصلح في الدنيا، وذلك كما لو علم الله تعالىٰ أنَّه إن أعطىٰ شخصاً مقداراً من الرزق الواسع انتفع به، وليس فيه مضرَّة عليه، ولا لأحد غيره، ولا مفسدة فيه، ولا وجه قبح، وجب علىٰ الله تعالىٰ أن يعطيه ذلك.

وقد وافقه علىٰ ذلك أبو القاسم البلخي المعتزلي، وسائر معتزلة بغداد، خلافاً للبصريين من المعتزلة والأشاعرة، وجمهور علماء الإمامية، فقد ذهبوا إلىٰ أنَّه لا يجب.

٢ _ كان يقول بالعصمة ويحدّدها بقوله: (إنَّ العصمة لطف يمنع من اختصَّ به عن فعل القبيح، ولا يمنعه علىٰ وجه القهر).

٣ _ كان يذهب إلىٰ جواز ظهور الكرامة والمعجزة للأئمّة عليهم السلام، ويقول: (وظهور المعجزات علىٰ أيدي الأئمّة جائز، وآيته قصَّة مريم، وآصف وغير ذلك).

وقد وافق بهذا جمهرة متكلّمي الإمامية، وخالف جماعته النوبختيين الذين منعوا من ظهور المعجزة والكرامة للأئمّة.

٤ _ ذهب إلىٰ جواز اللذَّة العقلية علىٰ الله تعالىٰ، وقد وضع كتابه الابتهاج لإثبات ذلك.

٥ _ ذهب إلىٰ أنَّ ماهية الله تعالىٰ معلومة كوجوده، وإنَّ ماهيته هي وجوده المعلوم.

٦ _ ذهب إلىٰ أنَّ المخالفين يخرجون من النار، ولا يدخلون الجنَّة.

وبعض هذه الآراء كما ترىٰ لا يبدو شيئاً كبيراً، إزاء ما نعرفه من آراء متكلّمي العصور الأخيرة، إلَّا أنَّ أهمّيتها إنَّما هي بالنظر إلىٰ عصرها

الذي صدرت فيه، حين كانت الآراء الكلامية لا تزال في دور التكوين، وفي مراحلها التمهيدية، وبخاصّة أنَّها وصلتنا مجملة دونها شرح أو تفسير، وهي بحاجة إلىٰ بيان عناصرها المنطقية التي اعتمدت عليها.

* * *

(٨)

أبو سهل إسماعيل بن
علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت[١]

مـن كتـاب فلاسـفة الشـيعة (ص ١٦١): إنَّـه مـن شـيوخ الشـيعة الإماميـة ووجـوههم، ومـن أئمّـة العلـم والفلسـفة والمعرفـة، ومـن أعـلام المتكلِّمين اللامعين في القرن الثالث والرابع من الهجرة.

جمع إلىٰ الفلسـفة والكـلام الفقـه والآثـار، وجمـع مـا كـان معروفـاً في عصـره مـن معرفـة وعلـم، وكـان إلىٰ ذلـك أديبـاً شـاعراً كـريماً، مـن زعـماء الشيعة البارزين، والمقرَّبين من القصر العبّاسي.

وهو صاحب مدرسـة فلسـفية كلاميـة عاشـت جيلاً طـويلاً، وظلَّـت آراؤه تتجاوب حقبة طويلة، في أكثر جوانب الحياة الثقافية.

وتخرَّج علىٰ يديـه عـدد غـير قليـل مـن العلـماء والمفكّـرين، نهلـوا مـن مدرسـته، يسـتفيدون منـه ويأخـذون عنـه، كـانوا فـيما بعـد مـن أعـلام عصـرهم في العلـم والمعرفـة، وعلىٰ رأس الحركـة الفكريـة في القـرن الرابـع الهجري.

ومن تلاميذه المعروفين:

---

(١) فلاسـفة الشـيعة: ١٦١؛ تأسـيس الشـيعة: ٣٦٧؛ الكنـىٰ والألقـاب ١: ٩١؛ أعيـان الشـيعة ١٢: ٣٣؛ روضات الجنّات ١: ١١١؛ معجم المؤلّفين ٢: ٢٧٩.

١ _ أبو الحسين علي بن عبد الله بن وصيف الناشئ الأصغر المتكلِّم والشاعر المعروف، وُلِدَ عام (٢٧١هـ) وتوفّي عام (٣٦٠هـ) أو (٣٦٦هـ).

وكان يملي شعره بجامع الكوفة، وقد حضر المتنبّي الشاعر وهو صبي مجلسه وكتب من إملائه لنفسه من قصيدة في مدح الإمام علي عليه السلام:

كأنَّ سنان ذابله ضمير فليس عن القلوب له ذهاب

وصارمه كبيعته بخُمٍّ معاقدها من الخلق الرقاب

وقد أوحىٰ للمتنبّئ هذا المعنىٰ قوله:

كأنَّ الهام في الهيجا عيون وقد صيغت سيوفك من رقاد

وقد صغت الأسنَّة من هموم فما يخطون إلّا في فؤاد

٢ _ أبو الجيش المظفَّر بن محمّد بن أحمد البلخي المتكلِّم، توفّي عام (٣٦٧هـ)، وهو أُستاذ الشيخ المفيد، وله كتب في الكلام وغيره.

٣ _ أبو الحسين محمّد بن بشر السوسنجردي من متكلِّمي الإمامية، وله مؤلَّفات في الإمامة وكان يقول بـ (الوعيد) وهي المسألة الكلامية المعروفة.

٤ _ أبو علي الحسين بن القاسم الكوكبي الكاتب.

٥ _ أبو بكر محمّد بن يحيىٰ الصولي الكاتب الأديب المشهور، المتوفّىٰ عام (٣٣٥هـ) أو (٣٣٦هـ) وهو صاحب كتاب (الأوراق) وكتاب (أدب الكتّاب) المطبوعين، وكان من أُدباء الشيعة ومؤلِّفيهم.

بل إنَّ أعلام الطائفة، وأكابر متكلِّمي الإمامية في القرن الرابع والخامس، مثل الشيخ المفيد والنجاشي، والسيّد المرتضىٰ، والشيخ الطوسي وغيرهم، هم تلاميذ لأبي سهل إسماعيل المذكور، إمَّا بواسطة أو بواسطتين.

ولآرائه الكلامية تقدير وعناية، ولم يصلنا منها إلَّا النزر اليسير، عرض بعضها المفيد في كتابه (أوائل المقالات)، كما سبق وعزاها إلىٰ بني نوبخت، الذين إذا ذكروا فإنَّما يُراد بهم أئمّة الكلام والنظر منهم، وعلىٰ رأسهم إسماعيل المترجَم وابن أخته الحسن بن موسىٰ النوبختي، لأنَّهما من أشهر وأبرز أهل هذا البيت في الفلسفة وعلم الكلام.

وقد وصف إسماعيل هذا كلّ من النجاشي والطوسي والعلَّامة بأنَّه: (كان شيخ المتكلِّمين من أصحابنا وغيرهم، له جلالة في الدنيا والدين، يجري مجرىٰ الوزراء في جلالة الكتاب)[1].

أمَّا ابن النديم فيقول عنه: (إنه من كبار الشيعة، وكان أبو الحسن الناشيء يقول: إنَّه أستاذه، وكان فاضلاً عالماً متكلِّماً، وله مجلس يحضره جماعة من المتكلِّمين)[2].

وينسب ابن النديم إليه رأياً في المهدي المنتظر، وأنَّه كان يقول: (أنا أقول: إنَّ الإمام محمّد بن الحسن، ولكنَّه مات في الغيبة، وكان تالاه ابنه، وكذلك فيما بعده من ولده إلىٰ أن ينفذ الله حكمه في إظهاره).

ويعلِّق صاحب خاندان نوبختي بما ترجمته: ... إنَّ صحَّة نسبة هذا الرأي بهذا الشكل إلىٰ أبي سهل لعلَّه محلّ تردّد، فإنَّه علاوة علىٰ أنَّه لم يُذكَر في كتاب من كتب الشيعة، فالقطعة التي نقلها الصدوق في كتاب (إكمال الدين) عن كتاب (التنبيه) لأبي سهل في باب الإمامة، لا تفرق شيئاً عن آراء علماء الإمامية الاثنا عشرية في خصوص الغيبة، بل يمكن

---

(١) أُنظر: رجال النجاشي: ٣١/ الرقم ٦٨؛ الفهرست: ٤٩/ الرقم (٣٦/ ٧)؛ خلاصة الأقوال: ٥٦/ قسم ١/ فصل ١/ باب ٢/ الرقم ١٠.

(٢) فهرست ابن النديم: ٢٢٥.

أن يقال: إنَّه يستفاد من شهادة أبي سهل بولادة ورواية وغيبة الإمام الثاني عشر، وتصويب مقام نيابة الحسين بن روح النوبختي، ووكالته، إنَّه من أكبر الذين وقفوا عقيدة الإمامية في مسألة الغيبة، ودافعوا عنها، وقرَّروها ودوَّنوها في كتبهم...، وإذا كان الذي نسبه إليه ابن النديم من العقيدة صحيحاً، فأقرب الاحتمالات أنَّه كان في أوَّل الأمر، ثمّ رجع عنه وقال برأي جمهور الإمامية ودافع عنه.

ويحكي لنا ابن النديم أنَّ أبا جعفر محمّد بن علي الشلمغاني الضالّ المعروف بابن العزاقر راسل أبا سهل إسماعيل يدعوه إلىٰ الفتنة ويبذل له المعجز وإظهار العجيب، وكان بمقدم رأس أبي سهل جلح يشبه القرع، فقال للرسول: أنا معجز ما أدري أيُّ شيء هو؟ ينبت لي صاحبك بمقدم رأسي الشعر، حتَّىٰ أُؤمن به، فما عاد إليه رسول بعد هذا.

وقد عاصر أبو سهل كلَّاً من الشاعرين البحتري وابن الرومي، وللأوَّل مدائح فيه وفي ولده إسحاق.

وكان ابن الرومي قد ربي علىٰ خِوان بني نوبخت، وخصوصاً أبا سهل وأخاه أبا جعفر، وقد أشار المسعودي في كتابه (مروج الذهب) فقال: (كان ابن الرومي الأغلب عليه من الأخلاط السوداء، وكان شرهاً نهماً، وله أخبار تدلُّ علىٰ ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي وغيره من آل نوبخت)[1].

ومن مدائح البحتري في إسماعيل بن سهل وولده إسحاق قوله:

ما للمكارم لا تريد سوىٰ أبي   يعقوب إسحاق بن إسماعيل

---

(١) مروج الذهب ٤: ١٩٥.

وإلىٰ أبي سهل بن نوبخت انتهىٰ ... ما كان من غرر لها وهجول
نسباً كما أطردت كعوب مثقف ... لدن يزيدك بسطة في الطول
يقضي إلىٰ بيت بن جوذرز الذي ... شهر الشجاعة بعد فرط خمول

ويعني بـ (جوذرز) جدّ بني نوبخت الأعلىٰ الفارسي، وكان قائداً كبيراً.

ولابن الرومي يعاتب أبا سهل من أبيات:

قل لأبي السهل الذي ورث ... الروم لطيف العلوم والفرسا
أمَا عهودي فلم تزل حبساً ... عليك فاجعل إزاءها حبسا

وكان لأبي سهل معرفة بالشعر ونظمه، ومن ذلك قوله:

لا أخضب الشيب للغواني ... أبغي به عندها ودادا
لكن خضابي علىٰ شبابي ... لبست من بعده الحدادا

وقوله يخاطب يحيىٰ بن علي، وكان محمّد بن عمران الذي شهد علىٰ أبي سهل عندما احتال عليه أحمد بن أبي عوف، وحبسه في أيّام القاسم بن عبد الله الوزير، قال:

إذا كنت أصبحت ذا علم وذا شرف ... فبئس ما اخترته من عشرة الحلبي
محارف حرفة تعدي معاشرة ... والشؤم أعدىٰ إذا استشرىٰ من الجرب
فخله عنك واهرب من معرته ... فما لصاحبه منجىٰ سوىٰ الهرب

وكان أبو سهل رحب الثقافة، معشب التفكير، خصب الانتباه، وضع كتباً عديدة في مواضيع شتّىٰ.

وله من المؤلَّفات حوالي ثلاثة وثلاثين مؤلَّفاً، يكاد يكون جميعها في المواضيع الكلامية الهامّة، ومن بينها خمسة عشر كتاباً في الردّ والنقض علىٰ رجالات الكلام والنظر، ومن كتبه:

١ _ الاستيفاء في الإمامة.

٢ _ التنبيه في الإمامة.

٣ _ الجمل في الإمامة.

٤ _ الردّ علىٰ محمّد بن الأزهر، لعلَّه محمّد بن زيد بن محمود بن أبي الأزهر النوشجي النحوي المتوفّىٰ عام (٣٢٥هـ) وهو من علماء الشيعة.

٥ _ الردّ علىٰ الطاطري هو علي بن الحسن بن محمّد الطائي الجرمي، كان فقيهاً ثقةً في حديثه، من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، واقفي المذهب، ومن وجوه الواقف، شديد العناد في مذهبه، وهو أُستاذ الحسن بن محمّد بن سماعة الصيرفي الكوفي الواقفي المتوفّىٰ عام (٢٦٣هـ).

٦ _ الردّ علىٰ الغلاة.

٧ _ الردّ علىٰ عيسىٰ بن أبان في الاجتهاد.

٨ _ نقض مسألة عيسىٰ الورّاق في قِدَم الأجسام مع إثباته الأعراض.

٩ _ الردّ علىٰ اليهود.

١٠ _ الردّ علىٰ أبي العتاهية في التوحيد.

١١ _ الردّ علىٰ أصحاب الصفات.

١٢ _ كتاب الإنسان والردّ علىٰ ابن الراوندي.

١٣ _ الردّ علىٰ الواقفة.

١٤ _ الردّ علىٰ المجبّرة في المخلوق والاستطاعة.

١٥ _ كتاب نقض رسالة الشافعي.

١٦ _ نقض كتاب عبث الحكمة لابن الراوندي.

١٧ _ كتاب نقض التاج علىٰ ابن الراوندي.

١٨ _ نقض اجتهاد الرأي علىٰ ابن الراوندي.

١٩ _ كتاب الصفات.

٢٠ _ كتاب الخواطر.

٢١ _ كتاب المعرفة.

٢٢ _ كتاب الحاكي والمحكي.

٢٣ _ كتاب إبطال القياس.

٢٤ _ كتاب تثبيت الرسالة.

٢٥ _ كتاب الخصوم والعموم.

٢٦ _ كتاب الأنوار في تواريخ الأئمّة الأطهار.

٢٧ _ كتاب التوحيد.

٢٨ _ كتاب الإرجاء.

٢٩ _ كتاب النفي والإثبات، وهو مجالسه مع أبي علي الجبائي بالأهواز.

٣٠ _ كتاب في استحالة رؤية القديم تعالىٰ.

٣١ _ كتاب حدوث العالم.

٣٢ _ كتاب الملل والنحل، ذكره ابن حجر في الميزان وقال: (هو كبير، واعتمد عليه الشهرستاني في كتابه الملل والنحل)[1].

٣٣ _ مجالس ثابت بن قرة.

* * *

---

(١) لسان الميزان ١: ٤٢٤/ الرقم ١٣٢٤.

(٩)

الحسن بن موسى النوبختي[1]

هو أكبر شخصية شيعية ظهرت في أواخر القرن الثالث الهجري، بالفلسفة والكلام والترجمة والنقل، وهو من ألمع بني نوبخت ثقافةً وفضلاً، ومن المفكّرين الفلاسفة البارزين في الإسلام، ومن أعمدة الحضارة الفكرية والعلمية في ذلك العصر.

وكان أبو محمّد النوبختي اسماً لامعاً بين الأسماء الضخمة التي سجّلها التاريخ من أسماء العظماء والمفكّرين، الذين عملوا علىٰ ترسيخ المعرفة وتوسيع جوانبها.

وقد وُصِفَ في كتب التراجم والرجال بأنّه: متكلِّم فيلسوف، كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق، وثابت، وغيرهم، وكانت المعتزلة تدّعيه، والشيعة تدّعيه، ولكنّه إلىٰ حيِّز الشيعة، لأنَّ آل نوبخت معروفون بولاية علي وولده عليهم السلام في الظاهر، وكان جمّاعة للكتب قد نسخ بخطّه شيئاً، وله تأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها.

وقال المستشرق آدم متز: (كان النوبختي مؤلِّف أوّل كتاب له شأن في الآراء والديانات، وكان من نقلة كتب اليونان إلىٰ لسان العرب،

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٦٧؛ أعيان الشيعة ٢٣: ٣٣٣؛ تأسيس الشيعة: ٣٦٩؛ معجم المؤلِّفين ٣: ٢٩٨؛ معجم أعلام المورد: ٤٥٨؛ الأعلام ٢: ٢٢٤، وينظر مقدّمة كتابه: فِرَق الشيعة.

وكـان إلىٰ ذلـك مـن علـماء الفلـك والنجـوم البـارزين، وقـد أَلَّـف في ذلـك، فوضـع كتابـه الرصـد عـلىٰ بطليمـوس...، الفلـك والأرض، وكتابـه في الـردّ عـلىٰ أبي عـلي الجبـائي في ردّه عـلىٰ المنجّمـين، وكتابـه في حجـج طبيعيـة مستخرجة من كتب أرسطو في الردّ علىٰ من زعم أنَّ الفلك حيّ ناطق).

وقـال عنـه ابـن طـاووس: (كـان عارفـاً بعلـم النجـوم قـدوةً في تلـك العلوم)[1].

ويبـدو أنَّـه لم يكـن يعتقـد صـحَّة التنجـيم، فقـد وضـع كتابـاً في الـردّ علىٰ المنجّمين.

ويكنّىٰ الحسن بـن موسـىٰ النـوبختي بـأبي محمّـد، وهـو ابـن أُخـت أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي الذي تقدَّم ذكره.

أمَّـا تـاريخ ولادتـه ووفاتـه فـالأقوال فيـه متضـاربة، فالأُسـتاذ حسـن إبـراهيم حسـن في كتابـه تـاريخ الإسـلام السـياسي، يؤكِّـد أنَّـه تـوفّي عـام (٣٠٢هـ/ ٨١٧م)، ويصـرِّح السـيّد الأمـين بأنَّـه تـوفّي عـام (٣١٠هــ)[2]، وقول السيّد الأمين هو الأرجح، وأمَّا القول الأوَّل فهو وهم ظاهر.

ويؤكِّد ذلك أنَّه جاء في ترجمة ثابت بن قرة ما يلي:

إنَّ هـلال بـن محسـن قـال: حـدَّثني أبـو محمّـد الحسـن بـن موسـىٰ النوبختي، قال: سألت أبا الحسن ثابـت بـن قـرة عـن مسـألة بحضـرة قـوم، فكـره الإجابـة عليهـا بمشـهدهم، وكنـت حـديث السـنّ، فـدافعني بالجواب، فقلت متمثّلاً:

ألَا ما لليلىٰ لا ترىٰ عنـد مضـجعي ... بليـل ولا يجـري بهـا ليَ طـائر

---

(١) فرج المهموم: ١٢١.

(٢) أعيان الشيعة ٥: ٣٢٠/ الرقم ٧٩٧.

بلىٰ إنَّ عجم الطير تجري إذا جرت   بليلي ولكن ليس للطير زاجر

فلمَّا كان من غد لقيني في الطريق وسرت معه، فأجابني عن المسألة جواباً شافياً، وقال: زجرت الطير يا أبا محمّد، فأخجلني فاعتذرت إليه، وقلت: والله يا سيّدي ما أردتك بالبيتين.

فحديثه هذا مع ثابت يدلُّ علىٰ أنَّه من مواليد أواسط القرن الثالث للهجرة، لأنَّ ثابتاً توفّي عام (٢٨٨هـ) عن سبع وسبعين سنة، وذلك بمقارنة أنَّ الحسن بن موسىٰ كان لدىٰ مقابلته حديث السنّ، وربَّما كان عمره عند هذه المقابلة خمساً وعشرين سنة، يملك السؤال والإصدار والإيراد... مثل ثابت بن قرة علىٰ أقلّ تقدير.

وإذا اقترن هذا بأنَّ ثابتاً كان يحضر مجلس النوبختي ويجتمع إليه مع من يجتمع من النقلة للكتب الفلسفية، كما يقول ابن النديم مثل إسحاق بن حنين الرياضي المعروف المتوفّىٰ عام (٢٩٨هـ) وأبي عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي الذي توفّي في أواسط القرن الرابع للهجرة، والذي جعله علي بن عيسىٰ الوزير عام (٣٠٢هـ) رئيساً في بيمارستان الحربية.

وإذا أضفنا إلىٰ ذلك كلّه ما جاء في ثبت كتبه، وأنَّه وضع كتاباً للردّ علىٰ أبي القاسم الكعبي البلخي شيخ المعتزلة، المتوفّىٰ عام (٣١٧هـ) وإذا اقترن ذلك بقول العلاَّمة الحلّي في كتابه (الخلاصة) عنه وأنَّه شيخنا المتكلِّم المبرز علىٰ نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة وبعدها[1]، كان ما رواه الأمين في تاريخ وفاته أقرب للصواب.

أمَّا مكانة الحسن بن موسىٰ النوبختي فتتجلّىٰ في ثقافته العامّة من

---

(١) خلاصة الأقوال: ١٠٠/ قسم ١/ فصل ٦/ باب ١/ الرقم ٧.

فلسفة وكلام وفلك وطبيعيات وغير ذلك، وقد ترك كتباً كثيرة، تزيد الخمسة والأربعين مؤلَّفاً، تناول فيهما معظم ما دعاه عصره من ثقافة.

وقد عرفنا ممَّا سبق أنَّ مجلسه كان يضمّ من أعلام عصره بالفلسفة والطبّ والرياضيات والترجمة والنقل، من أمثال ثابت بن قرة، وإسحاق بن حنين، وأبي عثمان الدمشقي، وذلك يدلُّ بكلّ تأكيد علىٰ أنَّه كان من أعلام الأُمَّة الإسلاميّة البارزين، وأنَّه من أكبر الشخصيات الشيعية في ذلك العهد.

وقد وضع النوبختي كثيراً من كتبه في جوانب عديدة من العقيدة الإسلاميّة والثقافة المعروفة في عصره، كما وضع منها جانباً للردّ علىٰ أصحاب المقالات المنحرفة، مثل الردّ علىٰ أصحاب المنطق، وعلىٰ ثابت بن قرة، وعلىٰ الغلاة، وعلىٰ فِرَق الشيعة غير الإمامية، وعلىٰ المجسّمة، وعلىٰ من قال برؤية الخالق تعالىٰ، وعلىٰ المنجّمين، وعلىٰ الواقفة التي هي من فِرَق الشيعة، وعلىٰ أرسطوطاليس، وعلىٰ يحيىٰ بن الأصفح في الإمامة، وعلىٰ المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين، وعلىٰ الجبائي، وعلىٰ أبي الهذيل، وعلىٰ أصحاب التناسخ، وعلىٰ من زعم أنَّ الفلك حيّ ناطق، وسوىٰ ذلك.

كما خصَّص بعض كتبه لأُصول الفقه، فألَّف في الخبر الواحد والعمل به، وفي العموم والخصوص.

أمَّا إحصاء كتبه فقد عنىٰ به السيّد الأمين في أعيان الشيعة، ومرجعه فيه الفهرست لابن النديم، والفهرست للشيخ الطوسي، والنجاشي، وغيرهم.

وهي علىٰ ما يلي:

١ _ كتاب الآراء والديانات، وهو من الكتب القيّمة التي اعتمدها مؤلِّفوا المقالات.

٢ _ الاحتجاج لعمرو بن عباد ونصرة مذهبه.

٣ _ اختصار كتاب الكون والفساد لأرسطو.

٤ _ الأرزاق والآجال والأسعار.

٥ _ الاستطاعة علىٰ مذهب هشام بن الحكم، وكان يقول به.

٦ _ الاعتبار والتمييز والانتصار.

٧ _ كتاب الإنسان.

٨ _ التنزيه وذكر متشابه القرآن.

٩ _ التوحيد وحدوث العلل.

١٠ _ التوحيد الصغير.

١١ _ التوحيد الكبير.

١٢ _ التوضيح في حروب أمير المؤمنين علي عليه السلام.

١٣ _ الجامع في الإمامة.

١٤ _ كتاب كبير (في الجزء الذي لا يتجزَّأ).

١٥ _ جواباته لأبي جعفر بن قبة.

١٦ _ حجج طبيعية مستخرجة من كتب أرسطوطاليس في الردّ علىٰ من زعم أنَّ الفلك حيّ ناطق.

١٧ _ الحجج في الإمامة.

١٨ _ جوابات أُخرىٰ لأبي جعفر بن قبة أيضاً.

١٩ _ كتاب في الخبر الواحد والعمل به.

٢٠ _ الخصوص والعموم.

٢١ _ الردّ علىٰ أبي علي الجبائي في ردّه علىٰ المنجّمين، وقد وقف عليه السيّد ابن طاووس.

٢٢ _ الردّ علىٰ أبي الهذيل العلَّاف في أنَّ نعيم أهل الجنَّة ينقطع.

٢٣ _ الردّ علىٰ أصحاب التناسخ.

٢٤ _ الردّ علىٰ أصحاب المنزلة بين المنزلتين في الوعيد.

٢٥ _ الردّ علىٰ أصحاب التعجيز.

٢٦ _ الردّ علىٰ المنطق.

٢٧ _ الردّ علىٰ ثابت بن قرة.

٢٨ _ الردّ علىٰ فِرَق الشيعة ما عدا الإمامية.

٢٩ _ الردّ علىٰ المجسّمة.

٣٠ _ الردّ علىٰ من أكثر المنازلة.

٣١ _ الردّ علىٰ من قال برؤية الباري ﷻ.

٣٢ _ الردّ علىٰ المنجمين.

٣٣ _ الردّ علىٰ الواقفة.

٣٤ _ الردّ علىٰ يحيىٰ بن الأصفح في الإمامة.

٣٥ _ شرح مجالسه مع أبي عبد الله بن مَمَلك.

٣٦ _ فِرَق الشيعة، وذكره ابن تيمية في منهاج السُّنَّة (ج ٢/ ص ١٥)، وقد طُبِعَ مراراً.

٣٧ _ مجالسه مع أبي القاسم البلخي.

٣٨ _ مختصر الكلام في الجزء.

٣٩ _ كتاب في المرايا وجهة الرؤية فيها.

٤٠ _ مساءلة للجبائي في مسائل شتّىٰ.

٤١ _ الموضح في حروب أمير المؤمنين عليه السلام.

٤٢ _ النقض علىٰ أبي الهذيل في المعرفة.

٤٣ _ النقض علىٰ جعفر بن حرب في الإمامة.

٤٤ _ النكت علىٰ ابن الراوندي.

٤٥ _ الرصد علىٰ بطليموس، ذكره ابن طاووس في كتابه فرج المهموم، وقال: (وصل إليَّ هذا الكتاب وهو في هيأة الفلك والأرض)(١).

٤٦ _ نقض كتاب الثمانية للجاحظ.

٤٧ _ نقض إمامة المروانية للجاحظ.

٤٨ _ نقض مسائل العثمانية للجاحظ أيضاً.

وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة ذكرها المسعودي في (مروج الذهب)، فإنَّه بعد أن ذكر كتب الجاحظ هذه، قال: (وقد نقضها عليه جماعة من متكلِّمي الشيعة، كأبي عيسىٰ الورّاق، والحسن بن موسىٰ النوبختي من الشيعة)(٢).

ولم يبقَ من كتبه المذكورة سوىٰ كتابه (فِرَق الشيعة) الذي طُبِعَ للمرَّة الثانية في النجف الأشرف عام (١٩٣٦م)، وقد قدَّم له السيّد هبة الدين الشهرستاني، وعلَّق عليه ناشره تعليقات مفيدة.

وقد عرض فيه مؤلِّفه النوبختي لفِرَق الشيعة، ونشأتها في تسلسل طبيعي مجرَّد، ودراسته في هذا الكتاب كانت عرضاً تاريخياً لنشوء هذه الفِرَق، مع إشارته في أثناء ذلك إلىٰ أسباب تفرّعها وعواملها الدينية والسياسية، مقتصراً علىٰ ذلك فحسب، دونما تعصّب أو انحياز.

والكتاب بجملته له شأنه في هذه الناحية، ويدلُّ دلالة وافية علىٰ سعة اطّلاع مؤلِّفه وعلىٰ معرفته الرحبة بزعماء الفِرَق، وحقيقة مقالاتهم

---

(١) فرج المهموم: ١٢٢.

(٢) مروج الذهب ٣: ٢٣٨.

ومذاهبهم معرفة تامّة، تلك الفِرَق التي ربَّما كان لها أو لبعضها وجود أو آثار في عصر المؤلِّف.

أمَّا اليوم فقد اندثرت ولم يبقَ لأكثرها سوىٰ أسمائها المسجَّلة في بطون الأوراق، وأصبحت أثراً بعد عين. ويجدر بالذكر أنَّ الشيخ المفيد في (المفصول المختارة) اعتمد عليه كثيراً عندما حاول أن يردّ علىٰ فِرَق الشيعة عدا الإمامية علىٰ ما يبدو.

أمَّا كتابه (الآراء والديانات) فهو أوَّل كتاب أُلِّف في هذا الموضوع، وقد توكَّأ عليه أكثر من جاء بعده وتناول هذا الموضوع كالبغدادي المتوفّىٰ عام (٤٢٩هـ) وفي كتاب الفرق بين الفِرَق، والباقلاني المتوفّىٰ عام (٤٠٣هـ)، وابن حزم الظاهري المتوفّىٰ عام (٤٥٩هـ) في كتابه الفصل، وابن فورك الأصفهاني المتوفّىٰ عام (٤٥١هـ)، والشهرستاني المتوفّىٰ عام (٤٤٩هـ) في كتابه الملل والنحل.

كما أنَّ ابن أبي الحديد قد حكىٰ شيئاً عن كتاب الآراء والديانات قال: (حكىٰ الحسن بن موسىٰ النوبختي عن أهل الرواق من الفلاسفة: أنَّ الجوهر الإلهي سبحانه روح ناري عقلي، ليس له صورة، لكنَّه قادر علىٰ أن يتصوَّر بأيّ صورة شاء، ويتشبَّه بالكلّ، وينفذ في الكلّ بذاته وقوَّته، لا بعلمه وتدبيره)[1].

وذكر المسعودي فقال: (وقد رأيت أبا القاسم البلخي ذكر في كتابه (عيون المسائل والجوابات)، وكذلك الحسن بن موسىٰ النوبختي في كتابه المترجَم بكتاب (الآراء والديانات) مذاهب الهند وآرائهم، والعلَّة التي من أجلها أحرقوا أنفسهم بالنيران، وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب)[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٣١.

(٢) مروج الذهب ١: ٩٤.

وينقل لنا ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) فصولاً كثيرة عن كتاب النوبختي المذكور، فمن قوله: (وقد ذكر مذهب السوفسطائية أبو محمّد الحسن بن موسىٰ النوبختي في كتاب (الآراء والديانات) فقال: رأيت كثير من المتكلِّمين قد غلطوا في أمر هؤلاء غلطاً بيّناً، لأنَّهم ناظروهم وجادلوهم، وراموا الحجاج والمناظرة والردّ عليهم، وهم لم يثبتوا حقيقة، ولا أقرّوا بمشاهدة، فكيف تكلِّم من يقول: لا أدري أتكلِّمني أم لا؟ وكيف تناظر من يزعم أنَّه لا يدري أموجود هو أم معدوم؟ وكيف تخاطب من يدَّعي أنَّ المخاطبة بمنزلة السكوت في الإبانة؟ وأنَّ الصحيح بمنزلة الفاسد؟ قال: ثمّ إنَّه يُناظَر من يقرّ بضرورة، أو يعترف بأمر، فيجعل ما يقرُّ به سبباً إلىٰ تصحيح ما يجحده، فأمَّا من لا يقرّ بذلك فمجادلته مطروحة)[1].

ومن ذلك: (قال النوبختي: قد زعمت فرقة من المتجاهلين أنَّه ليس للأشياء حقيقة واحدة في نفسها، بل حقيقتها عند كلّ قوم علىٰ حسب ما يُعتَقد فيها، فإنَّ العمل يجده صاحب المرَّة الصفراء مرَّاً، ويجده غيره حلواً، قالوا: وكذلك العالم هو قديم عند من اعتقد قِدَمه، محدَث عند من اعتقد حدوثه، واللون جسم عند من اعتقده جسماً، وعرض عند من اعتقده عرضاً، قالوا: فلو توهَّمنا عدم المعتقدين وقف الأمر علىٰ وجود من يعتقد، وهؤلاء من جنس السوفسطائية).

ومنه: (قال النوبختي: ومن هؤلاء من قال: إنَّ العالم ذوب وسيلان، قالوا: ولا يمكن الإنسان أن يفكّر في الشيء الواحد مرَّتين،

---

(١) تلبيس إبليس: ٢٨/ طبع إدارة الطباعة المنيرية.

لتغيّر الأشياء دائماً، فيقال لهم: كيف علم هذا وقد أنكرتم ثبوت ما يوجب العلم، وربَّما كان أحدكم الذي يجيبه الآن غير الذي كلَّمه؟).

ومن ذلك أيضاً: (وحكىٰ النوبختي في كتاب الآراء والديانات: أنَّ سقراط كان يزعم أنَّ أُصول الأشياء ثلاثة: علَّة فاعلة، والعنصر، والصورة، قال: والله تعالىٰ هو الفعّال، والعنصر هو الموضوع الأوَّل للكون والفساد، والصورة جوهر للجسم، وقال آخر منهم: الله هو العلَّة الفاعلة، والعنصر المنفعل، وقال آخر منهم: العقل رتَّب الأشياء هذا الترتيب، وقال آخر منهم: بل الطبيعة فعلته).

قال: (وحكىٰ أبو محمّد النوبختي في كتاب الآراء والديانات: إنَّ قوماً من الهند من البراهمة أثبتوا الخالق والرسل والجنَّة والنار، وزعموا أنَّ رسولهم ملك أتىٰ في صورة البشر من غير كتاب، له أربعة أيدي، واثنا عشر رأساً، من ذلك رأس إنسان، ورأس أسد، ورأس فرس، ورأس فيل، ورأس خنزير، وغير ذلك من رؤوس الحيوانات، وأنَّه أمرهم بتعظيم النار، ونهاهم عن القتل والذبائح إلَّا ما كان للنار، ونهاهم عن الكذب وشرب الخمر، وأباح لهم الزنا، وأمرهم أن يعبدوا البقر، ومن ارتدَّ ثمّ رجع حلقوا رأسه ولحيته وأشفار حاجبيه وأشفار عينيه، ثمّ يذهب فيسجد للبقر، في هذيانات يضيع الزمان بذكرها)[1].

ويبدو لنا من هذه النبذ اليسيرة التي ذكرها النوبختي في كتابه الآراء والديانات مدىٰ تفكير النوبختي الرحب، وسعة اطّلاعه علىٰ آراء الأوائل، وتدلُّ كذلك علىٰ مكانته بين أعلام عصره من فلاسفة ومتكلِّمين.

ونجده من جهة ثانية قد عني بدرس أُصول التشريع، وألَّف في

---

(١) تلبيس إبليس: ٦٣، وقد نقل عاداتهم ومذاهبهم عن النوبختي، فراجع.

الخبر الواحد والعمل به وفي العموم والخصوص، وهذان الموضوعان من مواضيع أُصول الفقه الهامّة.

وتبدو أهمّية كتابيه هذين حين نأخذ باعتبارنا العصر الذي وُضِعا فيه، وحين كان التفكير في أشباه هذه المباحث لا يزال في دور التكوين، ولم تبرز بعد كقواعد علمية وأُصول ترتبط بالاستنباط كفنٍّ.

لذلك كان النوبختي في هذين المبحثين من مؤسّسي علم الأُصول وواضعي قواعده.

أمَّا آراء النوبختي الفلسفية والعلمية فلا نعرف عنها شيئاً، لضياع آثاره، عدا كتاب (فِرَق الشيعة) وهو لا يوحي بشيء عن اتّجاهاته الفكرية وآرائه الكلامية.

نعم يُذكَر له في بعض كتب الفِرَق بعض الآراء المجملة، لا تُعطي الصورة الصحيحة عن نزعاته وتفكيره.

وكما نجهل نزعات النوبختي الكلامية والفلسفية والعلمية، كذلك نجهل مصادر ثقافته، فلم يذكر مترجموه أساتذته الذين أخذ عنهم، ولا نعرف منهم سوىٰ المتكلِّم الفقيه داود بن أسد بن أعفر الأحوص المصري، الذي كان من أعلام متكلِّمي الشيعة وفقهائهم.

فقد لقيه النوبختي وأخذ عنه، واجتمع به في الحائر الحسيني (مرقد الحسين عليه السلام)، وكان قد ورد للزيارة[1].

ومن القريب أن يكون قد تلقّىٰ العلم علىٰ خاله أبي سهل إسماعيل النوبختي الذي كان معاصراً له.

* * *

(١) إتقان المقال للشيخ محمّد طه نجف: ٥٨.

(١٠)

أبو سهل الفضل بن أبي سهل بن نوبخت[١]

هو من أُولئك الأفذاذ الذين نبغوا في عصر الرشيد العبّاسي بالفلسفة والكلام والنجوم، واشتهر أبو سهل بالترجمة ونقل الثقافة الفارسية إلىٰ اللغة العربية.

وقد ذكره الصدر في متكلِّمي الشيعة فقال: (إنَّه الفيلسوف المتكلِّم، والحكيم المتألّه، وحيد دهره في علوم الأوائل...، نقل كثيراً من كتب البهلويين الأوائل في الحكمة الإشراقية من الفارسية إلىٰ العربية في أنواع...).

وقال القِفطي عنه: (هو مذكرو مشهور من أئمّة المتكلِّمين، وذكر في كتب المتكلِّمين، واستوفىٰ نسبه من ذكره، كمحمّد بن إسحاق النديم، وأبي عبد الله المرزباني، وكان في زمن هارون الرشيد، وولّاه القيام بخزانة كتب الحكمة، وكان ينقل من الفارسي إلىٰ العربي ما يجده من كتب الحكمة الفارسية، ومعوَّله في علمه وكتبه علىٰ كتب الفرس).

وقد تعرَّض له ابن طاووس في كتابه (فرج المهموم) الذي ذكر فيه منجّمي الشيعة، فقال: (... وصل إلينا من تصانيفه ما يدلُّ علىٰ قوَّة معرفته بعلوم النجوم)[٢].

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٧٨؛ إخبار العلماء: ١٦٨؛ أعيان الشيعة ٤٢: ٣٠٤.

(٢) راجع: أعيان الشيعة ٨: ٤١٠.

وترجم له السيّد الأمين ترجمة ضافية مسهبة[1]، وذكر عنه هذا الحديث، قال: ... وجاء في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام أنَّ عون بن محمّد حدَّث عن الفضل بن أبي سهل النوبختي، أو عن أخ له، قال: لـمَّا عزم المأمون علىٰ العقد للرضا عليه السلام بالعهد، قلت: والله لأعتبرنَّ ما في نفس المأمون من هذا الأمر، أيحبّ إتمامه؟ أو هو يتصنَّع به؟ فكتبت إليه علىٰ يد خادم له، كان يكاتبني بأسراره علىٰ يده:

قد عزم ذو الرياستين علىٰ عقد العهد، والطالع السرطان، وفيه المشتري، والسرطان وإن كان شرف المشتري، فهو برج منقلب لا يتمّ أمر العقد فيه، ومع هذا فإنَّ المريخ في الميزان في بيت العاقبة، وهذا يدلُّ علىٰ نكبة المعقود له، وعرَّفت أمير المؤمنين ذلك لئلَّا يعتب عليَّ إذا وقف علىٰ هذا من غيري.

فكتب إليَّ: إذا قرأت جوابي إليك أردده مع الخادم، ونفسك أن يقف أحد علىٰ ما عرَّفتنيه، وأن يرجع ذو الرياستين عن عزمه؛ لأنَّه إن فعل ذلك ألحقت الذنب بك، وعلمت أنَّك سببه.

قال: فضاقت عليَّ الدنيا، وتمنَّيت أنّي ما كنت كتبت إليه، ثمّ بلغني أنَّ الفضل بن سهل ذا الرياستين قد تنبَّه علىٰ الأمر ورجع عن عزمه، وكان حسن العلم بالنجوم، فخفت والله علىٰ نفسي، وركبت إليه، فقلت له: أتعلم في السماء نجماً أسعد من المشتري؟ قال: لا.

قلت: أفتعلم أنَّ في الكواكب نجماً يكون في حال أسعد منها في شرفها؟ قال: لا.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٧٨؛ إخبار العلماء: ١٦٨؛ أعيان الشيعة ٤٢: ٣٠٤.

قلت: فامضي العزم علىٰ رأيك، إذ كنت تعقده وسعد الفلك في أصعد حال، قال: فأمضىٰ الأمر علىٰ ذلك، فما علمت أنّي من أهل الدنيا حتَّىٰ وقع العقد، فزعاً من المأمون[1].

ويعلِّق الأمين علىٰ هذه الحادثة بقوله: (والظاهر أنَّ صاحب القصَّة هو المترجَم، وهي تدلُّ علىٰ أنَّه ساعد علىٰ أن تكون البيعة في وقت غير مناسب بحسب أحكام النجوم، ولا ينافي ذلك تشيّعه، لأنَّ الخوف قد يبعث علىٰ أزيد من هذا، علىٰ أنَّ القصَّة مردَّدة بينه وبين أخ له).

ولكن الأرجح أن تكون القصَّة المذكورة وقعت مع أخيه عبد الله بن أبي سهل النوبختي منجّم المأمون العبّاسي لسببين:

أوَّلاً: إنَّ الحادثة المحكية آنفاً لا تجزم بأنَّ صاحب القصَّة هو الفضل؛ بل هي مردَّدة بينه وبين أخ له.

ثانياً: إنَّ القِفطي ذكر حادثة شبيهة بالحادثة المذكورة وقعت من عبد الله بن أبي سهل النوبختي أخي الفضل المترجَم، وهي قصَّة لا تختلف كثيراً عن القصَّة التي وردت في الأعيان حتَّىٰ في أُسلوبها وألفاظها.

وحياة الفضل مجهولة لدينا، ولا تعي المصادر التي عرضت له شيئاً منها، ولم تأتِ علىٰ ذلك بقليل أو كثير. ومثل ذلك أيضاً أفكاره وآراؤه، لكن يبدو من أسماء آثاره التي ذكرتها الفهارس وكتب التراجم، أنَّ الجانب النجومي هو الغالب عليه.

فقد وضع عدَّة مؤلَّفات في مواضيع مختلفة، أكثرها في النجوم، ومن ذلك:

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢: ١٥٨ و١٥٩/ ح ١٩.

١ _ النهمطان في المواليد وقد نقل ابن النديم له قطعة من هذا الكتاب، يتعرَّض فيها لشيء من أخبار الفلاسفة وتاريخهم، ولقسم من تاريخ الفلسفة، ونقلها الأمين بطولها في أعيان الشيعة.

٢ _ كتاب الفأل النجومي.

٣ _ كتاب تحويل سنيّ المواليد.

٤ _ كتاب المدخل.

٥ _ كتاب التشبيه والتمثيل.

٦ _ كتاب المنتحل من أقوال المنجّمين في الأخبار والمسائل والمواليد وغيرها.

٧ _ كتاب الحكمة.

٨ _ كتاب المواليد مفرد.

٩ _ كتاب الإمامة وهو كتاب كبير، انتهىٰ.

يقول المؤلِّف حسن السيّد علي القبانچي عفىٰ الله عنه: نقلت ترجمة النوبختيين من كتاب فلاسفة الشيعة حرفياً واقتصرت عليه لأنَّه أحسن من كتب عنهم، واكتفيت به عن غيره من سائر الكتب.

* * *

(١١)

إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء[1]

في دائرة المعارف الشيعية (ج ٣/ ص ١٠٩/ ط سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) تأليف حسن الأمين: نشأت جماعة إخوان الصفاء في البصرة، في القرن الرابع الهجري، وكان لها فروع في بغداد، تبادل أعضاؤها الرسائل العلمية، التي عُرِفَت باسم (رسائل إخوان الصفاء)، وقد اشتهر أعضاؤها بالآراء العلمية الحرَّة.

ونظراً لهذه الآراء التي اشتهروا بها، فقد تقوَّل عليهم الناس، فاستتروا تقيّة من السلطان ورجال الدين، وقد دعوا إلىٰ تثقيف العقول والنفوس، ونشر العلم والعرفان، بمذهب يجمع بين الفلسفة والدين.

ولم يحل اضطراب الأُمور السياسية في عهدهم، دون تقدّم الفكر العلمي الإسلامي، فمن حسن حظّهم أنَّ الأُمراء كانوا يتنافسون في تقريب العلماء، والإغداء عليهم، وكان قد تمَّ نقل العلوم الإغريقية، وشرع المفكّرون في التصنيف بدلاً من النقل.

وكان من مبادئ أعضاء هذه الجماعة أن لا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، وألَّا يتعصَّبون لمذهب من المذاهب، وأن يجمعوا العلوم جميعها، وينظروا في الموجودات بأسرّها.

وكانت اجتماعات هذه الجماعة خاصّة، لا يحضرها سوىٰ

(١) موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٥٩، وينظر مقدّمة رسائل إخوان الصفاء.

الأعضاء، إلَّا أنَّهم أذاعوا رسائلهم ونشروها بين الناس، واطَّلع عليها المثقَّفون، ودخلت رسائلهم الأندلس.

وتبلغ رسائل إخوان الصفاء اثنتين وخمسين رسالة ورسالة علىٰ حدٍّ تعبيرهم مقسومة علىٰ أربعة أقسام: رياضية تعليمية، وجسمانية طبيعية، ونفسية عقلية، وناموسية إلهية، وتليها الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل كلّها المشتملة علىٰ حقائقها.

وقد ذكروا أنَّ مصادر علومهم كتب مختلفة، هي كتب الحكماء من الرياضيات والطبيعيات والكتب المنزلة: كالتوراة والإنجيل والقرآن، والكتب الطبيعية، وتحوي صور الموجودات من أفلاك وبروج وكواكب، والكائنات من نبات وحيوان ومعادن.

ويتضمَّن القسم الأوَّل من رسائلهم: الرياضيات، لما للعدد من مقام في فلسفتهم، ولعلَّهم تأثَّروا في ذلك بالفيثاغوريين، ولعدد أربعة شرف الصدارة عندهم، لأنَّ الطبائع أربع، والعناصر أربعة، والأمزجة أربعة، والأركان أربعة، والفصول أربعة، والجهات الأربع، والرياح الأربع، والمكوّنات الأربعة.

فالعناصر أربعة هي: النار والهواء والماء والتراب. والطبائع أربع وهي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، والجفاف. والأمزجة أربعة وهي: الدموي، والبلغمي، والصفراوي، والسوداوي. والفصول أربعة وهي: الربيع، والصيف، والشتاء، والخريف. والجهات أربع وهي: الشمال، والجنوب، والشرق والغرب. والرياح أربع وهي: الصبا، والدبور، والجنوب، والشمال. والمكوّنات أربعة وهي: المعادن، والنباتات، والحيوان، والإنسان.

وكـذلك تكلَّمـوا في العـدد والهندسـة والنجـوم، وتـدخل الموسـيقي في القسـم الريـاضي، فتكلَّمـوا في صـناعتها وأصـلها، وفي امتـزاج الأصـوات وتنافرها، وفي أُصول الألحان وقوانينها.

وفي القسـم الثـاني مـن رسـائلهم تحـدَّثوا في الطبيعـة، وكـانوا في أكثـره مشـايعين لأرسـطو، وفي أقلّـه شـايعوا الفيثـاغوريين والأفلاطـونيين، وتكلَّمـوا عـن الهيـولىٰ، والصـورة، والزمـان والمكـان والحركـة والآثـار العلويـة، وعـن المعـادن والحيـوان والإنسـان والـنفس واللـذَّة والألم، والأصوات، وإدراك القوَّة السامعة لها.

وتكلَّمـوا في التطـوّر والارتقـاء، قـالوا: إنَّ المعـادن متَّصـل أوَّلهـا بالتراب وآخرهـا بالنبـات، والنبـات متَّصـل آخـره بـأوَّل الحيـوان، واعتـبروا النخل آخـر المرتبـة النباتيـة ممَّا يـلي الحيوانيـة، وآخـر مرتبـة الحيـوان متَّصـل بـأوَّل مرتبـة الإنسـان، كـالقرد في التقليـد، والفيـل في الـذكاء، والنحـل في حسن التدبير.

وخـصَّ إخـوان الصـفاء القسـم الثالـث مـن رسـائلهم بالنفسـانيات والعقليات.

يقـول البسـتاني: (إنَّهـم كـانوا في كثـير منهـا عـلىٰ رأي الفيثـاغوريين، وفي بعضها أفلاطونيين وأرسطويين، وتكلَّموا في ما بعد الطبيعة).

أمَّـا القسـم الرابـع مـن هـذه الرسـائل فيخـتصّ بـالآراء والـديانات، وما اتَّصل بها مـن المـذاهب الروحانيـة والفلسـفية والعلميـة، وهـي محاولـة لم يغفلها ابن سينا والفارابي وغيرهما من الفلاسفة.

وفي الحقّ إنَّ رسائل إخـوان الصـفاء _ كـما يعتقـد دي بـور _ إنَّـما هـي أشبه بدائرة معارف لاشتمالها عـلىٰ خلاصـة مـا انتهـت إليـه علـوم الأقـدمين

وعقائدهم علىٰ غير تعمّق في عرض المسائل وبحثها، مع ما يتخلَّلها من رموز وأحاجي.

ويقول أبو حيّان التوحيدي: (قد رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كلّ فنّ بلا إشباع ولا كفاية)، إلَّا أنَّها كتبت بلغة أنيقة جذّابة، جميلة الصور والتشابيه، فلا يضيق مطالعها ذرعاً، وأنَّها لتستاهل التحقيق العلمي الرصين.

يقول إخوان الصفاء: إنَّ رسائل القسم الأوَّل أربع عشرة رسالة: الرسالة الأُولىٰ وهي في العدد ماهيَّته وكميَّته وكيفية خواصّه، وبمعرفته يندرج المرتاض إلىٰ سائر الرياضيات والطبيعيات، وإنَّ علم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة ومبدأ المعارف.

تناولوا فيها الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات.

قالوا: والرياضيات أربعة أنواع: أوَّلها الأريتماطيقي (الحساب)، والثاني الجومطريا (الهندسة)، والثالث الموسيقي، فالموسيقي معرفة تأليف الأصوات، وبه استخراج أُصول الألحان والأسطر، ونوميا هو علم النجوم والبراهين التي ذُكِرَت في كتاب المجسطي، والجومطريا علم الهندسة بالبراهين التي ذُكِرَت في كتاب أقليدس، والارتماطيقي معرفة خواصّ العدد وما يطابقها من معاني الموجودات التي ذكرها فيثاغورس ونيقامخس.

وكانت الرسالة الثانية في الهندسة، وبيان أهمّيتها وكمّية أنواعها وكيفية موضوعاتها، والثالثة في النجوم، شبه المدخل في معرفة تركيب الأفلاك وصفة البروج، وسير الكواكب، والرابعة في الموسيقي، والخامسة في الجغرافيا، والسادسة في النسبة العددية والهندسية،

والسابعة في الصنائع العلمية النظرية، وفيها تعديد لأجناس العلوم، والثامنة في الصنائع العملية والمهنية وتقدير أجناس الصنائع والحِرَف...، وهكذا.

أمَّا رسائل القسم الثاني وهي سبع عشرة: منها واحدة في السماء والعالم، وثانية في الكون والفساد، وثالثة في الآثار العلوية تتحدَّث عن حوادث الجوّ، وتغيّرات الهواء من النور والظلمة والحرّ والبرد، وتصاريف الرياح من البحار والأنهار والرعد والبرق والثلج والبرد، والهالة وقوس قزح، والشهب وذوات الأذناب، ورابعة في كيفية تكوين المعادن وكمّية الجواهر المعدنية وكيفية تكوينها في باطن الأرض وغيرها في ماهية الطبيعة في الحيوان والنبات والمعادن.

والرسالة السابعة خاصّة بأجناس النبات والمعادن وأنواعها، وكيفية تكوينها، ونشوئها، واختلاف أنواعها، مع الأشكال والألوان، والطعوم والروائح وصموغها ولحائها وعروقها وقضبانها وأصولها وغير ذلك من المنافع، وإن أوَّل مرتبة النبات متَّصلة بآخر مرتبة المعادن، وآخر مرتبتها متَّصلة بأوَّل مرتبة الحيوان.

والثامنة في أصناف الحيوان وعجائب هياكلها وغرائب أحوالها، والغرض منها هو البيان عن أجناس الحيوانات وكمّية أنواعها، واختلاف صورها وطبائعها وأخلاقها، وكيفية تكوينها ونتاجها وتوالدها وتربيتها لأولادها، وإنَّ أوَّل مرتبة الحيوانية متَّصلة بآخر مرتبة النبات وآخر مرتبة الحيوانية متَّصلة بأوَّل مرتبة الإنسانية.

وتتناول الرسالة التاسعة من هذا القسم تركيب الجسد، والبيان بأنَّه عالم صغير، وأنَّ بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة، وأنَّ نفسه تشبه ملكاً

في تلك المدينة، والغرض منها معرفة الإنسان جسده وبنيته المهيَّأة له، وأنَّ انتصاب قامة الإنسان أجلّ أشكال الحيوانات.

والعاشرة رسالة في الحاسّ والمحسوس، والغرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواسّ محسوساتها...، وهكذا.

يقول إخوان الصفاء في الرسالة الأُولىٰ من القسم الرياضي:

اعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم بأنَّه لـمَّا كان من مذهب إخواننا الكرام، أيَّدهم الله، النظر في جميع العلوم الموجودات التي في العالم، من الجواهر والأعراض والبسائط والمجرَّدات والمفردات والمركَّبات والبحث عن مبادئها وكمّية أجناسها وأنواعها وخواصّها، وعن تربيتها ونظامها، علىٰ ما هي الآن وعن كيفية حدوثها ونشوئها عن علَّة واحدة ومبدأ واحد من مبدع واحد ﷻ.

ويستشهدون علىٰ بيانها بأمثلة عددية وبراهين هندسية، مثل ما كان يفعله الحكماء الفيثاغوريون احتجنا أن نقدِّم هذه الرسالة قبل رسائلنا كلّها، ونذكر فيها طرفاً من علم العدد وخواصّه التي تُسمّىٰ (الإرثماطيقي) شبه المدخل والمقدّمات، لكيما يسهل الطريق علىٰ المتعلِّمين إلىٰ طلب الحكمة التي تُسمّىٰ الفلسفة، ويقرب تناولها للمبتدئين بالنظر في العلوم الرياضية.

ومهما يكن الرأي في شأن هذه الجماعة ورسائلها، فالرأي عندي أنَّها جمعية علمية بكلّ ما تحمل الكلمة من معنىٰ، وأنَّ أعضاءها تناولوا في رسائلهم _ بطريقتهم الخاصّة _ جميع معارف عصرهم، وكانت معالجتهم للموضوعات التي تناولوها بطريقة علمية لا شكَّ فيها، من حيث جمع الحقائق وترتيبها، واستقراء النتائج وبحث الماهية والتركيب.

صحيح أنَّهم لجأوا في كثير من الأحيان إلىٰ الإشارات والرموز... إلَّا أنَّ آراءهم تدلُّ علىٰ سعة في الفهم ودقَّة في العرض، ولا مراء في أنَّ رسائلهم عامرة بالحكمة والفلسفة والرياضيات والطبيعيات، ووصف للمعادن والنبات والحيوان، وظواهر الطبيعة...، وإذا صرفنا النظر عمَّا بها من رموز ومعميات وإشارات لا يسيغها العلم الحديث، فإنَّها تُعَدُّ بحقّ من الأعمال العلمية الخالدة.

فرسائلهم الاثنتان وخمسون رسالة ورسالة، إنَّما هي دائرة معارف موسوعية محيطة بمعارف العصر وما تقدَّمه من عصور، وأنَّ دراستها لتحتاج إلىٰ جهد عصبة من أُولي العزم من العلماء يتوافرون علىٰ الغوص في أعماقها، لاستخراج ما بها من كنوز ليس إلىٰ حصرها سبيل.

الدكتور عبد الحليم منتصر:

بلور الإخوان عقيدتهم وتطلّعهم الاجتماعي، وبنوا نظامهم التعليمي الذي طمعوا أن يكون وسيلتهم إلىٰ عالمهم الأمثل، ومارسوا نفوذهم كقوَّة اجتماعية لها خطرها ولها ثقلها الموزون في تقرير الأحداث وتوجيه مسيرة التاريخ.

ولهذا الغرض أَلَّفوا رسائلهم المشهورة برسائل إخوان الصفاء، وعددها بين إحدىٰ وخمسين وثلاث وخمسين رسالة، تناولوا فيها كلّ نواحي المعرفة التي يحتاجها الفرد المثقَّف في القرن الرابع الهجري.

وإنَّ الرسائل لها لون شيعي علوي واضح، كما أنَّ من أهمّ ما يجلب الانتباه فيها، هو عناية الإخوان بالعمل والصنّاع عناية دفعتهم إلىٰ رفض النسب الدموي مقياساً اجتماعياً في تصنيف طبقات المجتمع والاستعاضة عنه بالتصنيف المادّي للناس حسب أعمالهم ودخولهم.

الدكتور محمّد جواد رضا:

وخلاصة القول في رسائل إخوان الصفاء: إنّها دائرة معارف من طراز فريد في بابه في تاريخ الثقافة البشرية، ألّفتها جماعة من الأصدقاء كلّهم فلاسفة يدينون برأي واحد في تفسير الكون وحقيقته وظواهره، والعقائد وأُصولها، وما إلىٰ هذه من مسائل الفلسفة التي شغلت أذهان الناس في القرون الوسطىٰ.

كانوا جماعة سرّية، لم يفصحوا عن أسمائهم أو عن حقيقة اتّجاههم، واكتفوا بأن سمّوا أنفسهم إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، قد عاشوا خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، والغالب أنّهم فرغوا من رسائلهم سنة (٣٧٢هـ/ ٩٨٣م).

وواضح من رسائلهم أنّهم كانوا شيعة، وأنّ هدفهم من تحرير هذه الرسائل هو الدعوة لمذهبهم من طريق العلم والفلسفة.

ويبلغ عدد الرسائل إحدىٰ وخمسين كلّها مكتوبة بطريقة واحدة تقوم علىٰ التأويل والرمز، تتناول الكلام علىٰ الموت وغاية النفس في الحياة الدنيا، والعقل والنور والظلمة، والجوهر والعرض، والقوّة الإلهية، والبعث والقيامة، والحكمة والفلسفة والخالق سبحانه، والعقل وأركانه، وما إلىٰ ذلك من مسائل الفلسفة والإلهيات.

إنّها دائرة معارف فلسفية لا تزال إلىٰ الآن مشكلة من مشاكل تاريخ الفلسفة عندنا، ولكنّها علىٰ أيّ حال أوّل دائرة معارف فلسفية ظهرت في التاريخ.

ومهما يكن الرأي في نظريات أصحابها فهي شيء طريف في مكتبتنا العربية، وهي مظهر من مظاهر الموسوعية في ثقافتنا.

الدكتور حسين مؤنس:

إنَّ هذه العصابة الطاهرة التي حاولت نشر الثقافة بأُسلوبها السائغ العذب، وبتيسير سبل التفكير للطبقات المتعلِّمة، كانت الفكرة السائدة من معتقدهم هي التشيّع والعمل علىٰ بثِّ هذه الفكرة بمختلف الوسائل والسبل، واستيعاب الرسائل يقنع القارئ ويدلُّ علىٰ مواطن الرأي، ويجلي شخصياتهم في المعتقد حتَّىٰ لا يبقىٰ معهم خفيَّاً، ولا شيء من ملامحهم يبقىٰ مستوراً في الحديث عن الإمام.

[قالوا]: (ونحن لبسنا السواد وطلبنا بثار الحسين وطردنا البغاة من بني مروان حين طغوا وعصوا وتعدّوا حدود الله).

ويظهر تشيّعهم جليَّاً لا ريبة فيه عند ذكرهم لعيد الغدير حيث يقولون: (وعند انصرافه من حجَّة الوداع بغدير خُمّ ممزوج لأنَّه خالط ذلك نكث وغدر).

وفي (جزء ٣/ ص ٢١٠): (فاعلم ذلك أيّها الأخ وتفكَّر فيه أعانك الله علىٰ المعرفة بحقائق الأشياء بمنّه ولطفه، وصلّىٰ الله علىٰ النبيّ الخاتم وعلىٰ الوصيّ القائم وعلىٰ أولاده وبنيه المؤمنين الموحّدين وسلَّم تسليماً، والسلام علىٰ الوصيّ وأولاده الأئمّة)، لم يُعهَد إلَّا من كلّ كاتب يعتقد التشيّع مذهباً فعلاً واستدلالاً، ويذيعه في معاريض حديثه تبرّكاً وتيمّناً ويختم به كتابه طاعةً وإيماناً.

ولقد نرىٰ أنَّهم تسيل دموعهم حرقةً وأسفاً عند ذكر بعض الحوادث القاسية التي نزلت بأهل البيت، وتنطلق ألسنتهم بكلمات توضّح عواطفهم المتمكّنة من نفوسهم تمكّناً لا يغالبه عرف سائد ولا سلطة يخشىٰ جانبها، يقولون: (كما حزن أهل بيت النبوَّة لـمَّا فقدوا

سيّدهم وغاب عنهم واحدهم، وتخطّفوا من بعده، وتفرّق شملهم، وطمع فيهم عدوّهم، واغتصبوا حقّهم وتبدّدوا، ثمّ خُتِمَ ذلك بيوم كربلاء وقتل من قُتِلَ من الشهداء ما افتضح به الإسلام).

فقولهم: (ما افتضح به الإسلام) يحوي من معاني التشيّع ما به نقمة علىٰ المسلمين في ذلك العصر، كيف تقع بين ظهرانيهم تلك الفاجعة الأليمة التي جعلت التاريخ الإسلامي حافلاً بالمآسي.

وفي قولهم: (ما افتضح به الإسلام) سخط علىٰ مرتكبي تلك الفعلة حتّىٰ كأنّهم خلت قلوبهم من كلّ معنىٰ من معاني الإنسانية، ولبسوا علىٰ قلوب الوحوش أجسام البشر.

موسىٰ السبيتي:

في بيان ذكرهم لعقيدتهم ومذهبهم جاء في الجزء الرابع من رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء (ص ٢٤٢/ في الرسالة السابعة/ ط سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م بمصر/ فصل في مخاطبة المتشيّعين)، قالوا: (قد جمع الله بيننا وبينك أيّها الأخ البارّ الرحيم، في أسباب شتّىٰ وخصال عدّة ممّا يؤكّد المودّة بين الإخوان ويجمع شمل الأصدقاء، في جميع صلاح الدين والدنيا أيّدك الله، أوّلاً من تأمّلها وعرف حقّ عظيم ما أنعم الله تعالىٰ لديك وفضل منّته عليك، لما خصّك الله به من العقل والفهم والتمييز، فمن إحدىٰ تلك الخصال والأسباب التي تؤكّد المودّة بين الأصدقاء، ملّة الإسلام التي هي آكد الأسباب؛ لأنّه خير دين دان به المتألّهون، وأفضل طريق يسلكه إلىٰ الله القاصدون، وهو القدوة بدين نبيّنا محمّد ﷺ وبعلم كتابه الذي جاء به مهيمناً علىٰ كتب الأوّلين، وسُنّة الشريعة التي هي أعدل سُنّة سَنّها المرسلون.

وممَّا يجمعنا وإيّاك أيّها الأخ البارّ الرحيم، محبَّة نبيّنا عليه السلام وأهل بيت نبيّه الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيّين صلوات الله عليهم أجمعين، وممَّا يجمعنا وإيّاك حرمة الأدب والخروج من جملة العوامّ، وهو العماد لما نحن بسبيله ونشير إليه...).

وفي ترجمة دائرة المعارف الإسلاميّة: (إخوان الصفا: سنة (٣٧٣هـ) ظهرت جماعة سياسية دينية ذات نزعات شيعية متطرّفة...).

إخوان الصفاء نقلاً عن تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب (ص ٢٥٣) تأليف محمّد لطفي جمعة:

كان للفلسفة في العصر العبّاسي شأن عظيم، فاشتغل بها أكثر الذين عنوا بعلوم القدماء، لاسيّما الأطبّاء منهم، وكان الفلاسفة في هذا العصر، متَّهمين بالإلحاد والتعطيل، وكان الانتساب إلىٰ الفلسفة مرادفاً للانتساب إلىٰ الكفر، وشاعت النقمة علىٰ الخليفة المأمون، لأنَّه كان السبب في نقل الفلسفة إلىٰ اللغة العربية.

أشهر أفراد جمعية إخوان الصفا:

فاضطرَّ أصحاب الفلسفة إلىٰ التستّر، فألَّفوا الجمعيات السرّية لهذا الغرض، وأشهرها جمعية إخوان الصفا، تألَّفت في بغداد في أواسط القرن الرابع للهجرة، وقد ذكروا من أعضائها خمسة، هم:

١ _ أبو سليمان محمّد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي.

٢ _ أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني.

٣ _ أبو أحمد المهرجاني.

٤ _ العوفي.

٥ _ زيد بن رفاعة.

وكانوا يجتمعون سرًّاً ويتباحثون في الفلسفة علىٰ أنواعها، حتّىٰ صار لهم فيها مذهب خاصّ هو خلاصة أبحاث فلاسفة الإسلام، بعد اطّلاعهم علىٰ آراء اليونان والفرس والهند، وتعديلها علىٰ ما يقتضيه الإسلام.

وأساس مذهبهم: (أنَّ الشريعة الإسلاميّة تدنَّست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلىٰ غَسلها وتطهيرها إلّا بالفلسفة، لأنَّها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وأنَّه متىٰ انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمّدية فقد حصل الكمال).

رسائلهم الفلسفية:

وقد دوَّنوا فلسفتهم هذه في اثنتين وخمسين رسالة، سمّوها (رسائل إخوان الصفا) وكتموا أسماءهم، وهي تمثّل الفلسفة الإسلاميّة علىٰ ما كانت عليه في أبان نضجها، وتشمل النظر في مبادئ الموجودات وأُصول الكائنات، إلىٰ نضد العالم، فالهيولىٰ والصورة وماهية الطبيعية والأرض والسماء، ووجه الأرض وتغيّراته والكون والفساد، والآثار العلوية والسماء والعالم، وعلم النجوم وتكوين المعادن، وعلم النبات، وأوصاف الحيوان، ومسقط النطفة وكيفية رباط الناس بها، وتركيب الجسد، والحاسّ والمحسوس والعقل والمعقول، والصناعات العلمية والعملية والعدد خواصّه، والهندسة والموسيقي، والمنطق وفروعه، واختلاف الأخلاق وطبيعة العدد، وأنَّ العالم إنسان كبير والإنسان عالم صغير، (وهذه هي نظرية هربرت سبنسر في علم الاجتماع)، والأكوار والأدوار، وماهية العشق، والبعث والنشور، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم، وبالجملة فقد ضمَّنوها كلّ علم طبيعي أو رياضي أو فلسفي أو إلهي أو عقلي.

ويظهر من إمعان النظر في تلك الرسائل، أنَّ أصحابها دوَّنوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل، وفي جملة ذلك آراء لم يصل أهل هذا الزمان إلىٰ أحسن منها، وفيها بحث مستفيض من قبيل النشوء والارتقاء.

وكان المعتزلة ومن جرىٰ مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرّاً إلىٰ بلاد الإسلام، ولم تمضِ مائة سنة علىٰ كتابتها حتَّىٰ دخلت بلاد الأندلس علىٰ يد أبي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي.

وأبو الحكم هذا عالم من أهل قرطبة، رحل إلىٰ المشرق للتبحّر في العلم، علىٰ جاري عادة الأندلسيين، فلمَّا عاد إلىٰ بلاده حمل معه الرسائل المذكورة، وهو أوَّل من أدخلها إلىٰ الأندلس، فما لبثت أن انتشرت هناك حتَّىٰ تناولها أصحاب العقول البحّاثة، وأخذوا في درسها وتدبّرها.

وطُبِعَت في لبيزج سنة (١٨٨٣م)، وفي بومباي سنة (١٨٨٦م)، وفي مصر سنة (١٨٨٩م)، ونقلت إلىٰ الهندستانية، وطُبِعَت في لندن سنة (١٨٦١م).

تتلخَّص فلسفة إخوان الصفا في اثنتين وخمسين رسالة، مقسومة علىٰ أربعة أقسام:

القسم الأوَّل: أربعة عشر رسالة رياضية تعليمية.

القسم الثاني: سبعة عشر رسالة جسمانية طبيعية.

القسم الثالث: عشر رسائل نفسانية عقلية.

القسم الرابع: إحدىٰ عشرة رسالة ناموسية إلهية.

القسم الأوّل: في الرسائل الرياضية التعليمية:

الرسالة الأُولىٰ: في العدد.

الرسالة الثانية: في الهندسة.

الرسالة الثالثة: في النجوم.

الرسالة الرابعة: في الموسيقي.

الرسالة الخامسة: في الجغرافية.

الرسالة السادسة: في النسب.

الرسالة السابعة: في الصنايع العلمية.

الرسالة الثامنة: في الصنايع العملية.

الرسالة التاسعة: في بيان اختلاف الأخلاق.

الرسالة العاشرة: في إيساغوجي.

الرسالة الحادية عشرة: في قاطيفورياس.

الرسالة الثانية عشرة: في بارمينياس.

الرسالة الثالثة عشرة: في أنولوطيقا الأُولىٰ.

الرسالة الرابعة عشرة: في أنولوطيقا الثانية.

القسم الثاني: في الرسائل الجسمانية الطبيعية:

الرسالة الأُولىٰ: في الهيولىٰ والصورة.

الرسالة الثانية: في السماء والعالم.

الرسالة الثالثة: في الكون والفساد.

الرسالة الرابعة: في الآثار العلوية.

الرسالة الخامسة: في كيفية تكوين المعادن.

الرسالة السادسة: في ماهية الطبيعة.

الرسالة السابعة: في أجناس النبات.

الرسالة الثامنة: في أصناف الحيوان.

الرسالة التاسعة: في تركيب الجسد.

الرسالة العاشرة: في الحاسّ والمحسوس.

الرسالة الحادية عشرة: في مسقط النطفة.

الرسالة الثانية عشرة: في معنىٰ قول الحكماء: (إنَّ الإنسان عالم صغير وهو معنىٰ العالم الكبير).

الرسالة الثالثة عشرة: في كيفية نشر الأنفس الجزئية.

الرسالة الرابعة عشرة: في بيان طاقة الإنسان.

الرسالة الخامسة عشرة: في ماهية الموت والحياة.

الرسالة السادسة عشرة: في ماهية اللّذّات والآلام الجسمانية والروحانية.

الرسالة السابعة عشرة: في علل اختلاف اللغات.

القسم الثالث: في الرسائل النفسانية العقلية:

الرسالة الأُولىٰ: في المبادئ العقلية علىٰ رأي الفيثاغوريين.

الرسالة الثانية: في المبادئ العقلية علىٰ رأي إخوان الصفا.

الرسالة الثالثة: في معنىٰ قول الحكماء: (إنَّ العالم إنسان كبير).

الرسالة الرابعة: في العقل والمعقول.

الرسالة الخامسة: في الأكوار والأدوار، واختلاف القرون والأعصار.

الرسالة السادسة: في ماهية العشق.

الرسالة السابعة: في ماهية البعث.

الرسالة الثامنة: في كمّية أجناس الحركات.

الرسالة التاسعة: في العلل والمعولات.

الرسالة العاشرة: في الحدود والرسوم.

القسم الرابع: في الرسائل الناموسية الإلهيّة:

الرسالة الأُولىٰ: في الآراء والمذاهب في الديانات الشرعية الناموسية والفلسفية.

الرسالة الثانية: في ماهية الطريق إلىٰ الله ﷻ.

الرسالة الثالثة: في بيان اعتقاد إخوان الصفاء وخلّان الوفاء.

الرسالة الرابعة: في كيفية عشرة إخوان الصفاء وخلّان الوفاء.

الرسالة الخامسة: في ماهية الإيمان.

الرسالة السادسة: في ماهية الناموس الإلهي.

الرسالة السابعة: في كيفية الدعوة إلىٰ الله ﷻ.

الرسالة الثامنة: في كيفية أفعال الروحانيين.

الرسالة التاسعة: في كمّية أنواع السياسات وكيفيتها.

الرسالة العاشرة: في كيفية نضد العالم بأسره.

الرسالة الحادية عشرة: في ماهية السحر والعزائم.

وخلاصة فلسفتهم في رسالة جامعة لما في الرسائل الاثنتين والخمسين.

في كيفية عشرة إخوان الصفا وتعاون بعضهم بعضاً:

سبق أن قلنا: إنَّ إخوان الصفا كانوا يجتمعون سرَّاً ويتباحثون في الفلسفة علىٰ أنواعها، حتَّىٰ صار لهم فيها مذهب خاصّ، ولـمَّا كان لهذه الجماعة دستور اتَّبعوه في حياتهم وأرادوا تعميمه بين من كان علىٰ شاكلتهم في سائر الأقطار، فقد أردنا أن نلخّص هذا القانون لما فيه من الحكمة التاريخية.

فقد فرضوا علىٰ من كان مثلهم من الجماعات أن يكون لهم مجلس خاصّ يجتمعون فيه في أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم، يتذاكرون فيه علومهم ويتحاورون في أسرارهم، وينبغي أن تكون مذاكرتهم أكثرها في علم النفس والحسّ والمحسوس والعقل والمعقول، والنظر والبحث عن أسرار الكتب الإلهية والتنزيلات النبوية، ومعاني ما يتضمَّنها موضوعات الشريعة، وينبغي أيضاً أن يتذاكروا العلوم الرياضية الأربعة: وهي العدد، والهندسة، والتنجيم، والتأليف.

وأمَّا أكثر عناياتهم وقصدهم، فينبغي أن يكون البحث عن العلوم الإلهية التي هي الغرض الأقصىٰ، وبالجملة ينبغي لهم أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصَّبوا علىٰ مذهب من المذاهب، لأنَّ رأي إخوان الصفا ومذهبهم يستغرق المذاهب كلّها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنَّه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها الحسّية والعقلية من أوَّلها إلىٰ آخرها، ظاهرها وباطنها، وجليّها وخفيّها بعين الحقيقة من حيث هي كلّها من مبدأ واحد، وعلَّة واحدة، وعالم واحد، ونفس واحدة محيطة جواهرها المختلفة وأجناسها المتباينة.

مصادر علوم إخوان الصفا:

وقد ذكر إخوان الصفا في رسالتهم الثانية: أنَّ علومهم مأخوذة من أربعة كتب:

أحدها: الكتب المصنَّفة علىٰ ألسنة الحكماء والفلاسفة، من الرياضيات والطبيعيات.

الثاني: الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبياء، مثل: التوراة

والإنجيل والفرقان وغيرها من صحف الأنبياء المأخوذة معانيها بالوحي من الملائكة، وما فيها من الأسرار الخفيّة.

والثالث: الكتب الطبيعية، وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها، وتصاريف الزمان واستحالة الأركان وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات علىٰ أيدي البشر.

كلّ هذه صور وكنايات وآلات علىٰ معاني لطيفة وأسرار دقيقة، يرىٰ الناس ظاهرها ولا يعرفون معاني باطنها من لطيف صفة الباري جلَّ ثناؤه.

والرابع: الكتب الإلهية التي لا يمسّها إلَّا المطهَّرون الملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام وتحريكها لها وتدبيرها إيّاها، وتحكّمها عليها وإظهار أفعالها بها ومنها، حالاً بعد حال في ممرّ الزمان وأوقات القرانات والأدوار، وانحطاط بعضها تارةً إلىٰ قعر الأجسام وارتفاع بعضها تارةً من ظلمات الجثمان وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان، وحشرها إلىٰ الحساب والميزان، وجوازها علىٰ الصراط ووصولها إلىٰ الجنان أو حبسها في دركاتها الهاوية والنيران أو مكثها في البرزخ أو وقوفها علىٰ الأعراف.

آراؤهم في الصداقة:

وينبغي لإخوان الصفا إذا أراد أحدهم أن يتَّخذ صديقاً، أن يعتبر أحواله ويتعرَّف أخباره ويجرِّب أخلاقه، ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودَّة وحقيقة الأُخوَّة أم لا؟

واعلم بأنَّ شرّ الطوائف كلّها من لا يؤمن بيوم الحساب، وشرّ الأخلاق كبر إبليس، وحرص آدم، وحسد قابيل، وهي أُمَّهات المعاصي، واعلم بأنَّ الناس مطبوعون علىٰ أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب أجسادهم.

واعلم بأنَّ من الناس من هو مطبوع علىٰ خلق واحد أو عدَّة من أخلاق محمودة ومذمومة، فينبغي لك إذا أردت أن تتَّخذ صديقاً أو أخاً، أن تنتقده كما تنتقد لدراهم والدنانير، والأرضين الطيّبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة التي يشترونها.

واعلم بأنَّ من الناس من يتشكَّل بشكل الصديق ويتدلَّس عليك بشبه الموافق ويظهر لك المحبَّة وخلافها في صدره وضميره.

واعلم بأنَّ الإنسان كثير التلوّن قليل الثبات علىٰ حال واحد، وذلك أنَّه قلَّ من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا أو أمر من أُمورها، إلَّا ويحدث له خلق جديد وسجيّة أُخرىٰ، ويتغيَّر خلقه من إخوانه، ويتلوَّن مع أصدقائه.

إلَّا إخوان الصفا الذين ليست صداقتهم خارجة من ذاتهم، إنَّما هي قرابة رحم، ورحمهم ما من يعيش بعضهم ببعض ويرث بعضهم بعضاً، وذلك أنَّهم يرون ويعتقدون أنَّهم نفس واحدة في أجساد متفرّقة، فكيفما تغيَّرت حال الأجساد بحقيقتها فالنفس لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

وخصلة أُخرىٰ أنَّ أحدهم إذا أحسن إلىٰ أخيه إحساناً فلا يمنّ عليه به، لأنَّه يرىٰ ويعتقد بأنَّ إحسانه إلىٰ نفسه كان، وإن أساء إليه أخوه لم يستوحش منه لأنَّه يرىٰ بأنَّ ذلك كان منه إليه، فمن اعتقد في أخيه مثل

هذا واعتقد أخوه فيه مثل ذلك، فقد أمن كلّ واحد من أخيه غائلته أن يتغيَّر عليه في يوم من الأيّام بسبب من الأسباب أو بوجه من الوجوه.

واعلم أنَّ في الناس أقواماً يتشبَّهون بأهل العلم ويدلّسون بأهل الدين، لا الفلسفة يعرفونها، ولا الشريعة يحقّقونها، ويدَّعون مع هذا معرفة حقائق الأشياء ويتعاطون النظر في خفيّات الأُمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم، ولا يميّزون الأُمور الجليّة ولا يتفكَّرون في الموجودات الظاهرة المدركة بالحواسّ المشهورة في العقول، ثمّ ينظرون في الطفرة والقلقة والجزء الذي لا يتجزَّأ، فاحذرهم يا أخي فإنَّهم الدجّالون.

فإذا كان الأمر كما وصفت فينبغي لك أيّها الأخ أن لا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبىٰ آراء فاسدة وعادات رديّة وأخلاقاً وحشية، فإنَّهم يتعبونك ثمّ لا ينصلحون، ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور، واعلم بأنَّ الله ما بعث نبيَّاً إلَّا وهو شاب، ولا أعطىٰ لعبد حكمة إلَّا وهو شاب، كما ذكرهم ومدحهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدى﴾ (الكهف: ١٣)، وكما قال: ﴿قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٠)، وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ﴾ (الكهف: ٦٠)، واعلم بأنَّ كلّ نبيّ بعثه الله فأوَّل من كذَّبه مشايخ قومه.

مراتب إخوان الصفا النفسية:

واعلم أنَّ قوَّة نفوس إخوان الصفا علىٰ أربعة مراتب:

الأُولىٰ: صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصوّر، وهي مرتبة أرباب ذوي الصناعات في مدينتنا التي ذُكِرَت في الرسالة

الثانية، وهو القوَّة العاقلة المميّزة لمعاني المحسوسات الواردة علىٰ القوَّة الناطقة بعد خمسة عشر سنة من مولد الجسد.

الثانية: هي مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، وهي مراعاة الإخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض والشفقة والرحمة، وهي القوَّة الحكيمة الواردة علىٰ القوَّة العاقلة بعد ثلاثين سنة من مولد الجسد، وهم الذين نسمّيهم الأخيار والفضلاء.

الثالثة: فوق هذه وهي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه، وهي القوَّة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة، وهم الذين نسمّيهم إخواننا الفضلاء الكرام.

الرابعة: فوق هذه وهي التي ندعو إخواننا كلّهم في أيّ مرتبة كانت، وهي التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحقّ عياناً، وهي قوَّة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد، وهي الممهّدة للمعاد والمفارقة للهيولىٰ، وعليها تنزل قوَّة المعراج وبها تصعد إلىٰ ملكوت السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز علىٰ الصراط، والنجاة من النيران ومجاورة الرحمن، وإليها أشار فيثاغورس في الرسالة الذهبية في آخرها: (إنَّك إذا فعلت ما أُوصيك، عند مفارقة الجسد تبقىٰ في الهواء غير عائد إلىٰ الإنسية ولا قابل للموت).

واعلم أنَّ المطلوب من المدعوّين إلىٰ هذا الأمر أربعة أحوال:

أوَّلها: الإقرار بحقيقة هذا الأمر.

ثانيها: التصوّر لهذا الأمر بضروب الأمثال بالوضوح والبيان.

ثالثها: التصديق له بالضمير والاعتقاد.

رابعها: التحقيق له بالاجتهاد في الأعمال المشاكلة لهذا الأمر.

الفلسفة الأخلاقية في نظر إخوان الصفا:

وقد اعتمدنا في تلخيصها علىٰ الرسالتين الرابعة والتاسعة من الجزء الأوّل، والثانية من الجزء الثاني، والسادسة من الجزء الثالث:

تكلَّم إخوان الصفا في الرسالة الرابعة من الرياضيات في علم الموسيقي وأثره في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، وقد صرَّحوا بأن ليس غرضهم في هذه الرسالة تعليم الغناء وصنعة الملاهي، بل غرضهم معرفة النسب وكيفية التأليف اللّذين بهما وبمعرفتهما يكون الحذق في الصنائع كلّها.

وإنَّ من الأصوات والألحان والنغمات ما له في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصنّاع في الهيوليّات الموضوعات في صناعاتهم، فمن تلك النغمات والأصوات ما يحرِّك النفوس نحو الأعمال الشاقّة وينشّطها ويقوّي عزماتها، وهي الألحان المشجّعة التي تستعمل في الحروب، ولاسيّما إذا غنّىٰ معها بأبيات موزونة، ومن الأبيات الموزونة أيضاً ما يثير الأحقاد الكامنة ويحرّك النفوس الساكنة، فمن أجل هذا كانت الألحان والموسيقي تستعمل عند كلّ الأُمم في الحزن والسرور، وتارة في بيوت العبادة والأسواق وعند الراحة والتعب، ويستعملها الرجال والنساء والعلماء، ويستعملها الجمّالون للحداء في الأسفار والصيّاد عند صيد الدرّاج والقطا.

وإنَّ الأصوات نوعان: حيوانية، وغير حيوانية، كصوت الحمير والحديد والرعد والطبل والمزامير والأصوات الحادّة والغليظة متضادّة، ولكن إذا كانت علىٰ نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت وصارت لحناً موزوناً واستلذتها المسامع، وأنَّ الحكماء قد صنعوا آلاف وأدوات كثيرة لنغمات الموسيقي.

واعلم بأنَّه إن لم يكن لحركات أشخاص الأفلاك أصوات ولا نغمات لم يكن لأهلها فائدة في القوَّة السامعة، ويوجد في طباع الصبيان اشتياق إلىٰ أحوال الآباء والأُمَّهات، وفي طباع التلامذة والمتعلِّمين اشتياق إلىٰ أحوال الأساتذة والمعلِّمين، وفي طباع العامّة اشتياق إلىٰ أحوال البلوغ، وفي طباع العقلاء اشتياق إلىٰ أحوال الملائكة وتشبّه بهم كما ذُكِرَ في حدِّ الفلسفة إنَّها التشبّه بالإله بحسب طاقة الإنسانية.

ويقال: إنَّ فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك والكواكب، فاستخرج بجودة فكرة أُصول الموسيقي ونغمات الألحان.

ثمّ اعلم أنَّ غرض الأنبياء في وضعهم الشرائع هو صلاح الدين والدنيا، وغرضهم الأقصىٰ نجاة النفوس من محن الدنيا وشقاوة أهلها.

واعلم بأنَّ تأثيرات نغمات الموسيقار في نفوس المستمعين مختلفة الأنواع، ولذَّة النفوس منها وسرورها بها تكون بحسب مراتبها في المعارف وبحسب معشوقاتها المألوفة من المحاسن.

واعلم أنَّ أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربع جهات:

الأُولىٰ: من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها.

الثانية: من جهة ترب بلدانهم واختلاف أهويتها.

الثالثة: من جهة نشوئهم علىٰ ديانات آبائهم ومعلّميهم وأساتذتهم ومن يربّيهم ويؤدّبهم.

الرابعة: من جهة موجبات أحكام النجوم في أُصول مواليدهم ومساقط نطفهم.

واعلم أنَّ مراتب النفوس ثلاثة أنواع: فمنها مرتبة الأنفس الإنسانية، ومنها ما هي فوقها، ومنها ما هي دونها.

فالتي هي دونها سبع مراتب، والتي فوقها سبع أيضاً، وجملتها خمس عشرة مرتبة، والمعلوم من هذه المراتب خمس: منها اثنتان فوق رتبة الإنسانية، وهي رتبة الملكية والقدسية، ورتبة الملكية هي رتبة الحكمية، ورتبة القدسية هي رتبة النبوَّة الناموسية، واثنتان دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية.

وإنَّ من الأخلاق والقوىٰ ما هو منسوب إلىٰ النفس النباتية الشهوانية، وما هو منسوب إلىٰ النفس الحيوانية الغضبية، ومنها ما هو منسوب إلىٰ النفس الإنسانية الناطقية، ومنها ما هو منسوب إلىٰ النفس العاقلة الحكمية، ومنها ما هو منسوب إلىٰ النفس الناموسية الملكية.

ثمّ تدرَّج إخوان الصفاء من هذه الفصول إلىٰ نظرية كون العالم إنسان كبير، وكون الإنسان عالم صغير، وهي النظرية التي قال بها بعض الفلاسفة اليونان، وأشار إليها ابن سينا في قوله: (إنَّ الإنسان انطوىٰ فيه العالم الأكبر)، واتَّخذها سبنسر أساساً لبحثه في علم الاجتماع.

فقالوا في بيان معرفة قول الحكماء: (إنَّ العالم إنسان كبير): إنَّهم يعنون بالعالم السماوات والأرضين وما بينهما من الخلائق أجمعين، وإنَّهم يرونه جسماً واحداً بجميع أفلاكه وأطباق سماواته وأركان أُمَّهاته ومولداتها.

ويــرون أيضــاً أنَّ لــه نفســاً واحــدة ســارية قواهــا في جميــع أجــزاء جسمها كسريان نفس الإنسان الواحد في جميع أجزاء جسده.

وقــد حــاول إخــوان الصــفاء في الرســالة الثانيــة مــن الجــزء الثــاني الموســومة بـــ (الســماء والعــالم) في تهــذيب الــنفس وإصــلاح الأخــلاق أن يذكروا صــورة العــالم ويصــفوا كيفيــة تركيــب جســمه كــما وُصِــفَ في كتــاب التشريح ترتيب جسد الإنسان.

ثمّ وصفوا في رسالة أُخرىٰ ماهيــة نفــس العــالم وكيفيــة سريــان قواهــا في الأجســام التــي في العــالم مــن أعــلا الفلــك المحــيط إلىٰ منتهــىٰ مركــز الأرض، ثــمّ بيَّنــوا فنــون حركاتهــا وإظهــار أفعالهــا في أجســام العــالم بعضــها في بعــض، وقــد أتــوا في ذلــك بتمثيــل بــين حركــات الأفــلاك حــول الأرض كاختلاف دور الطائفين حول البيت الحرام[١].

وشرحــوا معنــىٰ القيامــة بأنّــه إذا فارقــت الــنفس الجســد قامــت قيامتهــا، قــال محمّــد ﷺ: «مــن مــات فقــد قامــت قيامتــه»[٢]، إنّــما أراد قيــام النفس لا الجســد، لأن الجســد لا يقــوم عنــد المــوت بــل يقــع وقوعــاً لا يقــوم بعده.

وقــالوا: إنَّ الــنفس إذا فارقــت هــذا الهيكــل فلــيس يبقــىٰ معهــا ولا يصــحبها مــن آثــار هــذا الجســد إلَّا مــا اســتفادت مــن المعــارف الربّانيــة والأخــلاق الجميلــة، فــإذا رأت تلــك الصــورة فرحــت بهــا وذلــك ثوابهــا ونعيمها.

وجعلوا الرســالة السادســة مــن الجــزء الثالــث مقصــورة علىٰ البحــث

---

(١) راجع: رسائل إخوان الصفا ٢: ٣٩.

(٢) بحار الأنوار ٥٨: ٧.

في ماهية العشق ومحبَّة النفوس، والمرض الإلهي، وكثير من الحكماء وصفوا أعراض هذا المرض ممَّا يعرض للعشّاق من سهر الليل ونحول الجسم وغور العيون وتواتر النبض والأنفاس الصعداء، وقالوا: إنَّه جنون إلهي، والأطبّاء يسمّونه (ماليخوليا)، وقال بعضهم: (العشق هو شدَّة الشوق إلىٰ الاتّحاد) ولهذا أيّ حال يكون عليها العاشق يتمنّىٰ حالاً أُخرىٰ أقرب منها، ولهذا قال الشاعر:

أعانتها والنفس بعد مَشوقة   إليها وهل بعد العناق تداني

وألثم فاهاً كي تزول صبابتي   فيزداد ما ألقىٰ من الهَيماني

كأنَّ فؤادي ليس يشفىٰ غليله   سوىٰ أن ترىٰ الزوجين يمتزجاني

إنَّ كثيراً من الناس يظنّون أنَّ العشق لا يكون إلَّا لأشياء الحسنة حسب، وليس الأمر كما ظنّوا فقد قيل: (يا رُبَّ مستحسن ما ليس بالحسن)، ولكن العلَّة في ذلك هي الاتّفاقات التي بين العاشق والمعشوق وهي كثيرة، منها: المناسبات بين كلّ حاسّة ومحسوساتها.

ثمّ اعلم أنَّه من ابتلىٰ بعشق شخص من الأشخاص ومرَّت به تلك المحن والأهوال، وعرضت له تلك الأحوال، ثمّ لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها فيتسلّىٰ ويفيق، أُونس وابتلىٰ من بعد بعشق ثانٍ لشخص آخر فإنَّ نفسه نفس غريقة في عمائها، سكرىٰ في جهالتها.

والفرق بين الخاصّة والعامّة أنَّ العامّة إذا رأت مصنوعاً حسناً أو شخصاً مزيَّناً تشوَّقت نفوسهم إلىٰ النظر إليه والقرب منه والتأمّل فيه، وأمَّا الخواصّ فتتشوَّق نفوسهم إلىٰ الصانع الحكيم والمبدع العليم والمصوّر الرحيم.

* * *

(١٢)
أبو زيد أحمد بن سهل البلخي[1]

عن كتاب فلاسفة الشيعة (ص ١٠٣): كثير أُولئك الذين جهلهم الناس، ولم يعرفوا من أُمورهم إلَّا الشيء القليل، والذين حرموا من عناية المؤرِّخين بآثارهم وآرائهم وسيرتهم، وما أكثر هؤلاء من مفكّرين وعلماء وفلاسفة، الذين أُهملوا ولم يعن أحد بدراستهم، وإزاحة هذا الركام الجاثم عليهم منذ زمن طويل، وإخراجهم للأجيال بآثارهم المعشبة، وشخصياتهم العلمية المثيرة، وأبو زيد أحمد بن سهل البلخي من هذا النفر المحروم، الذي شملت ثقافتهم معظم الجوانب الثقافية، التي كان يتَّجه إليها العلماء والمفكّرون بالعناية والاهتمام في ذلك العهد.

وهو من هذا النفر القليل ذوي الدراسة الشاملة في عمق وتفهّم وتمحيص، الذين برعوا في ذلك، واستحقّوا الإكبار والتقدير، لما أعطوه من مدد علمي وفكري، وإنتاج خصيب في نواحي المعرفة الإنسانية.

ونحن لا نكاد نقرأ ما كتبه العلماء والأُدباء عن أبي زيد البلخي إلَّا ويتمثَّل أمامنا عقل كبير، يفجّر طاقاته في تمحيص الحقيقة في شغف ومرونة، قلَّما تجد ذلك في غيره من عقول.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ١٠٣؛ معجم أُدباء الأطبّاء ١: ٣٥؛ أعيان الشيعة ١٠: ٣٩٦؛ معجم الأُدباء ٣: ٦٤؛ موسوعة أعلام الفلسفة ١: ٢٤١؛ الأعلام ١: ١٣٤؛ معجم المؤلِّفين ١: ٢٤٠.

فقد كان من أعلام الفكر والمعرفة، ومن الشخصيات الكبيرة في الفلسفة والرياضيات، والمعارف القديمة والحديثة الإسلاميّة من أدب وشعر وتفسير وتشريع وغيرها.

وهو بعد من فلاسفة الإسلام الذين تأثَّروا بآراء أرسطو، ومن الذين فسَّروا وترجموا كتب الحكمة من اليونانية إلىٰ العربية، أمثال يعقوب بن إسحاق الكندي، وأبي سليمان محمّد بن معشر المقدسي، وثابت بن قرة الحرّاني، وأبي نصر الفارابي.

ويصفه ياقوت في (معجم الأُدباء) بقوله: (... كان فاضلاً قائماً بجميع العلوم القديمة والحديثة، يسلك في مصنَّفاته طريقة الفلاسفة، إلَّا أنَّه بأهل الأدب أشبه)[1].

ويقول تلميذه أبو الحسن الوزيري: (... سمعت بعض أهل الأدب يقول: اتَّفق أهل صناعة الكلام، أنَّ متكلِّمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة الثقفي، وأبو زيد البلخي، فمنهم من يزيد لفظه علىٰ معناه، وهو الجاحظ، ومنهم من يزيد معناه علىٰ لفظه، وهو علي بن عبيدة، ومنهم من توافق لفظه ومعناه، وهو أبو زيد...).

ويقول عنه أبو حيّان التوحيدي في كتابه (النظائر): (أبو زيد البلخي يقال له بالعراق: جاحظ خراسان).

ونجد أبا حيّان التوحيدي، وهو من هو في تفكيره وأدبه ومنهجيته المعروفة يطريه كثيراً، فيقول عنه في كتابه (تقريظ الجاحظ): (... والذي اعتقده في جميع من تقدَّم وتأخَّر، لو اجتمع الثقلان علىٰ مدح الجاحظ وأبي حنيفة الدينوري وأبو زيد البلخي، ونشر فضائلهم

---

(١) معجم الأُدباء ٣: ٦٤/ الرقم ١٩.

وعلمهم ومصنَّفاتهم مدىٰ الزمان، لما بلغوا آخر ما يستحقّه كلّ واحد منهم..، وأمَّا أبو زيد فإنَّه لم يتقدَّم له شبيه، ولا يظنّ أنَّه يوجد له نظير في مستأنف الدهر، ومن تصفَّح كلامه في كتابه أقسام العلوم، وكتاب اختلاف الأُمم، وكتاب نظم القرآن، وكتاب أخبار النبيّين، وكتاب البدء والمئآل، وفي رسائله إلىٰ إخوانه وجوابه عمَّا سُئِلَ عنه، علم أنَّه خزانة بحر الوجود، وحين جمع بين الحكمة والشريعة، وما رؤي في الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه).

ويمثّل أبو زيد البلخي _ دون شكّ _ الفكر الحرّ ممَّا هو جدير بالتقدير من غير سرف أو تطرّف.

ويقارن المستشرق آدم متز بينه وبين الجاحظ فيقول: (... والجاحظ يشبه فوليتر، أمَّا أبو زيد وقد توفّي عام (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وقد جاوز الثمانين، فقد كان أثبت وأكثر اتّزاناً، وهو يشبه الإسكندر (همبولت) بين دعاة الفكر الحرّ في القرن التاسع عشر، وقد جمع إلىٰ دراسة الفلسفة دراسة التنجيم والطبّ والجغرافيا وعلوم الطبيعة، وألَّف كتاباً سمّاه نظم القرآن، تكلَّم فيه بكلام لطيف، وكان يتنزَّه عن التأويل البعيد للقرآن، وكان الحسين بن علي المروزي يجري عليه صلات دائمة، فلمَّا أملىٰ كتابه في البحث عن التأويلات قطعها عنه. وكان الجيهاني يجري عليه صلات أيضاً، فلمَّا أملىٰ كتاب القرابين والذبائح حرمه إيّاها، وكان الحسين قرمطياً والجيهاني ثنوياً)[1].

ولد أبو زيد بناحية شامستيان من نواحي بلخ، وكان والده من أهل سجستان، وتوفّي عن سبع أو ثمان وثمانين سنة عام (٣٢٢هـ).

---

(١) الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع ١: ٣٥٨.

وكان في ابتداء أمره معلِّماً للصبيان، ثمّ دعته نفسه إلىٰ أن يسافر ويدخل أرض العراق، ويجثو بين أيدي العلماء ويقتبس منهم العلوم، فتوجَّه إليها راجلاً مع الحاجّ، وأقام بها ثماني سنوات، وجازها، فطوَّف البلدان المتاخمة لها، ولقي الكبار والأعيان، وتتلمذ علىٰ أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم والطبّ وعلوم الطبيعة، وتعمَّق في علم الفلسفة، وهجم علىٰ أسرار علم التنجيم والهيأة، وبرز في علم الطبّ والطبائع، وبحث عن أُصول الدين أتمّ بحث وأبعد استقصاء، وجاب البلاد شرقاً وغرباً، ثمّ رجع إلىٰ بلده بلخ عن طريق هراة وسكن سمرقند، وروىٰ الحديث عن محمّد بن المفضَّل البلخي ومحمّد بن أسلم.

وعرفنا من تلاميذه أبا بكر محمّد بن زكريا الرازي الفيلسوف والطبيب المعروف، فقد قال الرازي عن نفسه إنَّه درس الفلسفة علىٰ البلخي.

ويبدو أنَّ أبا زيد هو المقصود بقرينة تعاصرهما، وأنَّ الرازي ألَّف رسالة في العلَّة التي من أجلها يعرض الزكام لأبي زيد البلخي في فصل الربيع عند شمّه الورد، ولاسيّما أنَّ ابن النديم وصف البلخي الذي قرأ عليه الرازي الفلسفة بقوله: (يطوف البلاد ويجول الأرض)[1] ممَّا ينطبق تماماً علىٰ أبي زيد.

ومن تلاميذه أبو الحسن محمّد بن يوسف العامري الفيلسوف، الذي تفلسف بخراسان، وقرأ علىٰ أبي زيد البلخي، وقصد بغداد، وتصدَّر بها، ولم يرضه أخلاق أهلها، وعاد وهو فيلسوف تامّ، شرح كتب أرسطو، وله كتاب (الأمد علىٰ الأبد).

---

(١) فهرست ابن النديم: ٣٥٧.

ومن تلاميذه أبو محمّد الحسن بن محمّد الوزيري الذي تلمَّذ لأبي زيد واختلف إليه وقرأ عليه بعض رسائله، ووضع كتاباً في أخبار أُستاذه أبي زيد البلخي.

ويظهر من كتاب سُلَّم الوصول (ج ١/ ص ٨٦) أنَّه توفّي عام (٣٤٠هـ).

وكان أبو زيد كما وصفه تلميذه الوزيري: ربعة نحيفاً مصفاراً، أسمر اللون، جاحظ العينين، وبوجهه آثار جدري، صموتاً سكيناً ذا وقار وهيبة...، وأنَّه كان قويم المذهب حسن الاعتقاد، وقد أُريد علىٰ الوزارة فأبىٰ.

ومن المؤكَّد أنَّ أبا زيد البلخي كان من رجال الشيعة المعروفين، وقد نصَّ علىٰ ذلك الطهراني في كتابه (الذريعة)[1].

وهناك عدَّة قرائن تؤيّد ذلك:

أوَّلاً: إنَّ والده من أهل سجستان الذين لم يقدموا علىٰ سبّ أمير المؤمنين علي عليه السلام، مع قيام غيرهم بهذه المهمّة حتَّىٰ سكّان الحرمين، بل شرطوا عدم السبّ في عهدهم مع الأُمويّين.

ثانياً: إنَّه تتلمذ علىٰ الفيلسوف الكندي وأخذ عنه الفلسفة والنجوم والطبّ والطبائع وغيرها، ومن الراجح أنَّ الكندي كان شيعي المذهب، ومن الغريب في العادة أن لا يتأثَّر التلميذ بأُستاذه.

ثالثاً: إنَّ ياقوت يقول في (المعجم)[2] في أواخر ترجمة أبي زيد

---

(١) راجع: رسائل إخوان الصفا ٢: ٢٦.

(٢) معجم الأُدباء: ٨٤ - ٨٦.

البلخي عن المرزباني: إنَّ أبا زيد البلخي رثىٰ الحسن بن الحسين العلوي، ومن ذلك قوله:

إنَّ المنيَّة رامتنا بأسهمها	فأوقعت سهمها المسموم بالحسن
أبو محمّد الأعلىٰ فغادره	تحت الصفيح مع الأموات في قرن
يا قبر إنَّ الذي ضمِنتَ جثَّته	من عصبة سادة ليسوا ذوي أفن
محمّد وعلي ثمّ زوجته	ثمّ الحسين ابنه والمرتضىٰ الحسن
صلّىٰ الإله عليهم والملائكة الـ	ـمقرَّبون طوال الدهر والزمن

وقال ياقوت بعد أن نقل هذا عن المرزباني: (ولا أدري أيريد صاحبنا أم غيره؟ ولكن يظهر أنَّ المقصود بأبي زيد البلخي الراثي هو أبو زيد صاحبنا دون سواه، إذ ليس سواه معروفاً بهذه الكنية عند الإطلاق).

رابعاً: نقل ياقوت في (المعجم) قول الوزيري تلميذ البلخي وهو يصفه: (فتارة كان يطلب الإمام، ومرَّة كان يسند الأمر إلىٰ النجوم والأحكام).

ومن الطريف أنَّ المعلِّق علىٰ المعجم يعلِّق علىٰ قوله: (يطلب الإمام) بقوله: (علىٰ طريقة الشيعة الذين ينتظرون الإمام وهم الاثنا عشرية، ويسمّونه المهدي).

ويحدِّث أبو الحسن الحديثي الذي وضع كتاباً في أخبار أبي زيد قال: (... أذكر إذ كنّا عنده (يعني أبي بكر البكري الدمشقي) وقد قُدِّمَت المائدة، وأبو زيد يُصلّي وكان حسن الصلاة، فضجر البكري من طول صلاته، فالتفت إلىٰ رجل من أهل العلم يقال له: أبو محمّد الخجندي، فقال: يا أبا محمّد ريح الإمامة لا زال بعد في رأس أبي زيد، فخفَّف أبو زيد صلاته وهما يضحكان، قال أبو الحسن الحديثي: فلم

أدرك ذلك حتَّىٰ سألت لا أدري الخجندي أو أبا بكر الدمشقي فقال أحدهما: اعلم أنَّ أبا زيد في أوَّل أمره كان خرج في طلب الإمامة إلىٰ العراق، إذ كان تقلَّد مذهب الإمامة، فعيَّره البكري بذلك).

خامساً: جاء في وصف تلميذه الوزيري له أنَّه: كان ضابطاً لنفسه، ذا وقار وحسن استبصار، قويم اللسان، جميل البيان، متثبّتاً، نزر الشعر، قليل البديهة، واسع الكلام في الرسائل والتأليفات، إذا أخذ في الكلام أمطر اللآلي المنثورة، وكان قليل المناظرة حسن العبارة، وكان يتنزَّه عمَّا يقال في القرآن إلَّا الظاهر المستفيض من التفسير والتأويل والمشكل من الأقاويل، وكان أيضاً يتحرَّج عن تفضيل الصحابة بعضهم علىٰ بعض، وكذلك عن مفاخرة العرب والعجم، ويقول: ليس في هذه المناظرات الثلاث ما يجدي طائلاً ولا يتضمَّن حاصلاً؛ لأنَّ الله تعالىٰ يقول في معنىٰ القرآن: ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨)، وأمَّا معنىٰ الصحابة وتفضيل بعضهم علىٰ بعض قوله عليه السلام: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[١]، وكذلك العربي والشعوب فإنَّه سبحانه يقول: ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، ويقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

يدلُّ هذا كلّه علىٰ أنَّه كان متَّهماً بالتشيّع، يفضِّل بعض الصحابة علىٰ بعض، ويقول في القرآن إنَّه حادث أحدثه الله، ويفهم من قوله: (إنَّه كان ضابطاً لنفسه قليل المناظرة) أنَّه كان يلزم جانب الاتّزان، معتدلاً في تشيّعه غير متطرّف.

---

(١) عمدة القاري ١٠: ٢٠٢.

ومع كلّ ما اتَّصف به أبو زيد من شخصية علمية وفكرية، ومن اتّزان واستبصار، لم يسلم من تهم توجَّه إليه، فقد قال ابن النديم في الفهرست: (إنَّ أبا زيد كان يُرمىٰ بالإلحاد).

وما أدري مبلغ هذه التهمة من الصحَّة، ولعلَّه اتّهم بالإلحاد من جهة تشيّعه، كما مُنِيَ بذلك كثير من رجالات الشيعة، تبريراً لما يصبه عليهم الحكّام من نقمة وعدوان، ومن الممكن أن يكون هذا الإلحاد الذي رُمِيَ به أبو زيد إلحاداً سياسياً لا عقائدياً.

أمَّا آراء البلخي الفلسفية فما نزال منها فيما يشبه الظلام، وليس لدينا صورة عنها حتَّىٰ ولو إجمالاً، لأنَّ كتبه التي ضمَّنها آراءه قد طواها الزمن فيما طوىٰ من آثار العلماء والعظماء.

علىٰ أنَّه يُنسَب بعض آراء في التفسير إلىٰ البلخي، والظاهر أنَّه هو المقصود دون سواه، إذ أصبح علماً علىٰ أبي زيد لدىٰ المؤلِّفين والباحثين.

مؤلَّفاته وآثاره:

وقد وضع أبو زيد البلخي كتباً كثيرة، في الفلسفة والعلوم الطبيعية والطبّ والفلك والنجوم والقرآن والأدب والشعر والتاريخ والسياسة والدين، ومن ذلك:

١ _ كتاب أقسام العلوم.

٢ _ كتاب شرائع الأديان.

٣ _ كتاب اختيارات السير.

٤ _ السياسة الكبير.

٥ _ السياسة الصغير.

٦ _ إكمال الدين، وصفه أبو الحسن الحديثي بأنَّه ما صُنِّفَ في الإسلام كتاب أنفع للمسلمين منه.

٧ _ فضل صناعة الكتابة.

٨ _ مصالح الأبدان والأنفس، يُعرَف بالمقالتين.

٩ _ أسماء الله وصفاته.

١٠ _ كتاب صناعة الشعر.

١١ _ فضيلة علم الأخبار.

١٢ _ الأسماء والكنىٰ والألقاب.

١٣ _ أسماء الأشياء.

١٤ _ النحو والتصريف.

١٥ _ الصورة والمصدر.

١٦ _ رسالة في حدود الفلسفة.

١٧ _ كتاب ما يصحُّ من أحكام النجوم.

١٨ _ الردّ علىٰ عبدة الأوثان.

١٩ _ فضلة علوم الرياضيات.

٢٠ _ كتاب في أقسام علوم الفلسفة.

٢١ _ كتاب القرابين والذبائح.

٢٢ _ كتاب عصمة الأنبياء.

٢٣ _ نظم القرآن، وصفه الوزيري بأنَّه لا يفوقه في هذا الباب تأليف، وكذا أطراه أبو حيّان التوحيدي.

٢٤ _ قوارع القرآن.

٢٥ _ كتاب الفتّاك والنسّاك.

٢٦ _ كتاب ما أُغلق من غريب القرآن.

٢٧ _ كتاب في أنَّ سورة الحمد تنوب عن جميع القرآن.

٢٨ _ أجوبة أبي القاسم الكعبي.

٢٩ _ النوادر في فنون شتّىٰ.

٣٠ _ أجوبة أهل فارس.

٣١ _ صور الأقاليم، وهو الذي كان أكبر مصدر رجع إليه الاصطخري وربَّما كان المقصود به الخريطة الجغرافية التي مثَّل بها الأقاليم وحدودها وخطَّطها، والتي وضع المقدسي خريطته الجغرافية علىٰ منوالها.

قال المقدسي: (إنَّه بيَّن فيها الطرق المعروفة بالحمرة، والرمال الذهبية بالصفرة، والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار بالزرقة، والجبال المشهورة بالغبرة)، ويذكر المقدسي أنَّه رأىٰ مثل هذا التصوير في كتاب البلخي المتوفّىٰ عام (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م).

٣٢ _ شرح كتاب السماء والعالم لأرسطو، شرح صدر الكتاب وأهداه لأبي جعفر الخازن.

٣٣ _ أجوبة أبي علي بن محتاج.

٣٤ _ أجوبة أبي إسحاق المؤدّب.

٣٥ _ المصادر.

٣٦ _ أجوبة أبي الفضل السكوي.

٣٧ _ فضائل مكّة علىٰ سائر البقاع.

٣٨ _ الشطرنج.

٣٩ _ جواب رسالة أبي علي ابن المنير الزيادي.

٤٠ _ منية الكتّاب.

٤١ _ البحث عن التأويلات، كبير.

٤٢ _ رسالته في مدح الوراثة.

٤٣ _ كتاب الوصيّة.

٤٤ _ صفات الأُمم.

٤٥ _ كتاب القرود.

٤٦ _ فضل الملك.

٤٧ _ المختصر في اللغة.

٤٨ _ صولجان الكتبة.

٤٩ _ أدب السلطان والرعيّة.

٥٠ _ فضائل بلخ.

٥١ _ تفسير الفاتحة والحروف المقطعة في أوائل السور.

٥٢ _ رسول الكتب.

٥٣ _ كتاب كتبه إلىٰ أبي بكر ابن المستنير عاتباً ومنصفاً في... الورّاقين.

٥٤ _ كتاب كتبه إلىٰ أبي المظفر في شرح ما قيل في حدود الفلسفة.

٥٥ _ كتاب أخلاق الأُمم.

٥٦ _ كتاب البدء والتاريخ، ويُنسَب أيضاً إلىٰ مطهَّر بن طاهر المقدسي، وهو ستَّة أجزاء، طُبِعَ في باريس عام (١٨٩٩م)، ولكن يؤيّد أنَّ الكتاب المذكور هو لأبي زيد البلخي وليس للمقدسي، أنَّه ورد ذكره في كلام أبي حيّان التوحيدي عند وصفه زيد باسم (كتاب البدء والمآل)، وإن كان يحتمل أن يكون هذا كتاباً آخر موافقاً له بالاسم.

* * *

(١٣)

أبو تمام يوسف بن محمّد النيسابوري[1]

في كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٦١٣): من فلاسفة القرن الرابع الهجري، وقد عدَّه الشهرستاني في فلاسفة الإسلام المتأخّرين، أمثال يعقوب الكندي، وثابت بن قرة، وأحمد بن الطيّب، وأبي زيد البلخي، والفارابي، وابن سينا، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ أبا تمام النيسابوري كان من روّاد الفلسفة والعلم، ومن المفكّرين البارزين في عصره.

ولا نعرف عنه شيئاً مع كثرة البحث عنه، إلَّا ما يحدِّثنا عنه أبو حيّان التوحيدي في كتابه ممَّا يظهر منه أنَّه كان من فلاسفة الشيعة بالرغم من الحملة العنيفة التي شنَّها عليه أبو حيّان وطعنه عليه ورميه بالزندقة والإلحاد وسوىٰ ذلك ممَّا اعتدنا أن نجده في كلام أبي حيّان وسواه.

قال أبو حيّان فيه: (وهو ممَّن حاول الكيد للشريعة بذهابه إلىٰ أنَّ الفلسفة مقاودة للشريعة، والشريعة مشاكلة للفلسفة، وأنَّ إحداهما أُمّ والأُخرىٰ ظئر. وقد رام نشر ذلك ودعوة الناس إليه، وقد خدم الطائفة المعروفة بالشيعة، ولجأ إلىٰ مطرف بن محمّد وزير مرداويج الجيلي، ليكون له به قوَّة، وينطق بما في نفسه من هذه الجملة، فما زادته إلَّا صغراً في قدره، ومهانةً في نفسه، وتوارياً في بيته.

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٦١٣؛ الملل والنحل ٢: ١٥٨.

ومع ذلك يناغي برأيه صاحب كلّ بدعة، ويجلس إليه كلّ متَّهم، ويلقي كلامه إلىٰ كلّ من ادَّعىٰ باطناً للظاهر، وظاهراً للباطن، وما عندي أنَّ من أخذوا عنهم كأرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون رهط الكفر ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنَّما هذا من نسج القدّاحين في الإسلام، والساترين علىٰ أنفسهم ما هم فيه من التهم.

وهذا بعينه دبَّره الهجريون بالأمس، وبهذا دندن الناجمون بقزوين، وبثّوا الدعاة في أطراف الأرض، وبذلوا الرغائب وفتنوا النفوس.

وكان له كشيعته تأويلات لآيات القرآن لا تتَّصل بالشريعة، والناس لم يخفَ عليهم أمرهم، فالناس أنقذ لأديانهم وأحرص علىٰ الظفر ببغيتهم من الصيارفة لدنانيرهم ودراهمهم).

ويبدو من كلام التوحيدي أنَّ النيسابوري من الإسماعيلية، فقد ذكر أنَّ آراءه من نسج القدّاحين، ويعني بهم أتباع عبد الله بن ميمون القدّاح، ولكن علىٰ أيّ حال ليس لنا وثوق بآراء التوحيدي حول عقيدة النيسابوري، والتوحيدي متَّهم في أكثر ما يقوله، وخاصّة فيما يتَّصل بالقضايا المذهبية.

وقد عُرِفَ التوحيدي بالوضع واختلاق الأكاذيب، وهو الذي وضع الرسائل المتبادلة بين عمر وبين علي عليه السلام، وقد أشار إلىٰ ذلك ابن أبي الحديد في شرحه علىٰ نهج البلاغة[1].

ولكن الشيء المؤكَّد أنَّ النيسابوري كان شيعياً، وليس لدينا ما يبت أنَّه كان قرمطياً أو إسماعيلياً، كما يلوّح بذلك أبو حيّان التوحيدي،

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ٢٨٥.

كما أنَّه ليس هناك ما يثبت كونه إمامياً، وهو لا يزال بحاجة إلىٰ تنقيب وبحث، لجلاء حقيقته وبيان مذهبه، ومن الله تعالىٰ نستمدّ العون والتوفيق وهو حسبنا.

* * *

(١٤)

الحسن بن أحمد الهمداني اليماني الصنعاني[1]

عن كتاب فلاسفة الشيعة (ص ٢٣٩): الهمداني هو أبو محمّد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني اليماني الصنعاني مولداً ومنشأ، توفّي في سجن صنعاء في سنة (٣٣٤هـ)، ويُعرَف بـ (ابن الحائك).

برز بالفلسفة والرياضيات والطبيعيات والفلك والنجوم، وفي علوم العرب من الأدب والشعر والتاريخ والنحو وضروب أُخرىٰ.

وأطراه السيوطي بقوله: (الأوحد في عصره، الفاضل علىٰ من سبقه، المبرز علىٰ من لحقه، لم يولد لليمن مثله علماً وفهماً، ولساناً وشعراً، ودرايةً وفكراً، وإحاطةً بعلوم العرب من النحو واللغة والشعر، والأيّام والأنساب، والسير والمثالب والمناقب، مع علوم العجم من النجوم والمساحة والهندسة والفلك)، كما ذكر في تأسيس الشيعة (ص ١٠٨) نقلاً عن السيوطي.

ويقول القِفطي عنه: (هذا الرجل أفضل من ظهر ببلاد اليمن).

---

(١) فلاسفة الشيعة: ٢٣٩؛ معجم أُدباء الأطبّاء ١: ١٠٦؛ تأسيس الشيعة: ١٠٨؛ طبقات الأُمم: ٧٦؛ إخبار العلماء: ١١٣؛ أعيان الشيعة ٢١: ٥٢؛ معجم الأُدباء ٧: ٢٣٠؛ معجم أعلام المورد: ٤٧٦؛ معجم المؤلِّفين ٣: ٢٠٤، ويُنظَر مقدّمة كتابه الإكليل.

اشتهر الهمداني بكتابه (الإكليل) الذي وضعه في أنساب حمير وأيّام ملوكها. وهو _ كما يقول القِفطي وغيره _ كتاب عظيم الفائدة، يشتمل علىٰ عشرة فنون، وفي أثناء الكتاب جمل حسان من حساب القرانات وأوقاتها، ونبذ من علم الطبعة، وأُصول أحكام النجوم وآراء الأوائل في قِدَم العالم وحدوثه، واختلافهم في أدواره، وفي تناسل الناس ومقادير أعمارهم.

وكتابه هذا عظيم الأهمّية لم يوجد منه إلَّا قطعة نشرها المستشرق مولر، وفيها وصف أبنية اليمن وآثار ملوكها كما كانت في أيّامه.

واشتهر أيضاً بكتابه (صفة جزيرة العرب) الذي اعتمد عليه المؤرِّخون المحدِّثون، الذين أرَّخوا للعرب قبل الإسلام، ومنهم جرجي زيدان في كتابه (العرب قبل الإسلام).

فقد وصف الهمداني في كتابه المذكور الجزيرة العربية كما كانت في أيّامه وصف عالم محقّق، لم يغادر شاردة ولا واردة. وقد طُبِعَ هذا الكتاب في ليون عام (١٨٨٤م).

وهو يصف فيه قصور اليمن وسدودها، وخاصّة (مأرب) وسدّها وصف عالم خبير.

ويُعَدُّ كتاب الهمداني (صفة جزيرة العرب) من أهمّ المصادر التي رجع إليها جرجي زيدان في وضع كتابه (العرب قبل الإسلام) في بحثه عن الحميريين وعن سدّ (مأرب).

ويصف الهمداني قصر (ناعط) وصفاً رائعاً دقيقاً، ثمّ يصف ما شاهده فيه من التماثيل والصور في قصيدة له، يقول:

فمن كان ذا جهل بأيّام حمير وآثارهم في الأرض فليأتِ ناعطا

يجد عمداً تعلو القنا مَرمَريّة ... وكرسي رخام حولها وبلائطا

ملاحكها لا ينفذ الماء بينها ... ومبهومة مثل القراح خرائطا

علىٰ كرفٍ من تحتها وحصانع ... لها بسقوف السطح لبس وعابطا

ترىٰ كلّ تمثال عليها وصورةً ... سباعاً ووحشاً في الصفاح خلائطا

تجانب ما تنفكّ تنظر قابضاً ... لإحدىٰ يديه في الحبال وباسطا

وسرب ظباء قد نهلن لمختفٍ ... وغضفٍ ضراءٍ قد تعلقنَّ باسطا

وذا عقدة بين الجياد مواكباً ... وساميّ هاد للركاب مواخطا

كما اشتهر الهمداني بقصيدته التي نظمها في اللغة وشرحها بمجلَّد كبير، وأسمىٰ قصيدته المذكورة بـ (الدامغة).

وللهمداني زيج مشهور يُعرَف بزيج الهمداني، اعتمد عليه أهل اليمن.

وله عدا ذلك مؤلَّفات عديدة، منها:

١ _ كتاب الجوهرتين.

٢ _ كتاب الحيوان.

٣ _ كتاب الفرس.

٤ _ كتاب الأيّام.

٥ _ ديوان شعر، ستّ مجلَّدات.

٦ _ كتاب سرائر الحكمة، وغرضه التعريف بجمل علم هيأة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب، وتبيين علم أحكام النجوم واستيفاء ضروبه.

٧ _ كتاب القوىٰ.

٨ _ كتاب اليعسوب، في القسي والرمي والسهام والنصال.

وكان الهمداني قد جاور مكّة المكرَّمة وعاد فنزل صعدة وجاهىٰ شعراءها، فنسبوه إلىٰ أنَّه هجا النبيّ ﷺ فسُجِنَ.

ويقول السيّد الصدر في كتابه (تأسيس الشيعة): (وإنَّما تعصَّبوا عليه لتشيّعه)، وقد ترجمه الصدر في كتابه المذكور الذي وضعه في مؤسّس العلوم من الشيعة، كما عدَّه الطهراني في مؤلِّفي الشيعة في كتابه الذريعة وذكر أنَّ الصدر ذكره في كتابه التكملة أيضاً.

والمصادر التي لدينا لا تفي بشيء عن بيان اتّجاهاته وأفكاره، ولا عن حياته بصورة واضحة.

* * *

فهرست الموضوعات

* * *